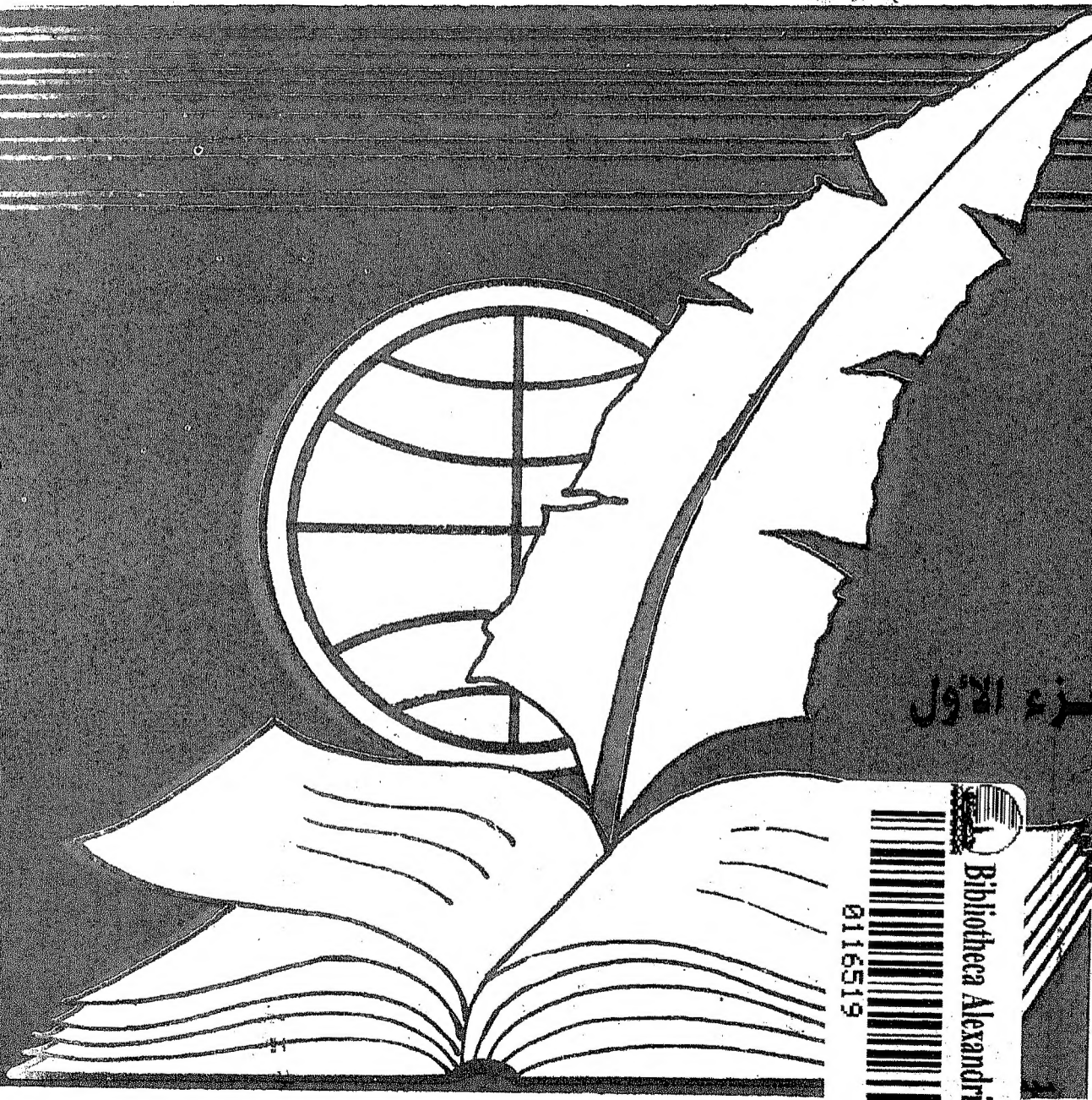
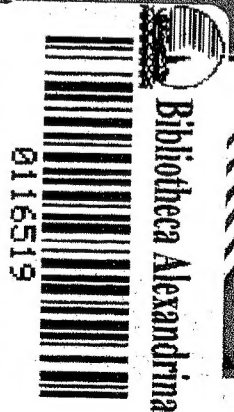


# تايخ اوردو بالحدیث



جزء الاول



دار الفكر العربی

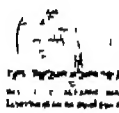
مؤلف / زینب عمت راشد



# تاريخ وروايات

من مطلع القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر

٥



تأليف

Dr. Mehdi Rahnema  
Secretary (Library)  
Ministry of Culture and Islamic Affairs

دكتور / زينب عسكري

أستاذ في قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة عين شمس

وحيدة كلية البنات الإسلامية سابقاً بجامعة الأزهر

الهيئة العامة للكتاب
٩٤٥
١٤٧
١/٩٢٩.٢٩

ملتمس الطبع والنشر  
دار الفكر العربي  
١١ شارع جوارديسي - القاهرة  
٧٥٠١٦٧-٧٦٠٥٢٣-١٣٠





## إهداء :

إلى ذكرى أستاذى الراحل ، محمد شفيق غربال ،  
فإليه يرجع الفضل في توجيهي إلى التخصص في تاريخ  
أوروبا الحديث . طيب الله ثراه . وجزاه عنى خيراً .





## مقدمة

يسعدني أن أضع بين يدي القارئ العربي هذا الموجز في تاريخ أوروبا الحديث من مطلع القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر ، راجية أن يجد فيه بسطا لأهم أحداث ذلك العهد .

وأشهد أنني أجهدت نفسي في تجنب سرد الكثير من تفاصيل الوقائع والأحداث التي يزدحم بها تاريخ أوروبا في ذلك العهد حتى لا يتعب القارئ حين يتحير بين ما في معاجات العهد من أضواء قد تحير بصره ، فلا يرى أولا يحسن الرؤية . وليس يضيرني - إن فعلت - أن أقدم للقارئ جهد المنار .

والواقع أن ذلك العهد من عهود التاريخ في أوروبا يتميز بأحداثه الجليلة ، وانطلاقاته الفكرية الرائعة الوضاعة التي بهرت الدنيا ، وأيقظت العقول ، ثم دفعها تبحث عن مصادر الخير وما يمكن أن تستخلص منها من أخلاط السعادة التي ينبغي أن يستمتع بها البشر في هذه الحياة .

وليس من شك مطلقا في أن جهود الأجيال الأوروبية في ذلك العهد قد كشفت عن كنوز التراث الإنساني الخالد ، وأضافت إليه ألوانا من المعارف والفنون مما تزعج به دور النفائس في شرق الدنيا وغربها . بحسب نهضة الفكر في مطلع هذا العهد أن يعرف الإنسان قيمة الحرية ، فيدين بها ويعشقها ويسعى إلى طلبها أيا كان ثمنها ، وكيفما كانت السبيل إليها ، فهذه شعوب أوروبا تسعى إلى تحرير قوميتها وتجعل لها قيمة حيوية تحرص عليها ، وهذه عقول الباحثين وجهودهم تظهر الشعوب على حرية العقيدة الدينية بعد ما بينت لهم ما في سيرة رجال الدين وسلوكهم من خداع وتضليل وما في سلطانهم من ظلم وطفان . وبين رجال التحرير الديني كل ذلك في

كتب نشرها على الناس بلغاتهم القومية ، روي ، هاين ، جال الدين ، وعلى رأسهم البابوات . وتبلورت جهود الأحرار وأناس من رحاب الدين في مذهب ديني جديد عرف بالبروتستنتية ، ولم يلبث أن أديع في مختلف البقاع الأوروبية والعالم الجديد برغم طغيان البابا وأعوانه . وكثر أتباعه من المستعيرين .

وفي ذلك العهد تكشف جهود الأوروبيين عن عالم جديد ، فتتجه إليه القلوب والأبصار ، وتتهز له أركان أوروبا ، وتترقب عليه سائح خطير ، يتلور أمرها أخيراً في بناء دولة تصمخ اليوم في مقدمة الدول الكبرى وأمرها في عالم الثقافة والصناعة والاقتصاد والسياسة والمجد الحربي .

هذه إشارات قصيرة إلى جهود العالم الأوروبي خلال تلك القرون الثلاثة ، وما كان لها من نتاج رائع في سبيل الحرية ، وتنوير العقول وما أفادت الإنسانية من كسب مادي ومعنوي . ولكن طبيعة الحياة تأتي أن تجري أمورها بين يدي البشر في سهولة ويسر ، بل تأتي أن يتذوق أبنائها من حلوها شيئاً دون أن يتجرعوا من كؤوس المرفها ما يرهق الأرواح ، ويعم النفوس شقاء وهماً ، فبور الحياة المشرق لا يلزمه أهلها وينعمون به إلا بعد أن يغمرهم ظلام الليل الدامس . فتاريخ أوروبا في هذه القرون الثلاثة مليء - رغم مكاسبها التي أشرنا إليها - بالحروب التي أوقدت نارها مطاعم الملوك والحكام ، والماسكات الشديدة بين الأسر الحاكمة في مختلف أقطارها ، وإذا كانت الدريعة إلى تلك الحروب أحياناً قد بدأت في رداء ديني ، فإنها لم تلبث أن أزاحت عنها ذلك الرداء الأطلع المادية التي كانت قلوب الملوك والحكام والرعاة تنطوي على نيرانها المتأججة . ولا مجال هنا للإشارة إلى أسبابها ونتائجها وإنما يكفي أن نذكر منها على سبيل المثال حرب الثلاثين عاماً التي أحاط حжимها بألمانيا ، فأهلك الحرث والنسل ، وأخر شعبها عن السير في ركب التقدم إلى الأخذ بما كان ينبغي لمثلها من حفظ في الكسب الحضاري والمادي ، كما أخرها عن تحقيق قوميتها قرنين من الزمان .

وبين يدي القارئ في هذا الموجز شيء من توضيح العلاقات بين دول أوروبا خلال القرن الثامن عشر ، وهو قرن لا يحتل في تاريخ أوروبا نفس المكانة التي يحتلها كل من القرنين السادس عشر والتاسع عشر ، فالأول هو مطلع تاريخها الحديث وبشير نهضتها في عالم الحرية والثقافة والفنون ، وتلك ميزة انفرد بها بين ما تلاه

- ٧ -

من عصور ، وأما ثانيهما : فإنى عازمة - إن مد الله لى فى أسباب الحياة وحقق  
أملى - على أن أفرد له وجيزا خاصا ، فهو جدير بذلك ، لأنه عهد الثورة  
الفرنسية ، وما ترتب عليها من نتائج ظلت أوروبا متأثرة بها دهرا طويلا . وليس  
يفوتنى أن أشير إلى أثر القرن الثامن عشر فى تاريخ القرن الذى يليه

تلك آمال فى محاولة متواضعة أسأل الله أن يعيننى على المضى فى استكمالها  
والاستماتة فى ذلك بما أفدت من اطلاعى على كثير من الوثائق .

وعلى الله قصد السبيل . « الوثيقة »





# الباب الأول

## أوروبا في القرن السادس عشر





# الفصل الأول

## أوروبا الجديدة وأهم مميزاتها

لكل عصر من العصور التاريخية في العالم مميزاته الخاصة . ولما كانت هذه المميزات مرتبطة في تكوينها بمجهود الإنسان فأصبح من الطبيعي أن تكون بطيئة في تكوينها وتحديد معالمها وأدى ذلك كله إلى أن تتخلل كل العصور التاريخية المختلفة مراحل انتقال ، تتبلور أثناءها هذه المميزات وتلك السمات .

ولا يختلف عن ذلك تاريخ أوروبا الحديث الذي يبدأ في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر بعد فترة انتقال استمرت زهاء قرنين من الزمان ، لمعت أثناءها بعض الشخصيات أمثال « دانتي البجيري » ( ١٢٦٥ - ١٣٢١ ) مؤلف الكوميديا الإلهية ، وقد اشتهر بعرضه لطائفة من صور الحياة في العصور الوسطى ، والشاعر « بترارك » ( ١٣٠٤ - ١٣٧٤ ) ، ويعرف بأب الحركة الإنسانية وقد خلد الحروب البونية بملحمته « أفريكا » المكتوبة باللاتينية ، كما نظم بالإيطالية « كتاب الأغاني » الذي يتضمن مقطوعاته الغنائية الرائعة التي استوحاها من صديقته « لورا » . وكان بترارك يعتبر بمؤلفاته اللاتينية ، ولا يفخر بمعرفته للإيطالية . والروائي الشاعر « بوكاشيو » ( ١٣١٣ - ١٣٧٥ ) ، اشتهر بمؤلفه الخالد « الديكامرون » وهو من المؤلفات العالمية المشهورة ، ويعتبر من أبرع الكتاب في سرد القصة وتحليلها ويعد « دانتي وبترارك وبوكاشيو » أئمة للأدب الإيطالي الحديث .

وتتنوع هذه المميزات بين فكرية وسياسية ودينية واقتصادية واجتماعية (١) .

### المميزات الفكرية :

مما لا شك فيه أن التحرر الفكري في أوروبا كان من أهم مميزات العصر وكان ثورة على الجمود الذي ساد الحياة الأوروبية خلال العصور الوسطى ، لذلك كانت أهم ميزة

(١) انظر الحياة الاقتصادية والاجتماعية خلال القرن السادس عشر ص ص ٢٩ - ٤٣ .

لهذا العهد أن الفرد قد أصبح حراً في أن يختار من العلوم وألوان الثقافة ما يلائم طبيعته وتفكيره غير مقيد بتقاليد الكنيسة وتعاليم رجال الدين الجافة ، وهم الذين كانوا يسيطرون على العقول والاتجاهات الفكرية في العصور الوسطى . وكان لهم تأثيرهم الواضح على الأذهان عندئذ ، لأنهم كانوا الفئة الوحيدة المتعلمة إلى جانب أقلية من الأرستقراطية في المجتمع .

وهكذا أصبح التفكير حراً يهدف إلى الوصول إلى الحقيقة ، ويعمل على توفير كل أسباب السعادة والحياة التي توفر الراحة للفرد ، ولم يعد التفكير فيما بعد الموت وأداء الواجبات الدينية هو وحده الذي يشغل الخواطر الإنسانية ، ومن ثم ظهرت الحركة الواسعة النطاق الشاملة التي عرفت بالحركة الإنسانية .

هذه الحركة تزعمها جماعة يعرفون بالإنسائيين ومن تلك التسمية نتبين أن الإنسان كان موضع البحث والاهتمام . فلم تعد هناك حقائق خفية لا يجب التعرض لها كما كان يوحى بذلك رجال الدين من قبل ، وأصبحت المعرفة في حد ذاتها معرفة كل شيء ، التأكد من حقيقتها هو الاتجاه الجديد ، وقد ترتب على ذلك أن هذه الحركة الإنسانية اهتمت بالبحث عن تلك الحقائق في كنوز المعرفة القديمة الرومانية والإغريقية بصفة خاصة ، فاكشفت المعلومات الحديثة التي كان يجهلها الغربيون من قبل .

وقد تأثر الأوروبيون باتصالهم بالعرب في الشرق أيام الحرب الصليبية . وفي الغرب أيام حكم العرب في الأندلس ، تأثروا بما اطلعوا عليه من معلومات مختارة في الطب والجغرافيا والرياضة والجبر وما لمسه من تقدم في بعض الصناعات مثل صناعة الورق والحريير والسكر ، كل هذه الاتصالات جعلتهم يؤمنون بضرورة جمع المخطوطات القديمة ودراستها ونقلها والتعليق عليها .

ولما كانت هذه المخطوطات مكتوبة باللغتين الإغريقية أو اللاتينية فقد عكف بعض الإنسانيين على إتقان هاتين اللغتين . وكانت اللاتينية معروفة لدى الفئات المتعلمة فكانت هي اللغة التي تكتب بها الأبحاث العلمية والأدبية . فازداد عدد المقبلين على تعلمها إلى جانب إقبالهم على تعلم اللغة الإغريقية حتى يستطيعوا تفسير ما جاء في الوثائق المكتوبة بها . وعندما تم لهم ذلك أظهروا اهتماماً بالغاً بلعائهم القومية كالإيطالية والإنجليزية والفرنسية وغيرها .

وهكذا أصبحت اللغات القومية غير قاصرة على التخاطب والتفاهم بل عدت ذلك إلى البحث والتأليف ، ومن ثم كانت النهضة بهذه اللغات واستخدامها على النحو الذى قدمنا سبيلا ميسرة إلى توصيل المعلومات المتنوعة إلى مختلف الشعوب الأوروبية .

وكان لهذه الناحية أهميتها العظمى لأن حركة الترجمة من اللغات القديمة إلى اللغات الحديثة أدت إلى ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات القومية فأصبح من السهل على المسيحي المخلص أن يطلع بنفسه على المعلومات الدينية الأصلية وأن يعرف ما أدخل عليها من إضافات تتعارض مع أسس الدين ، وقد كان رجال الدين يحتفظون بسرية هذه المعلومات ويحرسون على عدم تسربها إلى فئات الشعب حتى يكتسبوا مكانة ومهابة في نفوس المسيحيين ، وحتى يستغلوا هذه المعلومات لخدمة مصالحهم المادية المختلفة . ومن ثم كانت صيحة الإصلاح الدينى التى نادى بها « مارتن لوتر » فى ألمانيا وجون كالفن فى فرنسا وسويسرا وغيرهما من المصلحين الدينيين .

وكان لهذه الصيحات المطالبة بالإصلاح الدينى أثرها العميق فى توجيه الأذهان والنفوس إلى إصلاح الكنيسة شق الطرق والوسائل ؛ فكانت بذلك حركة الإصلاح الدينى الواسعة الطاق والتى شملت بعض الدول الأوروبية وترتب عليها اعتناق بعض شعوب أوروبا العقيدة البروتستنتية .

وترتب على الحركة الفكرية الجديدة اكتشاف بعض الحقائق التى كانت خافية على المجتمع الأوروبى منذ العصور الوسطى مثل كروية الأرض وحركتها حول نفسها ، كما كان لتقدم فن الملاحة وتطوير بعض الأحهرة مثل البوصلة ، والاسطرلاب أثره البالغ فى نجاح بعض المغامرين الغربيين فى تحقيق أهدافهم الكشفية والاستعمارية ، فخطوا خطوات واسعة فى هذين المجالين . واستطاعوا أن يكتشفوا عالما كبيرا فيها وراء البحار كما اكتشفوا الأمريكتين وجزر الهند الغربية ، واكتشفوا طريق رأس الرجاء الصالح إلى الشرق الأقصى . فكان لهذه الكشف آثارها البعيدة فى النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

وكان من نتيجة ذلك ظهور طبقة وسطى قوية ثرية ، الأمر الذى أوجد تغييرا جذريا فى المجتمع الأوروبى الذى كان يحيا فى العصور الوسطى حياة تقسم بالتخلف والجمود ؛ فهى لا تعدو الزراعة والفروسية . ولكن هذا المفهوم تغير منذ ذلك الحين كما سنرى فيما بعد .

ومما تميز به الفكر الحديث ظهور عدد كبير من المؤلفات الحديثة في ميادين العلم والأدب والفنون المختلفة ، وكان من حسن حظ هذه الحركة - أعنى الحركة الإنسانية - أن ظهرت الطباعة في أثناء نموها ويضاف إلى هذا ظهور طائفة من العلماء الباحثين المدققين المتحمسين للبحث عن كل ما هو قديم . ظهرت الطباعة في ألمانيا حوالي منتصف القرن الخامس عشر وانتقلت منها إلى أنحاء أوروبا فساعدت على ظهور هذه المؤلفات والأبحاث التي قام بها الإنسان في كل الميادين ، مما سهل انتشارها ورواجها ، فشاهدت العصور الحديثة إنتاجا علميا وأدبيا وفنيا لم تشاهده أوروبا من قبل منذ نهضة الإغريق في عصر بركليس في القرن الخامس قبل الميلاد .

#### المميزات السياسية للعصور الحديثة :

وإلى جانب المميزات الفكرية أخرى سياسية ، إذ كان أول ظهور الدول القومية الحديثة عند مطلع التاريخ الحديث في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر . وواضح أن ذلك قد كان نتيجة الفكر الإنساني وإطلاقه نحو الاهتمام بسائر الدراسات والبحوث المتعلقة بحياة الفرد من جميع النواحي ، مما جعل الأوروبيين يهدفون إلى المجتمع الذي يكفل لهم الطمأنينة والاستقرار . وابتدأوا لا يرون ضرورة للاحتفاظ بعالم مسيحي موحد من الناحيتين السياسية والدينية .

ومن ثم رأت كل جماعة - تسكن لإقليم له حدوده الجغرافية الواضحة وترجع في أصلها إلى جنس واحد بصفة عامة أو أجناس متقاربة ، ثم يتفق أساؤها في اللغة التي يتفاهمون بها ، كما يتفقون في المصالح والأهداف القومية - أن تخلق لنفسها وحدة قومية مستقلة خاصة بها .

كل هذه الأمور دعت إلى قيام للدول القومية الحديثة ، إذ رأت هذه الجماعة أنها في حاجة إلى حكم جديد يعنى فيه بكل مصالحها المعيشية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وعلاقاتها السياسية كافة . وكانت فكرة الامبراطورية أو الدولة الواسعة هي الفكرة السائدة أثناء العصور الوسطى ، كانت هناك امبراطورية عظيمة الاتساع كما كان هناك البابا وهو الزعيم الديني الكاثوليكي لغرب أوروبا .

واشتهرت العصور الوسطى بمراحل الصراع المرير بين هاتين القوتين : قوة .

الامبراطورية وقوة البابوية ، فلم تقنع البابوية بتلك السلطة الدينية الواسعة على رعاياها المسيحيين الأوروبيين . بل أخذت تنافس الامبراطورية في سلطاتها الزمنية ، ذلك النظام السيامى لم يكن بطبيعته يخدم مصالح الشعوب الغربية المنفرقة العديدة المتباينة في أجناسها ولعائتها ومصالحها القومية ، ولذلك يجد انه عند مطلع العصور الحديثة نمت الاتجاهات القومية ونجحت بالتالى بعض هذه الجماعات في تكوين وحدتها القومية National State .

وكانت إنجلترا وفرنسا وأسبانيا أسبق هذه الوحدات السياسية ، وكان إتمام الوحدة القومية لهذه الدول الثلاث يرجع إلى أسباب خاصة متعلقة بكل منها ، بينما تأخرت شعوب وأقوام أخرى في تحقيق هذه الوحدة ، منها على سبيل المثال ألمانيا وإيطاليا ، إذ لم تسمح ظروف كل منهما بتحقيق هذا الهدف السياسى إلا في القرن التاسع عشر .

وبما لا شك فيه أن موقع هذه الدول الثلاث في غرب وشمال أوروبا كان له أثر بعيد في مساعدة ملوك هذه الدول في تحقيق وحدتها القومية . ثم إن الظروف الداخلية لكل منها قد ساعدت على تحقيق هذا الهدف السامى : وإلى القارئ تفصيل ذلك باختصار .

#### فرنسا :

في خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر كان أكثر من نصف مساحتها الجغرافية تابعة لإنجلترا على حين كان يتنازع حكم ما تبقى منها أسر عريقة قديمة كانت تحكم هذه البقاع منذ أجيال بعيدة من أيام الاقطاع :

وحين وقعت حرب المائة عام بين فرنسا وإنجلترا ثم انتهت حوالى منتصف القرن الخامس عشر ( سنة ١٤٥٣ ) بنجاح فرنسا في طرد الإنجليز من أراضيها خاسرة ثغر كاليه في الشمال ، استطاعت فرنسا أن تحقق كيائها السياسى المتكامل ، وتجعل لها حدوداً جغرافية واضحة من شمال غرب أوروبا إلى جنوبها . وبذلك أسرة الغالوا بجهودات كبيرة في هذا السبيل . وكان على هذه الأسرة التى عاصرت أحداث حرب المائة عام أن تقضى على القوى المناوئة لسلطاتها في الداخل بغية جمع السلطة في يدها . وكان دوق برجنديا يمثل قوة كبيرة ، طالما تفوقت على قوة الملك الفرنسى ، ويكنى أن نذكر أن الأراضي المنخفضة كانت يومئذ تابعة لدوق برجنديا .

ولذلك رأى لويس الحادى عشر (١٤٦١ - ١٤٨٣) <sup>(١)</sup> أن يبدأ بالقضاء على سلطان هذا الدوق وهو وقتل شارل الجسور ، وقد تم له ذلك فانتصر عليه وفاز بملكه بعد مصرعه سنة ١٤٧٧ .

واستطاع ملك فرنسا لويس الحادى عشر أن يضع يده على أملاك شارل الجسور داخل فرنسا ومنها فرانش كومتيه Franche-Comté وأرتوا Artois وبيكارديا Picardie ولكن الأراضي المخفضة أبت أن تستسلم للويس وظلت وفيه لابنة شارل الجسور (مارى البرجنديّة) ، ولهذا الحقيقة أهمية سنذكرها في حينها عندما نتحدث عن أملاك الهابسبورج في أوروبا .

كانت أسرة أنجو في فرنسا كذلك من الأسر المناوئة للملوك الغالوا في حكمهم لفرنسا . الملك بادر لويس الحادى عشر بمحاربة دوق أنجو فانتصر عليه وآلت إليه أملاكه ومن أهمها إمارة أنجو Anjou نفسها وإقليم بروفس Provence ومين Maine . واستطاع بذلك أن يخطط خطوات هامة نحو تركيز السلطة في أبدي أسرة الغالوا في فرنسا ، فكان ذلك إيذانا ببداية تكوين وحدتها القومية .

واستأنف شارل الثامن (١٤٨٣ - ١٤٩٨) أعمال سلفه من الغالوا ونجح في إتمامها ثم بدأ في تنظيم فرنسا في الداخل والعمل بكل الوسائل على تركيز السلطة في يده حتى لا يخرج عن سلطانه الولايات الفرنسية التي ضمت حديثا إلى ملك أسرة الغالوا . وقد استطاع أن يجعل منها مملكة متكاملة الأرجاء لا يفتقرها إلا إضافات بسيطة ضمت إليها خلال القرنين ١٧ ، ١٨ حتى أبلغها حجمها الحالي .

ولم يكن شارل الثامن أول الأمر بإعادة تنظيم فرنسا في الداخل وتركيب السلطة في يده ، بل بدأ يطمع في مد نفوذ فرنسا إلى خارج حدودها . وكانت إيطاليا القريبة من حدود فرنسا الجنوبية - والمقسمة سياسيا من إمارات مختلفة - هدفه الأول فكان أول من بدأ بالحروب الشهيرة عند مطلع العصور الحديثة والتي عرفت

---

(١) لويس الحادى عشر من أسرة الغالوا والوالا Valois مقاطعة في شمال فرنسا . معها فيليب الثالث ولده الأصغر شارل ، وكان لشارل هذا ابن يدي فيليب أصبح ملكا على فرنسا في عام ١٣٢٨م ، وعرف بين ملوك فرنسا باسم فيليب السادس ، وحكت أسرة الغالوا فرنسا من عام ١٣٢٨ إلى عام ١٥٨٩ عندما آل حق حرش فرنسا إلى فرع البوربون .

« بالحروب الإيطالية » . بدأت بزحفه على إيطاليا عام ١٤٩٤ واستمرت هذه الحرب حتى معاهدة «كاتو كبرسيس» Cateau Cambresis ١٥٥٩ ، واستطاع الرجل في بداية هذه الحرب إحراز انتصارات باهرة ، فاخترق شبه جزيرة إيطاليا بجيشه من الشمال حتى نابولي في الجنوب . وكانت إيطاليا في ذلك الوقت تتمتع بثأر حركة النهضة ، فكانت المركز الفنى والثقافى لأوروبا . كما كانت إيطاليا متقدمة حضارياً وفنياً إلا أنها كانت متأخرة جداً من الناحيتين السياسية والقومية ؛ لم يكن لها جيش موحد أو إدارة موحدة تدبر دفعة هذه الحرب وتنقلها من أطماع الدول الأوروبية .

ولكن الدول الأخرى ، مثل أسبانيا وإمبراطورية (الهابسبرج) (١) ، أسرعت بالتدخل في هذه الحرب خشية أن تسيطر فرنسا على إيطاليا . ومن ثم بدأ وعى جديد بين الدول الحديثة القائمة في أوروبا يتعلق بعملها على المحافظة على ما يعرف بالتوازن للدول . Balance of Power . وكان لهذا المبدأ الخطير أثره في أن معاهدة «كاتو كبرسيس» التى أنهت هذه الحرب لم تحقق لفرنسا أطامها في إيطاليا وإنما تفوقت عليها في هذا الميدان أسبانيا . واستمكن فرنسا في خلال القرن السابع عشر بفضل جهود وزرائها للعظام ريشيليو ومازران من بعده ثم ملكها لويس الرابع عشر أن تبلغ مكاناً مؤثراً في السياسة الأوروبية ، الأمر الذى جعلها تنمو على سائر الدول الأخرى مما أدى إلى تكاتف دول أوروبا لمقاومة هذه السيطرة .

---

(١) الهابسبورج Hapsburg, Habsburg أو «هايتشورج» Habichtsburg الأسرة التى خرج منها البيت الإمبراطورى فى النمسا . اشتق اسم هابسورج من قلعة هابسورج (قلعة الصقر) فى سويسرا فى مكان شاقق الارتفاع قرب «شينتزلان» Schintznach التى بناها فى عام ١٠٢٠ «ميرنر» werner أسقف ستراسبورج وأخوه زوجه كوث «رادبوت» Radbot فى «آرجو» AARGAU السويسرية التى تقع على نهر «آر» AAR وكان ابن رادبوت ، وهو «ميرنر الأول» الذى توفى عام ١٠٩٦ ، يحمل لقب كوث هابسورج ، وكان هو جد «ألبرت الثالث» الذى توفى عام ١٢٠٠ ، وكان كوث زبوريج أمير الانزاس العليا . وقد استولى «رودولف الثالث» الهابسبورجى الذى توفى عام ١٢٢٢ على «لا وفنبرج» Laufenburg «وفالشتيت» waldsatte ولكن بعد وفاته انقسم ولداه «ألبرت الرابع» و «رودولف الثالث» إلى امرأتين فيما بينهما ، ولم يلبث رودولف أن أصبح كبير دوقات المسامع هذا إمبراطوراً لألمانيا عام ١٢٧٣ .

## انجلترا :

وأفادت إنجلترا من نتائج حرب المائة عام (١) التي خاضتها ضد فرنسا ، وعلى الرغم من أنها قد فقدت أملاكها الواسعة في فرنسا باستثناء ثغر كالية في الشمال ، فقد أفادت من هذه الحرب لأنها أصبحت تركز جهودها على النهوض بنفسها ، وأفادت كذلك من الحرب الأهلية التي قامت فيها بعد حرب المائة عام . ففي سنة ١٤٥٥ بدأت الحرب الأهلية المشهورة باسم « حرب الوردتين » (٢) التي استمرت ثلاثين عاما (حتى ١٤٨٥) . والسبب في تسميتها هذه أنها وقعت بين أسرتين عريقتين من أعرق الأسر الحاكمة في إنجلترا وهي أسرة « يورك » وكان شعارها الوردة البيضاء وأسرة « لكستر » وشعارها الوردة الحمراء ، وكانت قاصرة على الطبقة الأرستقراطية وكان الهدف منها هو الوصول إلى منصب ملك إنجلترا . وفي هذا أكبر دليل على مدى ما وصلت إليه الطبقة الأرستقراطية من سلطان في ذلك الوقت في إنجلترا . فقد كان كل نبيل من هؤلاء السلاء صاحب عصبية وقوة ومغود في إمارته ، وكان ذلك من العوامل التي عوقت تحقيق الوحدة القومية لإنجلترا بعض الوقت .

وانتهت حرب الوردتين بانتصار أسرة لكستر في معركة « بوزورت » Bosworth في عام ١٤٨٥ . واستطاع هنري السابع مؤسس أسرة التيودور أن يبدأ حكمه هذه الأسرة في إنجلترا عام ١٤٨٥ . وقد تمتع هذا الملك بسلطان مطلق أيام حكمه الذي استمر حتى سنة ١٥٠٩ . وكان من نتائج حرب الوردتين أن عجت أسر كاملة من طبقة الاستقراطية ذات الأملاك الواسعة في إنجلترا وآلت جميعاً إلى الملك الذي أصبح أغنى ملوك أوروبا جميعاً .

---

(١) حرب المائة عام من أشهر الحروب المعروفة في التاريخ الحديث وأطولها مدى : وقعت بين عام ١٣٣٧ : ١٤٥٣ بين إنجلترا وفرنسا ، وكان السبب الرئيسي لما بين ملوك إنجلترا - الذين كانوا بوسمهم دوقات مقاطعة « جوين » الفرنسية أتباعا للملك فرنسا - معروضوا سياسة العرش الفرنسي في جنوبها إلى تركيز السلطة وأبدى ملوك إنجلترا انتماءاً لتقديم ولائهم لفرنسا وحضومتهم لصاحب التاج الفرنسي بالنسبة لممتلكاتهم في قارة أوروبا . وشهدت حرب المائة عام تحول الأساليب الحربية من الطرق الإقطاعية إلى النظام الحديث ( استخدام المدفعية ) ومن النظام الإقطاعي إلى اليقظة الأولى للأسم في وعيا القوى .

(٢) حرب الوردتين (١٤٥٥ - ١٤٨٥) تعريف النزاع على عرش إنجلترا الذي وقع بين أسرى لنكستر ويورك وقد انتهت هذه الحرب الإقطاع في إنجلترا لأنها أضعفت النبلاء إلى حد هجوزوا منهذ من المحلولة دون هبة الملكية في ظل أسرة التيودور .



ومن حسن حظ هذا الملك أن شعبه كان قد أرمق خلال حربين عنيفتين :  
 إحداهما حرب المائة عام ، والثانية حرب الوردتين . وأتيح له أن يحكم في سهولة ويسر  
 وذلك أمر طبيعي ؛ فالشعب قد أحس حاجته إلى الراحة والاستقرار ، وذلك لا يتأتى  
 إلا بين يدي ملك قوى ، يحقق له مصالحه القومية . ويصف كثير من المؤرخين حكم  
 هذا الملك بأنه كان قائماً على الاستبداد . تراهم يعنون بذلك أنه سلك طريق شارل  
 الثامن ولويس الحادى عشر في فرنسا ، وقد كان حكمهما لا يستند إلى رأى الشعب  
 ممثلاً في البرلمان ؛ كلا ! إن الرجل قد استطاع أن يحكم مع وجود البرلمان حكماً يكاد  
 يكون مطلقاً . وآية ذلك أن البرلمان لم يدع إلى الاجتماع سوى سبع مرات خلال حكمه  
 الذى استغرق حوالى ربع قرن . ومن ذلك نرى أن الملك كان محظوظاً محدوداً لأن  
 الأيام قد مهدت له ، كما قدمنا ، بحاجة الشعب إلى الراحة بعد حربين كبيرتين وإلى  
 الاستقرار بعد قلق طال أمده . ومضى البرلمان مطمئناً في مسيرته وواثقاً من حكم  
 من تلا هذا الملك من أفراد أسرته . وبهذا السلوك الذى اتخذته البرلمان استطاع الملوك  
 أن يقوموا بحركة الإصلاح الدينى في إنجلترا . ولعل ذلك أيضاً بسبب بعد إنجلترا عن  
 روما . ومن العجيب ألا تتم المسيرة في طريق الإصلاح الدينى في انحاء واحد ؛ فهذا  
 هنرى الثامن ( ١٥٠٩ - ١٥٤٧ ) ثانى ملوك الأسرة يقطع الصلة بين كنيسة إنجلترا  
 وكنيسة روما . ونحىء من بعده ماري تيودور ( ١٥٥٣ - ١٥٥٨ ) بتعيد هذه الصلة  
 وفي عهد الزايبث ابنته وآخر ملوك هذه الأسرة ( ١٥٥٨ - ١٦٠٣ ) تنقطع الصلة  
 بروما مرة أخرى . وكانت الأمور قد استقرت في الكنيسة الأنجليكانية ، فتم بالملك  
 حركة الإصلاح بين يدي هذه الملكة سنة ١٥٥٩ في سهولة ويسر . وهى كنيسة خاصة  
 بإنجلترا . وينتهى حكم هذه الأسرة عند مطلع القرن السابع عشر .

واستطاعت أسرة التيودور أن تضع النواة العظمى في حياة بريطانيا الحرة ؛  
 إذ اهتم مؤسسها ببناء الأسطول وإنشاء مدرسة للبحرية ، كما نجحت في معالجة المسألة  
 الدينية دون اللجوء إلى العنف وخوض غمار حروب أهلية على نحو ما حدث في  
 ألمانيا وفرنسا .

أسبانيا :

كانت أسبانيا كذلك من الدول التى حققت وحدتها القومية في وقت مبكر عند  
 مطلع العصور الحديثة ، ويرجع ذلك إلى عدة عوامل داخلية وخارجية وأهمها تلك

المصاهرة التي تمت بين أكبر مقاطعتين أسبانييتين وهي قشتاله وأراجون ؛ فكان على عرش الأولى إيزابيلا وكان يحكم الثانية الأمير فرديناند . وتم هذا الاتحاد عن طريق الزواج بين العاهلين عام ١٤٦٩ . وكانت أراجون تضم أملاكاً هامة داخل أسبانيا وخارجها فلها كاتالونيا وفالنسيا وجزر البليار في حوض البحر المتوسط . وإلى جانب هذه الأملاك كانت تملك صقلية وتطالب بابلوى . وبقدر ما أفادت قشتاله من انضمام أراجون فاستكملت أسبانيا الوحدة وبفصل المصاهرة السابقة الذكر استطاعت أيضاً أن تبلغ أمجاداً حربية بسبب امتداد نفوذ مقاطعة أراجون إلى حوض البحر المتوسط ، إلا أن أطاع أراجون التي ورثها عنها مملكة أسبانيا في إيطاليا وبابلوى بصفة خاد . اضطرت أسبانيا إلى خوض عمار حروب أوروبية انتصرت في بعضها كما حدث في الحروب الإيطالية ، ولكنها انهزمت في الأخرى ، ومن ذلك يتضح لنا أن تلك الصلة لم تخل من خسارة .

ومن العوامل التي أدت إلى وحدة أسبانيا كذلك في نهاية ذلك القرن . نجاح حكامها في طرد القية من العرب عن جنوبها . وانتهى بذلك آخر عهد العرب فيها . ومما لاشك فيه أن هذا الحدث قد ساعد أسبانيا على تحقيق وحدتها القومية والسياسية . لكنه أضر بمصالحها الاقتصادية في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة ؛ فقد كان العرب يمتازون بتفوقهم العظيم في هذه الميادين . وهكذا انتهى ذلك الصراع الذي دام أكثر من سبعة قرون

وقد قام القشتاليون بدورهم في هذا الصراع حين قيام مدفوعين بنحاستهم الديني وقوتهم العسكرية . واعترف بابوات روما للبيت المالكي في أسبانيا بعهوده في هذا المصاهرة وأطلقوا على ملوكهم لقب الملك الكاثوليكي

أما العامل الثالث الذي ساعد على تحقيق الوحدة القومية لأسبانيا فكان عاملًا حارجاً يتعلق باكتشاف كولمبس في عام ١٤٩٢ للعالم الجديد . فقد كان هذا العالم نقطة تحولاً هامة في تاريخ أسبانيا ؛ إذ استطاعت أن تجتبي ثمار هذا الكشف الجغرافي العظيم عندها . تمكن بعض المعامرين الأسبان من استعمار بعض مناطق العالم الجديد مثل المكسيك

وييرو ومعظم جزر الهند العربية (١) . وقد جلبوا لأسبانيا من هذه القاع الذهب والفضة ، فساعدوا ذلك على إعداد أقوى جيوش أوروبا في ذلك الوقت فتمكنت من الانتصار على فرنسا في الحروب الإيطالية .

أسبانيا تحت حكم الهابسبورج :

آلت أسبانيا عند مطلع القرن السادس عشر إلى سلطان أسرة الهابسبورج Hapsbur التي كان مقرها في النمسا ، وكانت تحكم الامبراطورية الرومانية المقدسة التي أخذت أملاكها تنكش حتى أصبحت قاصرة على ألمانيا وسويسرا والأراضي المنخفضة ( هولندا وبلجيكا ) ، وكذلك حكمت بعض الشعوب المجرية والسلافية في شرق الإمبراطورية .

أما كيف آل أو انتقل الحكم من إيزابيلا وفرديناند إلى أسرة الهابسبورج فلذلك مرجعه إلى سياسة المصاهرة الأسرية التي ساعدت أسرة الهابسبورج على توسيع أملاكها ونفوذها في أوروبا . بدأت هذه السياسة عندما تزوج الإمبراطور مكسميليان (٢) من ماري البرحنديّة ابنة شارل الجسور في عام ١٤٧٧ ؛ أي قبل أن يصل إلى منصب الإمبراطور الذي ظل محتفظاً به حتى عام ١٥١٩ ، وتزوج ابنهما فيليب بعدئذ من جوانا الأسبانية ابنة إيزابيلا ، ولم يكن يومئذ واضحاً أن جوانا سترث عن أبيها ذلك الملك العريض ؛ إذ كان لها أخ يدعى جون وكان هو الوريث الشرعي لأسبانيا وأملاكها ، ولكن لحسن حظ أسرة الهابسبورج أن يموت ذلك الوريث فتتصرف وراثته الملك الإسباني في جوانا ، فورثها ابنها شارل الأول الذي أصبح ملكاً على أسبانيا سنة ١٥١٦ ، ثم امبراطوراً باسم شارل الخامس ( ١٥١٩ - ١٥٥٤ ) . وبذلك آلت إليه أملاك الهابسبورج الأصلية في النمسا والأراضي المنخفضة البرجندية مضافاً إليها ملك أبويه في أسبانيا وما يتبع ذلك من أملاك في إيطاليا ، وكذلك الإمبراطورية الاستعمارية في المكسيك وييرو وغيرهما (٣) .

(١) انظر الاكتشاف الجغرافية الأسبانية والمستعمرات الأسبانية ص ٥٦ ، ٦٢ .

(٢) الإمبراطور مكسميليان :- حكم من ١٤٩٣ - ١٥١٩ وهو من أسرة الهابسبورج التي حكمت الإمبراطورية الرومانية المقدسة من ١٤٣٨ - ١٨٠٦ .

(٣) انظر الاستعمار الأسباني في المكسيك وييرو ص ٦٢ - ٦٣ .

الإمبراطور شارل الخامس : امتد حكم هذا الإمبراطور من عام ١٥١٩-١٥٥٤ فاستطاع بسلوكه الحميد أن يتخطى كثيراً من العقبات وأن يترك أثراً واضحاً في مجال السياسة الأوروبية ، وعرف بتسامحه للدين وتوفيقه في اختيار الصالحين الذين عاونوه في مهام الحكم المختلفة ؛ ولا أدل على توفيقه من أن يتخطى العقبات التي اعترضت سبيله في حكم أسبانيا ولم يكن يومئذ قد تخطى السابعة عشرة من عمره عندما آل إليه حكمها عام ١٥١٦ ، تخطاها برغم جهله بسائر أمورها ، فهو قد كان يجهل اللغة الأسبانية إذ أنه قد ولد وترى بعيداً عنها في مدينة «جنت» بالأراضي المنخفضة . كما واجهته المشكلة الدينية في ألمانيا ، وهو حاكمها وسلطانها فوق كونه إمبراطوراً فعالجها عن طريق محاولة التوفيق بين الكاثوليك والبروتستانت ودعوة المجالس الكسبية ، ففعل في محاولته هذه نحو ثلاثين عاماً (١) .

ولم تغف العقبات في سبيله عند حد ما ذكرنا ، بل تعدتها إلى ثورة الأراضي المنخفضة (٢) . ومن مشاكل أيام حكمه اضطرابه إلى استئناف الصراع بين الهابسبورج والفالوا فيما يعرف بالحروب الإيطالية (٣) . فوق هذه المشاكل العديدة كان عليه كذلك أن يواجه خطراً كبيراً تعرضت له أوروبا في القرن السادس عشر وهو الخطر العثماني .

### ظهور مبدأ التوازن الدولي :

ومن مميزات ذلك العصر السياسية ظهور مبدأ «التوازن الدولي» ؛ وقد ذكرنا أنه ظهر لأول مرة أثناء الحروب الإيطالية ، ولكن هذه الظاهرة استمرت حتى يومنا هذا ؛ ففي القرن السابع عشر استطاعت فرنسا في عهد لويس الرابع عشر أن تسيطر على السياسة الأوروبية ، وأن تمتد نفوذها إلى جهات مختلفة بما دعا إنجلترا وغيرها من الدول إلى عقد التحالف لاستعادة التوازن الدولي وقد نجحت الدول الأوروبية إلى حد ما في تحقيق ذلك الهدف ، إلا أن هذا التوازن لم يعط بقاءه ؛ ذلك لأنه عندما انتزعت إنجلترا أملاك فرنسا الأمريكية (كندا) وعندما أصبحت في القرن ١٨ تسيطر على ملحق البحر المتوسط — باستيلاتها على مضيق جبل طارق وجزيرة مينورقة —

(١) انظر تفاصيل هذه السياسة فيما يلي : حركة الإصلاح الديني في ألمانيا من ص ١١٠ - ١٢٠ .

(٢) انظر ثورة الأراضي المنخفضة من ص ١٤١ - ١٥٣ .

(٣) انظر الحروب الإيطالية من ص ٩٩ - ١٠٦ .

رأت أسبانيا أن تضع يدها في يد فرنسا لمقاومة نفوذ إنجلترا والحد من سلطانها ؛ منهنزين قيام ثورة المستعمرات الانجليزية في العالم الجديد . وكان لمعاونة أسبانيا وفرنسا القائد الأمريكى جورج واشنطن ، قائد الثورة الأمريكية ، أثر كبير في انتصاره على إنجلترا ولم يكن نجاحه بغير هذه المعاونة محققاً لأن ثواره على الرغم من حماسهم لم يكونوا وحدهم على استعداد قوى لمقاومة دولة عظمى مثل إنجلترا .

ومما ساعد على القضاء على سيطرة إنجلترا يومئذ تكوين ما يعرف بعصبة الحياض المسلح التي تزعمتها روسيا وانضمت إليها بروسيا والدنمرك ؛ فكانت هذه القوى من العقبات التي واجهت إنجلترا وعوقت سيطرتها الحربية عندئذ . وفي القرن التاسع عشر تقوم فرنسا بمحاولة جديدة في عهد ثورتها المعروفة وفي أيام نابليون لفرض سلطانها على القارة الأوروبية ، وكان نابليون يحلم بالقضاء على سلطان إنجلترا البحري وتحققت هذه السيطرة مما ترتب عليه الإخلال بالتوازن الدولي في أوروبا ، فأخذت إنجلترا تتحالف مع الدول الأخرى للقضاء عليه حتى تم لها ذلك بسقوطه في معركة « ووترلو » ١٨١٥

ثم كانت محاولة هتلر النازية في ألمانيا في القرن العشرين . وذلك عندما عزا أوروبا كلها وبسط سيطرته عليها ، فأخذت أوروبا تتحالف كلها لإعادة مبدأ التوازن الدولي إلى ماكان عليه .

### المميزات الدينية :

تجتاح الثورة الدينية أوروبا عند مطلع العصور الحديثة . وكان لها نتائجها الهامة في تقرير مصير أوروبا الدينى . كان غرب أوروبا في القرن الخامس عشر يسوده الدين الكاثوليكي ، وعلى أثر وقوع حركة الثورة الدينية وما ترتب عليها من حروب داخلية انقسمت أوروبا إلى دول كاثوليكية وأخرى بروتستنتية ، كما ظهرت أنواع جديدة من المذاهب البروتستنتية مثل الكنيسة الانجليكانية في إنجلترا والبرسبتارية في اسكتلندة بينما بقيت الدول العظمى مثل فرنسا وألمانيا والنمسا وإيطاليا على كاثوليكيته . ولم تكن الثورة الدينية عندئذ أول بوادر الخروج على الكنيسة الكاثوليكية ، فقد وقعت قبل ذلك هبات ضد الكنيسة الكاثوليكية ولكن هذه الحركات لم تتعرض للعقيدة نفسها ولم تهاجم البابوية ورجال الدين مثل ذلك الهجوم الذي حدث عند مطلع العصور الحديثة .

فهنالك حركة جون ويكلف "John Wycliff" في إنجلترا في القرن الرابع عشر، التي قضى عليها بسرعة ، ولم يبق من أنصارها إلا أقلية صغيرة في لندن تعرف بجماعة اللولاردين (١) ثم ظهرت حركة هس "Hess" في بوهيميا ؛ فأخفق وأحرق علناً باعتباره خارجاً على الكنيسة ، ثم ظهرت كذلك عدة مجالس كنسية أرادت أن تصلح من شأن الكنيسة الكاثوليكية ولكنها حورت من جانب البابوية وقضى عليها دون أن تصل إلى نتائج،

أثر العوامل السياسية في حركة الإصلاح الديني :

وفي نهاية القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر ظهرت ثورة دينية قادها زعماء دينيون أمثال لوثر في ألمانيا وجون كلفن في سويسرا وفرنسا . قام هؤلاء المصلحون بانتقاد الكنيسة ومهاجمتها في مبادئها وتقاليدها القديمة . وقد لاقت هذه الحركة نجاحاً كبيراً بسبب الظروف السياسية التي عاصرتها ؛ فقد استطاعت هذه الحركة أن تنجح في ألمانيا ، ثم انتقلت إلى بقاع أخرى من أوروبا والعالم الجديد بفضل السياسة السلمية التي اتبعها الامبراطور شارل الخامس زمناً امتد نحو ثلاثين عاماً ( ١٥١٧ - ١٥٤٧ ) في مواجهة هذه المشكلة ومحاولات هذا الامبراطور العديدة لحلها دون أن ينجح في حلها . وأهم من ذلك كله النزاع الأسري بين امبراطورية الهابسبورج في النمسا وماكية الفالوا في فرنسا . فقد كانت المطامع السياسية لدى هاتين الأسرتين أقوى من الاتهامات الدينية ، ولا أدل على ذلك من أن فرائسوا الأول ملك فرنسا الكاثوليكي ومن بعده ابنه هنري الثاني يتحالفان مع للدولة العثمانية غير المسيحية ضد الامبراطور شارل الخامس الذي كان يظاهر الكاثوليكية ويدافع عنها . وقد أدى ذلك الأمر إلى أضغاث الكاثوليك أملم الثورة الدينية مما أتاح للبروتستنتية أن تستقر في شمال ألمانيا كما كان للعوامل السياسية أثرها في انفصال كنيسة إنجلترا عن كنيسة روما

#### (١) اللولاردين Lollards :

يطلق بعضهم أن اللفظ مشتق من الفعل الألماني Lollen بمعنى لترنم ، وهى آخرون أن اشتقاقها يرجع إلى الفعل الإنجليزي Loll أو Lounge بمعنى يسترخى . وقد أطلق هذا الاسم على أوائل المصلحين للمذهب الكاثوليك من أتباع ويكلف في إنجلترا . ويقال كذلك أن أول من أسس هذا المذهب في عام ١٣١٥ ، هو « والبرلولارد » الذي اتهم بالانحراف عن العقيدة الكاثوليكية فأحرق في كولونيا عام ١٣٢٢ . وكان أول الشهداء من أصحاب هذا المذهب في إنجلترا « وليم سوترى » William Sawtree وقد عمل قسيساً في « سان لوزيس » St. Onth بلندن في ١٢ فبراير ١٤٠١ ، عندما حرم البرلمان اللولاردين من حماية القانون فأعدم عدد كبير منهم بالحرق .

على الرغم من أن الحركة الدينية في إنجلترا قد بدأت مختلفة عنها في ألمانيا ؛ إذ لم يكن المنادى بها مصلحاً دينياً مثل لوثر أو كلفن ، إنما دعت إليها ظروف شخصية تتعلق بعاهل إنجلترا عندئذ وهو هنري الثامن ثاني ملوك أسرة التيودور ؛ فقد أراد أن يطلق زوجته كاترين الأرغونية ، فطلب من البابا كلمنت السابع أن يسمح له بذلك حتى يتزوج من « آن بولين » ، ولكن البابا لم يكن يستطيع أن يجيز له هذا الطلاق لوقوعه يومئذ تحت سيطرة الإمبراطور شارل الخامس ؛ وذلك بسبب الحروب الإيطالية التي أثارت المنافسة السياسية الشديدة بين الغالوا والهابسبورج ، ولأن الإمبراطور شارل الخامس كانت تربطه بكاترين الأرغونية صلة قرابة ؛ فنع البابا من الاستجابة لرغبة هنري الثامن ، ولو قد فعل لاستمرت إنجلترا على عقيدتها الكاثوليكية ، ولكن تسويف البابا في الموافقة على هذا الطلاق قد دعا هنري الثامن إلى اتخاذ إجراءات حاسمة في هذا الموقف عندما استعان بالبرلمان الإنجليزي وقطع الصلة بكنيسة روما . وكان هنري الثامن من قبل من المعارضين للحركة البروتستنتية عندما بدأت في ألمانيا بقيادة الزعيم الديني مارتن لوثر ، وبعث إلى البابا في ذلك الوقت رسالة مستنصية قوية يستنكر فيها موقفه ويتهمة بالخروج على الكنيسة مما جعل البابا يمنحه لقب حامي الكنيسة الكاثوليكية ومن هنا اتضح أن هنري الثامن لم يكن صادقاً في تحويل الكنيسة الإنجليزية من الكاثوليكية إلى البروتستنتية ؛ مع أنه قطع الصلة بين كنيسة إنجلترا وروما .

ولما كان الإبقاء على التعاليم الكاثوليكية في الكنيسة الإنجليزية مما يسهل على ذوي الأغراض من الساسة في إنجلترا أن يعيدوا الصلة مع كنيسة روما فقد رأى إدخال بعض التعديلات على العقيدة الكاثوليكية القائمة في إنجلترا ، ولذلك يمكن أن يقال أن الكنيسة الانجليكانية في إنجلترا لم تكن بروتستنتية في كل تفاصيلها كما كان الحال بالنسبة للكنيسة البرستتارية في اسكتلندا واللوثرية في ألمانيا وإنما كانت خليطاً من العقيدتين الكاثوليكية والكلفينية . ومن هنا أطلق عليها العقيدة الانجليكانية .

وهكذا مكنت المنافسة الأسرية بين الغالوا والهابسبورج في منتصف القرن السادس عشر للبروتستنت في ألمانيا ، وساعدت على حركة انفصال كنيسة إنجلترا عن كنيسة روما ، وكان لنجاح دعوة مارتن لوثر في ألمانيا أثره في انتشار البروتستنتية في أنحاء أوروبا فوصلت اسكتلندا وسويسرا وأثرت على الأراضي المنخفضة ، بل إن البروتستنتية بدأت تدخل إيطاليا نفسها وفرنسا ولا أدل على ذلك مما ذكره دوق اللورين.

حين أشار إلى أن ما يقرب من ثلثي سكان فرنسا في عهد هنري الثاني في منتصف القرن السادس عشر (١٥٤٥ - ١٥٥٩) قد تأثروا بالعقيدة الجديدة .

ولكن في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، عندما تبين لهنري الثاني ملك فرنسا أن نزاعه مع الهابسبرج في إيطاليا لم يكن في صالح فرنسا وأن كفة الهابسبرج هي الراجحة بدأ يفكر في الإسراع بعقد الصلح لإنهاء الحروب الإيطالية حتى يفرغ للمشكلة الدينية داخل فرنسا . وقد راعه انتشار عدوى هذه المعتقدات الجديدة أي مبادئ الكنيسة الكالفينية في فرنسا . ومن ثم باذر بعقد صلح كاتوكبرسيس سنة ١٥٥٩ وفي العام التالي ١٥٦٠ بدأت الحروب الدينية في فرنسا واستمرت حتى صدور مرسوم نانت سنة ١٥٩٨ ؛ وقد حاول ملوك فرنسا أثناء هذه الحرب القضاء على حركة البروتستانت . وانتهت آخر الأمر بأن ظلت فرنسا تعتنق العقيدة الكاثوليكية بصفة رسمية مع السماح للهيوجونوت (١) بممارسة عقيدتهم داخل فرنسا . وقد منحهم هذا المرسوم إلى جانب الحرية الدينية حقوقاً أخرى مدنية منها الاجتماعية والسياسية ، بل سمح لهم بإقامة القلاع في بعض مدن فرنسا . وكانت الامتيازات السياسية الواسعة الممنوحة للهيوجونوت من الأسباب التي دفعت ريشيليو في بداية القرن السابع عشر إلى أن يعمل على الحد منها .

وفي أوائل القرن السابع عشر اندلعت حرب الثلاثين عاماً في ألمانيا بين الكاثوليك والبروتستانت . وإذا كانت هذه الحرب قد أحدثت كثيراً من الخراب والدمار في ألمانيا إلا أن فرنسا قد حرحت من حروبها الدينية غير ممزقة بين العقيدتين ، وإنما أصبحت عقيدتها الرسمية هي الكاثوليكية واستطاع ماكها الجديد هنري نافر - مؤسس أسرة البربون في فرنسا ، والذي عرف بهنري الرابع (١٥٩٤ - ١٦١٠) - أن يهيء لفرنسا

(١) الهيوجونوت :

أطلق هذا الاسم حوالي منتصف القرن السادس عشر على البروتستانت في فرنسا . ويرجع بعض المؤرخين أصل هذا الاسم إلى تحيمات البروتستانت في « تور » Tours ، وكانت تمقد في الليل في قلعة يقال أنه كانت تسكنها روح الملك « هوجو » Hugo .

ويبدو أن كلمة هيوجونوت قد اشتقت ببساطة من كلمة « ايجوز » Aignos المأخوذة من كلمة Eldgenossen الألمانية ( أي جماعة ترتبط فيما بينها بقسم معين ) وكانت تطلق فيما بين ١٥٢٠ - ١٥٢٤ على الوطنيين المعادين للدوق ساموي في جنيف .



مستقبلاً مجيداً قائماً على قواعد اجتماعية وسياسية واقتصادية وطيدة . ولا ننسى جهوده العظيمة في تاريخ فرنسا . ويعتبر عصره بداية عهد عظمتها في القرن السابع عشر .

أما بالنسبة للحركة الدينية في ألمانيا فإن العقيدة البروتستنتية لم تستقر فيها إلا بعد حرب طويلة في النصف الأول من القرن السابع عشر وهي حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ - ١٦٤٨) ، وهي التي انتهت بمعاهدة وستفاليا سنة ١٦٤٨ (١) . وكانت هذه الحرب قد أنزلت بألمانيا خسائر جمة وأثرت في سكانها تأثيراً واضحاً وأخرت الشعب الألماني عن السير في موكب الحضارة حوالى قرنين من الزمان . فكان لها من الآثار الصارة بالنسبة للشعب الألماني ما لم يكن لمثلها في فرنسا وكان ذلك من العوامل التي أخرت اتحاد ألمانيا بعد ذلك حتى القرن التاسع عشر ، كما أنها أصبحت فريسة سهلة لجيوش نابليون عندما احتاحتها في بداية القرن التاسع عشر .

ولإذا حاولنا أن نتبع الصراع الديني في أوروبا نجد أن الدول العظمى مثل فرنسا والنمسا وأسبانيا وهي الدول الكاثوليكية الكبرى قد ظلت على عقيدتها الكاثوليكية وسط هذا الصراع الطويل ، وفي هذا دليل على أنه لو اتحد الجميع لمواجهة الحركة الدينية الجديدة لاستطاعوا القضاء عليها أو الحد من انتشارها على الأقل .

ومما ساعد على انتشار العقيدة الجديدة ما أصاب أصحابها من تشديد واضطهاد ، وكانت إيطاليا وأسبانيا من ألد أعداء هذه الحركة ، واستمرت الأوضاع السياسية في النصف الأول من القرن السادس عشر تساعد على انتشار هذه الحركة وكان للأطباع السياسية أثرها في خروج البروتستانت ظافرين في النهاية ، إذ أن فرنسا الدولة الكاثوليكية الكبرى — بحكم عدائها لامبراطورية الهابسبرج — قد ساعدت الولايات البروتستنتية في ألمانيا في حربها ضد الكاثوليك . فهذا ريشليو الكاردينال الكاثوليكي رئيس وزراء فرنسا كان يريد أن يحقق لفرنسا السيطرة على أوروبا إذ ذاك ، فقد اشترك في حرب الثلاثين عاماً إلى جانب البروتستنت ليحد من سلطان أسرة الهابسبورج وحمل أسرة البربون في فرنسا أقوى أسرة حاكمة في أوروبا (٢) . كان ريشليو يحارب الهيجونوت

---

(١) انظر صليح وستفاليا ص ١٨٤ - ١٨٨ .

(٢) انظر سياسة ريشليو الخارجية ص ١٧٧ - ١٨٠ .

داخل فرنسا فانتزع منهم حصنهم المنيع غرب فرنسا وهو - من لاروشيل وحرّمهم من الامتيازات السياسية التي أعطيت لهم بمقتضى مرسوم نانت (١٥٩٨) (١) بينما هو في الخارج يساعد البروتستنت في ألمانيا ضد الكاثوليك بطريق غير مباشر حتى عام ١٦٣٥ ، ثم بطريقة صريحة بعد ذلك التاريخ حتى انتهاء حرب الثلاثين عاماً ١٦٤٨ وتفسير هذه السياسة واضح ؛ فهو يريد أن يمكن لأسرة البربون في أوروبا عن طريق القضاء على خصومها داخل فرنسا حتى يركز جميع السلطات في يد الملكية (البربون) في داخل فرنسا ، وهو في الوقت نفسه يعمل على مده سيطرتها على أوروبا ؛ فهو يقف ضدًا لهابسبورج في ألمانيا في حرب الثلاثين وذلك بصرف النظر عن المذهب الكاثوليكي الذي يجمع بين الدولتين ؛ لذلك كثيراً ما يقال أن نجاح البروتستنتية في ألمانيا وانتشارها فيها كان يرجع إلى سياسة كاردينال كاثوليكي (أيج ريشليو) .

وللعوامل السياسية كذلك أثرها في الحروب الدينية في فرنسا ؛ ففي أثنائها قامت أسبانيا بدور هام عندما تزعمت الحلف الكاثوليكي بفرنسا ولم يكن ذلك دفاعاً عن الكاثوليكية بقدر ما كان طمعاً في تحقيق مآرب سياسية داخل فرنسا نفسها (٢) .

أما بالنسبة لانيجلترا فقد استطاعت كما بينا أن تكون الكنيسة الإنجليكانية أى البروتستنتية في عهد الزباث ، وقد تم ذلك دون إراقة دماء ؛ وإذا كان القرن السابع عشر في انجلترا قد كان عهد حروب وثورات في الداخل ، فإنه من الواضح أن هذه الحروب لم يكن الدافع الأساسي لها هو العقيدة الدينية وإنما كان الغرض منها الدفاع عن حقوق البرلمان وامتيازاته أي الحريات البرلمانية والطقوس الانجليكانية .

(١) انظر سياسة ريشليو الداخلية من ١٧٢ - ١٧٧ .

(٢) انظر أطباع فيليب الثاني ملك أسبانيا في اتجاه للفرنسي وكيف استطاع هنري تمار أن يخلص

فرنسا منها من ١٥٩ - ١٦٥ .

### أهم مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية خلال القرن السادس عشر :-

سانت أوروبا خلال ذلك القرن مهنة الزراعة فاقام غالبية الأوربيين فى الريف يعتمدون عليها مع القيام ببعض الصناعات المحدودة ؛ مثل غزل الصوف والكتان لصناعة بعض أنواع النسيج وكذلك بعض المسامير .

وكانت طبقة الفلاحين تزرع تحت الأعباء التى تفرضها طبقة النبلاء عليهم ؛ من فلاحه لبعض أراضيهم وعصر زيتونهم وتبييضهم من ، داصر النيل ، وقد زاد من سوء حالة الفلاحين ارتفاع أسعار السلع الغذائية خلال القرن، فارتفعت فى بعض المناطق إلى نسب مختلفة تتراوح بين ثلاثة وسبعة أمثال ماكانت عالية من قبل مما توجب عليه كراهية طبقة تجار القلال ،وقد اتجهت الظنون إلى جشعهم ، فعزى ذلك الارتفاع إلى رغبتهم فى الحصول على المزيد من المكاسب . وإذا كان فى ذلك بعض الصحة فإن العامل الأكبر لهذا الارتفاع كان مصدره ازدياد وحول كميات من الذهب والفضة إلى أوروبا نتيجة للكشوف الجغرافية والحركة الاستعمارية التى بدأتها كل من البرتغال وإسبانيا .

### زيادة عدد السكان :

تميز ذلك القرن كذلك بزيادة كبيرة فى عدد السكان فى أنحاء شتى من أوروبا تتبين ذلك على الرغم من قصور الوسائل الإحصائية عن توضيح ذلك الأمر بصفة دقيقة؛ ذلك لأنه لم تكن هناك إحصائيات بالمعنى الحديث وإنما تمت الاستعانة ببعض الكشوف التى كانت قد أعدت لعصر عدد المؤيدين لمختلف الضرائب والبالغين السن القانونية للانضمام إلى الخدمة العسكرية .

فبلغ عدد سكان بعض المدن الإيطالية : ميلان والبندقية ونابلى عند مطلع القرن ١٦ مائة ألف نسمة كما بلغت باريس وغيرها من المدن الفرنسية نفس التعداد من السكان وكذلك القاهرة وحلب خارج أوروبا . بينما تضاعفت هذه الأعداد فى نهاية القرن فوصل عدد سكان انجلترا إلى خمسة ملايين نسمة والامبراطورية إلى عشرين

### - ٣٠ -

ومن ثم أصبحت الحاجة ماسة إلى توفير الغذاء اللازم لهذه الجموع المتزايدة من السكان فرؤى تخصيص بعض البقاع الزراعية لأبواب معينة من المحاصيل التي تناسبها ؛ فانتشرت زراعة الأرز والذرة في وادي نهر البر ، وبعض أنواع الخضار كالجزر والبسلة والقرنبيط في الأراضى المنخفضة وفرنسا وكننت Kent في إنجلترا . كما رؤى كذلك الاهتمام بممارسة نظام الدورات الزراعية .

على أن هذه المحاولة للعمل على زيادة الانتاج الزراعى لم تحقق كل ما كان يرجى لها من نجاح إلا فيما بعد أى خلال القرن السابع عشر وذلك لجهل الغالبية العظمى من فلاهى أوروبا بقراءة الإرشادات الزراعية الجديدة فى فلاحه الأرض واقتحامهم إلى رموس الأموال اللازمة لإسخال هذه التحسينات .

لم تقتصر زيادة الأسعار على المواد الغذائية وحدها بل أدت إلى ارتفاع أسعار الأصواف التى كانت تنتجها بوفرة إنجلترا وأسبانيا وكان لذلك أثره فى اهتمام القائمين على الزراعة فى إنجلترا خلال القرن السادس عشر إلى تحويل مساحات واسعة من أراضيهم إلى مراعى لقطعان الأغنام مما أدى إلى أزمة فى المواد الغذائية وإلى تدخل الكاردينال "ولسى" Wolsey المسيطر على سياسة إنجلترا (بين ١٥١٤ ، ١٥٢٩) ليحدد من هذا الأمر فيوفر بالتالى المواد الغذائية ويعمل على تخفيض أسعارها .

### الصناعة

نجحت الصناعة فى تلبية احتياجات السكان المتزايدة على عكس الزراعة التى عجزت عن ذلك . وكانت أكثر المناطق الصناعية تقدما فى أوروبا إنجلترا والفنلندز بالأراضى المنخفضة وجنوبى غرب ألمانيا وإيطاليا . وقد زاد انتاج المنسوجات فى كل من إنجلترا والفنلندز نتيجة لإقبال أهالى الريف على هذه الصناعة التى زالت من دخلهم ورفعت من قدرهم فى طبقات المجتمع نتيجة لذلك .

وإذا كانت أجور العمال والصناع قد زادت فى كثير من الأحيان إلا أنها لم تصل إلى القدر الذى وصلت إليه أسعار السلع الغذائية ومن ثم أصبح التفاوت بين الأسعار والأجور واضحا للغاية خلال القرن السادس عشر .

### أما أهم النتائج التى ترتبت على هذه التغيرات :-

فمنها انضمام جمهور غفير من الألمان إلى الثورة الدينية التى تزعمها مارتن لوتر فى ألمانيا ، ووقوع بعض الاضطرابات فى الأراضي المنخفضة . وفى فرنسا خلال المرحلة الأخيرة من الحروب الدينية كلها (١٥٦٠ - ١٥٩٨) أى فى نهاية القرن السادس عشر .

أما فى إنجلترا فقد ازداد عدد ملاك الأرض والمترمين على عدد المستأجرين من المزارعين . وبدأت طبقة صغار الفلاحين فى الاختفاء نتيجة لارتفاع دخولهم لاشتغالهم بالصناعة إلى جانب الفلاحة ، فأصبحوا بالتالى ينتمون إلى طبقة مهمة من ملاك الأراضي ، وارتفعت بالتالى مكانتهم فى المجتمع فأصبحوا ينتمون إلى طبقة صغار النبلاء الذين يمتلكون أراضي متوسطة المساحة ، وقد استفاد غالبيتهم من ارتفاع أسعار المحاصيل الزراعية . وازداد اهتمام هذه الطبقة باستثمار أموالهم فى التجارة ليحققوا بعائدها مشاريعهم الزراعية التى رفعتهم إلى مرتبة صغار النبلاء . وحققت لأبنائهم مستقبل أكثر إشراقا . وكان لذلك أثره القوي فى جعل إنجلترا تتفوق فى نموها التجارى والصناعى على سائر أنحاء القارة الأوروبية .

وإذا كانت بعض مناطق الأراضي المنخفضة الجنوبية من الفلندرز والولايات الهولندية قد استفادت بالمثل من ارتفاع أسعار المحاصيل الزراعية ورواج حاصلاتها وصناعاتها فإنه على العكس من ذلك ما حدث فى فرنسا عندما لم ينجح صغار النبلاء فى التجارب مع ارتفاع الأسعار مما جعلهم ينصرفون عن مشاريعهم الزراعية ويتجهون نحو التدخل فى الحروب الخارجية والداخلية خلال القرن السادس عشر مما

- ٣٢ -

ترتب عليه تدهور الأحوال الاقتصادية وقتئذ ، وأدى إلى مبالغة هؤلاء في فرض الضرائب على أتباعهم ومستأجرى أراضيهم .

على الرغم من اعتبار الفلاحين أحراراً في سائر أنحاء غرب أوروبا وجنوبها فإنهم كانوا لا يزالون يرضعون تحت أعباء الالتزامات الإقطاعية الثقيلة التي يفرضها النبلاء عليهم . وكانت هذه الأعباء تتفاوت وتختلف من منطقة لأخرى تبعاً لمدى حماية الحكومة لطبقة الفلاحين ففي كثير من الأحيان كان ملوك أوروبا يساندون النبلاء ضد الفلاحين لم حاجتهم إلى خدمات أعضاء هذه الطبقة في شغل المناصب الإدارية والعسكرية العليا في الدولة .

#### التجارة-

من أهم نتائج الكشوف الجغرافية تحول مسار التجارة بين الشرق الأقصى وغربي أوروبا فلم تعد منطقة حوض البحر المتوسط هي المنطقة الهامة في التبادل التجاري بينها وبالتالي فقدت المدن المطلة عليه دور الوسيط التجاري الهام بينهما ، ونجح البرتغاليون وتجار أوروبا في الاتصال المباشر بمنتجى الكماليات من توابل فلصيت البندقية وغيرها من الجمهوريات الإيطالية والدول العربية المطلة على البحر في مركزها التجاري لفقدت احتكارها لهذه التجارة وما كانت تدره عليها من أرباح عظيمة.

ولم يقدّر الأسبان أصحاب أول مستعمرات أوروبية في العالم الجديد - المكسيك وبيرو وبعض جزر الهند الغربية - ميزة الاتجار مع العالم الجديد بادئ الأمر حق قدره ، فاكثفوا بإرسال شحنات الذهب والفضة إلى أسبانيا بينما اقتصر نشاط البرتغاليين في إفريقيا وآسيا على إنشاء محطات للتجارة تحميها الحصون .

ولم يكن في استيلاء أسبانيا أن تمد مستعمراتها الشاملة بما يلزمها من طعام ولباس وأسلحة وعبيد . فلم تكن الصناعة في أسبانيا بقادرة على ذلك مما جعلها تتأخر

الكثير من الارباح من هذه التجارة؛ بل كانت مناطق أخرى من الأراضي المنخفضة وشمال إيطاليا تمد أسبانيا نفسها ببعض احتياجاتها . وكان لتجارة التهريب التي اتبعها البحارة والقراصنة الانجليز دور هام في هذه التجارة مع المستعمرات وأسبانيا نفسها فعادت عليهم بالخير الوفير وتسببت في سوء العلاقة بين أسبانيا وإنجلترا . وهكذا كانت خيرات العالم الجديد من ذهب وفضة إذا وصلت أسبانيا لاستفيد منها وإنما كانت تنفع معظمها لتسديد قيمة السلع التي يستوردها المستعمرون أو تدفع أجوراً للجند الأسبان سواء في إيطاليا أم في الأراضي المنخفضة أو في فرنسا . وقد ساهمت السياسة الخارجية الطموحة لفيليب الثاني بالتالي في تبديد تلك الثروات العظيمة .

وقرتب على إتساع نطاق التجارة وازدياد أهمية أنفرس Anvers (أو أنتورب Antwerp) إنشاء البنوك التي أصبح فيها ضمان للمعاملات المالية ومحافظة على الأموال المتبادلة من الخسائر الطبيعية أو . مليات السطو التي قد تتعرض لها . فاشتهرت بعض المراكز في أوروبا في عالم البنوك وأصبح لها مركز هام في "أجسبرج" Avgsbrg في بفاريا حيث استأثرت شركة الفوجرز Fuggers بالنفوذ والسلطان ، فأصبح لها دورها بالتالي في السياسة الأوروبية . وفي إيطاليا كان لبنك Strozzi "ستروتزي" في فلورنسا ومزرعة في ليون والبندقية . وروما أثره العظيم في تمويل كثير من احتياجات الحرب والسلام (١) .

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر نتائج الكشف الجغرافية الاقتصادية من ص ٥٤ ، ٥٦ .

## الفصل الثاني

### الكشوف الجغرافية وحركة الاستعمار

كان من أهم مميزات تاريخ أوروبا الحديث حركة الكشوف وما تلاها من حركات استعمارية واسعة النطاق ؛ فحركة الكشف الجغرافي قد ظهرت مبكرة منذ بداية القرن الخامس عشر ، استمرت خلال ذلك القرن ، ولم تظهر نتائجها الحاسمة إلا في نهايته وبداية القرن الذي يليه ، وتلتها كذلك حركة استعمارية واسعة النطاق تميزت بها قلة من الدول الأوروبية ، ثم لم تلبث أن انقسمت إليها دول أخرى محاولة أن تحقق نصيبها من هذا الكسب المادى العظيم وترتبت على ذلك حروب بين هذه الدول لم يقتصر ميدانها على بقاع ومواطن هذه المستعمرات وإنما عداها إلى الأراضي الأوروبية نفسها

وقد كان لظهور نزعة الكشف الجغرافي والاستعمار واشتدادها في العصر الحديث بين الدول الأوروبية أسباب متعددة منها

#### ١ - نمو الروح القومية .

من أقوى الأسباب في بعض دول أوروبا الغربية في مطلع العصر الحديث وما اقتضاه ذلك من اشتداد رغبة هذه الدول في السيطرة على بقاع جديدة تترى في شعوبها من الضعف والتخلف ما يعينها على تحقيق ما تريد . ولم تلبث هذه الدول أن وجدت في العالم الجديد وعلى سواحل أفريقيا وجنوبي آسيا مجالا واسعا لتحقيق هذه الأطماع . وعلى مدى المحاولات التي قامت بها في هذا المجال أدن مؤذن الحرب فاندلعت نيرانها في أنحاء أوروبا وخرها ثم انتهت إلى قيام الامبراطوريات الاستعمارية . وكان أحظم تلك الدول وأنشطها في هذا الميدان أسبانيا والبرتغال وهولندا وفرنسا



وانجلترا ، وهى دول كانت تحركها النزعة القومية ، وكان لكل منها ظروف خاصة مهدت لتحقيق وحدتها القومية فى نهاية القرن الخامس عشر وخلال أيام القرن السادس عشر . وإذا كانت ألمانيا وإيطاليا لم تظهر على مسرح تلك الحوادث فما كان ذلك إلا لأنها لم تكونا قد استكملتا وحدتهما القوميتين . فلما تم ذلك فى أيام الربع الأخير من القرن التاسع عشر ظهر اهتمامهما بالاستعمار واضحاً وجلياً . فأما النمسا التى لم تحركها النزعة القومية فقد تخلفت عن موكب الظهور فى هذا الميدان البغيض ، ومن ثم لم يكن لها فى أسلاب الاستعمار نصيب .

ومن هنا نستطيع أن ندرك كيف أن الدول التى حققت وحدتها القومية حديثاً اشتدت رغبتها الملحة فى التوسع لنشر نفوذها ومبادئها حتى باتت تؤمن بأن بقاءها رهين ببقاء مستعمراتها أياً كانت مظاهر الاستعمار فيها ، ولا أدل على ذلك مما جاء فى أقوال اللورد « كرزون » Curzon أحد مشاهير الساسة الإنجليز بشأن الهند حيث قال : « هى محور عظمتنا ومقياس نجاحنا أو إخفاقنا ، ولئن فقدنا الهند فليكون ذلك لها لبداً بغروب شمس حياتنا » .

كما يقول أحد الكتاب الفرنسيين :

« إن فرنسا لا بد لها من إمبراطورية أفريقية عظيمة ، وإلا عدت دولة أوروبية من الدرجة الثالثة ، وغدا شأنها فى ذلك شأن اليونان ورومانيا » .

تلك أقوال معناها فى رأى الإنسانية الصادقة الرشيدة ضرب من الوهم السخيف إذ لا ينحى للنولة عاقلة تؤمن بكيانها الإنسانى أن تعتمد فى بقائها وتثبيت عظمها على المستعمرات . وإنما العظمة فى حكم العقل الرشيد تتمثل فى جهود كل دولة فى سبيل استغلال مواردها الخاصة . وفى المشاركة فى تحقيق السلام والخير للإنسانية كافة . وقد كانت ألمانيا القيصرية قبل محنتها فى أعقاب الحرب العالمية الأولى من أعظم دول العالم وأقواها ؛ ومع ذلك لم يكن لها من المستعمرات كما كان لغيرها من دول أوروبا . وكذلك كانت الحال بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية ثم فى إيطاليا وخاصة قبل ظهور روح الجشع والأوهام الباطلة التى بثها فيها موسوليني نعروره المسرحى ، إذ كانت من دول العالم المملوءة دون أن يكون لها مستعمرات . وهناك دول صغيرة لها من المستعمرات نصيب موفور ، وليس لها مع ذلك فى ميدان القوى كفة راجحة ومن ذلك هولندا وبلجيكا والبرتغال . . .

## ٢ . الكسب المادى والجمش الاقتصادى :

ومن المتوافع إلى الاستعمار والتسلط بوجه عام أولاً وأخيراً الرغبة الشديدة فى الكسب المادى والجمش الاقتصادى . هذا اللون من الاستعمار يطلق عليه الاستعمار الاقتصادى أى التسلط على بقاع الأرض واتخاذها أسواقاً للكسب المادى العريض . وذلك عن طريق تكوين الشركات الرأسمالية . وقد أسهم فى هذا النوع من الاستعمار . بول من أصحاب النشاط المادى المرموق فى بلاييم ، أنشأوا فى هذه المستعمرات مشروعات متعددة الأغراض ، منها ما هو تجارى لتصريف البضائع والسلع ، ومنها ما هو زراعى يقوم على إنشاء المزارع الواسعة لتوفير محصولات المناطق الحارة مثل المطاط والقفز . ومنها مشروعات البحث والتنقيب عن معادن الأرض وجواهرها .

وكان هذا لغرض واضحاً فى سائر مراحل الاستعمار . فكانت دول أوروبا تعتمد فى الحصول على كماليات حياتها على ما يأتها من التوابل والمعادن والسكر والعاج ، يأتيها من الهند وبعض بلاد الشرق الأقصى ، يبلغها بين أيدي قوافل تعمل إليها بطيئة وثيلة عن طريق سواحل البحر الأسود وحوض البحر المتوسط ، وذلك حتى نهاية القرن الخامس عشر . ولم يكن للتجار الأوروبيين يومئذ اتصال مباشر بمصادر تلك الكماليات . وكانت ضئيلة الكم باهظة الثمن ، كما كان الطريق الذى تسلكه القوافل فضلاً عن طوله غير مأمون ، لذلك كانت الرغبة فى الاتصال المباشر بمصادر هذه التجارة ، والتحكم من السيطرة على الكميات المستوردة منها وعلى أثمانها وتأمين طريقها عاملاً أساسياً دفع إلى ظهور حركات الكشف وتأسيس المحطات التجارية الهمة على طول الطريق البحرى من غرب أوروبا وغرب أفريقيا وشرقها فسواحل المحيط الهندى إلى منطقة جزر الهند الشرقية الغنية بالتوابل .

وكد التجار المسلمون يحتكرون التجارة فى التوابل ، ويجنون من وراءها أرباحاً طائلة . كما كانوا يتحكمون فى الأثمان والمقادير فى تعاملهم مع المدن التجارية فى شمال إيطاليا مثل جنوة والنديّة وفلورنسا .

فأدب جمهوريات إيطاليا الشمالية المذكورة كما أفاد المسلمون فى الشام ومصر من هذه التجارة . وكانت مصدراً من مصادر قوة هذه البلاد وعزتها .

وقد تبين للبرتغال عندئذ أنه يجب — لإضعاف العالم الإسلامى والقضاء على قوته

قضاء مبرماً — أن تنتزع تجارة التوابل من أيدي تجاره ليحرموا من أرباحها وتحصيل ما ينبغي عليها من ضرائب ، ولم يكن من الحكمة تحقيق ذلك ما دام الطريق التجاري بين الشرق والغرب يمر بأراضيهم ، ومن ثم ظهرت الرغبة في اكتشاف طريق جديد للوصول إلى الهند والشرق الأقصى مباشرة دون المرور ببلاد المسلمين المطلة على حوض البحر المتوسط .

وحققت كشوف البرتغال حول أفريقيا أحلام أوروبا التي ظلت تراودها قرابة مائتي عام . كما كملت محاولاتها ومجهوداتها التي اتصلت واستمرت نحو خمس وسبعين سنة بالسجاح .

وفي القرن التاسع عشر بعد ازدهار حركة الانقلاب الصناعي وانتقالها من إنجلترا إلى سائر جهات أوروبا والعالم الجديد ، أدركت هذه الدول جميعاً شدة حاجتها الضرورية إلى مواطن المواد الخام والأسواق الخارجية ، فوجدتها في قارة أفريقيا الكثر الواسعة الغنية بمواردها المختلفة ، ومن ثم كان التسابق على اختطاف أجزاء منها في الربع الأخير من القرن التاسع عشر .

### ٣ - نشر حصار الدول المستعمرة :

وثالث دوافع الاستعمار قد كان رغبة في نشر المعتقدات الدينية والمبادئ السياسية التي كانت تدبر بها دول الاستعمار أو بتعبير آخر رغبة الدول في نشر حضارتها بغطاؤها المختلفة بين شعوب هذه البلاد . وقد اتجهت هذه الرغبة اتجاهاً دينياً أول الأمر . وكانت الحماسة الدينية عند البرتغاليين والأسبان من مواريث الصليبيين ، فكانت حياة الأسبان تدبراً مستمراً وسعيًا متصبلاً في سبيل طرد العرب من بلادهم بعد أن ظل العرب بها ما يزيد على سبعة قرون ونصف قرن . وقد تحقق ذلك على يد ملك أسبانيا فرديناند في نهاية القرن الخامس عشر . وكافأه الباب على نجاحه هذا بمحمه لقب « الملك الكاثوليكي » وهو لقب انفرد يومئذ به بين ملوك أوروبا .

وكانت ايزابيلا ملكة أسبانيا حين اقتنعت بوجوب المساهمة في مشروع كريستوف كولومب متأثرة في ذلك بعاملين ، هما الحصول على ثروة جزر الهند الغربية . ونشر الثقافة المسيحية . وكان هذان الغرضان من النوافع الأساسية التي دفعت بالأسبان إلى القيام بحركتهم الكشفية لسواحل أفريقيا مدفوعين . كذلك بقصد نشر المسيحية

فكانوا يأملون العثور على ما أطلقوا عليه « امبراطورية القديس يوحنا » بقصد معاونته في نشر المسيحية ، وأكثر الغن أنهم كانوا يقصدون إلى الحبشة .

وكانت فرنسا كذلك في حركتها الاستعمارية نحو ض سنت لورانس مدفوعة إلى جانب غرضها الاقتصادي بدافع ديني ، فأسهم جماعة الجزويت بنصيب لا يقل عن نصيب المغامرين والتجار في استثمار منطقة البحيرات العظمى ووادي نهر المسيسيبي . أما في حركة الاستثمار الانجليزي فلم يظهر ذلك بوضوح إلا في القرن التاسع عشر .

والمادون بهذا المبدأ يرون أن الدولة صاحبة الشأن لها رسالة عالمية مقدسة . ولا بد لها أن تنشرها وتنشأ بين الشعوب ، ألا وهي رسالة المدنية والحصارة ؛ رسالة تقتضيها البذل والتضحية في سبيل رفع مستوى الشعوب ، والأمم المختلفة والسمو بها إلى آفاق العزة والكرامة ، وأن العتق عن طريق الغزو ليس غاية بل وسيلة إلى تحقيق ذلك . ويزعم أصحاب تلك المبادئ الاستعمارية أن كل أولئك أعباء يحملها الجنس الأبيض . ويصفونها بأنها أعباء ضخمة مرهقة ولكنها محببة إلى نفوسهم .

أما نحن الذين نشاهد أعمال الاستعماريين ونلمس آثارها السيئة ، ونشقى بنتائجها في كل بقاع المعمورة . فنسحر من هذه الأقوال ونراها غير صحيحة وإنما هي ذرائع الاستثمار وأغراضه المادية .

وإذا كانت الدول الاستعمارية تزعم أنها ترمي مصالح الشعوب في مناطق الاستثمار من حيث الرعاية الصحية والهداية الدينية ؛ فإن الغرض الأساسي من الاستثمار لم يخف عن إدراك المبركين ووعي الواعين .

#### ٤ - العثور على أوطان جديدة .

ورابع أهداف الاستثمار العثور على أوطان جديدة لمن ضاقت بهم بلاد المستعمرين ولم يتضح ذلك الهدف قبل القرن التاسع عشر ، بل كان هناك راشلون من الساسة البريقيانيين في مطلع حركة الاستثمار ، يرون في ذلك خطراً على مصلحة الوطن . يتمثل في حرمانه من جهود المهاجرين من أبنائه الأكفاء .

هذا الأسلوب من أساليب الاستثمار كله شر ؛ إذ معناه الاغتصاب والسطو على

بلاد آمنة مطمئنة . أهلة بالسكان ، الذين نشأوا فيها وعمرها بعد أسلافهم ، يحتلها المستعمرون لينزلوا بها من يدعون أنهم زادوا حتى ضاقت بهم أوطانهم ، ومعنى ذلك أنهم يجيئون بهم ليشاركوا المواطنين في أرزاقهم بعد أن كانت خالصة لم من خون الناس . ولا يلبث أولئك النزلاء حتى يندسوا في كيان هذه الشعوب ، عنصون دماءهم ويحرموهم نعمة الحياة . وقد كانت سياسة إيطاليا الفاشية تستند إلى هذا اللون من ألوان الاستعمار فالمنطق الأفريقي في نظر الإيطاليين لم تكن غير مجال يتسع للحاليات الإيطالية ، وذلك صدى لنعمة رومانية ألفها التاريخ منذ القدم ، فالإيطاليون هم سلالة الرومان الذين أسأوا الامبراطورية الرومانية وجعلوا من رحاب الدنيا محالاً لأهلها ، ومن محاصيلها موارد لأرزاقهم ، ومن بحارها مرافق لحياتهم . وحسبهم أن يكون البحر المتوسط في رأيهم حتى أيام موسوليني بحيرة رومانية .

ونحن نرى أن المطالبة بمستعمرات لإيواء من ضاقت بهم أوطانهم لم تكن في أى وقت من الأوقات سوى ضرب من للريف السياسى وذريعة لتحقيق المطامع المادية .

#### ٥ - الدافع العسكرى ( الاستراتيجى ) :

وخامس الدوافع إلى الاستعمار عسكرى استراتيجى يحرك أممها إلى اعتصاب بعض البقاء والسيطرة عليها بحجة ظاهرها الحرص على السلام وباطنها الحرص على أملاكهم ومصالحهم ، كما حدث عندما احتلت إنجلترا قناة السويس وحصرت لتؤمن السبيل إلى مستعمراتها بالهند ، الأمر الذى كان يحتم عليها كما ادعت أن تسيطر على خط المواصلات إلى امبراطوريتها بالهند ابتداء من جبل طارق ماراً بمالطة وقناة السويس ، ثم عدن وسنغافورة وأمثلة ذلك كثيرة قد لا يتسع المجال لذكرها وتفاصيلها .

#### ٦ - الرغبة فى زيادة المعلومات الجغرافية :

سيطرت على الأوروبيين فى عصر النهضة رغبة قوية لزيادة معلوماتهم الجغرافية ، وكان الباعث على هذه الرغبة ظهور روح البحث العلمى والتنقيب وتقديم علم التلك والاحتذاء إلى آلات لاغنى عنها للقيام برحلات بحرية طويلة ، فقد عرف الأوروبيون الأسطرلاب والبوصلة والدفة المتحركة لعبور البحار مما شجع الملاحين على توسيع نطاق الملاحة ، وبناء السفن القوية الكبيرة الحجم .

ومع ذلك فقد كانت هنالك عوامل شخصية تدفع الأفراد إلى الاستكشاف والاستعمار منها روح المغامرة والكشف والرغبة في الكسب المادى والثراء السريع ، نذكر منها مستعمرة ولاية فرجينيا Virginia وكندا ، والبرازيل ، وبيرو ، والمكسيك وغيرها . كما غدت الأراضي المكتشفة حديثاً ملجأ للعناصر غير المرغوب فيها ، مثل المسجونين السياسيين ، والمحكوم عليهم بالإعدام . فسافر منهم عدد كبير في بادئ الأمر ليعملوا في خدمة الحركة الاستعمارية ، ثم أطلق سراحهم فيما بعد ليندجوا مع سكان للمستعمرات . ولما فقدت إنجلترا مستعمراتها الثلاث عشرة الممتدة على طول الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية أخفقت في استعمار استراليا لتجد ملجأ وملاذاً لهذا النوع من الانجليز ممن لا ترضى عن إقامتهم بالإنجلترا نفسها . لذلك شرعت في استعمار استراليا عام ١٧٨٩ أى ست سنوات بعد حصول الولايات المتحدة الأمريكية على استقلالها .

وعندما وقعت المنازعات الدينية في أوروبا ، هاجر عدد كبير من الأوروبيين المضطهدين إلى المستعمرات ليعلمسوا دينهم بكل حرية . فهاجر عدد كبير من البيوريتان من إنجلترا . فكانوا للنواة التي قامت بتأسيس مستعمرات نيوانجلند . كما هاجر بعض الهيجونوت من فرنسا ، والمورافيين من النمسا وهاجر المضطهدون من إقليم البلاتين ، وأهالى سالزبرج في ألمانيا . وكان أمراً طبيعياً أن تفر هذه العناصر المضطهدة إلى العالم الجديد لتأمن عقائدها بمطلق الحرية دون ملاقة أي معارضة .

أبداً عن حركات الكشف والاستعمار البرتغالي والأسباني فقد اختلفت كل منها عن الأخرى ، فبينما اتجهت كشوف البرتغال نحو غرب أفريقيا وجنوبها ثم شرقاً حتى منطقة جزر الهند الشرقية ، اتجهت كشوف الأسبان غرباً لتصل إلى نفس الهدف أو الغاية التي سعت إليها البرتغال ، ولتثبت حقيقة جغرافية كانت خافية على الأذهان وهي كروية الأرض . كما اختلفت طريقة استعمار كل من البرتغال وأسبانيا . أما طريقة البرتغاليين فكانت تشبه طريقة الفينيقيين والقرطاجنيين من حيث أنهم كانوا يحتلون مراكز معينة على السواحل فقط غير عابئين بالتوغل داخل الأراضي لاستعمارها على الطريقة الاستعمارية الحديثة ( ويستثنى من ذلك استعمارهم للبرازيل ) ، وذلك لقلة عدد سكان البرتغال نظراً لصغر مساحتها مما جعلها غير قادرة على الاستغناء عن عدد من سكانها ، ومن ثم كانت إمبراطوريتهم تتكون من محطات بحرية ، ومراكز تجارية فحسب ،

في هذه المراكز كانوا يقنعون بتجميل المراكب المختلفة القاصدة لشبونة بمختلف السلع وكانوا في العادة يمشون بها من ثلاث إلى أربع سنوات حتى يتمكنوا من جمع بعض المال ثم يعودون أدراجهم إلى بلادهم . هكذا كان شأن الاستعمار البرتغالي ، أما الأسبان فقد استعمروا استعماراً حقيقياً في جزر الهند الغربية والمكسيك وبيرو .

### : الكشف الجغرافية البرتغالية :

من أهم الكشف الجغرافية البرتغالية كشف طريق رأس الرجاء الصالح

كشف طريق رأس الرجاء الصالح .

عبر الملاحون البرتغاليون خط الاستواء عام ١٤٧١ وماكثوا أن القارة الأفريقية تمتد جنوب هذا الخط ، وأن الملاح في هذه المناطق ليست عملية مستحيلة كما كان يعتقد الكثيرون ، كان ملك البرتغال هنري الثاني (١٤٨١-١٤٩٥) من المولعين بالكشف والأسفار بغية الكشف ، وحقت الكشف الجغرافية في عهده نصراً عظيماً عندما اصطدم « برثلميودياز » Barthélémy Diaz بساحل أفريقيا الجنوبية وكشف الطرف الجنوبي للقارة ١٤٨٧ الذي أطلق عليه رأس العواصف ، وقد عدل الملك هذا الاسم فجعله « رأس الرجاء الصالح » (١٤٨٨) تفاؤلاً وتيمناً بالموقع الجليل .

وبعد فترة ركود استأنف البرتغاليون جهودهم في مواصلة الكشف الجغرافية ابتغاء الاهتداء إلى طريق بحري متصل إلى الهند حول أفريقيا . وكانت الهند محصولاتها الثمينة وتوابلها الشهية وتجارتها الراححة الوفيرة هي الهدف الأول للبرتغاليين ، ومخط آمالهم في مشروعات الكشف الجغرافي . وفي يولية ١٤٩٧ أوفد الرحالة « فاسكو دي جاما » Vasco de Gama في رحلة مكونة من ثلاث سفن ، فاستطاع أن يمر برأس الرجاء الصالح ثم سارت سفنه شرقاً بمحاذاة الساحل الشرقي لأفريقيا فمرت بموزمبيق ١٤٩٨ ، وممبسة Mombassa و« مالندي » Malindi (نظر يتبع حالياً كينيا) . وكانت هذه الثغور خاصة بالتجارة وتخضع لسيطرة سلاطين وأمراء المسلمين ، وكان نفوذهم أحياناً كثيرة يمتد إلى ما بعد الساحل . وقد وجد البرتغاليون الحياة الاجتماعية ، والسلطة السياسية على الساحل الشرقي أكثر رقياً من التي وجدوها على الساحل الغربي . كما أنهم اصطدموا بسلطة المسلمين ونفوذهم على الساحل الشرقي مباشرة :

وفي ثغر « مالندى » أقام فاسكودى جاما بضعة أسابيع واستطاع أن يضطر حاكمها إلى تزويده ببجاء ماهر ، عليم بطبيعة الملاحة في المحيط الهندي وهو البحار الربان « ابن ماجد » (لقبه شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدى النجدى) وقد ترك للتراث العربى - الملاحى ثروة قيمة من المؤلفات العلمية في فنون الملاحة والبحرية . أفاد فاسيكودى جاما من خبرة ابن ماجد وما أطلعه عليه من خرائط عربية ممتازة توضح معالم الرحلة ، فجعله قائداً لسفينة القيادة التى كان عليها فاسكودى جاما ، والتى بارحت مالندى قاصدة الهند فوصلت ثغر « كاليكوت » Calicut على الشاطئ الغربى للهند المسمى ساحل « ملبار » وأقام فيها قرابة ثلاثة أشهر عاد بعدها إلى البرتغال فبلغها في سبتمبر ١٤٩٩ ، فاستقبل استقبالاً حافلاً في لشبونة ، فكان بذلك أول من استخدم طريق رأس الرجاء الصالح للوصول إلى الهند

وقد ظل الخط حليفاً لهم ، إذ أنهم بطريق الصمدية اكتشفوا البرازيل عام ١٥٠٠ فقد أوفد ملك البرتغال عمانويل ( ١٤٦٥ - ١٥٢٠ ) رحلة بحرية على رأسها « ألفارز كبرال » Alvarez Cabral قاصدة إلى شرق أفريقيا والمحيط الهندي ، وأراد قائدها أن يتجنب خليج غاة فصل الطريق وانحرف نحو الجنوب العربى ، ومن ثم اصطدم بساحل البرازيل . ولم يلبث هذا الملك أن اختار رحلة آخر يدعى « أمريجو فسبوتشى » Vespucci Amerigo ، قام بعدة رحلات وأطلق اسمه على الأمريكتين .

عندما تم للبرتغاليين العثور على الطريق إلى الهند ، حاولوا تدعيم مركزهم في احتكار التجارة في المحيط الهندي ، فاستخدموا وسائل العنف والقوة ، ونجحوا بهذه الطريقة في استبعاد منافسيهم . فقد قاتل « فاسكودى جاما » أسطولاً تجارياً عربياً تجاه « كاليكوت » Calicut عام ١٥٠٢ . فاعتدى عليه وأنزل بحارته ألواناً متعددة من القسوة منها تقطيع الأيوف والآذان .

ولما كان احتكار البرتغاليين لهذا الطريق يتعارض مع مصالح كل من سلطان مصر والبنادقة ، فقد تعاقدوا على مقاومة النفوذ البرتغالى الجديد . وأعدت بالتالى حملة في البحر الأحمر . وإذا كانت هذه الحملة قد نجحت بادىء الأمر في تحقيق بعض الانتصارات إلا أنها لم تلبث أن هزمت على يد الأسطول البرتغالى بقيادة « الميدا Almeida » في موقعة « ديو » البحرية عام ١٥٠٩ . وقد استطاع القائد « ألبوكرك Albuquerque » أن يقضى على البقية الباقية من نفوذ البنادقة ، وذلك عندما دعم



مركز البرتغال على طول الطريق البحري إلى الهند بالاستيلاء على عدن عند مدخل حوض البحر الأحمر الجنوبي وجزيرة «سنوقرة» Sokatra عند مدخل هلم البحر (١٥١٣) و«هرمز» Ormuz عند مدخل الخليج العربي (١٥١٥) ؛ أى أنه نجح في سد الطريقين الوحيدتين إلى الشرق في وجه النادقة . ولذلك يعتبر «الوكرك» المؤسس الحقيقي للإمبراطورية البرتغالية في الهند استولى على «جوا» Goa عام ١٥١٠ لتصبح عاصمة لهذه الامبراطورية الاستعمارية الشاسعة . وفي عام ١٥١١ يضع يده على «ملقا» Malacca على الطريق التجارى بين الهند والصين (حنوى الهند الصينية وشمال عربي سنغافورة في شبه جزيرة الملايو) . ويسيطر على بعض جزر التوابل ، بل وصلت جهود البرتغاليين ونفوذهم حتى كانتون «Canton» على حدود الصين عام ١٥١٧ . وقد أشئت سفارة برتغالية لأول مرة في بكين عام ١٥٢٠ .

ويمكننا أن نجمل مظاهر الاستعمار البرتغالي في أفريقيا فيما يلى :-

- ١ - توقف البرتغاليون عند السواحل الإفريقية سواء كانت الغربية أم الشرقية ولم يتوغلوا داخل القارة .
- ٢ - اختاروا مناطق صالحة لرسو السفن ولبناء القلاع على طول الساحل الغربي والشرقي ، وأقاموا فيها مراكزهم التجارية ونقاطهم البحرية ؛ وهذه المراكز تكون من قلعة بحرية وكنيسة ومساكن للإقامة الجند والتجار والأفريقيين الذين يعتنقون المسيحية .
- ٣ - تعظيم قوة البحار المسلمين حينما وحنوهم ، وخاصة في شرق أفريقيا وهدم مدنهم ، والمحاولة المستمرة لاحتكار التجارة والاستيلاء على أرباحها بدلا منهم .
- ٤ - لما البرتغاليون التعامل في تجارة الرقيق وبدأت لشبونه تصبح مركزاً مهماً في هذه التجارة ، كما أصبحت مركزاً هاماً لتجارة التوابل ، وسوقاً للجملة تحصل منها أوروبا على كل ما تحتاجه من سلع الشرق الأقصى .
- ٥ - احتكرت البرتغال التجارة مع الأفريقيين .

وعلى الرغم من هذه المظاهر فقد ظلت أفريقيا في المرتبة الأخيرة بالنسبة للاستعمار البرتغالي الذي كان مشغولاً بالتجارة مع الشرق الأقصى وتوابل الهند والشرق وما يفيد

منها من أرباح . ولم يكن احتلال أفريقيا في حسابه أكثر من محطات على طول الطريق لبشر المسيحية وقطع الطريق على التجار المسلمين .

انهيار الإمبراطورية الاستعمارية البرتغال في الشرق وأصبايه :

وهكذا تكونت أول إمبراطورية استعمارية في العالم الأوروبي الحديث . كانت ممتلكاتها تمتد في مساحة تزيد على خمسة آلاف فرسخ ( ٥٠٠٠ فرسخ ) من السواحل ابتداء من رأس « بوجادور » في الأطلنطي حتى « مولوكاس » Moluccas في الباسيفيكي ، كما كانت تتضمن جزءاً من أمريكا الجنوبية ( البرازيل ) .

على أن البرتغال لم تستطع الاحتفاظ بهذه الإمبراطورية زمناً طويلاً . إذ لم تلبث أن سقطت أمام عزو أسبانيا في عام ١٥٨٠ . وظلت هي ومستعمراتها تابعة لأسبانيا حتى عام ١٦٤٠ ، وذلك لعدة عوامل من أهمها : -

١ - لم يستطع البرتغاليون أن يقلدوا البنادقة في إيجاد طمقة من التجار الصغار للعمل في ميدان التجارة . وإنما تركوا هذه المهمة للهولنديين الذين نافسوا البرتغاليين وكانوا خاضعين لحكم الأسبان ، فأتاح لهم ذلك فرصة توزيع تجارة البرتغال في أوروبا . وأصبحت لشونته نموج بالتجار الهولنديين . الذين كانوا يقومون بدور الوسيط بين البرتغال وباقي أوروبا ، وغدت كل من أمستردام وAntwerp مركزين رئيسيين لتوزيع سلع الشرق الأقصى وأفريقيا وعندما استولت أسبانيا على البرتغال عام ١٥٨٠ وكان الهولنديون في ثورة على الحكم الأسباني ، أغلق فيليب ملك أسبانيا موانئ البرتغال في وجوههم . مما دعا الهولنديين إلى إرسال سفنهم إلى غرب أفريقيا ليتعاملوا مباشرة مع مراكز التجارة الأصلية في أفريقيا والشرق . واستطاعت هولندا أن تنزع من البرتغاليين محطاتهم التجارية ، وأن تأخذ سفنهم المشحونة بالسلع والبضائع غصباً ، وأن تقوص صرح الإمبراطورية البرتغالية في الشرق الأقصى ، حيث مكثت هولندا لسلطانها وطلت آثارها الاستعمارية في جزر الهند الشرقية باقية مثالة إلى عهد قريب .

٢ - ومن العوامل التي سهلت عملية اغتصاب الهولنديين للمراكز التجارية البرتغالية أن البرتغال لم تستطع لقلّة عدد سكانها بسبب صغر مساحتها أن تقدم عدداً كافياً من الرجال للدفاع عن مثل هذه الإمبراطورية العظيمة . ولذلك لم يتمتع

البرتغاليون بهذا الملك العريض وتلك الامبراطورية الشاهجة أكثر من ٧٥ عاماً ،  
عندما حل محلهم الهولنديون منذ نهاية القرن السادس عشر ثم الانجليز والفرنسيون .

### الكشف الأسبانية :

بينما كان البرتغاليون ضهيكين في البحث عن الطريق إلى الهند جنوباً بالنوران  
حول أفريقيا ، كان هناك إيطالي يعمل لحساب أسبانيا وهو « كريستوف كولمب »  
Christopher Columbus يتجه غرباً ويكشف عن غير قصد قارة جديدة هي قارة  
أمريكا

من الصعب أن نتبع حياة هذا المكتشف العظيم بسبب ما أحاط بها من أساطير  
مختلفة ، ولد في جنوة عام ١٤٥١ . ويظهر أنه قد اقتبس فكرة البحث عن الطريق إلى  
الهند بالسبر غرباً من العالم الفلكي القلورنسي « توسكانيلي » Toscanelli Barthélemy  
وقد بدأ يظهر اهتمام كولمب بالشئون البحرية منذ عام ( ١٤٨٠ ) بعد زواجه من ابنة  
برتغالي معروف بمقدرته الملاحية . وهكذا نجده يحاول أن يحقق مشروعه في الوصول  
إلى الهند غرباً . وقد سيطرت عليه فكرة كروية الأرض التي عرفها وأعلنها العلماء  
الأقدمون من افريق ورومان . وقد ساعد كولمب على المضي في مشروعه ما انصف  
به من صلابة في الرأي وثبث به ، فلم يكن من السهل أن يتناهى بأس فيقلع عن  
مشروعه . بدأ بالتفكير في عرض مشروعه على بلده حتى يكسبها فخر نجاح محاولاته  
ولكنه فشل عندما رفض السناتو في جنوة مساندته في مشروعه ، فاجأ إلى البرتغال وطنه  
الثاني . فأحسن الملك جون الثاني استقباله . وأرسل مشروعه لفحصه إلى Diégo Otrís  
وهو أسقف « سبته » وإلى طبيين يهوديين عالمين في الوقت نفسه بشئون الملاحة  
ولكنهم بدافع عامل الغيرة والحقد على كولمب أعلنوا خطورة الإقدام على المشروع  
وعدم احتمال نجاحه .

وقد اشتد غضب كولمب . فغادر البرتغال ، وقصد أسبانيا في نهاية عام ١٤٨٤  
كما أنه أرسل أخاه Barthélemy إلى الأمير هنري في انجترا وهو الذي سيصبح  
بعد قليل الملك هنري السابع مؤسس أسرة التيودور فيها . وبينما كان أخوه يعرض  
الأمر على هذا الأمير ، كان هو نفسه يعرض المشروع على فرديناند وإيزابلا .  
وكانا مشغولين بالحرب ضد العرب في أسبانيا ومع ذلك فقد رحبا به وعهدا إلى

« تلافيرا » Talavera رجل الدين المقرب من الملكة ، والذي تدلّى إليه باعترافاتها ، لفحصه . وبعد بحث طويل ، وضياع خمس سنوات لم يصل إلى كولب أى موافقة على مشروعه بل أن ملكى أسبانيا صرحا له بأنهما لن يقدمَا على أى عمل حديد قبل الانتهاء من الحرب ضد العرب .

وقد زاد من حزن « كولب » وآلامه أنه لم يتلق أى رد من أخيه « بارتليمي » وقد أسره القراصنة فظل في حوزتهم عدة سنوات . عندئذ صمم أن يسافر بنفسه لعرض الأمر على ملك انجلترا ولكن جوان بيريز Juan Perés وهو رجل من رجال الدين في إحدى الأديرة - وقد درس مشروع كولب واقتنع بصحته - به الملك إلى أهمية هذا المشروع . وقد دهشت الملكة لتوصيحاته ، فاستدعت كولب للمشول أممها في القصر . وبعد أن كاد كولب أن يقع الملكة بصلاحيته مشروع ، ظهرت الملكة نفورا من المشروع بسبب تأثير فرديناند زوحها عليها .

وعندما نجحت إيزابلا وفرديناند في طرد البقية الباقية من العرب من غرناطة توسط وزيران لمشروع كولب موافقت الملكة عليه ، ولما كانت حالة البلاد المالية سيئة ، فقد تبرعت بجواهرها لكى تغطى نفقات رحلة كولب ، ثم عقدت معه معاهدة في « سانت فيه » Santa-Fé - حيث كان الملاك يقيان - بتاريخ ١٧ إبريل ١٤٩٢ ونص الاتفاق على « أن فرديناند وإيزابلا بوصفهما ملكى المحيط قد أنعما على كولب برتبة أدميرال أعظم على كافة البحار ، وأنجزر والقارات التى يكشفاها ، على أن تؤول كل هذه الممتلكات لأولاده من بعده » وقد عين كذلك نائبا عن الملك في كافة الأراضي التى يكشفاها . وله عشر المكاسات التى تجنيها أسبانيا من العمليات التجارية الناجمة عن الكشوف الجديدة .

وقد زوده بالمال اللازم للرحلة علاوة على حلى الملكة الأخوة « نزن » Pinzon وكادت عدته من ثلاث سفن قاد إحداها وهى Sainte-Marie بينما قاد السفينتين الأخرين الأخوة الثلاثة Pinzon . وقد أطيروا جميعاً استعدادهم لكل تضحية في سبيل الإسهام في نجاح مشروع كريستوف كولب .

رحلت السفن الثلاث من ثغر « بالوس » Palos في ٣ أغسطس ١٤٩٢ وتوقفت الرحلة في جزر الكارى . واكتفى لم تلت أن استأنفت الرحلة من جديد في ٩ سبتمبر ،

وقد اشتد قلق البحارة لبان الثلاثة والثلاثين يوماً التالية ، فظنوا أنهم لن يتمكنوا من العودة إلى أسبانيا . ولكنهم لم يقوموا بالعصيان كما أشاع بعض المعارضين ، وفي ليلة ١١ - ١٢ أكتوبر ظهرت لهم بعض معالم الأرض . وقد كانت تلك التي اقترب منها كولمب هي إحدى جزر « لوكايس » Lucayas بالقرب من أمريكا الشمالية وعند مدخل مضيق فلوريدا Florida ؛ فأطلق عليها « سان سلفادور » San Salvador فظن كولمب بأنه قد اقترب من سواحل آسيا . وفعلاً أخذ يبحث عن مملكة « كاتي » Cathay ( الصين ) ليقدّم للملكها الخطابات التي زودها بها ملكا أسبانيا ولكن دون جدوى . هناك سارع بالعودة ليعلن نتيجة اكتشافاته في أسبانيا : فوصل ثغر « بالوس » Palos في ١٥ مارس ( ١٤٩٣ ) أى بعد شبعة أشهر من مغادرته إياه . وهناك استقبل استقبال الظافر . وقد اكتشف خلال هذه الرحلة جزر كوبا وهايتي وغيرها ، ولم يلبث أن قام كولمب برحلات ثلاث أخرى ( ١٤٩٣ - ١٤٩٨ - ١٥٠٢ ) وفيها تم الكشف عن جزر الهند الغربية . وفي رحلته الثالثة سار بمحاذاة الساحل الشمالي لأمريكا الجنوبية عند مصب نهر أورينكو . وفي رحلته الرابعة سار بمحاذاة بعض سواحل أمريكا الوسطى ، ووصل فعلاً مضيق بنما . ومات عام ١٥٠٦ بعد وصوله إلى أسبانيا بقليل .

فقد كولمب خطوته عند الشعب الأسباني ابتداءً من رحلته الثانية وذلك لأن رحلاته لم تحقق ما وعد به كولمب ، كما أنها لم تحقق المطامع التي تاقوا إليها من الذهب والفضة .

مات كولمب في أسبانيا عام ١٥٠٦ وهو يعتقد أنه قد وصل إلى آسيا وأن الجزر التي اكتشفها إنما هي تلك التي توجد بالقرب من الهند ؛ ومن هنا ترجع تسميتها إلى جزر الهند الغربية ، وكذلك تسمية سكانها الأصليين بالهنود . ولم تلبث الأذهان أن أخذت تشك في أن هذه الأراضي التي وصل إليها كولمب هي آسيا . ولا سيما بعد تلك الرسالة التي نشرها « أمريجو فسوتشي » Amerigo Vespucci الفلورنسي ؛ فأشار إلى هذه الأراضي المكتشفة حديثاً بالعالم الجديد . وقد قام برحلته لحساب البرتغال في إتمام كشف البرازيل فاقترح عالم من اللاتين إطلاق اسم أمريكا على هذه الأراضي المكتشفة عام ١٥٠٧ . وقد تأكد هذا الاعتقاد عندما عبر « بالبوا » Balboa الجبال التي

يتكون منها المضيق (مضيق بنما) ووجد نفسه تجاه محيط عظيم واسع الأرجاء في هام  
١٥١٣ .

وقد انقطع الشك فأصبح يقيناً بعد رحلات «ماججلان» حول الأرض .  
«ماججلان» Magellan (١٥١٩-١٥٢٢) . حدث ذلك في عهد ملك أسبانيا شارل  
الأول الذي تولى عرشها عام ١٥١٦ (وتوج امبراطوراً باسم شارل الخامس هام  
١٥١٩) . ففي عهده بلغت البحوث الكشفية الأسبانية اللروة . و«ماججلان» برنغالي  
كان يعمل تحت قيادة «الميداء» Almeda في الهند ، آمن بفكرة الوصول إلى الشرق  
عن طريق السير غرباً حول الطرف الجنوبي لأمريكا . ولما كان مغضوباً عليه من  
ملك البرتغال فقد قدم مشروعه للملك أسبانيا فرحب به . وكان يتلخص في أن الطريق  
إلى جزر التوابل من الغرب أقصر إليها من الشرق ، وأن هذه الجزر تقع في المنطقة  
المخصصة لاسبانيا حسب الاتفاق المعتقد بينها وبين البرتغال .

أعدت الحملة من خمس سفن أبحرت في أغسطس ١٥١٩ من ميناء «سان لوكار»  
San Lúcar واتجهت في المحيط الأطلسي جنوباً فسارت حتى «ريودي جانيرو» في  
البرازيل ثم إلى مصب نهر «ريودي لابلاتا» وسارت بمحاذاة الشاطئ الشرقي لأمريكا  
الجنوبية واكتشف رحالها في أكتوبر ١٥٢٠ ممرًا مائياً عميقاً جداً محصوراً بين جبال  
شاهقة تغطيها الثلوج . وكان هذا الممر عند الطرف الجنوبي لأمريكا الجنوبية ويفصل  
هذه القارة عن جزيرة أرض النار . وقد أطلق على هذا الممر اسم مضيق ماججلان .  
وطافت السفن حول الطرف الجنوبي لأمريكا الجنوبية عبر هذا المضيق ثم دخلت  
في ٢٠ نوفمبر إلى المحيط الهادى ، وسماه ماججلان بهذا الاسم لأنه وجد قليل الأعاصير  
بالمقاييس إلى ما عاتاه في المحيط الأطلسي ، وأبحرت السفن شمالاً إتجاه الغرب وقطعت  
آلاف الأميال البحرية في المحيط الهادى ومرت بجزر «ماربانا» ثم وصلت إلى جزر  
العيلين . وأطلق عليها هذا الاسم تكريماً لفيليب ابن شارل الخامس والذي سيعتلى  
عرش أسبانيا باسم فيليب الثاني (١٥٥٦ - ١٥٩٨) .

أعتقد ماججلان أنه وصل إلى جزر التوابل ولكنه كان قد أخطأ في تقدير درجعات  
العرض ، وابتعد عشر درجات شمالاً عن الطريق المؤدى إلى جزر التوابل . ونتج  
عن ذلك أن أصبحت هذه الجزر تابعة لاسبانيا وقد لقي ماججلان حتفه في نزاع مع  
سكان إحدى هذه الجزر في أبريل عام ١٥٢١ ، فتولى القيادة من بعده أحد رجال

الحملة وهو « جون سباستيان ديلكانو » John Sebastian Del Cano ، وغادرت الحملة القلبيين بعد أن نقص عدد رجالها نقصاً خطيراً . وفي نوفمبر ١٥٢١ وصلت إلى إحدى جزر التوابل - وهي « تيتور » Tidor ، وكان الوصول إليها من الأمور التي راودت خاطر ماجلان .

وفي فبراير ١٥٢٢ غادرت الحملة جزر التوابل في طريق عودتها إلى أسبانيا ، فعبرت المحيط الهندي ومرت برأس الرجاء الصالح في ٦ مايو ١٥٢٢ ، ودلفت إلى المحيط الأطلسي بعد أن أمضت في رحلتها ثلاث سنوات ، وكانت عدد بحارتها في أول الرحلة أكثر من مائتين . مات وقتل معظمهم حتى هبط عدد منهم إلى ثمانية عشرة رجلاً ، وكان معظمهم من المرضى ، وبعد أن كانت الحملة مكونة من خمس سفن عادت الحملة بسفينة واحدة ولكن عندما وصلت هذه الحملة إلى « ملوكاس » Moluccas جزر التوابل الواقعة في الشمال الغربي من أستراليا ، وقد عرفها العرب منذ أيام القرن العاشر ، ولكنها وقعت في يد هولندا عام ١٦٠٥ ، ثم استقلت وأصبحت جزءاً من جمهورية أندونيسيا - استطاعت أن تحصل على شحنة من التوابل وجد عند العودة أنها كفيلاً بتغطية جميع نفقات هذه الرحلة الطويلة الأولى ، من توغها في العالم .

كان لهذه الرحلة نتائج على جانب عظيم من الأهمية ، فهي قد أثبتت أن السرى إلى اتجاه واحد سواء أكان ذلك من الشرق أم من الغرب يؤدي إلى المكان الذي بدأ منه الإنسان رحلته . وبذلك استقرت في الأذهان الحقيقة الجغرافية ، وهي كروية الأرض وصححت مواقع الأراضي المستكشفة ، وأيقن رجال البحث أن هناك قارتين عظيمتين - الإتياسع هما أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية تفصل بين أوروبا وآسيا ، فضلاً عن محيط متراعى الأطراف كان مجهولاً وهو المحيط الهادى . فتحت رحلة ماجلان الشرق الأقصى أمام أوروبا بطريق ملاحى متصل ، وربطت بين العالم الجديد الذى يضم الأمريكين ، وبين الشرق الأقصى باكتشاف البحر الذى يعرف باسم ماجلان في أقصى الطرف الجنوبي من أمريكا الجنوبية موصلاً بين المحيطين الهادى والأطلسي . ولم يبق غالباً عن مجال المعرفة سوى أستراليا والأقاليم القطبية .

أما دور إنجلترا في ميدان الكشف فبعد صغيراً للغاية إذا قورن باللور العظيم الذى قامت به كل من أسبانيا والبرتغال . ويرجع الفضل فيه إلى إيطالى كلوك ، من السندقية ويلمى « جون كابوت » John Cabot ، نزع إلى إنجلترا وأقام في بريستول

في عهد هنري السابع مؤسس أسرة التودور. وكان مولعاً بالسير وركوب البحر وحل علم بأحوال الشرق إذ نسق له السفر إليه عن طريق القوافل في وسط آسيا إلى الصين ، وقد سمع له هنري السابع في عام ١٤٩٦ بالقيام على رأس بعثة لاكتشاف الإقليم التي نجا عليها « الكفرة غير المسيحيين » ، فأبحر « كابوت » من ميناء بريستول ١٤٩٧ في سفينة إنجليزية ، وعبر المحيط الأطلسي حتى وصل ساحل أمريكا الشمالية عند « نيوفوندلاند » New Found Land وهي أقدم المستعمرات الإنجليزية .

وأبحر كابوت مرة ثانية عام ١٤٩٨ في خمس سفن وارتاد الشاطئ الشرقي لأمريكا الشمالية حتى فلوريدا . وقد أدى ذلك إلى استعمار إنجلترا للأقاليم المعروفة الآن باسم الولايات المتحدة الأمريكية خلال القرن السابع عشر .

أما فرنسا فكانت كشوفها قليلة ومتأخرة عن البرتغال وإسبانيا وإنجلترا ، نلخصها فيما يلي :

١ - انتهت نحو أمريكا الشمالية فكتشف كندا . وكان الملاح الفرنسي « جاك كارتيه » ( ١٤٩١ - ١٥٥٧ ) Jack Cartier في طليعة الرواد الفرنسيين الذين كشفوا هذا الإقليم . عهد إليه الملك فرانسوا الأول في عام ١٥٣٤ بالقيام . برحلات كشفية يعبر فيها المحيط الأطلسي في اتجاه الغرب نحو العالم الجديد . وقد وصل إلى شاطئ جزيرة نيوفوندلاند المواجهة لكندا ، ثم بلغ شاطئ كندا . وكان « جون كابوت » قد سبقه إلى هذا الشاطئ عام ١٤٩٧ ، ولكن الملاح الفرنسي تميز عنه بكشف مصب نهر سنت لورنس وبتوغله داخل الأراضي الأمريكية . وقام « جاك كارتيه » بأربع رحلات في هذه المنطقة .

٢ - أدت الاضطهادات الدينية في فرنسا إلى هجرة عدد كبير من الهيوغونوت إلى العالم الجديد . وكان لتجارة الفراء أثرها في تنشيط حركة الكشف . فقد أقبل عليها الفرنسيون إقبالا عظيماً واستعانوا بالهنود الأصليين على الحصول على الفراء من الغابات .

٣ - وركز الفرنسيون جهودهم في حوض سانت لورنس طوال القرن السابع عشر . فتكونت الشركات التجارية لاكتشاف المناطق وبناء المستعمرات . وكانت أكبر الجهود في هذا المجال بفضل « صمويل شبلان » Samuel de Champlain إذ أسس



أول مستعمرة فرنسية في شبه جزيرة شرق كندا أطلق عليها «أكاديا» Acadia ثم عرفت «بنوفاسكوشيا» Nova Scotia . وفي عام ١٦٠٨ أسس مدينة «كويك» Quebec على نهر سانت لورانس . وأطلق اسم «شامبلان» على بحيرة تقع بين الولايات المتحدة وجنوبي كندا تخليداً للذكرى المكتشف العظيم .

وفي ١٦٨٢ نجح «لاسال» La Salle (١٦٤٠ - ١٦٨٧) في اكتشاف نهر المسيسيبي ، ونشأت فيه مستعمرة لويزيانا نسبة إلى لويس ١٤ . وانتهى الأمر بالفرنسيين إلى تكوين مستعمرات كندا ولويزيانا . وقد أدى الاحتكاك بين مستعمرات إنجلترا وفرنسا إلى صدام حربي بينهما عام ١٧٥٤ . وهكذا أسهمت فرنسا في مجال الاكتشاف الجغرافية بعمل رائع في أمريكا الشمالية يفوق عمل إنجلترا بها .

#### تكوين الإمبراطورية الأسبانية :

احتل الأسبان بادية الأمر جزر الهند الغربية ولكنهم لم يجدوا بها غير قنر صئيل من الذهب وكانوا يطمعون في العثور على كيات كبيرة منه ولكن أحاديث السكان الأصليين دلهم على أن الذهب وغيره من المعادن الثمينة توجد بكثرة في قلب القارة الجديدة . وهنا فكر الأسبان في غزو هذه القارة ، وكان ذلك بعد أربعة عشرة عام من وفاة «كولب» .

#### استعمار المكسيك :

كان يسكن القارة الأمريكية شأن جزر الهند الغربية أقوام متوحشون . ولكن في بعض المناطق كالمكسيك وبيرو وجد الأسبان ممالك حقيقية ، وصلت إلى درجة متقدمة من الحضارة ، ومن الاكتشافات الحديثة يظهر أن حضارة هذه الأقاليم إنما ترجع إلى عهد بعيد .

عند وصول الأسبان إلى المكسيك وجدوها محتلة بجماعة من «الآستك» Azteques وهي جماعة نزحت جنوباً وكانت حديثة العهد بالسلطة في هذا الإقليم . ومن المظاهر الحضارية لهذه الجماعة ، أنها كانت تشغل بالزراعة ، وتطرد من حظيرتها كل من يرفض أن يزرع ويستقر أو يتزوج ، كما احتوت على طائفة من المعدنين المهرة ، يصنعون النحاس والزنك والفضة والذهب ، ومنهم أيضاً النساجون أى صانعو الأقمشة

من القطن والكتان وفراء الأرانب ، وريش العصافير . وقد برعوا في تلوينها بألوان زاهية ، كما كانت كتاباتهم تشبه الكتابة الهيرغليفية عند قدماء المصريين وقد شيدوا المدن العظيمة التي أعجب بها الأسبان أشد الإعجاب .

ومع ذلك فإن عادات وتقاليد شعب الآستك كانت خليطاً بين الحضارة والمدنية من ناحية ، والوحشية من ناحية أخرى . فقد كانت ديانتهم همجية بدائية تتطلب آلهتهم فيها ضحايا بشرية كثيرة ، فد تبلغ المئات بل والآلاف في بعض الأحيان ، فكانت الضحية تلى على حجر بحمله أربعة من الكهنة ، ثم يشق صدرها بسكين لاستخراج القلب الذي يقدم للآلهة قرباناً . ومن ثم كان سكان المكسيك في حرب دائمة مع جيرانهم ليحصلوا على تلك الضحايا البشرية اللازمة لآلهتهم .

ثم غزو المكسيك ، ومساحتها تباع أربعة أمثال مساحة فرنسا خلال أربع سنوات ( ١٥١٩ - ١٥٢٢ ) . وقد أنجز هذا الغزو أسباني يدعى فرناند كورتيز ، Fernand Cortez دفعه حبه للمغامرة ورغبته الملحة في الإثراء إلى المخاطرة في هذا العالم المجهول . وإذا أخذنا في الاعتبار ضآلة الموارد وقلة الأعداد التي استعملت في هذا الغزو ، ثم عظم مساحة المكسيك لاشتد عجبنا لسرعة هذا الغزو ، إذ أن عدد رجال « كورتيز » لم يكن ليتجاوز بعض المئات . ولكن الظروف كانت مواتية فقد كانت إمبراطورية الآستك على اتساعها ضعيفة ، تعززها الإدارة الحازمة ، والسلطة المركزة ، كما أنها كانت مكونة من شعوب متباينة تخضعت بعد تقبال طويل شاق . فاستعان كورتيز بالرعايا الناقمين على هذا الحكم الجديد « حكم جماعة الآستك » فأمدوه بالرجال والعدد ، أمدوه في هجومه الأول بحوالي سبعة آلاف رجل .

استعمار بيرو :

بعد مضي عشرة أعوام من غزو المكسيك قام مغامرون أسبانيون آخرون بغزو بيرو فوجدوا فيها شعباً آخر متمدياً وهو شعب « الكويكواس » Quichuas وإمبراطورية منظمة هي إمبراطورية « الإنكا » Incas وكان الذهب والقضبة يوحدان بها بكثرة . وقد سمع الأسبان المقيمون في بنا بهذا الثراء العظيم وتلك الكنوز من الذهب والقضبة . فعول إثنان من محبي المغامرة والمغامرة وهما « فرانسوا بيزارو »

« Francois Pizarro » و « ألمجرو » Almagro على محاولة غزو هذا البلد الغني .  
ألا وهو بيرو .

وفعلا قاد الحملة « بزارو » Pizarro ، فوصل إلى بيرو عام ١٥٣٢ ، وهو على رأس ١٧٠ رجلاً ومعهم ٧٠ حصاناً ، وقد استعان بنفس الظروف التي استعان بها « Cortez » في المكسيك من قبل . إذ كان بيرو حزبان يتنازعا السلطة . وفي عام ١٥٣٥ أصبحت بيرو تابعة لبزارو Pizarro الذي أنشأ لها عاصمة جديدة في « ليما » Lima على أن النزاع ما لبث أن نشب بين الشريكين وترتب عليه إعدام « ألمجرو » Almagro في ١٥٣٨ ، فانتقم له رجاله وجنده بالقضاء على غريمه « بزارو » Pizarro عام ١٥٤١ ، ولم تتوقف المنازعات بين مؤيدي الفريقين إلا عندما تدخل مارل الخامس الإمبراطور فأرسل من قبله حاكماً لبيرو يخضع له مباشرة عام ١٥٤٧ .

#### احتكار الأسبان لتجارة المستعمرات :

وقد وضع ملوك أسبانيا لمستعمراتهم نظاماً موحداً . كان الغرض منه إخضاع هذه المستعمرات لأسبانيا إخضاعاً تاماً . فكانت أسبانيا تبعث إلى كل من مستعمراتها بكاماً يعينهم موظفون . وفي أسبانيا نفسها كان « للمجلس الأعلى للهند » Conseil Suprême des Indes السلطة العليا في كل ما يتعلق بحكم هذه المستعمرات المدني والجبردي الديني والقضائي . وعلى غرار ما فعلته البرتغال - ذلك المثل الذي وجدت حلوله سائر الأمم الاستعمارية - احتفظ الأسبان بحق احتكار الاتجار مع مستعمراتهم ، وقد كانت التجارة منظمة نظاماً دقيقاً فكانت اشيبليه هي الثغر الوحيد في أسبانيا الذي تغادره من مرة كل عام إلى المستعمرات أو التي تؤمه من المستعمرات .

#### فسة الدول :

وفي عام ١٥٨٠ ضم فيليب الثاني البرتغال وإمبراطوريتها الاستعمارية لأسبانيا بما في هذه الممتلكات مطمح أنظار الدول الأوروبية الأخرى ولاسيما تلك التي تطل على المحيط الأطلسي فتنازع أسبانيا سلطتها كل من الانجليز والفرنسيين والهولنديين ، لك لأن كيانه كل منها بل وديانة اثنين منها كانت مهددة بالفكر المضطرد في سلطة انيا في أوروبا . ومنذ منتصف القرن ١٦ بدأت هذه الشعوب الثلاثة تحاول أن تحد

من نفوذ أسبانيا ، وأن تغير على موارد ثروتها وعظمتها التي جعلتها خطراً ماثلاً عليهم جميعاً ، ولكن هذه المحاولة كانت - في غالبيتها ولمدة طويلة - نتيجة لمجهودات الأفراد والمتطوعين لا الحكومات والقوات النظامية .

لم يلبث أن تزعزع موقف أسبانيا ، وأن هددت في احتكارها لتجارة البحار ، عندما هزمت إنجلترا الارمادا العظيمة التي لآتقهر «L'invincible Armada» في بحر المانش عام ١٥٨٨ بزيمة فادحة (١) ؛ تلك الهزيمة التي بدأ بها أفول نجم أسبانيا ، كما أنها لم تفتح الطريق التجاري أمام الانجليز فحسب بل أمام ملاحى العالم كافة ؛ وذلك لأن إنجلترا - عقب انتصارها العظيم - نادت بحرية التجارة وأصبحت خلال القرون الثلاثة التالية حامية لها . وحتى عام ١٥٨٨ لم تكن هناك قوة تجرؤ على المطالبة بالحق المطلق للتجول في أى بحر من بحار العالم المفتوحة ، بينما كانت أسبانيا والبرتغال وحدهما تتمتعان بهذا الحق ، فكان لهما حق ارتياد كل من المحيط الأطلسى الجنوبى ، والمحيط الهادى ، والهندي .

### أهم النتائج التي ترتبت على حركة الكشوف الجغرافية العظيمة :

من أهمها النتائج الاقتصادية : وتتلخص في انتقال مركز التجارة من حوض البحر المتوسط إلى المحيط الأطلسى ، وانتقلت الأهمية التجارية من دول حوض البحر المتوسط إلى دول غرب أوروبا . ويعرف هذا بالثورة التجارية التي كان من أهم عواملها اتساع نطاق التجارة وتدفق معدنى الذهب والفضة إلى أوروبا وكانا نادري الوجود بها في نهاية القرن الخامس عشر . فقد حصل البرتغاليون منذ البداية على كميات كبيرة من الذهب من الساحل الغربى لأفريقيا . وازداد تدفق الذهب إلى أوروبا نتيجة لاستيلاء الأسبان على المكسيك ( بين عامى ١٥١٩ - ١٥٢٢ ) وعلى بيرو بين عامى ( ١٥٣٢ - ١٥٤١ ) . وفى عام ١٥٤٥ اكتشفت جبال بأكملها من الفضة يصل ارتفاعها إلى سبعمائة متر في « بوتسوى » Potosi بمرتفعات بيرو . وقد أمسى غنى بيرو بعد ذلك مضرب الأمثال . وترتب على ذلك أنه منذ منتصف القرن السادس عشر أصبح في أوروبا من القطع الفضية والذهبية ما يعادل اثني عشرة مرة ما كان بها قبل سنين

(١) انظر تفاصيل هذه الموقعة وأهم نتائجها ص ص ١٣٦ - ١٣٨ .

عاماً ، إذ اتسعت عمليات تصدير الذهب والفضة وغيرها من المعادن النفيسة إلى أوروبا ، وأخلت السفن الأسبانية منذ أواسط القرن السادس عشر تعود إلى أسبانيا وهي عملة بالفضة من المستعمرات الأسبانية في أمريكا الجنوبية بعامة وفي بيرو وبخاصة ، وخذت أسبانيا مركز الفضة وسوقها الرئيسية في أوروبا . وأخلت تصدير سبائك الفضة إلى سائر البلاد الأوروبية ، وبدأ في عهد فيليب الثاني ملك أسبانيا (١٥٥٦ - ١٥٩٨) ما يسمى بعصر الفضة في أوروبا ، وتوفر نتيجة لذلك النقد المتداول . فزادت الأجور وخفضت أسعار السلع والحاجيات وارتفع بالتالي مستوى المعيشة بين أفراد الطبقة الوسطى . فازدادت قوة ، وتوسع مركزها السياسي .

حاولت أسبانيا بما سنته من قوانين ونظم تجارية أن تحتفظ باحتكار هذه الرواتب الطائلة التي كانت ترد إليها من العالم الجديد ، ولكنها لم تستطع أن تحقق ذلك تمام التحقيق لأنها كانت لا تستطيع أن تزود مستعمراتها في العالم الجديد بما يلزمها من مصنوعات مختلفة ، لذلك قام الأجانب غير الأسبان بهذا الدور من دول أوروبا البحرية في الجزء الشمالي الغربي منها وهي هولندا وإنجلترا وفرنسا ، بما ترتب عليه انتشار المعدنين النفيسين في هذه البقاع المختلفة في القرن السادس عشر . وقد تأثرت فرنسا تأثراً بالغا بهذا المعدن فقد كانت تمد أسبانيا بكثير من مصنوعات وصناعاتها كذلك ، فأثرت طبقة المالين فيها ورؤساء المصارف مما شجع الكثيرين من التجار على ترك أعمالهم التجارية للاشتغال بالمعاملات المالية .

ولم يقتصر الأمر على أسبانيا وفرنسا بل أصلب الغلاء سائر الدول التي وصل إليها هذا المعدن ، ففي فرنسا يجحد ارتفاع في أسعار الخبث والمصنوعات والأراضي . وصلت هذه الأسعار في نهاية القرن السادس عشر إلى ثلاثة أمثال بل أربعة أمثال ما كانت عليه في بدايته .

نتج عن ذلك أيضاً ازدياد النشاط التجاري الاقتصادي ، وقد ظهر ذلك في إنشاء الصناعات الجديدة مما أدى إلى زيادة في رؤوس الأموال ، ووجه الأنظار نحو العمل على ضمان حرية التجارة ، ومن هنا ظهرت الحاجة إلى الحصول على مستعمرات لتصريف مصنوعات الدولة ، والحصول على المعادن والمواد الأولية اللازمة للصناعة . ومن ثم بدأ التقدم والنمو الاقتصادي للدول البحرية ولأسيما الواقعة غربي أوروبا وشمالها الغربي ، ولم تلعب هولندا في هذا المضمار إلا دوراً ثانوياً ، ومع ذلك فقد نمت تجارتها

مع الخارج وخاصة مع أسبانيا التي كانت في حاجة إلى منتجاتها ، ومع ان كانت تبحث عن منتجات فرنسا الزراعية .

كما اهتمت فرنسا بالاتجار مع الشرق ، وقد عقد ملكها فرانسوا الأول الامتيازات مع سلطان الممالك في مصر ثم مع السلطان العثماني ( سليمان القانوني ) واعترفت هذه المعاهدات بحماية فرانسوا الأول الشعوب الكاثوليكية في أملاك العثمانية . وهكذا أصبحت فرنسا في حوض البحر المتوسط تتمتع بمركز قوى فيه إلا البندقية . كما كانت في أمريكا الجنوبية تقوم بتجارة التبريب ، ونشأ ذلك ميناء « هافر » Havre في عهد فرانسوا الأول ، كما ازدهرت كل من Nantes ، و « بورجو » Bordeaux في القرن ١٦ .

ومع ذلك فقد ظهرت قوة هولندا البحرية فتفوقت على فرنسا في هذا الميدان ذلك القرن ، كما ساهمت إنجلترا في النصف الثاني منه في التجارة البحرية . أسرة التيودور هذه الحركة وبدأت تصنع لنفسها سياسة بحرية في عهد ( ١٥٥٨ : ١٦٠٣ ) وقد اصطدمت إنجلترا بأسبانيا في هقلا الميكان واستطاع Drake بن عامي ١٥٧٧ ، ١٥٨٠ أن يتزل بالمستعمرات الأسبانية خسائر فادحة

نتج عن النشاط التجاري الاقتصادي المتزايد إنشاء للبرصات المالية على نص كما في بورصة « أنفرس » Anvers وفي بورصة « ليون » Lyon ومن ثم الأهمية من الأسواق إلى البورصة التي ساعدت على تركيز العمليات التجارية وأصبحت مفتوحة أمام بضائع كل الأمم ، كما تشير العبارة الموجودة على « Anvers » التي أنشئت عام ١٥٣١ .

وازداد نشاط المصارف ، وعددها قيادة عظيمة ، وأحرز عمالها و ثروات ضخمة مما جعلهم يشترون ضياعاً واسعة ، ويصبحون من كبار ا وكان يحميم عواهل أوروبا ومنهم الامبراطور شارل الخامس ( ١٥١٩ - ٥

أما النتائج السياسية :

استطاعت أسبانيا أن تغتنى بسرعة عن طريق الكنوز المتدفقة إليها من العالم وأن تجذب نحوها الحلفاء من كل أنحاء أوروبا ، كما عاونتها هذه الأموال ع

الحمولات وخوض الحروب المختلفة ، فكانت هذه الثروة من العوامل الأساسية التي بنت عليها أسبانيا سيطرتها السياسية التي تمتعت بها حتى منتصف القرن ١٧ . فن أسبانيا كان الامبراطور شارل الخامس يستمد معظم دخله ، فكانت ديونه ونفقات جيوشه ، تدفع من الذهب الأسباني ، وهكذا أصبحت أملاك هذا الامبراطور محط الأنظار ، ومطمعاً للدول الأوروبية .

ومن ثم ازدادت حدة التنافس الاستعماري بين الدول الأوروبية ، وكان ميدانها الأقاليم التي كشفت فيما وراء البحار ، فقد حرصت كل دولة كبيرة - بعد النصر العظيم الذي حققته كل من البرتغال وأسبانيا - على أن تنال أكبر قسطن ممكن من حقوق التجارة ، والتوسع على حساب الشعوب المستضعفة ، فأدت هذه الأطماع إلى كثير من الحروب بين دول أوروبا ، وازداد اهتمام هذه الدول ببناء الأساطيل باعتبارها الوسيلة الأولى للاحتفاظ بأقطار فيما وراء البحار ، وبالأستيلاء على مزيد من الأراضي الجديدة أو الجزر التي اتخذتها بحرية وقواعد عسكرية ، تؤمن لها بسبل الاتصال بأملاكها البعيدة .

أما النتائج الاجتماعية فكانت خطيرة للغاية .

فلما جاب لإثراء الطبقة الوسطى وتدعيم مركزها في ميدان السياسة نجد أن هذه الحركات الاستعمارية قد أصبحت تنادى بسيطرة الرجل الأبيض ، وتقر التفرقة العنصرية . وتبيح تملك الأرض التي تسكنها شعوب غير أوروبية وغير مسيحية ، وتبيح استغلال هذه الشعوب ، وجعل إرادتها وجهودها وحياتها مسخرة لإرادة الشعب المالك والسياسة التي يريد إنتهاجها .

ولأنه ليؤسفنا حقاً أن ينخدع العالم بوخود مفكرين راشدين بين من رعموا أنهم ثاروا لدعوة الحق والحرية والعدل والإخاء والمساواة ، وفيهم من استحل ظلم الإنسان لأخيه الإنسان لالشيء سوى سواد بشرته ، فهذا « منتسكيو » أحد أعلام المفكرين في الثورة الفرنسية وإمام من أئمة التشريع فيها ، وصاحب كتاب « روح القوانين » يقول في تبرير استرقاق البيض للسود كلاماً يقتضينا أحياناً أن نفكر في إلغاء عقولنا لنصدق أنه صدر عن مثل هذا المشرع المفكر ، وإني لأقرأ عليكم ترجمة بعض عباراته . :

« لو طلب مني تبرير حقنا المكتسب في استرقاق السود لقلت أن شعوب أوروبا بعد أن أفنت سكان أمريكا الأصليين لم تترك يدنا من استرقاق السود في أفريقيا لتسخرهم في استغلال تلك البقاع الواسعة . ولولا ذلك ولولا استغلالهم في زراعة هذه الأرض للحصول على السكر لارتفع ثمنه » (١) . هذا بعض ما يراه صاحب كتاب روح القوانين وهو رأى تافه ما في ذلك شك ، ثم هو لا يقف عند هذا الحد من التافه ، بل هو يعمد في السخف ويزداد في إسفافه في القول حين يقول : « مبرراً جرائم الاستعمار الأوروبي - مايتى : « إن أولئك الذين سرقوا في هذا العمل ليسوا غير أقوام من السود ، فطس الأنوف لا يستحقون شيئاً من رحمة أورثاء » (٢) .

وينجليح المفكر العظيم يعقله النير فيبوى إلى اللترك الأسفل من السخف حين يقول : « إنه لا يتصور مطلقاً أن الله يحكته السامية قد وضع في تلك الكائنات السود أرواحاً يمكن أن تكون طيبة » . ثم يستمر في مفرقه قائلاً : « ومن المستحيل أن نفرض أن هذه المخلوقات بشر ، ولو فعلنا لجاز لنا أن نشك في أننا مسيحيون » .

### النتائج الثقافية :

كان لهذه الكشوف نتائجها الثقافية العظيمة . إذ عملت على إنماء المعرفة نمواً عظيماً بل وعلى تصحيح بعض المعلومات الجغرافية : فنلاحظ وقوع انقلاب جلدوى في المباتى الأساسية التي يقوم عليها علم الجغرافيا ، وقضى على الأفكار التي كانت سائدة عند تلك من الأرض ونعجمتها وشكلها وقاراتها ومحيطاتها ، وفي علم الفلك ظهرت لعلماء الفلك مجموعات من النجوم لم يكن في الاستطاعة رصد حركاتها إلا من النصف

(١) "Si j'avais a soutenir le droit que nous avons eu de rendre les nègres esclaves voici ce que je dirais :

Les peuples d'Europe ayant exterminé ceux de l'Amérique, ils ont du mettre en esclavage ceux de l'Afrique, pour s'en servir a défricher tant de terres.

Le sucre serait trop cher, si l'on ne faisait travailler la plante qui le produit par des esclaves , Montesquieu, Pages Choisis, esprit des lois, Livre p. 51.

(٢) - المرجع نفسه : ص ٥١ . (٣) المرجع نفسه : ص ٥١ .



الجنوبي للكرة الأرضية . واتسع مجال البحوث التاريخية فلم تزد قاصرة على العالم القديم المعروف بل امتدت بحيث أصبحت تشمل البلاد التي كشفت ، كما أضيفت معلومات جديدة على علوم النبات والحيوان والبحار والجولوجيا ، وعرفت أوروبا بحاصل جديدة مثل البطاطس والكافور والتبغ والذرة ، وقد غدت من الضروريات ، وأمسّت بالتالى عنصراً هاماً في القطاع التجارى .

اقتضى الأمر إلى عبور المحيطات ، والقيام برحلات بحرية طويلة المدى إدخال تحسينات متتالية في صناعة بناء السفن التجارية من حيث حجمها وزيادة حمولتها وسرعها ومتانتها .

استطاع الأسبانيون والبرتغاليون أن يدلّوا عن طريق دعايتهم ورجلهم الدينيين جهوداً كبيرة ، في سبيل نشر العقيدة الكاثوليكية ، ونجحوا فعلاً في تحويل عدد كبير من سكان مستعمراتهم الجديدة ولا سيما في العالم الجديد إلى العقيدة الكاثوليكية ، فكسبوا بذلك بعض الرعايا الجدد في هذا الميدان مما عوضهم بعض الشيء عن الأعداد الكثيرة التي فقدوها في أوروبا نتيجة لحركة انتشار البروتستنتية .

ومن النتائج المباشرة للغزو الأسباني ، وسلطان أصحابه في منطقة جزر الهند الغربية والعالم الجديد ، اختفاء بعض معالم الحضارات الوطنية القديمة لبعض هذه الشعوب المتحضرة كما حدث في المكسيك وبيرو ، كما أن سوء معاملة أهل المستعمرات في بعض الجهات أدى إلى القضاء على عدد كبير من السكان الأصليين ، وتأخذ على سبيل المثال جزيرة «سان دومينيك» Saint Dominique عندما اكتشفها «كولب» Columbus (١٤٩٢) كان عدد سكانها يبلغ حوالي مليون نسمة ، وبعد مضي خمس سنوات من ذلك التاريخ أمسوا ١٣,٠٠٠ ، على أن ذلك لم يحدث في الجهات الأخرى فلا زالت غالبية السكان في كل من المكسيك وبيرو من السكان الأصليين . وإنا نذكر هذه النتيجة المؤسفة كما أوردناها لنا أحد كتاب الغرب وهو من رجال الدين ويدعى «لاس كازاس» Las Casas ، الذي قضى شطراً من حياته مبشراً في بعض المستعمرات الأسبانية (هسبنولا وبيرو) ؛ كتب يستنكر القسوة على الهنود الحمر ، ثم وصف أثرها السيئ على حياتهم . إذ هلك منهم الكثيرون ، وهو ينثر بسوء العاقبة إن لم تكف أسبانيا عن استرقاق هؤلاء الناس ، وتسخيرهم في أشق الأعمال وأكثرها إرهاقاً للأبدان والأنفس . على أن صرخة هذا المبشر لم تحرك قلوب الأسبان إلا بمقدار ، ولعلها لم تكن

الرحمة التي هزت قلوبهم . وإنما كان خوفاً من اللوم وتخوفاً على مصالحهم وأرباحهم من أن يصبىها النقص ؛ فصدرت قوانين ١٥٤٢ لتحسين حالة الهنود تحسباً طفيفاً .

تلك صورة بشعة من صور الاستعمار الأسباني في القرن السادس عشر رسمها واحد منهم ، وكان من المروض أن يكون لها من الأثر الفعال ما يعط النفوس ويردها عن الشر والضرر ، ولكنها كانت صرخة في الهواء ذهبت بها ريح الجشع والطمع إلى واد سميق ، هؤلاء مستعمرو القرن التاسع عشر من البريطانيين والفرنسيين وغيرهم يفعلون مثل ذلك في أفريقيا ، ويعبرون الأمريكيين بسلوكهم إزاء الهنود الحمر ، ويعبرون سلوكهم مع السود بأنهم قوم لم تكن لهم حضارة فحضرهم . وكان الظلام يعمر حياتهم فأخرجوهم من الظلمات إلى النور ، ذلك باطل من القول وزور من الاتهام ، وكلا الفريقين مضلل كذاب ، فالمستعمرون من الأمريكان والأوروبيين في مخاصمة العدل والرحمة والعدوان على الحق والافتراء عليه سواء ؛ فلم تكن الشعوب التي استعمروها من الحمر والسود تحيا بغير حضارة ، وإنما كانت لها حضارات عدا عليها العادون من أهل الغرب الذين لعظمتهم أوطانهم وضاعت بهم شعوبهم .



## الفصل الثالث

### عصر النهضة RENAISSANCE

وصف يطلق على حركة إحياء العلوم والآداب والفنون القديمة التي امتازت بها إيطاليا منذ القرن الرابع عشر والدول الأخرى فيما بعد ، وليس معنى هذا أنه لم يكن هناك دراسة للقديم في العصور الوسطى ، وإنما أساء العلماء حينئذ فهم العالم للقديم اليوناني والروماني ، كما أساءوا معرفته بما نبذوه جانباً من مبادئ هذه الحضارة ومظاهرها ، وخاصة ما كان منها في نظرهم يتعارض مع تعاليم رجال الدين وتقاليد الكنيسة . بل ويتعارض كذلك في نظرهم مع أصول الدين .

ولكن هذه الحركة تميزت بأن القائمين عليها من العلماء والأدباء والفنانين قد أولوها عنايتهم التامة ، وبدلوا في سبيلها كل ما يملكون من جهد ، فدرسوا كل ما هو قديم من آثار الإغريق والرومان من مؤلفات علمية وأدبية ومخططات فنية فذة في عوالم النحت والرسم والنقش والمعمار . فاستطاعوا في هذه الحركة الواسعة العملاقة أن يبعثوا التفكير القديم من مرقد ، التفكير القديم في كل اتجاهاته المختلفة غير مكترئين بتعاليم رجال الدين ولا تقاليد الكنيسة . كما أنهم أضفوا على القديم من شخصياتهم وأحاسيسهم ما جعل لهذه الحركة طابعها الخاص المميز ، يضاف إلى ذلك طبيعة البيئات المختلفة التي عاشوا فيها . وكان من نتائج ذلك كله ظهور حضارة منقطعة النظير ، لها طابعها الخاص في كل من الدول المختلفة التي ظهرت فيها .

ووسط حماسة العلماء والفنانين العظيمة في إيطاليا نجدهم يحرقون كل ما ظهر قبلهم من حضارات أو تقدم فني أو أدبي أثناء العصور الوسطى ويعتقدون أن الحضارة الحقيقية التي اختفت بسقوط الامبراطورية الرومانية إنما أحييت بفضل جهودهم . ومن ذلك اطلقوا عليها اسم «الرونسانس» Renaissance أى الأحياء .

على أن هذه التسمية تعسفية إلى حد بعيد فإن صمة الإحياء لا يجب أن تطلق على الحضارة ، لأن هذه الأخيرة لم تمت في القرون السابقة وإنما يكفى أن نطلق على هذه الحركة حركة بعث القديم أو بمعنى أوسع حركة انبثاق الحضارة الحديثة .

للنهضة وانتشارها في بقاع أوروبا المختلفة عوامل متعددة من أهمها .

١ - الان اتصال الحضارى بين غرب أوروبا ومراكز الحضارة الإسلامية وكانت هذه المراكز هي .

أولاً - بلاد الشرق الأدنى التي وقع عليها عنوان الغربيين باسم الصليب .

ثانياً - شبه جزيرة أيبيريا .

ثالثاً - جزيرة صقلية .

يطلق اسم العصور المظلمة في التاريخ الأوروبي على الشطر الأول من العصور الوسطى خلال الفترة الواقعة بين سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية في أواخر القرن الخامس الميلادي وقيام النهضة الوسطى أو عصر الانتقال المبكر في نهاية القرن الحادى عشر . غنت أوروبا خلالها بحياة كثيفة من الظلام والتخلف الحضارى نتجارت معالم الحضارة الرومانية ، تدرجياً من إيطاليا وفرنسا وإنجلترا وغيرها من البلاد التي كانت خاضعة للامبراطورية الرومانية . ولم يبق أثر للحضارة إلا ما كان يوجد ببعض مدارس الأديرة أو الأسقفيات . ولما كانت البابوية هي التي تشرف على توجيه الدراسة في هذه المدارس فقد طبعت سياستها التعليمية بطابع ديني ضيق مزيف ، كما أن هذا الإشراف جعلها تهتم بالدراسات الدينية المسيحية دون غيرها من الدراسات الأخرى التي كانت تلقى مقاومة شديدة وهجوماً عنيفاً . فقد اعتبرت الكنيسة ورجالها الدراسات القديمة وثنية المبادئ ، تتعارض مع تعاليمها وتقاليدها ، ونادوا بأنه لا يحق لأى مسيحي مخلص للكنيسة أن يطلع عليها ، وبذلك وضحوا ستاراً كثيفاً بين الأذهان والمعرفة الحقيقية ، المعرفة المجردة من كل الاعتبارات .

٢ - للملك كان لاتصال أهل غرب أوروبا بالحضارة الإسلامية الشاحنة المزدهرة في مصادرها المختلفة أكبر الأثر في اقتباسهم للشيء الكثير من أسباب الحضارة الشرقية ومقوماتها ولا سيما في مجال الفنون والعلوم الرياضية ، وكان لأطلاعهم على الكتب

العربية المترجمة عن الإغريقية أكبر الأثر في تنبيههم إلى الرجوع إلى كنوز المعرفة القديمة للاقتباس منها ، وللحصول على المعرفة الحقيقية عن طريقها . وقد استمر هذا الاتصال في الشرق الأدنى مدة قرنين من الزمن أثناء الحروب الصليبية .

وكانت أيريا حيث ساد حكم العرب ما يقرب من ثمانية قرون ( من معركة تورار بواتيه ٧٣٢ م إلى طرد عرب بنى الأحمر من غرناطة ١٤٩٢ م ) - مورداً فياضاً للعلم والمعرفة وازدهار الفن ، فقد صارت أيريا في عهد العرب مركزاً لامعاً للحضارة ومهداً للعلوم والفنون ، ومقراً لدور العلم والمعاهد والمدارس ، وقد أصبحت جميعاً قبلة لطلاب العلم من كل صوب ومكان ، فازدهرت فيها الدراسات الطبية القديمة ، والعلوم الفلسفية ، والرياضيات بأنواعها . كما اوتقت دراسة الأدب والشعر .

وكانت صقلية المصدر الثالث للحضارة العربية . بدأ غزو العرب لها عام ٨٢٧ . وفي عام ٨٧٨ تمت سيطرتهم عليها ، وظلت خاضعة لهم مدة ٢٦٣ عاماً عندما عزاها النورمان عام ١٠٩٠ ، وقد استمرت الحضارة الإسلامية قائمة في عهد الحكم النورماندى . وقد نقل الغربيون عن المسلمين كثيراً من العلوم ولا سيما الطب والعلوم الرياضية إلى جانب بعض الصناعات مثل صناعة الحرير والسكر والورق

٢ - الاطلاع على مؤلفات وكتابات الأقدمين من يونان ورومان دون قيود والعمل على تصحيحها ومقارنة بعضها ببعض الآخر ، ثم الاجتهاد في إدخال تعديلات أو تعليقات هامة عليها ، ثم محاولة محاكاةها والاستفادة من طريقة البحث مع ظهور عنصر الابتكار والتجديد . وقد دفع هذا الاطلاع المهتمين بهذه الدراسات إلى الرغبة الشديدة في الوصول إلى مزيد من الحقيقة والمعرفة ، كما حررهم تماماً من القيود والأغلال التي كانت تشل تفكيرهم أيام العصور الوسطى ، وتعددهم عن ميادين البحث والمعرفة .

٣ - استجابة عدد كبير من المفكرين لهذه الحركة وتكريسهم للجهد والمال في سبيل ازدهارها ، فتسابقوا في البحث عن كل ما هو قديم ودراسته وتقديمه للأذهان سهلاً مستساغاً . وقد استطاعوا تحت تأثير آداب القدماء وفنونهم بعث التفكير القديم في كل نواحيه المختلفة ، وأضافوا عليه ما تميز به كل منهم من ميزات خاصة في كل من الدول المختلفة ، فتبعت عن ذلك حضارة متقطعة النظر . لها طابعها الخاص في كل مكان ظهرت فيه . ويعرف هؤلاء المفكرون بجماعة الإنسانيين . الذين كرسوا حياتهم

لدراسة الأدبيات القديمة ، فاستطاعوا بمجهوداتهم أن يقرّبوا لمعاصريهم مؤلفات وأفكار كتاب العهد القديم . كان هؤلاء الإنسانيون ككلّ كتاباً اجتهدوا في تقليد الأساتذة القدامى في طريقتهم وأسلوب تفكيرهم ، كما كانوا كذلك جماعين لكل ما تقع عليه أيديهم مما كتبه القدماء ، وانصفوا بأنهم كانوا علماء يعملون على تصحيح كل ما يجدونه من منقول للمخطوطات الأصلية ، وأساتذة بدأوا دراسات جديدة مبنية على أساس العلوم القديمة ، وما تعلموه من الاطلاع على حضارة المسلمين الشاغرة .

٤ - وكان لانتقال عدد كبير من أدباء الإغريق إلى إيطاليا أثر واضح في ازدهار هذه الحركة ورواجها . ومن الخطأ أن نعتقد أن سقوط القسطنطينية في ١٤٥٣ على يد محمد الفاتح العثماني هو العامل على ذلك الانتقال ، لأن حركة الهجرة قد بدأت قبل ذلك بكثير ، فهناك العالم الإغريقي «ما نويل كريزولوراس» Manuel Chrysoloras الذي حاضّر باليونانية في فلورنسا بين عامي ١٣٩٧ - ١٤٠٠ ثم انتقل منها ليحاضر في ميلان والبندقية ، ومنهم «بسايريون» Bessarion الذي نجح في جمع حوالي ستمائة (٦٠٠) وثيقة يونانية كلمته نفقات طائلة ، وخلفها في النهاية للبندقية ، فأصبحت لواء لمكتبها الشهيرة . وهكذا استمرت دراسة اليونانية بين عامي ١٤٠٠ ، ١٤٥٣ بفضل أمثال هذين العالمين أي أنها لم تكن لاحقة لعام ١٤٥٣ فحسب بل وجلدت من قبل . ففي خلال نصف القرن الذي سبق سقوط القسطنطينية ، سافر عدد كبير من العلماء إلى اليونان للدراسة فيها أو لمجرد الزيارة . ومنهم «جيوفاني أوريسيا» Giovanni Aurispa ، وقد أحضر معه إلى إيطاليا ٢٣٨ وثيقة ، وكان العلماء اليونانيون عند قلوبهم إلى إيطاليا يحملون الوثائق اليونانية ، فيستقبلون استقبال القواد المظفرين . وقد نتج عن سقوط القسطنطينية بعد ذلك ضياع عدد كبير من المؤلفات اليونانية ومع ذلك فقد أنقذ عدد كبير من الكتب والمخطوطات .

٥ - ولا ننسى أن اختراع الطباعة كان من العوامل التي حققت للإنسانيين نجاح حركتهم ، إذ أنها سهلت طبع المخطوطات والكتب القديمة بسرعة ، فأصبحت أكثر انتشاراً وتداولاً ، إذ أن آثامها قد انخفضت عن ذي قبل . والمعروف أن «يوتنبرج» Gutenberg من ألمان «ماينز» Mainz في ألمانيا ، كان أول من استخدم الحروف المتحركة في الطباعة عام ١٤٥٠ ، وأخذت المطابع تنشر في أنحاء أوروبا المختلفة في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وغيرها . وكان «ألدوس مانوسيوس» Aldus Manutius (١٤٤٩ - ١٥٤٤) بالبندقية من أشهر القائمين بالطباعة في إيطاليا ،

أُنجلت مطابعه في الإنتاج منذ عام ١٤٩٠ . ولم يحض على إنشائها إلا حوالي ربع قرن .  
عندما أُخرجت تلك المطابع نسخاً عديدة من كتب الإغريق اليونانية . وقد كان  
الكلوس و فوق ذلك من مشاهير العلماء ، وتميزت مطبوعاته اليونانية بالوضوح  
والقيمة العلمية ، مما جعل الإقبال عليها عظيماً . وفي فرنسا ازدهرت حركة الطباعة  
على يد ( هنري إيتييه ) Henri Estienne ( ١٥٣٢-١٥٩٨ ) وهو ينتمي إلى أسرة  
اشتغلت بالطباعة ، وكان في الوقت نفسه من العلماء المرموقين .

### من أهم نتائج الحركة الإنسانية :

١ - أنها ساهمت بنصيب وافر في تدعيم تكوين الفكر الحر الذي أولع أصحابه  
بالبُحث والتفتيش والاختبار الشخصي والتجربة ، وكلها من مميزات الفكر الحديث ،  
كما قفّضت على التفكير الديني القديم ، فكان من نتائجها قيام الحركة العلمية جنباً إلى  
جنب مع النهضة الأدبية .

كان لبعض الكتاب والفلاسفة الإغريق وفي مقدمتهم أرسطو مكانتهم في جامعات  
العصور الوسطى ، وقد عرفت آثارهم عن طريق المترجمات العربية . وكان برنارد  
أول من جرّأ على مناقشة مصادر المعرفة عند أرسطو ، ثم كان الاطلاع على ما كتبه  
بعض القديس من المفكرين والفلاسفة مثل أفلاطون ، وضح ، وتبين أنه لم تكن هناك  
عُيوب في وحدة التفكير عند أولئك القدماء ، واتضح ، بل أن البحث عن المعرفة  
لا يكون في الكتب وحدها ولكن ينبغي الاعتماد على طرق أخرى ، تركز على التفكير  
الحر والتجربة .

ويشير « ليوناردو دافنشي » ( ١٤٥٢-١٥١٩ ) أول عالم عظيم من علماء العصر  
الحديث . فقد تبين له بوضوح أن العلوم لا يمكن أن تتقدم إلا عن طريق ملاحظة  
التجربة من ناحية ، وإشغال الفكر والحجة من ناحية أخرى . وقد ترك « دافنشي »  
مخطوطات عديدة تبين مدى انشغاله ببعض المسائل التي لم تحل إلا في أيامنا الحالية ،  
مثل الطيران واستخدام الغواصات ، كما أن تفكيره وعبقريته العلمية في العلوم البحتة  
وفي طريقة تطبيقها تشهد له بالتفوق على مدى العصر الذي عاش فيه . على أن  
« ليوناردو دافنشي » لم يملك من الوقت - لانشغاله في أكثر من ميدان في العلوم  
والفنون - ما يعبه على نشر جهوده العلمية ، فظلت أكثر جهوده في ميادين المعرفة  
الأخرى مجهولة .

وفي القرن السادس عشر أفادت كل فروع العلوم من التفكير الجديد الشديد للبحث عن المعرفة ، ففما يتعلق بالرياضيات كان تقدم الجبر تقدماً يفضل جهود « فرانسوا فييت » Francois Viète (١٥٤٠ - ١٦٠٣) ، وكاد بمثابة على العمل . وتقدمت العلوم الطبيعية ، وعلم وظائف الأعضاء ، وبالنسبة تركيب الجسم البشري ، مما كان له أثره في تقدم الطب والجراحة ولما سمح بتشريح الجثث في الكليات . وفي عام ١٥٤٣ نشر الجراح « فيزال » (١٥١٤ - ١٥٦٤) من بروكسل ، وهو جراح الإمبراطور شارل الخامس تفصيلاً ودقيقاً لتكوين الجسم البشري ؛ كما وفق الطبيب الأسباني « ميشيل » Michel Servet (١٥٠٩ - ١٥٥٣) في اكتشاف دورة الدم الصغرى بين الرئتين . كما أن الجراح الفرنسي « أمبواز باريه » Amboise Paré (١٥١٧٨ - ) قد طور طريقة لإيقاف النزف بأنواعه من استخدام الكي أو الحسم بالزينة باستخدام ربط الشرايين . ويعمد الطبيب السويسري « براسيلس » (١٤٧٣ - ١٥٤١) مجدداً في مهنة الطب باستخدامه للمستحضرات الكيميائية ويعتبر أكبر اختراع علمي لهذا العصر هو ذلك الذي قام به « كوبرنيك » (١٤٧٠ - ١٥٤٣) . فاستطاع بعد سلسلة من التجارب أن يصل إلى نتيجة النظرية القديمة لبطليموس التي كان معترفاً بها في العصور الوسطى ، وهي أن هي التي تدور حول الشمس وليست الشمس هي التي تدور حول الأرض . انفضحت تجاربه في كتابه « ثورة في الأفلاك السماوية » الذي نشره عام ١٥٤٣ وأهداه إلى البابا بول الرابع .

وقد ووجهت نظرية « كوبرنيك » بمقاومة شديدة . وظلت هذه المقاربات بداية القرن السابع عشر ، وقد استخدم أعداؤها النفوذ الديني سنداً لهم ، في كتاباتهم بأن تلك النظرية إنما تتنافى مع الكتابات المقدسة ، وإن هذه الشديدة التي واجهت كافة العلماء تقريباً إنما تفسر البطء الشديد الذي سار فيه العلمي في بادئ الأمر .

٢ - كانت هذه الحركة أكبر مشجع ودافع على تكوين المكتبات التي عالمية الأهمية في العصر الحديث . فكان حب اقتناء المخطوطات القديمة من يونانية ، والحصول عليها أكبر حافز على تكوين المكتبات . فوضع « به



Bessarion نواة مكتبة البندقية ، كما دعم « كوزمو ديميتشي » Cosmo de Medici مكتبة « سان ماركو » في فلورنسا ، وجمع لها المخطوطات . واهتم البابا نيقولا الخامس ( ١٤٤٧ - ١٤٥٥ ) بمكتبة الفاتيكان واقتنى لها الكتب النادرة ، كما أودع فيها حوالي خمسة آلاف مخطوط ، حتى أصبحت المكتبة في عهده تضم ما يقرب من ١٢ ألف مجلد ، وهكذا تكونت مكتبات العالم العظمى في إيطاليا ، في روما وفلورنسا والبندقية ، وبعد ذلك في فرنسا وأجلترا وأصبحت المصدر الأساسي للاطلاع والبحث العلمي .

٣ - نشأة الأكاديميات الحديثة وترجع التسمية إلى الأكاديمية الأفلاطونية في أثينا وكانت لدراسة الفلسفة ، وقد كان لها دورها الهام في نشر الدراسات الإغريقية واللاتينية ، إذ كانت بمثابة حلقات علمية ثابتة للبحث والتدريس يلتقي فيها الأساتذة ويلقون المحاضرات التي تعقبها المناقشات العلمية الموضوعية العميقة ، يشترك فيها الأستاذ والمؤلف . والأكاديمية أشبه بجامعة غير رسمية .

في فلورنسا أنشأ كوزمو ديميتشي أكاديمية أفلاطون ، وكانت أشهر أكاديميات إيطاليا ، وكان « كورمو » من المعجبين بالفيلسوف أفلاطون ومن أنصاره ، وقد تعهدوا من بعده « لورنزو » العظيم ، ولمع فيها اسم أحد الإنسانيين ، ممن تمتعوا بشهرة عالمية هو « بيكودولا » Pico della Mirandola ( ١٤٦٣ - ١٤٩٤ ) ، وكان بالرغم من صغر سنه يبدي ما يزيد على العشرين لغة ، مما جعله واسع الاطلاع ، غزير المعلومات . وقد اهتم لورنزو العظيم بهذه الأكاديمية وأكثر من إقامة الحفلات لتخليد ذكرى أفلاطون .

وظهرت أكاديميات أخرى في إيطاليا في كل من روما و نابلي والبندقية ، وكان لكل منها طابعها الخاص ، فبينما تميزت أكاديمية فلورنسا باهتمامها بالدراسات الفلسفية بصفة خاصة ، أصبحت أكاديمية روما تهتم بالدراسات التاريخية والآثار ، بينما تخصصت أكاديمية نابلي في الآداب . أما أكاديمية البندقية ومؤسسها « ألدوس مانوسيوس » Aldus Manutius فقد تخصصت في الدراسات الإغريقية . وكان لمؤسسها صاحب مطبعة البندقية الشهيرة فصل عظيم في نشر عدد كبير من الدراسات الإغريقية .

٤ - ظهر الاهتمام جلياً بالدراسات الإغريقية واللاتينية التي استهوت أفئدة الكثيرين من الأوربيين في ذلك الوقت ، واعتقدوا أنها أروع وأرق ما يمكن أن

تنتجها عقول البشر ، وأن الفرد لا يمكن أن يصل إلى مكانة عالية في المجتمع ما لم يكن على حظ موفور من هذه الدراسات . لذلك لا نعجب إذا كانت هذه الدراسات قد ازدهرت ، وأفردت لها كراسى ومراكز خاصة في الجامعات المختلفة . وظهر الاهتمام كذلك باللغة العبرية لإمكان فهم كتاب « العهد القديم » ودراسته وكان على رأس من اهتموا بهذه الدراسات « يوحنا روكلي » Johann Reuchlin (١٤٥٥-١٥٢٢) وهو من أعلام الفكر الألماني .

٥ - ظهر اتجاه جديد في الدراسة يهتم بالتربية البدنية إلى جانب التربية الذهنية ومؤسس هذا النوع من الدراسة هو « فيتورينودا فلتري » Vittorinnoda Feltre (١٣٩٧ - ١٤٤٦) ، الذي اهتم اهتماماً بالغاً بالتربية البدنية وجعلها أساساً للتدريب الخلقى ، فنى عناية خاصة بالمسابقة ، وركوب الخيل ، والقيام بالتمارين العسكرية ، واهتم بالنشاط خارج قاعة الدرس ، ولذلك يعتبر من أوائل المربين الحديثين ، إذ كان يعمل على تربية النشء تربية ذهنية وخلقية وبدنية صحيحة ، ولذلك جعل الرياضة البدنية تسير جنباً إلى جنب مع الدراسة ، واهتم في مدرسته باللاتينية فجعلها أساساً للدراسة . وكانت تتلخص في أشعار الرومان والقطع الخطابية التي اشتهر بها بعض خطبائهم ، كما اهتم الرجل بالدراسات الإغريقية والرياضة والهندسة وعلم الملك .

أشأ كليته النموذجية في « مانتوا » Mantua بإيطاليا بناء على توجيه حاكمها ، لكي يقوم على تربية أولاده ونفر من أصدقائهم وقد درس للأمرتين مع سائر الأمراء .

٦ - ظهور اللغات الحديثة : كانت اللغة اللاتينية هي لغة العلم والكتابة في العصور الوسطى ، كتب وألف بها العلماء ، ثم تضاعف استخدامها حتى أصبحت مقصورة على رجال الدين ، إذ عمد بعض الكتاب والأدباء المتحررين من قيود العصور الوسطى إلى الكتابة بلغة شعوبهم ، فنشأت في شبه جزيرة إيطاليا وفرنسا وأسبانيا لهجات مستقلة تعتمد على الأصل اللاتيني . وظهرت في شمال أوروبا لهجات أخرى تعتمد على الأصل التيوتوني . وعمد علماء كل لغة إلى الارتقاء بمستواها حتى أصبحت هذه اللغات الوليدة صالحة لتدوين العلوم والآداب ، وأصبح الاهتمام بها مظهراً من مظاهر القومية .

فى إيطاليا كتب دانتي (١٢٦٥ - ١٣٢١) كتابه الشهير «الكوميديا الإلهية» باللغة الإيطالية ، وفى إنجلترا ألف «تشوسر» Chaucer (١٣٤٠ - ١٤٠٠) «قصص كنتربرى» Canterbury Tales باللغة الانجليزية ، وفى فرنسا كتب «بجرون كلفن» (١٥٠٩ - ١٥٦٤) «قواعد الدين المسيحى» Institutions Chretiennes وبعد من أبدع ما كتب فى الشر الفرنسى وفى أسبانيا ألف سرفانتيس Servantes (١٥٥٧ - ١٦١٦) قصته المشهورة «دون كيشوت» Don Quichotte .

٧ - وأخيراً ، وليس آخرأ ذلك التاج الرائع فى ميادين الآداب والفنون التى ازدهرت بها أماكن شتى من أوروبا ، بعد أن بدأت فى إيطاليا التى كانت مهدأ لهذه الحركة ومنها انتشرت فبلغت سائر أنحاء أوروبا ، وقد بلغت هذه الحركة أوجها فى إيطاليا خلال القرن الخامس عشر .

## النهضة في إيطاليا

إن العوامل التي جعلت النهضة تظهر مسكرة في إيطاليا عنها في أى بقعة من بقاع أوروبا يمكن تخيصها فيما يأتي :

١ - مهد الحضارة الرومانية : كانت إيطاليا المهد الأول للحضارة الرومانية فكانت مقراً لكثير من علفات التراث الخالد القديم من مبان وتماثيل ونقوش وغيرها من الآثار الفنية البديعة ؛ إلى جانب غناها بالمخطوطات القديمة . كان الإيطاليون يرون أنهم حفلة الرومان ، وعليهم أن يحيا تراث الامبراطورية الرومانية القديمة في كل هذه الميادين . وقد وجد أدباء وعلماء وفنانو حركة النهضة في إيطاليا نماذج حية فعلوا على دراستها ومحاكاتها والاجتهاد في بعثها .

٢ - كانت مدن إيطاليا الشمالية حلقة الاتصال بين عرب أوروبا والشرق الأقصى وهو موقع فريد أتاح الفرصة للإيطاليين الاتصال عن كثب بحضارة الشرق والاطلاع على معانيها ومدى تقدمها ، فنقلت إيطاليا نتيجة لهذا الاتصال المباشر المستمر كثيراً من المعلومات الرياضية والفلكية والطبية ، ثم إن موقعها الجغرافي الفريد على مقربة من الدولة البيزنطية جعلها تستفيد من الأساتذة الزائرين من الإغريق . ممن هرعوا إليها ليحاصروا في جامعاتها ومعاهدها ، كما سهل على علمائها التواقيع إلى الاستزادة من الدراسات الإغريقية الانتقال إلى القسطنطينية .

٣ - اشتعال هذه المدن بالتجارة جعلها كذلك في بسطة من العيش . وتمتع برحاء اقتصادي واسع المدى ؛ فقد ازدادت ثروة السدقية وجنوة وميلان وغيرها . وكان لوفرة المال أهمية في الاطمئنان والاهتمام بكل ما هو جميل في عوالم الأدب والفنون . كما كانت هذه الثروة عاملاً هاماً لتشجيع العلماء واقتناء الكتب النادرة واللوحات الفنية العظيمة

٤ - طبيعة إيطاليا السياسية وانقسامها إلى إمارات ودوقيات وجمهوريات متنافسة ، أتاح الفرصة لحكامها المستيرين للتنافس على تشجيع الآداب والفنون ؛ تهافتوا جميعاً على إكرام الشعراء والأدباء واحتضانهم . ومن هذه الأسر العريقة : أسرة Medici . في فلورنسا فقد بلغ تكريم لورنزو العظيم للنحات والمثال المشهور

1

فأخذت بذلك النماذج الوثنية مكانها إلى جانب النماذج المسيحية ، وأصبح الفنان في معالجته للموضوع الفني لا يتغير أو يتأثر بطبيعة هذا الموضوع . فمعالجته للنماذج المسيحية لا تختلف عن معالجته للنماذج الوثنية . وهكذا لم يقتبس الفنانون من العهود القديمة الأشكال الفنية فحسب ، بل روح الفنانين ومثلهم العليا . كذلك ، ومع ذلك لم يكن فنانون النهضة مجرد مقلدين ، بل امتاروا إلى جانب ذلك بمبتكراتهم الرائعة مما جعلهم ينتجون تحفاً فنية فريدة في نوعها ، وقد شاهدت المدة بين ١٤٧٠ ، ١٥٢٥ تقدماً محسوساً في الاهتمام بالدراسات القديمة والخلفات الفنية القديمة . وفي هذا الوقت أنشئ متحف الفاتيكان والكابيتول .

ولم تخل مدينة واحدة في إيطاليا أيام عصر النهضة من هذه الحركة الفنية العظيمة ، فأنتجت إيطاليا في هذا العهد ما لم تقو على إنتاجه أى دولة أخرى في نفس المدة . وقد برزت جميع المدن الإيطالية في هذا الميدان فلورنسا ، فكانت من أبرز هذه المراكز وألمعها ليس في إيطاليا فحسب ، بل في جميع أنحاء أوروبا . وقد احتفظت فلورنسا إلى نهاية القرن الخامس عشر بمكانتها المتفوقة في الآداب والفنون . فأُستجدت جديرة بأن توصف بأنها « العاصمة الثقافية والفنية لأوروبا خلال القرن الخامس عشر » .

« The artistic and intellectual capital of Europe » .

### العوامل التي جعلت فلورنسا العاصمة الثقافية والفنية لأوروبا أثناء القرن الخامس عشر

١ - أسرة المديتشي «Medici» التي حكمت فلورنسا خلال القرن الخامس عشر واشتهرت فيها كوزمو «Cosmo» ، وكان مشجعاً للعلوم والآداب والفنون محباً للتقريب عن الوثائق القديمة وامتلاكها . وقد مكّنه ثراؤه العريض الناتج عن صلاته التجارية الواسعة النطاق من تحقيق ذلك . استطاع أن يجمع عدداً عظيماً من الكتب القيمة المكتوبة باللغات المختلفة من يونانية وعبرية وعربية وهندية ، ووضع بواقة تلك المكتبة الشهيرة التي أضاف إلى مقتنياتها خلفاؤه ولاسيا حفيد «Lorenzo» العظيم (١٤٦٩ - ١٤٩٢) .

وكان «لورنزو» معروفاً بحبه الجلم للفنون الجميلة والفنانين والعلماء فأصبح قصره في فلورنسا وغيرها مركزاً للعلماء والفنانين يقصدون إليه من كل مكان . ولا أدل

على غيرته على العلم والعلماء من إنشائه للأكاديمية في فلورنسا ، وهي أكاديمية الفلسفة لإحياء ذكرى أفلاطون وقد لمع فيها اسم يكوڤولا ميراندولا Pico della Mirandola (١٤٦٣ - ١٤٩٤) وكان على صغر سنه يجيد ما يزيد على العشرين لغة ، مما جعله واسع الإطلاع ، غزير المعلومات . وقد اهتم «لورنزو» باللغة اليونانية إلى جانب اللغة اللاتينية . وكان يقوم بتدريسها إما يونانيون أو إيطاليون أتقنوا اللغة اليونانية . وكان لذلك أثره العظيم في تخريج عدد كبير من علماء اللغة اليونانية الذين درسوا في مدارسها المختلفة ، مما أدى إلى نشر هذه اللغة في سائر أنحاء إيطاليا بل وفي فرنسا ، وأسبانيا ، وألمانيا ، وإنجلترا . كما أقام Loreuzzo في حديقة قصره معهداً للفنون ، يكفيه فخراً أن كان «ميكائيل أنجلو» أول زهرة من زهراته .

٢ - كانت فلورنسا كذلك المهد الأول لعظماء رجال النهضة الأدبية والعلمية والفنية ومن العلماء «بول تسكانيللي» Paul Toscanelli ، الملكي المشهور وكان يطلق عليه «Paul Le Physicien» ، ومن الأدباء «بتراش» Petrarch ، و « بوكاشيو Boccaccio » ، و « جيتاردن Guicciardin » ، و « مكيا فيلي Machiavelli » ، كما كانت من قبلهم مهداً «لدانتي Danto» ،

ومن الفنانين . «جبرتي Ghiberti» و «دوناتلو Donatello» و «ميكائيل أنجلو Michael Angelo» و «ليوناردو دافنشي» Leonardo da Vinci و «برونلسكو Brunelleschi» و «ماسبو Massaccio»

وأما «توسكانيللي» Toscanelli فولد في فلورنسا عام ١٣٩٧ ومات بها عام ١٤٨٢ . وكان عالماً شهيراً في علم الفلك . ولم يشاطر معاصريه في آرائهم في الفلك ، ويعتبر جهازه (ساعته الشمسية) الذي أقامه في (١٤٦٨) من أعجب الآلات الفلكية التي ظهرت في العالم . وله في حركة الشمس ، والقمر والنجوم آراء وملاحظات هامة ، وقد وافق على مشروعات كريستوف كولب ، تلك المشروعات التي استشاره فيها ذلك الملاح المشهور .

أما «بتراش» Petrarch فاصرف إلى دراسة اللغة اللاتينية ، فأحادها وأتقنها . وقد أحب هذه اللغة مما جعله يحترق اللغة الإيطالية كل الاحتقار ، ولذلك نجده يأخذ على دانتي أنه ألف كتابه العظيم «الكوميديا الإلهية» باللغة الإيطالية .

بدأ عمله الأدبي بكتابة ملحمة شعرية يطلق عليها « أفريقيا Africa »، وهي تتناول بعض حوادث الحروب التي وقعت بين روما وقرطاجنة ، وفيها يوضح كيف تخلصت إيطاليا من الأخطار الخارجية عندما انتصر « سيبيو » Scipio Africanus ، القائد الروماني على هانيبال Hannibal ، قائد القرطاجنيين . واختار بترارك اللغة اللاتينية كما فعل غالبية الإنسانيين لمدة قرن من بعده . وكانت اللاتينية لاتزال هي اللغة الأدبية والعلمية المعترف بها في أوروبا . على أنه ألف كذلك شعره الغنائي المشهور باللغة الإيطالية ، وكان شعراً جذاباً جلب له الشهرة في أنحاء إيطاليا . بل إنه ترجم إلى الفرنسية فانتقل إلى فرنسا حيث ذاعت شهرته . وقد تميزت أشعاره بحساسية فياضة ، وذهن حاضر ، وذكاء نادر . وشعور مرهف وإحساس فياض نحو جمال المرأة والطبيعة والأدب والفن مما جعل له مكانة ممتازة في المجال الأدبي . وقد قام برحلات عديدة وانتفى بأشهر العلماء ورجال الدين والقانون والسياسة من إيطاليا وفرنسا وإنجلترا . ويشبه بترارك روسو من حيث تقديره وشعوره المرهف لإزاء الطبيعة . وقد أجمعت الآراء على أنه كان أول الإنسانيين ؛ كما كان أول كاتب يعبر عن حق الفرد في الاهتمام بحياته في وضوح وقوة ، وأن يتمتع بها ، ويعمل على زيادة حساسيتها وحر من هذه الناحية يعد بحق أب الحركة الإنسانية .

أما « بوكاشيو » Boccaccio (١٣١٣-١٣٧٥) فقصده إلى القسطنطينية هادفاً إلى التعمق في الدراسات الإغريقية ، واستطاع فعلاً أن يصل إلى درجة عالية في هذه الدراسات كما أنه برع في كتابة النثر باللغة الإيطالية . ويعتبر ماكتبه وألفه في هذه الناحية من أجمل وأسهى ماكتب من النثر الإيطالي ، ولا سيما قصصه الشهيرة المجمعة في كتابه المسمى « الديكامرون » Decameron . وقد بدأ في كتابتها عقب انتشار وباء الطاعون في عام ١٣٤٨ ، وكان يبلغ من العمر الخامسة والثلاثين وقد أصبح عندئذ يهمل كتابة النثر على الشعر . واستقى كثيراً من موضوعات قصصه مما قرأه من كتابات « تشوسر » الكاتب الإنجليزي ويعتبر كتابه « الديكاميون » إلى اليوم من أهم قطع الأدب العالمي .

ولربما ترجع هذه الشهرة إلى اهتمام هذا المؤلف بالمبادئ الأخلاقية أكثر من الفن الأدبي نفسه . . ومن هذه الناحية فكتابته تفوق كتابة « تشوسر » Chancer في قصص « كانتربري Canterbury Tales » كما تميزت كتابته بالفصاحة وقوة



التعبير ، ووضوح الأسلوب وحيوته ، فهو كتاب يعبر عن حب الحياة والتعلق بها ، ويشبه في أسلوبه ما كتبه « رابليه » Rabelais الكاتب الفرنسي . وعلى الرغم من بعض المبالغات فإن العالم كله يعتبر هذا الكتاب كتاباً خاصاً به ، وللملك ترجم إلى اللغات الأوروبية كافة ، وقد أظهر الكتاب من بعده إعجابهم الشديد بهذا الكتاب ومنهم « ليسينج » Lessing ، الألماني « موليير » Moliere ، و « لافونتين » La Fontaine الفرنسيان « وتشوسر » Chaucer وشكسبير Shakspeare الانجليزيان .

أما « جيثارددين » Guicciardini ( ١٤٨٢ - ١٥٤٠ ) فهو كاتب ومؤرخ ، ألف كتاباً عن تاريخ إيطاليا وصف فيه الحروب التي عاصرها واشترك فيها ، ولم ينشر هذا الكتاب إلا بعد مماته في عام ( ١٥٦١ ) . وقد كان أستاذاً للقانون وسياسياً ومؤرخاً ، وإذا قارناه بمكيافلي نجد أنه يأتي في المرتبة الثانية .

أما « مكيافيلي » Machiavelli ( ١٤٦٩ - ١٥٢٧ ) : فالف كثير من القطع المسرحية والقصص والأشعار كما كتب « تاريخ فلورنسا القضائي » الذي نشر عام ١٥٢٤ . ولكن شهرته العظيمة ترجع إلى كتابه « الأمير » The Prince الذي نشر عام ١٥٣٢ .

عاش مكيافيلي في أواخر القرن ١٥ وأوائل القرن ١٦ في فلورنسا واحتل مركزاً سامياً في الدولة وقام بعدة سفارات هامة . ثم كان من نصيبه أن يبنى نتيجة الإشتباه في تأمره على أميره . ولكن صفح عنه وقد ضمن أفكاره وتجاربه عدة كتب أهمها الأمير .

كتاب الأمير :

١ - رسالة في فن الحكم ، وأصول السياسة ، وكان هدفه الواضح في هذا الكتاب هو تحقيق وحدة إيطاليا السياسية بأى الوسائل مهما كانت وضعية ، فالغاية في نظره تبرر الوسيلة . وقد حرر مكيافيلي بذلك السياسى في أحكامه وأعماله من الخضوع للقوانين الأخلاقية وتعاليمها . فأباح الظلم والعدوان في سبيل الغاية التي ينشدها الحاكم

٢ - يثير هذا الكتاب الإعجاب لما فيه من قدرة فكرية على الرغم من ترخصه في استخدام الغاية والعدوان . فقد أظهر هذا الكتاب مدى عيرة هذا المؤلف ووطنيته

وحماسته المتدفقة لصالح وطنه ، صرح بمواطن الضعف في هذا الوطن ، وأباح في سبيل انقاذه وتحليصه التضحية بكل الاعتبارات الخلقية .

٣ - ومع ذلك فهو يرى أن الفصيلة هي دعامة للحياة القومية . ولكنه فيما يتعلق بإدارة شئون الدولة يعنى الفضائل من وطائفها في سبيل نجاح أى مشروع سياسى ،

٤ - اعترف بنظام الطبقات الذى كان سائداً في عصره ، ونادى بأن الشعب هو دعامة الأمة

٥ - لا يرى مانعاً من استيلاء دولة على أخرى ؛ وينصح عندئذ بعدم التعدى على تقاليد البلد أو العادات المتبعة بها . كما يوصى بإقامة حاكم من الدولة نفسها بها ، وأن يحتلها جيش كبير . ويحذ أن يقطعها لبعض من أتباع الأمير ورجاله ، فيحلهم محل سكاتها الأصليين بعد تشريدهم . ثم عليه أن يستميل البعض بالرشوة ، وأن يستأصل البعض الآخر وعلى الأمير ألا يخشى انتقام المشردين ، فالناس في رأيه لا يحولون الانتقام إلا للمطالم الصغرى .

احتلف القاد في تقدير كتاب الأمير ومؤله ، فهم من يرى أن الكتاب لم يحو إلا دروساً لقنها لطغاة الحكام ، لينير أمامهم سبيل الظلم والعدوان ، وآخرون يرون أن مكياصلى كان يبحث في موصوع الظلم بحثاً عقلياً بحثاً بغض النظر عن الاعتبارات الأخلاقية ، أى أن دراسته كانت نظرية بحتة .

ولا شك أن كتاب الأمير لاقى رواجاً عظيماً . فقد درسه كل من شغلته السياسة ، كما انتفع به عدد كبير من ساسة العالم ومع ذلك فلا يجب أن نتغاضى عما يحويه من ظلم وعدم مراعاة للصمير . ومهما يكن للكتاب فيما مضى من شأن فإنه قد آن الوقت لإعلان كلمة الحق . حق الرد وحق الشعوب .

## علم التاريخ

وقد طفر علم التاريخ بعناية فائقة من رجال النهضة في شبه الجزيرة الإيطالية ، فلم يعد المؤرخون يعتمدون فيما يكتبون من حقائق على سماع أقوال الرواة ، فتطورت مناهج البحث التاريخي . ظهرت مدرسة جديدة في القدر التاريخي . وقد كانت فلورنسا أسبق المدن الإيطالية في هذا المجال ، فتكونت فيها مدرسة تاريخية أنتجت عدداً كبيراً

من الكتب التاريخية في موضوعات شتى ، وكان لهذه الأبحاث طابع مميز ، يقوم على حرية الرأي وحرية التعبير وعدم التقيد بالموضوعات الدينية ، والتحرر من التقاليد البالية ، والبعد عن الخرافات والزام الموضوعية ، مما جعل هذه البحوث باكرة طيبة للدراسات التاريخية الحديثة .

### أما في ميادين الفن :

فقد كشف الإيطاليون وعلى رأسهم فنانو فلورنسا النقاب عن جبال الآثار القديمة وعملوا على محاسنها في روحها وتعبيراتها . فهم باعثو هذه النهضة القديمة كما أنهم متكرو الفن الحديث . فلم تعد الفنون قاصرة على خدمة الكنيسة وحدها وأغراضها الدينية بوجه عام ، إنما انطلق الممارسون الإيطاليون متحررين من قيود العصور الوسطى ورجال الدين ، فتجربت تعبيراتهم في الفنون على اختلافها بالتححرر والشغف بمناظر الطبيعة وبجمال الوجه البشري وكافة أجزاء الجسم ولم تعد نماذجهم المقادح المحدودة التي سمحت بها الكنيسة في العصور الوسطى . وإنما بدأوا يقلدون القدماء من الفنانين ، فأصبحت نماذجهم تجمع تلك وأخرى عارية أو مغطاة بالعماء الرومانية .

### في فن العمارة :

لمعت أسماء أصبح لبعضها شهرة عالمية حارقة . وهنا يجب أن يذكر أن هذا الفن لم يندثر تماماً طوال العصور الوسطى . فقد ظل قائماً مرددهراً معتمداً على نماذج من الفن القديم وظهر في شمال أوروبا طراز جديد من العمارة يعرف بالفن القوطي . وقد انتقل إلى إيطاليا فتمثل في بناء الكنائس والكاتدرائيات . على أن هذا الفن قد تطور عند بداية عصر النهضة إذ أدخلت عليه الخصائص والرسومات الهندسية التي كان يتبعها الإغريق في مبانيهم القديمة . وشهدت فلورنسا هذا التطور الكلاسيكي في فن البناء في النصف الأول من القرن الخامس عشر . ومنها انتقل إلى سائر أنحاء إيطاليا ومن المدن التي اشتهرت بهذا الطراز المعماري وباعست فلورنسا مدينتا البندقية وروما .

وكان « برونلسكي » Philippe Brunelleschi (١٣٧٧-١٤٤٦) من أشهر النوانع في فن المعماري وهو من مواليد فلورنسا ، امتاز بأسلوبه الكلاسيكي في البناء فكان ينحو في مبانيه وطرق تزيينها نحو أصحاب الطرز القديمة ، فنجد كنيسة « سانت لوران »

**Saint Laurent**، التي بناها في فلورنسا أشبه ما تكون بكنيسة رومانية وأهم ما خلفه من آثار معمارية بكل تلك قبة الكاتدرائية في فلورنسا « **Il Domo** » تمتاز بضخامتها وهي من أبرز المعالم التي تسيطر على نظير من يتطلع إلى المدينة من أعلى .

### أما في فن النقش والنحت :

فقد بلغ شأواً بعيداً في الإبداع الفني ، ولا غرابة في ذلك فإن الفناجج القديمة من تماثيل ونقوش كانت لاتزال ماثلة تشهد بعظمة الفن الإغريقي والروماني . فاستطاع نقاشو عصر النهضة أن يقللوا وأن يتخللوا أمثلة حية ، ونماذج ناطقة بما قاموا من انجازهم من تماثيل مختلفة ،

ومن أشهر أساتذة فن النحت « **Lorenzo Ghiberti** » (١٣٧٨-١٤٥٥) وهو فلورنسي الأصل ، أبدع في فن النقش وبرع فيه وتجلّى هذا في نقشه الأبواب البرنزية بكنيسة التعميد في فلورنسا . وبعد أحد هذه الأبواب من أبدع آيات الفن المستحدثة ، فزيّنته من نقوش عشر منحوتة في البرنز تمثل صوراً مختلفة من العهد القديم وروعت فيها النسب والمسافات بدقة شديدة . ولذلك اعتبر **Ghiberti** أول من أوجد قوانين فن الرسم المنظور . وقد استغرق في نقش هذا الباب وحده مدة اثنين وعشرين عاماً (١٤٢٥-١٤٤٧) ، واستحق الباب ما ذكره « **Michael Angelò** » عنه من أنه جدير بأن يكون باباً للجنة ،

أما « **Donatello** » (١٣٨٦ - ١٤٦٦) وهو فلورنسي كذلك فقد اهتم بصنع تماثيل الأجسام البشرية فهو أول من صنع تماثيل الأجسام العارية . ومن أشهر ما أنجز في هذا المجال تماثيل داود البرونزي . ويوجد في متحف « **Bargello** » ، ويكاد أن يكون عارياً .

كما اشتهر بنحت تماثيل آخر للقديسة « **Madeleine** » في كنيسة التعميد بفلورنسا ، وهو مصنوع من الخشب ، ويمثل الفقر والحاجة بصورة تدعو إلى الإعجاب

ماساشيو « **Massaccio** » (١٤٠٢ - ١٤٢٨) :

يعتبر من أئمة الفن الحديث من النقاشين مثل جيوتي ، عثر على قوانين فن الرسم

المنظور ، كما شابه Donatello ، في صنع التماثيل للأجسام البشرية العارية منها ، والمغطاة بالعباءات الواسعة .

أما « ميخائيل انجلو Michael Angelo » ( ١٤٧٥ - ١٥٦٤ )

فهو شخصية أخرى تحتل مكانها بين العباقرة العالميين ، كان نقاشاً فوق كل اعتبار آخر ، ولكنه بالإضافة إلى ذلك كان رساماً ومهندساً ومعماريّاً وشاعراً . ويعتبر أقوى وأشهر فناني عصر النهضة ، لاقى إيطاليا وحدها بل وفي العالم كله . اشتهر بوفرة إنتاجه الفني ، وتعدد الموضوعات التي عالجها . والمستوى الرفيع الذي بلغه في هذا الإنتاج . فلورنسي الأصل ، كان من الفنانين المفضلين المقربين من لورنزو العظيم . بدأ نتاجه المعروف في فلورنسا وهو في سن العشرين ، ففتح ما أسماه « الحب البائس » ويطننه للرأى قطعة من مخلفات الأقدمين . وترجع شهرته بصنعة خاصة إلى تمحّتين من روائع فنه : الأولى ويطلق عليها « Pieta » وتمثل العذراء ومعها المسيح ميتاً ، والثانية تمثال داوود العملاق وهو لا يزال قائماً في أحد ميادين فلورنسا . وفي عام ١٥٠٥ استدعاه البابا يوليوس الثاني إلى روما ، ومنذ ذلك التاريخ حتى مماته لم يتوقف عن العمل البابوات .

بدأ أولاً في بناء مقبرة للبابا يوليوس الثاني ، ولكنه لم يتمها . ثم كلفه البابا بتزيين « سقف السكستين شابل Sixtine Chapel » (١) وقد عمل فيها مدة أربع سنوات متوالية ، وهو مستقل على ظهره ( ١٥٠٨ - ١٥١٢ ) ، فكانت آية من أروع آيات الفن ، ثم نقش تمثال « موسى والعبيد » خصيصاً لتزيين مقبرة البابا يوليوس الثاني ، كما عمل لحساب البابا كلمنت السابع مقابر لورنزو ويوليوس من أسرة المديتشي في فلورنسا ، وكلفه البابا بول الثالث بإنهاء تزيين مقصورة السكستين فرسم على الحائط الداخلي لها ما أسماه « بالحكم الأخير » ( ١٥٣٦ - ١٥٤١ ) . وكانت معه يومئذ واحداً وسبعين عاماً عندما أطلق عليه البابا بول الثالث مهندس كنيسة القديس بطرس في عام ١٥٤٧ ، كما أنه بنى القبة العظيمة للكنيسة التي بدأ في إنشائها المهندس «برامانت Bramante» .

(١) سكستين شابل Sixtine Chapelle : توجد هذه الكنيسة الصغيرة في الفاتيكان . وقد جرت عادة أن ينتخب فيها الكرادلة البابا عندما يحلوك رضى البابوية .

تميزت مخلفات ميخائيل أنجلو في النقش بنوع من القوة لم يكن مألوفاً قبل عهده ،  
فمعظم تماثيله إنما تمثل أشخاصاً عظمى البنية قوى العضلات والبنيان . فهم أشبه  
ما يكونون بالرياضيين . كذلك تمتاز بما تستلوه من النفوس من عطف وحزن  
واشفاق . وإن ذلك كله يرجع إلى طبيعته الحزينة القلقة النفور ، ولا أدل على ذلك  
مما ينسب إليه من بيت من الشعر في إحدى قصائده :

Mille Plaisirs ne valent pas un tourment.

« وإن ألف ساعة من سرور لاتوازي ساعة من حزن » .

في فن التصوير :

ويعتبر رافائيل Raphael ( ١٤٨٣ - ١٥٢٠ ) إمام الفنانين الذين برعوا  
في فن التصوير في إيطاليا ، وعلى الرغم من أنه مات وهو في عتفوان شبابه إلا أنه  
خطف آثراً فنية في ميدان التصوير بلغت حد الروعة والإعجاز . وهو في مميزات  
إنتاجه ورسومه بل وحياته يختلف تمام الاختلاف عن ميخائيل أنجلو العظيم ، إذ امتاز  
رافائيل بطبيعة سهلة سعيدة جنبته الحزن .

سافر إلى روما عام ١٥٠٨ ، حيث كلفه البابا يوليوس الثاني بتزيين بعض حجرات  
الفاتيكان وبسرعة وسهولة تدعو إلى الإعجاب تمكن رافائيل من إنجاز رسمين ، بعدان  
خاية في الجمال والروعة أنجزهما في ستة أشهر ، رسمهما على الحائط «باشرة» (وهو  
ما يعرف برسم الفريسكو) : أحدهما يمثل «المسيح ومغزى العشاء الرباني La dispute  
du Saint Sacrament والآخر يمثل «مدرسة أثينا» L'Ecole d'Athènes .  
ومعنى ذلك أن أولهما يمثل تاريخ الكنيسة والثاني الفلسفة القديمة .

ومنذ ذلك التاريخ اكتسب رافائيل شهرة واسعة النطاق فأصبح لايقب إلا بالمقدس  
كما أصبح في منزلة وزير ومصرف شئون الفنون الجميلة للبابا . فأمه الطلاب من كل  
صوب وتلمنوا عليه . ومن آثاره الفنية الرائعة «البرناس Le Parnasse» ( جبل  
مخصص لإله الشعر عند اليونان ) ، وتخليص القديس بطرس ، وتجلي الرب . ولا زالت  
حجرات رافائيل بالفاتيكان تشهد بعظمة إنجازات هذا الرسام العظيم الذي تميزت  
رسوماته بهلوتها ووضوحها . فلم يكن هناك من يجاريه في تجميع الأشخاص في وحدات  
مفسجة . كما لم يكن هناك من يفوقه في توضيح التعابير المختلفة لجميع تلك الشخصيات  
ومراعاة المسافات بينها ونسبة بعضها إلى بعض .

ومن العباقرة العالميين في فن التصوير كذلك ليوناردو دافنشي «Leonardo da Vinci» (١٥٤٢ - ١٥١٩). ولد في قرية «فنشي» Vinci على مقربة من فلورنسا واشتهر بنشاطه في فروع شتى من الفنون والعلوم، اشتهر في عالم الرسم والنحت والمهار والهندسة والموسيقى والحيولوجيا والرياضة والفلك وعلم وظائف الأعضاء وكانت رغبته العامة الوصول إلى حد الكمال فيما ينتجه من لوحات مما جعله لا يخلف الكثير وراءه منها، كما أن حزاء كبيراً منها قد أبيد نتيجة لبعض الحوادث

ويوجد بمتحف اللوفر بعضاً من أحسن لوحاته . العذراء بين الصخور . العذراء والقديسة آن . والقديس يوحنا المعمدان ، وأشهرها صورة للسيدة من فلورنسا تدعى «مونا ليزا» Mona Lisa وهي معروفة كذلك باسم «لاجاكوندا» La Jaconde تزوجت في السادسة عشرة من عمرها على كره منها أحد ضباط مدينة فلورنسا . وقد ظل الفنان مستغرقاً في رسمها أربع سنوات فكانت النتيجة صورة تعتبر معجزة فنية خالدة ، تمثل مقامين سيدة وديعة حساء مثالية ، تتسم بجاذبية نادرة ، يعلو وجهها ظل ابتسامة تفيض من عينيها اللامعتين وترسم على شفيتها . واستطاع ليوناردو بمواهبه العظيمة أن يجعل من هذه السيدة المجهولة شيئاً مذكوراً في التاريخ

استدعاه فرانسوا الأول عام ١٥١٦ ، فمات بعد سنوات ثلاث في قصر «سان كلود» St. Cloud .

ويرى البعض أن «ميخائيل أنجلو» و«ليوناردو دافنشي» و«رافائيل» يشتركون في تكوين تالوث الفن في القرن السادس عشر . بما حققوه من أعجاز فنية ستظل على توالي العصور في مقدمة ما أبدعه الإنسان في ميدان الفنون الجميلة .

إن النهضة التي بلغت أوجها في القرن الخامس عشر في فلورنسا لم تلبث أن خبت أضواؤها في عام ١٤٩٤ عند مطلع الحروب الإيطالية . عندما اجتاحت جيوش شارل الثامن ملك فرنسا شبه الجزيرة الإيطالية . وتأثرت بها فلورنسا أيما تأثير ، ولذلك لم يلبث مركز حركة النهضة المشع أن انتقل من فلورنسا إلى روما التي طلت محضفة مكناتها في عالم الحضارة من عام ١٤٩٤ حتى عام ١٥٢٧

وقد ساهم البابوات فيها بنصيب وافر . فتنامسوا جميعاً في تشجيع حركة النهضة في روما مما جعلها تترك المكانة التي كانت تتمتع بها فلورنسا .

وكان البابا نيقولا الخامس (١٤٤٧-١٤٥٥) من أكبر مشجعي حركة النهضة في روما فاستدعى إلى بلاطه عدداً كبيراً من العلماء والأدباء النابغين ومن المترجمين المهرة في اللغتين اليونانية واللاتينية . كما أوغد العلماء إلى كافة أنحاء إيطاليا بحثاً عن الوثائق النادرة لشراؤها وحملها إلى مكتبة في روما . ولم تقتصر زياراتهم ونجواهم على أنحاء إيطاليا ، بل تعدتها إلى ألمانيا وإنجلترا ، واليونان ، والشرق بصفة خاصة . وترجمت إلى اللاتينية لأول مرة كثير من القطع اليونانية لكل من « هيرودوت » و « اكرنفون » Xenophon و « ديودور الصقلي » Diodore ، والإلياذة « لهومر » Homerus ويكفيه فخراً أنه مؤسس مكتبة الفاتيكان الشهيرة .

وقد راد في مقتنياتها من بعده ليو العاشر ١٥١٢ - ١٥٢١ ، واهتم بالتنقيب عن الوثائق القديمة ، كما اهتم بتلخيص كل من اللغات الكلدانية والعبرية والسورية واليونانية واللاتينية .

ولم يكن اهتمامه بالنس أقل من اهتمامه بالأدب : فقد كان مغرمًا بالموسيقى ومشجعاً للرسم والسحت والمعمار . وأظهر اهتماماً بالغاً في بناء كنيسة القديس بطرس التي بدىء العمل فيها في عهد البابا يوليوس الثاني ١٥٠٣ - ١٥١٣ وقد وضع تصميمها المعماري المشهور « برامانت » Bramante ، ولكنه مات قبل أن ينجزها .

وقد كلف « ميخائيل أنجلو » بتأسيس كنيسة سانت لوران في فلورنسا ، كما استعان بجهود ليوناردو دافنشي . وقام « رافائيل » في عهده بتزيين بعض قاعات الفاتيكان بالهرسكو .

أما « أدريان السادس » Adrian VI ١٥٢٢ - ١٥٢٣ فليس له ذكر في هذه الحركة وحله « كلمنت السابع » Clement VII (١٥٢٣ - ١٥٣٤) الذي تساهم في حركة النهضة بنصيب وافر . فبلغت الأكاديمية الرومانية في عهده مبلغاً عظيماً من التفوق حتى كان عام ١٥٢٧ وهو العام الذي اجتاحت فيه جيوش الامبراطور شارل الخامس روما . وأسرت البابا كلمنت السابع . فكان ذلك العام بداية لنهاية هذه الحركة .

أما البندقية التي خلفت روما في حمل لواء النهضة فقد بلغت عند مطلع العصور الحديثة مبلغاً عظيماً من الثروة والنفوذ . ولكنها مع ذلك بدأت تفقد كثيراً من مكانتها



بسبب محاولات العثمانيين تهديد مركزها التجاري ومنازعتها للسلطان في حوض البحر المتوسط ، وإغلاق طريق التجارة إلى الشرق في وجهها . وقد ساهم في إضعاف مركزها التجاري تلك الكشوف الجغرافية التي ترتب عليها اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح إلى الهند ، والعثور على عالم جديد يقع إلى الغرب من المحيط الأطلسي . على أن أملاك البندقية قد اتسعت في إيطاليا ، فأصبحت تسيطر على « بادوا Padua » ، و « برجانو Bergamo » ، و « فيرونا Verona » ، وقد كانت تلك الممتلكات توصلها عن طريق ممرات جبال الألب إلى أملاك الهابسبورج ، وتربطها بدوقية ميلان . وهكذا كانت على صلة ببعض ساسة أوروبا أيام العصور الوسطى . وكانت الدول كثيراً ما تطلب معونتها المالية والحربية . وكان النظام السياسي القائم فيها دقيقاً وناجحاً . فهو أكمل مثال للحكم الأقلية في أوروبا . فيه كانت السلطة تتركز في أيدي الأسرات التجارية العظيمة . وكانت تستأجر بحق حضور المجلس العظيم الذي كان يقوم بتعيين الإداريين وتوجيه سياسة الدولة ، وكان الدوج Doge هو الرئيس الأعلى لهذه الأقلية التجارية ولكنه كان محدود السلطة .

كان لحركة النهضة في البندقية طابعها المميز المختلف عن طابع النهضة الفنية في كل من فلورنسا وروما . فبينما اهتم فنانون فلورنسا وروما بجمال الشكل على وجه الخصوص ، اهتم الفنانون في البندقية بالألوان ، ومزجها وتركيبها قبل أى شئ آخر ، فكانوا عظمى الحساسية لاختلافات الضوء ، والانسجام بين الألوان ، وقد دفعهم ولهم بالألوان إلى الاهتمام برسم المنظر قبل أى شئ آخر ، لذلك كانوا أول من اهتم برسم المناظر الطبيعية ، كما استخدم البنادقة في تزيين الحوائط الطريقة الفلمنكية أى التلوين بالريت .

ومن أشهر رساميها « تيتيان » Titian ، ( ١٤٧٧ - ١٥٧٩ ) الذي ظل ولياً للبندقية رغم العروض المغرية التي عرضها عليه كل من البابا ليو العاشر وفرنسوا الأول ، خلف رسوماً عديدة يصل عددها إلى نحو ٤٠٠٠ لوحة . وقد فاق غيره في رسم اللوحات الزينة . ورسم الأشخاص . وبقيت تلك المدرسة بالبندقية حتى نهاية القرن ١٦ بفضل جهود كل من « تينتوريتو » Tintoretto ، ( ١٥١٢ - ١٥٩٤ ) و « فيرونيز » Veronese ، ( ١٥٤٨ - ١٥٨٨ ) . وامتاز الأخير برسومه الكبيرة الحجم ، ومنها في

متحف اللوفر Les Noces de Cana « عرس كانا » .

### حركة النهضة خارج إيطاليا :

نشأ عن حركة النهضة في إيطاليا فن جديد وأدب عظيم ، بيما نتج عنها في فرنسا فن جديد ولكن له مميزاته الخاصة ، التي تجعله يختلف عن فن إيطاليا وإن كان الأساس فيهما واحد ، وهو الرجوع إلى القديم ومحاولة محاكاته ، ولكن الفن في فرنسا احتسب إلى جانب ذلك بعض مميزاته التي سادت في العصور الوسطى كما أن النهضة الأدبية في فرنسا لم تبلغ أوجها عندئذ ، وإنما بعد ذلك أي خلال القرنين : السابع عشر والثامن عشر ؛ فظهرت أثناءها نخبة من الكتاب ممن يمكن وضعهم في منزلة كتاب إيطاليا في عهد النهضة ، ومع ذلك لم يخل هذا العهد بالنسبة لفرنسا من بعض الأسماء اللامعة في الشعر والأدب أمثال رابليه وكلفن ورونسار ومونتني . أما في ألمانيا فاتبعت حركة النهضة اتجاهها علميا ودينيا ؛ وكثيرا ما ترجع شهرة الألمان الحالية في الميدان العلمي إلى ذلك العهد الذي بدأت فيه الاتجاهات تتكاثر وتنتشر ، وبدأت تزدهر فيها الدراسات العلمية ، فكانت نتيجة هذه النهضة في ألمانيا نهضة علمية فريدة ، كما أدت إلى ظهور عقيدة جديدة . وفي إنجلترا نتج عن النهضة مدرسة عظيمة للشعر والدراما من أعظم ما عرفه التاريخ منذ عهد اليونان .

ويعتبر « ارزم » Erasmus ( ١٤٦٧ - ١٥٣٦ ) الهولندي صاحب الفصل في انتشار حركة النهضة في أوروبا ، ورسول الدراسات الإنسانية في الشمال بفضل نوعه الفكري . والشهرة التي نالتها كتاباته مما كان له أثره في تمهيد الطريق لإحياء العلوم والمعارف ليس في هولندا موطنه الأصلي فحسب بل وفي سائر أنحاء أوروبا . رار باريس واكسفورد حيث احتلظ بزعمي الإصلاح في اكسفورد « جون كولين » ، Johncolet . و« توماس مور » Thomas Moore وكانا من حبر أصدقائه . وقد استمر يتجول في أنحاء مختلفة من إيطاليا ، وفرنسا ، وإنجلترا ، وألمانيا ، والأراضي المنخفضة ، وأمضى السنوات الأخيرة من عمره في بال وقد حاضره في هذه البلاد في اللغتين الإغريقية واللاتينية ، ويعد في الحث عن الكتب القديمة وجمعها والتعليق عليها ونشرها للإفادة منها ، وقد وضع عدة مؤلفات باللغة اللاتينية .

كان مؤمناً بأن الدراسات الإنسانية وسيلة إلى غاية سامية وهي إصلاح المجتمع الأوروبي وتخليصه من الشرور والآثام والفصائح الخلقية ، وكانت الناحية الدينية هي الناحية المفضلة لدراساته . وعكف على دراسة الكتاب المقدس فشر النسخة الإغريقية

الأصلية وأرفقها بالترجمة اللاتينية ، وكان يدعو المسيحيين إلى بساطة المسيحية الأولى ونقاها ، لذلك كان من الرواد الأوائل في المطالبة بالإصلاح الديني نظراً لأنه لمس بنفسه التدهور والانحطاط الذي وصلت إليه الكنيسة . ولكنه لم يخرج على العقائد ولا على كنيسة روما . وكان ظهوره قبل مارتن لوثر بفترة وجيزة .

وعلى الرغم من تجواله المستمر فإنه أنتج مؤلفات كثيرة . فقام بنشر بعض الكتب والنصوص القديمة ، وإلى جانب نشر النسخة الإغريقية من الكتاب المقدس والترجمة اللاتينية المأمقة بها . نشر كثيراً من المخطوطات للكنيسة ، ومن أشهر كتبه خاصة ما أسماه «مديح الجنون» *Eloge de la Folie* . وهو نقد للحالة الاجتماعية ، نشر عام ١٥١١ ، وراج رواجاً عظيماً . فطبع سبع طبعات في بحر بضعة أشهر كما أنه ترجم إلى جميع اللغات . انتقد في هذا الكتاب بعض تصرفات رجال الكنيسة وأبان جهل القساوسة وما وصلت إليه أخلاق رجال الدين من سوء . ولكنه مع ذلك لم يتعرض نتائجاً لمسألة العقائد الدينية ذاتها أو سلطة البابوات ، أى أنه لم يفكر في مهاجمة الكنيسة ولا النفوذ البابوي . وكان حريصاً على الاستقلال في الرأي والكتابة . كما كان دائماً يتوخى الحذر والاعتدال فيما يكتب حتى لا ينفر الناس من حوله أو يثير منقط الكنيسة أو النولة عليه . وكانت كتاباته باللاتينية التي كانت لاتزال اللغة الشائعة بين المثقفين في أوروبا





## النهضة في فرنسا

إن النهضة في فرنسا هي وليدة النهضة في إيطاليا ، وقد كانت أهم نتائج الحروب الإيطالية ؛ فعندما احتاحت الجيوش الفرنسية لإيطاليا في عهد كل من شارل الثامن ولويس الثاني عشر ، وفرنسوا الأول ، بهت هؤلاء الملوك ومن معهم بما شاهدوا من تقدم حضارى منقطع النظير في نواحي المعرفة المختلفة وفي مختلف الفنون العديدة ، فحاولوا جميعاً جاهدين أن ينقلوا هذه الحضارة إلى فرنسا حتى لا تنقل عن إيطاليا في التقدم الحضارى .

فوجد شارل الثامن يشتري من فلورنسا ما يزيد على نصف مليون نجفة ، كما أنه اصطحب معه بعثة من الفنانين يبلغ عدد أفرادها ٢٢ فناناً . كما حصل فرانسوا الأول على مجموعة من القطع الرخامية القديمة وكلف كلامن « رافائيل » و « ليوناردو دافنشى » بعمل بعض اللوحات الفنية . وكذلك نجده ينشئ في قصره المفضل في « Fontainebleau » حلقة تضم نجبة من الفنانين الإيطاليين منهم « لبريماتاس » Le Primatice و « روسو Rosso » و « بنفينوتو تسيليني » Benvenuto Cellini . وقد شارك الشعب ملوكه في تحمسهم لحركة النهضة ، مما كان له أثره في انتشارها في فرنسا .

وهكذا بسط ملوك فرنسا وأمرائها رعايتهم على رجال العلوم والآداب والفنون فكان لتشجيعهم الأثر الأعظم في وفود مجموعة منهم إلى باريس ؛ كان بعضهم من الإيطاليين والبعض الآخر من أصل بيزنطي ، وأحلوا يحاضرون في جامعة باريس باللغات العبرية واليونانية واللاتينية .

ويلاحظ أنه على الرغم من أن حركة النهضة في فرنسا قد اتجهت إتجاهاً فنياً أدبياً شأنها في ذلك شأن النهضة في إيطاليا إلا أنها قد اختلفت عنها من عدة نواح أهمها :

١ - أولاً إن النهضة الأدبية فيها على الرغم من إزدهارها لم تبلغ شأواً يوازي ما بلغت الحضارة الأدبية في إيطاليا ، وإنما بلغت عظمتها وأوجها في خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر .

٢ - إن حركة النهضة الأدبية والفنية في فرنسا لم تجد السبيل الممهد التي وجدته هاتان الحركتان في إيطاليا ، ولذلك كانت حركة التطور نحو النهضة بطيئة كما إنها لم تحدث دون مقاومة .

ويرجع ذلك إلى أن فرنسا قد كونت لنفسها فذا وطنيا له أنصاره ، كما أن حركة النهضة الأدبية ودراسة القديم لاقت مقاومة من كلية اللاهوت في جامعة السربون .

٣ - اتجهت النهضة الفنية في فرنسا - وقد كانت معمارية بصفة خاصة - نحو إقامة المباني العامة ، مثل مجالس البلديات والقصور التي تطورت نماذجها فلم تعد كما كانت أثناء العصور الوسطى تشيد على هيئة حصون ، وإنما أمست تبني على عرار قصور المتعة والحمال ، فكان الغرض منها إقامة الحفلات الباهرة وإطهار العظمة والأبهة ، بينما اتجهت حركة نهضة المعمار في إيطاليا نحو بناء الكنائس ودور العبادة .

## النهضة الفنية في فرنسا

كانت بطيئة ، كما أنها لاقت مقاومة ويرجع ذلك إلى أن فرنسا كانت قد كوت  
لنفسها فنا وطنيا له أنصاره ؛ وهو الفن القوطي . وعلى ذلك يمكننا أن نقسم عصر النهضة  
في فرنسا إلى عهدين :

العهد الأول من القرن السادس عشر ؛ وفيه يتغلب طابع التقاليد الفرنسية على أى  
شئ آخر ولا يظهر أثر القديم في الفن إلا بمقدار .

أما في العهد الثاني من القرن السادس عشر فنجد أن المؤثرات الفنية التي عثرت بها  
حركة النهضة تتغلب ؛ فيتحول الفن الفرنسي إلى فن كلاسيكي . ولكنه مع ذلك لا يفقد  
ما تميز به من ميل إلى الوضوح مع البساطة .

وتدين فرنسا . في عهد النهضة كما كانت الحال أيام العصور الوسطى بمجدها الفني  
لرحال العمارة والنحت . أما رساموها أمثال فرانسوا كلويه «François Clouet»  
(١٥١٦-١٥٧٢) وهو من أصل فلانكي ، فلا يظهر نشاطهم الفني ونبروهم إلا في  
رسم الأشخاص وأهم ما كان ينتجه الرسامون في تلك الآونة أشخاص مصغرة للغاية ،  
ودقيقة جدا في نسبها .

ومن عائلات العمارة في العهد الأول التي احتفظ فيها المعماريون بالقواعد  
والأسس - التي أتبعوها من قبل ، مع إدخال بعض التعديلات الطفيفة - محكمة روان  
«Rouen» التي تمثل آخر جهود الفن القوطي الفلمنكي ، ثم قصور نهر اللوار ،  
في «أنجو» Anjou ، والتورين ومنها : قصر «أمبواز» Amboise الذي بدأه  
شارل الثامن ، وقصر «باوا» Blois الذي بدأه لويس الثاني عشر ، وقصر شامبور  
«Chambord» وهو قصر فرانسوا الأول ثم كمل من قصر «شوننصو» Chenonceaux ،  
و«أري لوريديو» Azay le Rideau و«للود» Le Lude وغيرها .

ومع ذلك فمنذ ذلك العهد بدأت تظهر مؤثرات عهد النهضة والرجوع إلى القديم  
في تزيين المباني مثل تيجان الأعمدة والأعمدة نفسها ، وهكذا أصبح هناك خليط عجيب

-٩٠-

من الفن القوطى والفن اليونانى الرومانى . امتد ذلك العهد حتى نهاية عهد هنرى الثانى ، أى فى عام ١٥٥٩ حيث أصبح الفن الكلاسيكى هو الفن الغالب .

أما أشهر آثار العهد الثانى من القرن السادس عشر الذى انتصر فيه عصر الفن الكلاسيكى فترجع إلى مجهودات عدد من المعمارين ممن زاروا إيطاليا ، وتعلموا على فنانيها ، ودرسوا الآثار القديمة ، وجعلوها مصاير إلهامهم فما انخزوا من آثار فى مجال العمارة فى فرنسا بصفة عامة وباريس بصفة خاصة ، ومن أبرر هذه النحلة .

(١) « بيير لسكو Pierre Lescot » ١٥١٠ - ١٥٧٨ :

وهو باريسى الأصل ، وضع تصميم « اللوفر Louvre » كما أنه بدأ فى بناء ذلك القصر العظيم الذى صنم فرانسوا الأول حوالى عام ١٥٤٦ على أن ينشئ فى موضع قصر شارل الخامس القديم ، ذلك القصر الذى لم يقدو له أن يتم إلا بعد مضى ١٥٠ عاما أى فى عهد لويس الرابع عشر ، ويعتبر هذا القصر من أحسن الأمثلة لما أنجزته حركة النهضة المعمارية فى فرنسا .

ظل « بيير لسكو » حتى مماته يسيطر على عمارة قصر اللوفر ، ولكن العمل كان يتوقف من وقت لآخر ، ثم توقف البناء فيه نهائيا عند موت هنرى الثانى ، إذ كرمبت زوجته الوصية على أبنائها « كاترين ديمدتشى » موارد الدولة لبناء « قصر التويلرى Tuileries »

(٢) « فيليب ديلورم « Philibert Delorme » ١٥١٥ - ١٥٧٠ :

مما يؤسف له أن معظم ما انتجه ذلك الفنان من آثار قد أريد وكان منها قصر « التويلرى » « Tuileries » الذى بدأ فى بنائه ١٥٤٦ لكاترين ديمدتشى « Catherine de Medici » بمساعدة « جان بولان Jean Bullant » وقد احترق عام ١٨٧١ ، لم يبق منه شيء ما . قص « دانيه « Chatteau d'Anet » الذى بدأه عام ١٥٤٨ « لديانا ديپواتيه Diane de Poitiers » . وقد احترق أيام الثورة ولم يبق منه إلا الجزء الأوسط من المواجهة الذى نقل إلى مدرسة الفنون الجميلة فى باريس كما بنى مقبرة فرانسوا الأول فى « سانت دنيس » « St. Denis »

(٣) « جان بولان » « Jean Bullant » ١٥١٢ - ١٥٧٨ :

قبل أن يصبح هذا الفنان رجل العمارة لكاترين ديمدتشى كان قد بنى قصر « ديكوان ed'Ecouen » بالقرب من باريس . وقد نقل أعمدته من معبد جوبيتر « Jupiters » فى روما ، كما ساهم فى إدارة بناء قصر التويلرى .



وأما رجال النحت فقد كانوا يومئذ فريقين :

- (١) فريق ظل وفيا للنماذج الفرنسية .
  - (٢) وآخر تأثر قليلا أو كثيرا بالفن القديم أو الايطالى .
- أما الفريق الاول منهما فهم :

- ١ - ميشيل كولمب « Michel Colombe » وهو من بريتانيا إشنغل من عام ١٥٠٤ - ١٥٠٧ فى « نانت » « Nantes » بحجر مقبرة دوق بريتانيا .
- ٢ - وبير يوننان « Pierre Bonnempe » وقد قام بعمل الرسوم ونقش والتماثيل الموجودة على قبر فرانسوا الأول فى « سانت دنيس » « St. Denis »

أما الفريق الثانى :

- فمن أشهر رجاله النحات العظيم « جان جوجون » « Jean Goujon » (١٥١٥ - ١٥٦٧) حاون « فيليير ديلورم » « Philibert Delorme » فى إتمام « قصر دانيه » « Château d'Anet » . و « بير ليسكو » « Pierre Lescot » فى إتمام القوثر . كان فى فنه كلاسيكيا ممتازا فمقابض الأملحة تبدو فى واجهة مدخل القوثر وكأنها أقواس نصر رومانية ، ويتمثل ولعه بالقديم فى « ديانا دائية » « La Diane d'Anet » وفى « عرائس نافورة الابرياء فى باريس » « Les Nymphes de la Fontaine des Innocents » عارية كانت أم مغطاة بالأردية الواسعة على الطرار القديم .

تميزت فرنسا فى عصر النهضة كذلك بتقدمها فى مجال الفنون الصغيرة الدقيقة ، كصناعة الحل والاثاث والنقش على الصيفى ، كما ظهرت بها بعض آيات الفن على الخودات والدروع وجراب السلاح ، فكانت كلها محلاة بأشياء جميلة جدا تظهر تارة على الأكواب والأواني والملاحات وغيرها من أدوات المائدة . وهنا يجب أن نذكر أن النقاش العظيم « بئنتونوتسيليني » « Benvenuto Cellini » قد عمل أولا فى روما البابا ثم فى فرنسا لفرانسوا الأول ، واشتهر بمكان « ليموج » « Limoges » بالرسم على النحاس بالمينا ، رسم مناظر دقيقة للغاية ذات ألوان حية وشفافة .

## النهضة الأدبية في فرنسا

كانت فرنسا في القرن السادس عشر من أهم مراكز الحركة الإنسانية إذ بسط ملوكها وأمراؤها رعايتهم على رجال العلوم والآداب والفنون وأيدوهم بالتشجيع فوفد إلى باريس مجموعة من كبار العلماء ، كان بعضهم من الإيطاليين والبعض الآخر من أصل بيزنطي ، وأخذوا يحاضرون في جامعة باريس في اللغات العبرية والإغريقية واللاتينية ، على أن هذه الحركة النشطة لم تتم في سهولة ودون مقاومة ، فقد قلمت جامعة باريس في بادئ الأمر إدخال هذه العلوم الجليدة من اللغات القديمة ، ويرجع ذلك إلى أنها كانت تهتم بالدراسات الدينية .

وبما أصاب هذه الحركة من توفيق أن توثقت وأصر الصداقة بين ملك فرنسا فرانسوا الأول (١٤٩٤-١٥٤٧) وبين علماء الدراسات الإنسانية ، ومن بينهم «جويوم بوديه» «Guillaume Budé» (١٤٦٧ - ١٥٤٠) وكان من كبار العلماء المتخصصين في اللغة الإغريقية ، وقد استطاع «بوديه» بفضل تشجيع ملك فرنسا فرانسوا الأول أن ينشئ «كلية فرنسا Collège de France» عام ١٥٣٠ التي أصبحت تدرس فيها الإغريقية جبا إلى جنب مع اللغة العبرية ، ونمت هذه الكلية على الرغم من مضايقات ومعارضات السوربون حتى أصبح بها عشر كراسي عند موت فرانسوا الأول . فكانت تدرس اليونانية واللاتينية والعبرية والفلسفة والرياضة والجغرافيا والطب ، وإليها يرجع الفضل في نشر الدراسات الإنسانية في فرنسا ، ولا زالت إلى اليوم مفخرة من مفاخر فرنسا .

ومن أهم ما خلفه «جويوم بوديه» «Guillaume Budé» من مؤلفات ، تعليقاته على جزء من القوانين الرومانية ، ويعتبر أول مثل للنقد العلمي السليم ، كما كتب عن العملة الرومانية وأخرج بحثا عن الحياة القديمة ، وهو مؤسس كلية فرنسا أو كلية الملك ، أو كلية اللغات الثلاث .

ونشطت في باريس حركة نشر الكتب الإغريقية وأسست مطبعة يونانية متخصصة في نشر هذه المؤلفات ، ومن التقاليد التي أرسى قواعدها حركة النهضة في فرنسا

أن أصحاب المطابع لم يكونوا رجال أعمال فحسب بل جمعوا بين الثقافة العميقة الواسعة وبين حرفة الطباعة ، ومن هؤلاء « هنرى إيتين » « Henri Estienne » (١٥٣٢ - ١٥٩٨) وكان من أشهر الإنسانيين في فرنسا في النصف الثاني من القرن السادس عشر ، ينتمى إلى أسرة من المشتغلين بالطباعة في فرنسا ، وكذلك من العلماء النابغين ، وقد نشرت أسرة « Estienne » في قرن واحد أكثر من ألف مجلد . وكان أعظم ماكتبه « كنوز اللغة الإغريقية » « Trésor de la Langue Greque » .

ومن أشهر كتاب وأعلام النهضة في فرنسا في ذلك العصر « فرانسوا ربله » « François Rabelais » ، فإن الأدب الفرنسي الذى الحط في نهاية العصور الوسطى قد انتعش بفضل الدراسات الإنسانية والإنصال بكتابات الأقدمين . فنجد هذا المؤلف العظيم يشهر باتساع أفاقه وكثرة اطلاعاته مما أتاح له نشر عدة كتب من أهمها كتابه عن حياة « جوجانتوا » « Gargantua » العظيم ، وآخر عن حياة ابنه « پتاجرويل » « Pantagruel » ، إمتازت كتاباته بالنقد اللاذع ، ولكنها مع ذلك كانت تزخر بروح الإنسانيين وحسب للمعرفة ، وقد شهر في كتبه بكثير من الهيئات المحافظة على القديم كشهره بجامعة باريس ، التى أبت إلا الإبقاء على دراسات العصور الوسطى ، وعارضت إدخال الدراسات الإنسانية بلخديدة فيها . ثم إنه قد أشغف بالطب فتعلمه وغدا أستاذا في علم التشريح ، وكان أول من خالف البابا وتحداه علما قام بتشريح جثة بشرية ، وعمل قسيسا ونشر أبحاثه في أسلوب متنوع مبسط .

ويعتبر « جون كلفن » « Jean Calvin » المصلح الدينى (١٥٠٩ - ١٥٦٤) من أديباء فرنسا المرززين في عهد النهضة فقد نشر كتابه « قواعد الدين المسيحى » « Institution Chrétienne » حيث وضع خطة متكاملة لإصلاح الكنيسة عام ١٥٤١ ، نشره في أسلوب واضح سلس يجعله في مصاف المبدعين في النثر الفرنسي .

وقد ظهرت المؤثرات القديمة بوضوح وجللاء في النصف الثاني من القرن السادس عشر . فنجد حلقة من الشعراء عددهم سبعة يطلق عليها « بلياد » « Pleiades » (١) كان

(١) « بلياد » « Pleiades » هو اسم فتيات « الخلس » « Atlas » و « بليون » « Pleione » المسماة للآلى . فتلى أنفسهن من اليأس ، وتحولن إلى نجوم ( أسطورة ) ومجموعة « البلياد » اليوم تكون مجموعة نجوم من نصف الكرة السماوية الشمالى ، ونجمه نحو رأس الثور وتسمى كذلك « بالموسميير » . La Poussin ere والمثلث لفظ « بلياد » على كوكبة من سبع شعراء كانوا يسمون تحت حكم « بطليموس » .

هدفها إصلاح اللغة والعمل على إراثها بالألفاظ الجديدة بعد ما أصحابها من انحلال في نهاية  
العصور الوسطى ، وينشر نتائج مباحثات ومناقشات شعراء « البلياد » أحدهم ويدعى  
« يواقيم ديبلية » « Joachim de Bellay » في مؤلف أمياه « الدفاع عن اللغة الفرنسية  
وتصويرها » « Défense et Illustration de la Langue Française » . ومن أشهر شعراء  
هذه الحلقة « رونسار Ronsard » ( ١٥٢٤ - ١٥٨٥ ) فهو قد عالج أنواعا شتى من  
الشعر القديم ، ورفعه شهرته العالمية إلى مرتبة أمير الشعراء في عصره وأصبح يتمتع بتلك  
المكانة التي كان يتمتع بها كل من « فرجيل » Virgile عند الرومان و « هومر » Homer  
عند اليونان . والواقع أنه نجح مع زملائه الشعراء في رفع مستوى اللغة الفرنسية وفي إنعاشها  
أما في مجال النشر فلمع اسم أحد الأدباء وهو « مونتيز Montaigne » ( ١٥٣٣ -  
١٥٩٢ ) وكان من أعظم كتاب هذا القرن ، أشهر كتاباته « مقالاته الشهيرة » « Les Essais »  
جمع فيها خواطره الجديدة التي تجلت فيها فصاحته وسلاسة أسلوبه ، وقد أحدثت تأثيراً  
بليغاً في النفوس ولارالت إلى اليوم محظوظة بمكانتها العظيمة في عالم الأدب . وقد ترجمت  
إلى لغات متعددة .

---

١- فيلادلفي Ptolémée Philadelphus ومي عهد الملك ميري الثالث تكونت الحلياء الفرنسية من رونسار  
Ronsard ودي بيلي de Bellay ومي عهد لويس الرابع عشر تكونت كوكبة أخرى كانت تصمم رابين  
Rabin « وكومير » Comuré وغيرهما .

## النهضة فى ألمانيا

واجهت الدراسات الإنسانية فى الأوساط العلمية والدينية فى ألمانيا أول الأمر مقاومة شديدة ، وعلى الرغم من أن بعض الجامعات الألمانية قد أفسحت للدراسات الإغريقية واللاتينية مجالا فى برامجها إلا أن مقاومة رجال الدين الألمان قد حدت من انتشارها انتشارا واسعا ولا سيما وأن رجال الدين قد ربطوا بين هذه الدراسات وبين روما ، وقد كانوا يمتنون أشد المقت رجال كنيسة روما نظرا لما كان معروفا عن انحرافهم الخلقى ، ولذلك طالب الألمان أن يعوذوا بالمسيحية إلى بساطتها الأولى . واشتهر فى ألمانيا علم من أعلام الحركة الإنسانية ويدعى « يوحنا روكلى » *Johann Reuchlin* ( ١٤٥٥ - ١٥٢٢ ) تخصص فى الدراسات الإغريقية واللاتينية فى روما وغيرها من مدن إيطاليا ثم فى باريس بعد ذلك ، ثم جاهد فى سبيل نشر هذه الدراسات بين مواطنيه ، كما اهتم بالدراسات العبرية على أساس أنها هى الوسيلة العملية لفهم العهد القديم ودراسته ، وقد سار بينه وبين معارضيه ممن هاجموا الدراسات الإنسانية عامة واللغة العبرية بخاصة جدل عنيف . ولكن رأى العام الألمانى وقف إلى بجانب « يوحنا روكلى » مما رجع كفته . ومن هنا نشأ ارتباط قوى بين الحركة الإنسانية ودراسة الكتاب المقدس دراسة علمية سليمة ، بما أدى إلى تفهم العقيدة المسيحية ومن ثم كان من مميزات حركة النهضة فى ألمانيا أنها كانت فى الأصل دينية ثم تطورت إلى حركة إصلاحية بمعاودة الكنيسة .

لم يتحمس الألمان لتقليد القديم فى المباني فظلوا محتفظين بالطابع القوطى وهو الذى كان سائدا فى المصور الوسطى ، فاختلقوا بملك عن الإيطاليين بل والفرنسيين .

يرجع الفضل لألمانيا فى اختراع الطباعة وانتشارها بعد ذلك فقد بدأ « يوحنا جوتنبرج » بملك فى منتصف القرن ١٥ ومنها انتقلت إلى إيطاليا عام ١٤٦٥ ، إلى باريس عام ١٤٧٠ ، وإلى لندن عام ١٤٧٧ ثم إلى ستوكلم عام ١٤٨٣ مما نتج عنه طبع حوالى تسعة ملايين كتاب فى نهاية القرن ١٥ .

ومن أوائل الإنسانيين الألمان « رودلف أجريكولا Rodolph Agricola » (١٤٤٢ - ١٤٩٥)؛ ناهى بضرورة إدخال الدراسات القديمة المبنية على الثقافات اليونانية واللاتينية في برامج التعليم في ألمانيا .

ومنهم كذلك « يوحنا مولير Johann Muller » (١٤٣٦ - ١٤٧٦) وهو من تلامذة « بساريون Bessarion »؛ أحاد اليونانية التي درسها في إيطاليا فترجم إلى اللاتينية كثيرا من دراسات القدماء . وامتاز بدراسة عميقة في الفلك . وكان لأبحاثه في هذا الميدان الفصل الأكبر في مساعدة الرحالة والكاشعين من الأسبان والبرتغاليين .

ونذكر « ألبرير دورر Albert Durer » (١٤٧١ - ١٥٢٨) صاحب الرسوم والنقوش البديعة ، فهو قد رار البندقية والأراضى المنخفضة ، وكان على اتصال برفائيل ، وزار إرزم ، واشتهر بنقوشه ونحته على الخشب والنحاس . ومع ذلك فإن قلمه هو الذى يخلد ذكره . فقد كان كل ما أنتجه سواء في الرسم أم النحت أم الكتابة يمتاز بأنه صادر عن قلب مخلص ، وتفكير حزين ، فكان الرجل يجد السعادة في التفكير في ربه ، أكثر مما يجدها في التفكير في الناس . وقد كان فناً ومصلحاً في آن معا . وأسس مدرسة ثانية في « نورمبرج Nuremberg » وهي إحدى مدرستي ألمانيا الفئيتين العظيمتين

## النهضة فى انجلترا

بدأت حركتها فى انجلترا فى عهد أسرة التيودور بعد انتهاء حرب الوردتين . وقد قامت الحركة الإنسانية فيها على يد فريق من العلماء الذين سافروا إلى إيطاليا ، فنهلوا من الدراسات القديمة فى فلورنسا وروما والبندقية . وكان معظم هؤلاء الإنجليز من أكسفورد ، ولما عادوا اتخذوا من أكسفورد مكانا للإلقاء محاضراتهم ونشر آرائهم الجديدة فأطلق عليهم مصلحو أكسفورد Oxford Reformers .

وقد كان لأرزمس دوره الرئيس فى ازدهار الدراسات الإغريقية فى انجلترا ، وفى زيارته الأولى ١٤٩٩ حاضر فى أكسفورد ، وفى زيارته الثانية من ١٥١٠ - ١٥١٣ حاضر فى جامعة كمبريدج . ولذلك يعتبر أرزمس من أعلام المصلحين فى أكسفورد بسبب زيارته لانجلترا أو علاقاته الوطيدة بعلمائها .

اهتم المصلحون بأكسفورد بدراسة القديم ، وبتحرير الفكر الإنسانى من القيود التى كانت تعرضها الكنيسة على حرية الفكر والبحث العلمى .

ومن أعلام النهضة « توماس كوليبي Thomas Colet » الذى أدخل دراسة اللغة الإغريقية فى جامعة أكسفورد . و « توماس مور Thomas More » وقد كان كلاهما صديقاً لأرزمس . وكانوا ثلاثتهم يحاضرون فى اللغة الإغريقية بهذه الجامعة وفى عام ١٥٤١ أصدر هنرى الثامن مرسوما ملكيا بإنشاء خمسة كراسى أستاذية فى جامعة كمبريدج للغة اليونانية والعبرية واللاهوت والقانون المدنى والطبيعة .

أحدث النهضة فى انجلترا طائعا دينيا يستهدف خدمة المسيحية ولذلك لم تقتصر النهضة فى انجلترا على الآداب والفنون بل شملت الدين كذلك .

وقد ترجمت مؤلفات لبعض أعلام الفكر القديم مثل « هوميروس » ، و « فرجيل » و « بلوتارك » وغيرهم . وإذ كانت انجلترا لم تبلغ فى انتاجها الدروة فى القرن السادس عشر فقد عوضها عن ذلك بما بلعه لإنتاجها الأدبى من شهرة وتفوق عظيم خلال القرن ١٧

بفضل مؤلفات « شكسبير Shakespeare » ( ١٥٦٤-١٦١٦ ) ، و « جون ملتون »  
( ١٦٠٨ - ١٦٧٤ ) .

ومن أهم شعراء القرن السادس عشر « سير توماس وايت Sir Thomas Wyatt »  
( ١٥٠٣-١٥٤٢ ) ، و « لورد هـ Earl of Surrey » ( ١٥١٧-١٥٤٧ ) فكلاهما  
تجول في إيطاليا ، وأحضر معه إل إنجلترا نوعا من الشعر يطلق عليه « سونيت »  
Sonnet ( لبتراك ) . وبدأوا في إنجلترا ما يعرف بالشعر الغنائي ، ولكن لم يلبث  
من تلاهم من الشعراء من أمثال « سيدنى Sidney » وشكسبير أن أجادوا هذا النوع من  
الشعر الغنائي Sonnet ، وأدخلوا عليه تعديلات مختلفة ، وأصبحت الـ Sonnet من  
سمات العصر الواضحة كما كانت كتابة الرسائل المفتعلة المعالي في ألفاظها من سمات  
القرن ١٨ في فرنسا . ومن شعراء هذا العصر « دريتون Drayton » و « سير فيليب  
سدنى Philip Sidney » ، و « سبنسر Spencer » ومهم « جون دون John Donne »  
( ١٥٧٣-١٦٣٩ ) .

أما في الدراما فقد أنتجت ما يشبه المعجزات وحسبنا من ذلك ما نجده في تراث  
« شكسبير Shakespeare » و « ويبستر Webster » ، و « جونسون Jonson »  
و « ميسنجر Massinger » و « بومونت Beaumont » و « فلتشر Fletcher » .

وفي الموسيقى ظهر في إنجلترا كثير من مشاهير الموسيقيين والمؤلفين ، وبذكر  
منهم « دولاند Dowland » ، و « مورلى Morley » و « أورلاند Orlando » ،  
و « جيبونز Gibbons » وغيرهم ، كما برع كل من « تاليس Tallis »  
و « جون بول John Bull » في الموسيقى الكنسية .

وعلى الرغم من أن إنجلترا قد اتجهت في مهنتها نحو الموسيقى إلا أن مهنتها الحقيقية  
كانت أدبية قبل أى شئ آخر ، وقد حلد شكسبير اسمه في إنجلترا بل في العالم كله .



## الفصل الرابع الحروب الإيطالية

(١٤٩٤ - ١٥٥٩)

يرى بعض المؤرخين أن سنة ١٤٩٤ تعتبر من مطالع تاريخ أوروبا الحديث ، وذلك لما ترتب على الحروب الإيطالية التي بدأت في ذلك العام من نتائج هامة في ميدان السياسة الدولية . فقد بدأ أداء الحروب الاهتمام بمبدأ التوازن الدولي ، وذلك عندما احتاحت جيوش شارل الثامن لإيطاليا مهددة أملاك النابوية وأسبانيا والإمبراطورية فتكونت الأحلاف السياسية لتضع حداً لسيطرة فرنسا على إيطاليا . لما قد يترتب على ذلك التفوق من إحلال مبدأ التوازن الدولي .

ولم تكن أهمية هذه الحروب قاصرة على ظهور مبدأ المحافظة على التوازن الدولي نتيجة لأحداثها ، بل أعلت المنافسة المريرة بين كل من فرنسا وأسبانيا للسيطرة على إيطاليا ، وهي منافسة كانت بداية لصراع طويل بين أسرة الهابسبرج في أسبانيا والنسابة من ناحية وبين أسرتي فالوا ثم البريون في فرنسا من ناحية أخرى ذلك الصراع الطويل الذي استمر ما يزيد على القرنين . وكان له أثره الهام في تطور العلاقات الدبلوماسية في أوروبا .

ولهذه الحروب أهميتها كذلك من ناحية أنها شعلت حكام أوروبا الكاثوليك عن مواجهة الحركة الدينية التي بدأت تظهر أخطارها في ألمانيا وفرنسا في بداية القرن السادس عشر . إذ شغل هؤلاء بالأطباع السياسية والمنافسة الأسرية عن مواجهة هذا الخطر الداهم وهو في المهد . فكروا بطريقة غير مباشرة لحركة الإصلاح الديني من السير في طريقها .

وللحروب الإيطالية أهمية أخرى وهو أنها نقلت إلى فرنسا آثار النهضة التي كانت في أوجها بإيطاليا ، وذلك عندما بدأت الحروب الإيطالية التي تخاضها ملوك فرنسا :

شارل الثامن ولويس الثاني عشر وفرنسا الأول وهنري الثاني : ولولا هذه الحروب لما قامت النهضة في فرنسا في ذلك الوقت على الأقل . ولتأخر موعدها عن ذلك ، ولما كانت لما هذه الصورة القوية ، ذلك لأن رجال الحملة الفرنسية على إيطاليا قد تأثروا عما شاهدوه من روعة النهضة فيها .

ومن ذلك نرى أثر الحملة على إيطاليا قد تجاوز ملك فرنسا إلى طبقات الشعب . أما الأهمية الأخيرة لهذه الحرب فهي أن الصراع بين الدول الأوروبية والدول القومية الناشئة قد بين قدرة هذه الدول من الناحية العسكرية فعلى الرغم من أن فرنسا كانت هي البلد القوية التي بدأت هذه الحرب بانتصارات حافلة ، فإن الغلبة لم تكن لها في النهاية ، وإنما كانت لأسبانيا ، واستطاعت أسيرة الهابسبرج منذ ذلك العهد أن تسيطر على شبه الجزيرة الإيطالية إلى أن تم توحيد إيطاليا في أواخر القرن التاسع عشر ، فكان لراما على حركة التحرير التي قادها زعماء إيطاليا أن يعطروا فرع هذه الأسرة النمساوية من أراضيمهم حتى يحققوا الوحدة الإيطالية .

#### أسباب الحروب الإيطالية :

لم تكن هذه الغزوات بالنسبة لإيطاليا عروات جديدة ، فقد كانت من قبل خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين فريسة للهجوم من العناصر الجرمانية وقد شجع فرنسا على غزوة إيطاليا عندئذ نظروا في السياسة الإيطالية وثروتها الكبيرة التي كانت تمنحها من نشاطها التجاري . وجد شارل الثامن في سوانق تاريخية حجة لفرنسا كي تحقق مطامعها في إيطاليا ، فقد حكمت أسيرة أنجو في نابولي ، ولم يكن مثلها وطردتها من الأمور التي تجعل فرنسا تحمم عن المطالبة بتحقيق أطماعها ، كما كانت هناك صلة مصاهرة بين أسرة أورليان في فرنسا والأسرة الحاكمة في ميلان يسمل للمارديا . لذلك استجابت فرنسا إلى بداء حاكم ميلان « لودفيكو Lodovico » عندما طلب منها المساعدة ضد فلورنسا .

والواقع أن كل هذه الأسباب قد كانت زريعة ولم تكن أسباباً حقيقية لهذه الحرب فالواقع أن فرنسا كانت دولة قوية . بحسب لما حساب في ذلك العهد ، فهي قد أنهت حربها الطويلة ضد احتلها بساح ، واستطاعت تحقيق وحدتها القومية . وعندما استقرت الأمور لأسرة الفالوا في الداخل بدأت تطلع إلى إحرار الانتصارات في

الخارج ، والاستعواذ على مزيد من الممتلكات على حساب إيطاليا الضعيفة . فعلى الرغم من تفوق إيطاليا في مبادئ الفنون والآداب ، فإنها كانت تفتقر إلى القيادة السياسية الموحدة : ككل لم يكن لها جيش قوى يدافع عنها ؛ وإنما كانت الجيوش المرتزقة ، هي التي تساق إلى الحرب للدفاع عنها .

أما أسبانيا فقد انتهت من نزاعها الطويل القوي والدني صمد العرت . وحقت قسماً وافراً من الوحدة وأصبحت ذات قوة عسكرية لا يستهان بها . وقد كانت أسبانيا ترزى لنفسها في إيطاليا حقوقاً تفوق ما تدعيه فيها فرنسا ؛ إذ كانت أراجون إحدى الإمارات الرئيسية في أسبانيا تسيطر على صقلية . مما جعل أسبانيا تطالب بحقوقها في السيطرة على بقاع أخرى من إيطاليا .

وهكذا أصبحت إيطاليا ميداناً للصراع بين الدولتين . وقد كابت الانتصارات الأولى في هذه الحرب من حظ الفرنسيين . ولكنهم لم يسبحوا في تثبيت أقدامهم في تلك الانتصارات وإنما كن النجاح في النهاية للهاسبسبح الذين كانوا يسيطرون على صقلية فنجحوا في التيطرة على مصير شبه الجزيرة الإيطالية حتى منتصف القرن ١٩ عندما تحققت الوحدة الإيطالية .

### قيام بالحروب الإيطالية ( المرحلة الأولى ) :

بدأت هذه الحرب بانتصارات شارل الثامن بدخوله مدينة فلورنسا ، وبيزا ثم روما . و نابولي في أقصى الجنوب . عندئذ تكون حلف من أسبانيا والامبراطور ميكسميليان والبندقية وميلان ، هي قد اتفقت جميعاً لتضع حد للتفوق الذي أحرزته الجيوش الفرنسية داخل إيطاليا . واضطرت هذه الجيوش إلى التراجع عن إيطاليا أمام قوات هذا الحلف السياسي القوي ، وكان ذلك قبل وفاة شارل الثامن مباشرة .

وعندما تولى لويس الثاني عشر حكم فرنسا ( ١٤٩٨ - ١٥١٥ ) أعاد الكرة ولكنه لم يكسب شيئاً . ولم يلبث البابا يوليوس الثاني أن دعا إلى تكوين حلف مقدس لطرد الفرنسيين من إيطاليا ، فنجح في تكويبه من أسبانيا والامبراطورية والبندقية وانجلترا فيما بعد . وترتب على ذلك أن لويس الثاني عشر اضطر إلى عقد الصلح عام ١٥١٥ . وبعد موته تولى الحكم فرانسوا الأول ( ١٥١٥ - ١٥٤٧ ) وكان هذا الملك شاباً شجاعاً طموحاً يرى أن السبيل إلى الوصول إلى عظمة فرنسا في عهد أسرة الفالوا في الداخل

والخارج لا يكون إلا بإحراز انتصارات على الإمبراطورية ، هزيمة أسرة الهابسبرج ، وقد خطا في تنبيل الحرب خطواته الأولى ، فحقق انتصاراً عظيماً على أسبانيا في موقعة « مارنيانو » Marignano سنة ( ١٥١٥ ) ، ثم ولجته الواقعة أهمية كبرى في تاريخ هذه الحرب ، فقد استطاع فرانسوا عقد معاهدتين هامتين إحداهما « Concordat » الكونكوردات ، مع البابا ( الاتفاق البابوي ) ، وبمقتضاها رضى فرنسا أن تدفع قدرامعياً من المال للبابوية بشرط أن يتولى ملك فرنسا نفسه تعيين بعض رجال الدين في دولته . وكان هذا كساً عظيماً للملك فرنسا . واستمر العمل بهذه الاتفاقية حتى القرن التاسع عشر . وعقد المعاهدة الثانية مع السويسريين تعهد فيها سويسرا ألا يتدخلوا في حرب بعد ذلك ضد فرنسا .

#### المرحلة الثانية من الحروب الإيطالية :

لم يلبث أن مات الإمبراطور ماكسيمليان عام ١٥١٩ ، وألقت الإمبراطورية إلى شارل الخامس ، وقد كانت المنافسة على التاج الإمبراطوري بين شارل وفرانسوا ملك فرنسا عظيمة ، ولكن العلية في النهاية كانت لشارل الأول ملك أسبانيا الذي أصبح يعرف باسم شارل الخامس الإمبراطور .

حاول كل من الطرفين ( الهابسبرج والغالوا ) الحصول على مزيد من الخلفاء ، وبحمت الإمبراطورية في ضم إنجلترا إلى جاسها في هذا الصراع ، ثم استوقف الصراع بينهما عام ١٥٢٢ :

كان انضمام إنجلترا إلى الإمبراطورية في ذلك الوقت مبعثة أعراض شخصية للكاردينال « ولزى Thomas Wolsey » الذي ظل مدة ١٤ عاماً ( ١٥١٥ - ١٥٢٩ ) يحكم إنجلترا دون منازع بتفويض من هنرى الثامن ، ثانياً ملوك أسرة « التيودر » . وكان يطمح في الوصول إلى كرمى البابوية وإن كان يخشى نفوذ فرنسا على البابوية فقد عقد تحالفاً مع الإمبراطور الذى وعدته بمساعدته في تحقيق أطماعه . ولكنه بعد هزيمة البابا ، ووقوعه في الأسر عام ١٥٢٧ لم يحقق الإمبراطور وعوده .

ومهما يكن من شيء فإن فرنسا هزمت في الصراع الجديد عندما انتصرت الجيوش الإمبراطورية في موقعة « بافيا » Pavia سنة ( ١٥٢٥ ) وأسرت فرانسوا الأول ، ونجحت الجيوش الإمبراطورية في اجتياح روما ، وأسر البابا كلمنت السابع سنة

(١٥٢٧) ولهذا الحادث أثره العظيم في تاريخ إنجلترا ، إذ لم يستطيع كلمنت السابع يسبب ذلك الأمر أن يتصرف بحضرة إرادته في مسألة السماح لهزى الثامن بطلاق كاترين الأيرغونية . قريبة الإمبراطور ، فنتج عن ذلك الانفصال بين كنيستى روما وإنجلترا ، وقيام الإصلاح الدينى بإنجلترا . ولذلك كثيراً ما يقال إن أطباع الهابسبرج والفالوا فى إيطاليا كان العامل الرئيس فى تحويل كنيسة إنجلترا إلى العقيدة الإنجليكانية .

تأثرت الحروب الإيطالية كذلك بالصراع الدينى الذى كان قائماً فى ذلك الوقت فى ألمانيا بين أتباع لوثر وأتباع الكنيسة الكاثوليكية ، انتهز فرانسوا هذه الفرصة فأخذ يحاول تأييد الحركة المساوئة للهابسبرج فى ألمانيا بالتحالف مع الأمراء البروتستانت . وأصبحت الإمبراطورية كذلك تعانى من خطر محوم العثمانيين على أملاكها الشرقية ولاسيما بعد أن وصلت إلى أبواب فيينا .

هذه العوامل جميعاً أدت إلى عقد صلح « كامبرى Cambray » ( عام ١٥٢٩ ) على أن هذا السلام المؤقت بين الأسرتين لم يستمر طويلاً ، فلم يما وز أمده سبع سنوات فلما كانت سنة ١٥٣٦ أستؤنف الصراع من جديد للسيطرة على إيطاليا عندها أصبح عرش ميلان شاغراً ، وتعددت ادعاءات الهابسبورج والفالوا عليه ، وفى عام ( ١٥٤٧ ) مات فرانسوا الأول قبل انتصار الإمبراطور شارل الخامس على اللوثرين فى موقعة « موهلبرج Muhlberg » بشهر واحد .

وكانت موقعة « موهلبرج » أول صدام حرى بين أتباع لوثر وخيوش الإمبراطورية المدافعة عن الكاثوليكية ، وانتصرت فيها قوات الإمبراطور وكان ذلك بغد وفاة لوثر بعام واحد ، و « لوثر » كما نعرف كان من المقاومين لحركة العنف والضندام العسكرى ضد الكاثوليكية .

مات فرانسوا الأول قبل هذا الانتصار . وحل محله هري الثانى على العرش حتى انتهاء الحروب الإيطالية سنة ( ١٥٥٩ ) ، وكان هنرى الثانى ( ١٥٤٧ - ١٥٥٩ ) متعصباً للكاثوليكية ، فاشتد الإضطهاد الدينى ضد أتباع حري كالفين بفرنسا . ولكن توحيد ألمانيا تحت رعاية أسانبا كان يهدد مركز فرنسا ويشير المخاوف والقلق فى نفوس سائتها وهكذا كانت مسألة جمع ألمانيا وأسبانبا تحت حكم واحد ( أسرة الهابسبورج ) تهدد سلامة فرنسا ويؤدى إلى تأكيد تهديد أسرة الهابسبورج إياها .

وكانت أسانبا قد ضمت لأملاك الهابسبرج نتيجة لسياسة الزواج الأسرى التي اتبعها هذه الأسرة وأصبحت تحت سيطرة الامبراطور شارل الخامس . وكانت لأن تحت سيطرة الهابسبرج الاستيلاء على الأقل ، ولذا رأت فرنسا إصعاف هذه السيطرة عن طريق تشجيع الحركة الدينية في ألمانيا ، تلك السياسة حرث عليها فرنسا منذ ذلك الوقت . فكانت دائماً عائقاً يحول دون توحيد ألمانيا . وكثيراً ما كانت تجرض الإمارات الألمانية الكبرى الجنوبية ضد إتمام ذلك الاتحاد . لذلك كان يتحتم على سبارك - عنديا وضع نصب عينيها تحقيق هذا الاتحاد أن يهزم فرنسا أولاً ، وقد تم له ذلك في ميديان سنة ١٨٧٠ .

وأخذ هنري الثاني يكيد لشارل الخامس منذ متوقعة «مهلبرج» Mülberg ، فرص أن يشترك معه في تأييد مجلس « ترنت » Trent (١) وشجع كل مراكز مقاومة السياسة الامبراطورية في ألمانيا ، ثم تدخل في ألمانيا إلى ديخاتب الثوار والعصاة على الامبراطور ، وكان لهذه الخطوة أهميتها العظمى إذ توقفت عليها - إلى حد بعيد - العلاقات بين فرنسا وألمانيا خلال القرنين التاليين .

وبدأ هنري الثاني خطته بعقد اتفاقية مع فوريس أحد أمراء سكسونيا . وذلك عندما طلب هذا مساعدته ضد الامبراطورية في نظير منح هنري الثاني الأسقفيات الثلاث الموحدة عند مدخل اللوزين وهن : « تول » Toul و « ميتز » Metz ، و « فردان » Verdun . وقد تم هذا الاتفاق سنة (١٥٥٢) وتقدمت قوات فرنسا تحت قيادة دوق « دي جير » لتحتل (ميتز) إحدى هذه الأسقفيات ، ونجحت فرنسا في احتلالها وحاول الامبراطور عبثاً أن يطرد الجيش الفرنسي منها ، ولكن مقاومة الفرنسيين استمرت ثلاثة أشهر . مما اضطر قوات الامبراطور إلى التخلي عن حصار هذه المدينة .

أعيت الامبراطور شارل خلال ذلك مشاكل الامراطورية العديدة ، الأراضي المسخفة . الثورة الدينية الممثلة في حركة مارتن لوتر ، ثم الصراع الأسرى مع الهالوا في إيطاليا . والخطر العثماني الذي كان يهدد تلك الامراطورية من جهة الشرق .

---

(١) مجلس ترنت انعقد بين بين عامي ١٥٤٥ ، ١٥٦٣ بصورة متقطعة . لم ينسج في التولية بين الكاثوليك والبروتستانت ، ولكنه أصطلح بعض شئون الكنيسة الكاثوليكية ، نظم شائرها الدينية ، وثبت قواعدها ، وظهر الكنيسة مما علق بها من مبادئ وإهمل ، واعتبر وسيلة هامة من وسائل انتشار الكاثوليكية

فتنازل الامبراطور عن بعض أملاكه لأخيه فرديناند الذى حصه بلقب امراطور  
ومسحه السيطرة على أملاك الامبراطورية الشرقية . فكان عليه وحده التصدى للخطر  
العثمانى المائل ، وخص ابنه فيليب الثانى بملك أسبانيا وما يتبعها من مستعمرات فى  
العالم الجديد ، وأملاك إيطاليا مضافاً إليها الأراضي المنخفضة . لذلك وقع على  
عاقبة الملك فيليب الثانى أن يستمر فى محاربة النبالوا فى إيطاليا ، فانتصر على المرسيين  
وهزمهم هزيمة ساحقة فى شمال فرنسا فى موقعة سانت كوتان St. Quentin فى  
عام (١٥٥٧) وكانت جيوش أسبانيا المدربة هى صاحبة الفضل فى هذا النصر  
على فرنسا .

كانت سانت كوتان من المواقع الحاسمة فى الحروب الإيطالية لأنها أكادت  
لفرنسا أنه لا مجال لها فى منافسة أسبانيا للسيطرة على إيطاليا .

على أن القوات الفرنسية لم تلبث أن أحرزت بعضاً فى الشمال عندما أتبع لها  
أن تسترد كاليه من إنجلترا فى عام ١٥٥٨ . وقد أصبحت أسبانيا يومئذ حليفة  
لإنجلترا نيحة لزواج ماري تيودور ملكة إنجلترا (١٥٥٣ - ١٥٥٨) وابنة هيرى  
الثامن من فيليب الثانى ملك أسبانيا . غدت الحاجة ماسة إلى عقد الصلح بين الطرفين ،  
حيث أنهكت قوى الجيوش فى هذه الحروب ، وأخذ النصر يتأرجح أثناءها بين  
القوتين المتحاربتين . كما تبين لفرنسا أن الحركة البروتستنتية بها قد أخذت تزدح  
ويشتد خطرهما ، فأصبح عدد كبير من الفرنسيين يعتنقون المبادئ البروتستنتية على  
المذهب (الكالفنى) ، لذلك كان لزاماً على فرنسا أن تنهى نزاعها مع الهابسبورج  
فى إيطاليا لتتفرغ للمشكلة الدينية داخل فرنسا نفسها .

ومن ثم انتهت الحرب . وعقد صلح (كاتوكمبريس) سنة (١٥٥٩)  
بالشروط الآتية :-

١ - تارلت فرنسا بمقتضاه عن أطاعها فى إيطاليا ، وردت إلى Emmanuel Philibert  
حاكم سافوى ، وصاحب النصر فى سانت كوتان ، كلا من سافوى  
وبيدمونت ، ولم يحتفظ الفرنسيون بالانورين ومدينة كازال فى سهل المبارديا  
بصفة مؤقتة حتى نتميز شروط المعاهدة .

٢ - وإذا كانت فرنسا قد فشلت فى تحقيق أطاعها فى إيطاليا فإنها قد عوضت عن

ذلك في الشمال . فمع أنها زدت إلى الأراضي المنخفضة أملاكها فإنها قد احتفظت بنفر كاليه كما أنها ضمت إليها الأسقفيات الثلاث ( تول ، ومتر ، وفردان ) وإن لم يكن ذلك مما نصت عليه شروط المعاهدة في صراحة . فكانت خطوة هامة في سبيل استيلاء فرنسا فيما بعد على اللورين واتجاهها نحو الهدف الطبيعي في التوسع نحو الحدود الشرقية للوصول إلى نهر الراين . وظلت فرنسا تسيطر على هذه الأسقفيات حتى سنة ( ١٨٧١ ) عندما تم لبشغارك انتزاع الألزاس واللورين من فرنسا وضمهما إلى اتحاد ألمانيا الجديد .

- ٣ أكد هذا الصلح سيادة أسابيا على شبه الجزيرة الإيطالية ، وأتاح لها أن تملك سلطانها على ميلان في الشمال ونابولي وصقلية وسردينيا في الجنوب
- ٤ - تم الاتفاق كذلك على أن يتزوج فيليب ( وقد ماتت زوجته الانجليزية ) من إليزابيث ابنة هنري الثاني ، وأن يزوج أخته مرجريت « لعماديل فليسير » دوق سافوي .

وكان الغرض من تلك المصاهرة بين أسبانيا وفرنسا الحد من العداء بين الطرفين على أنها لم تأت بالأثر المأمول في تحسين العلاقات بين الدولتين ، بل استمر العداء بينهما مدى قرن ونصف قرن .

ولمعاهدة ( كاتو كبريسيس ) أهمية خاصة في تاريخ القرن السادس عشر إذ أنها تقسم هذا القرن إلى قسمين ، ساد في أولهما النزاع الأسرى والتنافس في السيطرة على أوروبا بين الغالوا والهابسبرج . على حين خفت حدة هذا الصراع في القسم الثاني من هذا القرن . وبدأ يظهر الصراع الديني الذي احتل حينئذ مكانة أساسية في العلاقات الدبلوماسية بين دول أوروبا في القرن السابع عشر ، ويستمر الصراع الأسرى ، وتشتد وظائفه مستغلا الصراع الديني في خدمة أغراضه ، وتبدو مظاهر ذلك أثناء حرب الثلاثين عاما .





## الفصل الخامس

### حركة الإصلاح الديني

مرت الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر بأخطر محنة عرفتها في تاريخها ، إذ أفقدتها حركة الإصلاح الديني جزءاً كبيراً من نفوذها وسيطرتها ؛ فظهرت طوائف دينية جديدة تخالف العقيدة الكاثوليكية ، وأدى ذلك إلى وقوع حروب أهلية طويلة في أغلب ممالك أوروبا الغربية ، واضطرت الكنيسة الكاثوليكية إلى إصلاح مشونها والعمل على تطهير دوائرها من آثار الفساد .

أما العوامل التي أدت إلى قيام حركة الإصلاح الديني فهي :

١ - ليس عسيراً أن ندرك تلك العوامل وإن كان المعاصرون لتلك الأحداث لم يتنبأوا سببها ، كما أنها باعقت البابوية فلم توحد الجهود لمحاربة تلك الحركة الإصلاحية إلا بعد مرور ثلاثين عاماً على بدئها . ومن قبل فشلت المجالس الكنسية في « كوستانس » و « Constance » و « بال » و « Basl » ؛ فكان ذلك الفشل في القرن الخامس عشر الأساس الأول لذلك التصدع الذي أصاب الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر ، ذلك لأن ذلك الفشل ترك أسباب التدمير قائمة تجاه الكنيسة ورجال الدين ، كما أنه شجع البابوية على الاسترسال في سياستها ، والتنادي في عص النظر عن الإصلاح المنشود نظراً لشعورها بالإيمان .

٢ - أخذت تدور ذائل الكنيسة ترداد خطيرة يوماً بعد يوم ، فكان من الواضح ، أن غرض البابوات الأول أن يحصلوا من رجال الدين وزعاً الكنيسة الكاثوليكية على كل ما يستطيعون الحصول عليه من أموال دون مراعاة للوسائل - ومدى اتفاقها مع الروح الإنسانية والمبادئ الأخلاقية ، وذلك لكي تحقق الأمانة ، والوفاء ، والسمعة .

يتمتعون به في بلاطهم ، وأتموا المباني التي بدأوها ، وحققوا أغراضهم السياسية في إيطاليا . كان البابوات يتحايلون على اصطيات الأموال بكل الوسائل ، فكانت الوظائف الدينية تشتري بالمال بصرف النظر عن مؤهلات الشخص ، والعدالة نفسها كانت تشتري بالمال كالعفو عن المجرمين وما إلى ذلك ، وكان الغفران يباع ويشترى . كان في تلك السياسة المالية الفاسدة إفساداً لطبقة تكمثر نوجال الدين وقد ملأهم الحشع فأعماهم عن كل حق ، وكانوا في غلبتهم من الأسر الأرستقراطية ممن لا يهتمون كثيراً بتأدية أعمالهم . وكان لتدخل الأمراء في تعيين تلك الطائفة من رجال الدين أن أصبحوا يتميزون بأهملهم بالسياسة وخلمة مصلح-الأمراء ، بينما كانت طائفة صغار رجال الدين مهتلة غير مراقبة ، فغلقت في نومها وجوهها ، لا تتمتع بنظام أو مبادئ أخلاقية معينة . لذلك برأت هذه الطائفة في حركة الإصلاح الديني . فرصتها المواتية للانتقام من كبار رجال الدين .

٣ - وكان نوع صكوك الغفران من أهم الموارد المالية التي ابتدعها البابوات فأغدت عليهم أموالاً طائلة . وقد بدأ كان البابا يبيع الغفران نظير الحج إلى الأراضي المقدسة أو قراءة كتاب ديني أو المساهمة في إنشاء مؤسسة عامة كمستشفى أو غيره . ولكن لم يلبث الحصول على الغفران أن تحول إلى وسيلة ناجحة في إثراء الكنيسة وتوفير المال اللازم للبابوات وكبار رجال الدين كتمديداتهم في غيبتهم . ولأدلة على أن مسألة بيع هذه الصكوك قد أصبحت مسألة تجارية بحته أن علماء الكنيسة في هذا الصدد كانوا من رجال المصارف المالية في العادة ، ينظمون البيع على أصول تجارية بحته كأن يحصلوا على نسبة معينة من المبلغ بالإضافة إلى ما كان يمنحه إياهم دافعوا المبالغ الصخمة . وكان المبلغ الذي يودع في خزانة روما عادة يتراوح بين ٣٠ ، ٤٥ ٪ من القيمة الأصلية .

٤ - ولا يفوتنا ما كان من أثر للحركة الإنسانية في عهد النهضة ، وما ترتب عليها من فكر متحرر ، (١) الك جديد للعلم أخذ ينتشر في العالم الثقافي والديني ، وأخذت الأذهان تسمى القديم بصورة دقيقة ، وأصبح للجائفة المطلقة من القراء أن يطلعوا على الكتب المقدسة التي ترجمت إلى اللغات الحديثة . وكان من نتائج ذلك أن يتبينوا ما كان خافياً عليهم من قواعد وتعاليم ، فبدلت الجهود لإعادة القواعد الدينية إلى بساطتها الأولى ، وفهم بمعانيها السياسية ، وكان لكل هذه الحقائق أثرها الواضح في .

مؤلفات « جون كولييت John Colet » (١٤٦٧ - ١٥١٩) ورجال الإصلاح في أكسفورد ، و « إريزم Erasmus » وتلاميذه ، وهما انتشرت الدراسات الدينية على أساس العلم والتفكير الحر ، فكان كتابها من الدين يجيدون اللغتين الإغريقية والعبرية . كل ذلك بانث آثاره في الإنصراط عن توفير رجال الدين السابقين والقائمين عدل على الشئون للدينية وأدى كذلك إلى إهمال تعاليمهم . ويتداول المسيحيون يوهن الكتاب المقدس وقد أصبح باللغات القومية . ويتاح لهم الإطلاع على أصوله ، ويزداد علمهم بالعالم المسيحية النليمة .

٥ - وتفصل حركة الإصلاح الديني بالحركة القومية في ألمانيا بكثر المرءون لمارتن لوتر . يظاهرونه ويعاونونه على نشر الحرية . لأنه كان أقرب إليهم من كل من البابا والامبراطور . وكان لظهور النزعة الاستقلالية وما ترتب عليها من تحقيق الوحدات القومية في بعض جهات أوروبا أثره في تقوية الرغبة في الاستقلال الديني ، وقد رأت الدول الناشئة أن تستكمل استقلالها بالانفصال عن الكنيسة الرومانية . وإضعاف الارتباط بها على الأقل إذا تعدل لإنفصال عنها فنجدها إنحلت أن تنجح في تكوين كنيسة وطنية كما يجد فرنسا الكاثوليكية تنجح في عهد فرانسوا الأول في عقد « كوركوردات » مع البابا كان من شأنها زيادة نفوذ الملك الديني والتقابل بالتالي من نفوذ البابا . إذ أصبح ببيعة لذلك من حق ملك فرنسا تعيين بعض رجال الدين في فرنسا .

يرتبط اسم « مارتن لوتر » بحركة الإصلاح الديني في ألمانيا واسم (جون كلس) تلك الحركة التي ظهرت بفرنسا وسويسرا . كما يرتبط اسم « زوينجلي » بسويسرا و « جون نوكس » باسكتلندا . وقد قام كل منهم بدوره الخطير في الموقع الذي كان فيه إلى جانب تأثير جهات أخرى بدرجات متفاوتة بهذه الدعوات الإصلاحية المختلفة . على أن أولئك المصاحين لم يكونوا أول من نادى بحركة الإصلاح الديني . وإن كانوا أول من هاجم تعاليم الكاثوليكية . بل وغيروا فيما بعد من قواعدها الأساسية .

## حركة الإصلاح الدينى فى المانيا

مارتن لوثر ، Martin Luther ،

( ١٤٨٣ - ١٥٤٦ )

نشأ فى مدينة « ايزلبن Eisleben » فى سكسونيا ، فى أسرة قروية فقيرة وعاش عيشة بائسة ، وكان أبواه يقسوان عليه كما تأثر بشيخ الخوف الذى كان متسلطاً على الأذهان إذ ذاك بسبب القوصى الأخلاقية والدينية التى انتشرت عندئذ تلقى دراسة القانون فى جامعة « ارفورت Erfurt » وحصل على الماجستير فى القانون من نفس الجامعة عام ١٥٠٥ . ولكنه لم يلبث أن انصرف عن هذه الحياة العلمية ، ودخل فى سلك الرهبان المعروفين بجماعة سانت اغسطين فى « ارفورت Erfurt » وفى ذلك الدير أشع رغبته فى التأمل والتفكير فى تحليل الروح . وبعد عامين التحق بجماعة « منتبرج Wittenberg » ليتعمق دراسته الدينية . وكانت تلك الجامعة أحدث وأصغر جامعات ألمانيا . فقد أنشأها منتخب سكسونيا عام ١٥٠٢ وفى ذلك دليل على حماسة ألمانيا للحركة العلمية . ولم تكن الجامعة لحدائثة عهد بها من الجامعات المشهورة . وقد استطاع لوثر بما جعل عليه من مثابرة وقوة أن يجعل لها مكانة عظيمة فيما بعد . أصبح فى عام ١٥١٢ أستاذاً لللاهوت فى الجامعة . ونجح نجاحاً عظيماً فى مهمته فى التدريس والوعظ

وقد كانت السنوات التى قضاها فى هذه الحياة الدينية ، مملأى بدراسته المستفيضة لعلم اللاهوت وأعمال التقشف وتعذيب النفس ، ومع ذلك لم يستطع أن يتخلص من حالة القلق التى كانت تساوره إلى أقصى الحدود ، إلى أن توصل بعد اطلاعاته العديدة إلى أن « الإيمان » هو خير وسيلة لتحليل الروح وه أن التبرير يكون بالإيمان وحده ، أى أن الإيمان المطلق برحمة الله وسيلة إلى الخلاص من عقابه . كانت هذه العقيدة أساساً للثورة الدينية التى بشر بها ، وكانت تتضمن إلغاء نظام الكنيسة الذى ساد أيام العصور الوسطى حيث كان الاعتماد كله يقوم على الأسرار والتقاليد الدينية وأعمال البر التى تقوم بها المنشآت الدينية . فكانت الكنيسة هى المتسلطة على أرواح الأفراد

وحياتهم اليومية . وما من شيء كان يمكن من القضاء على تلك السلطة أكثر من عقيدة لوثر التي نادى بها . وقد ردهته عقيدته المشار إليها إلى مصاف أئمة المصلحين الدينيين ، فهو قد وجه اهتمامه نحو مسألة الغفران وإبتدال الكنيسة . في جميع المال عن طريق بيع صكوك الغفران ، إذ أصبحت بمبالة الغفران تشتري بالمال بعد أن كانت ترتقى أو يتوصل إليها بالتوبة والاعتراف والصوم

بلغت مسألة بيع صكوك الغفران مبلغاً مرورياً حقاً عندما أصبحت معركة في سبيل الحصول على المال يقوم بها « جون » Tetzel « الواعظ الدومينيكاني » لحساب كبير أساقفة « ماينز » Mainz « البابا في كل من » Magdurg, Mainz « ، وكان البابا يشجع تلك العملية لأنه كان في حاجة إلى المال لبناء كنيسة سان بطرس في روما . دفعت تصرفات « تزل » هذه لوثر إلى تعليق احتجاجه على هذه المسألة على باب كنيسة « فتنبرج » Wittenburg في ٣١ أكتوبر ١٥١٧ .

وعبثاً حاول البابا أن يجعل لوثر يتراجع عن آرائه . وأخذت الحركة الدينية تنمو بسرعة عجيبة . ولا سيما وأن احتجاج لوثر قد لاقى هوى في كثير من النفوس التي رحبت بمهاجمة تلك « التجارة المقدسة » فطرد « تيزل » من وظيفته ولم يعد هناك أي ميدان لبيع هذه الصكوك ، وطلب البابا ( ليوالعاشر يومئذ ) من رئيس جامعة سانت أغسطين أن يضطروا ما رتن لوثر إلى التقهقر والتراجع عن أفكاره الثورية ، وفعلوا نوقش لوثر في مجمع « هيدلبرج » Heidelberg في ١٥ مايو ١٥١٨ . ولكنه لم يتقهقر مطلقاً عن مبادئه ، بل امتنح في حركته العدائية للكنيسة في روما التي رأته أن تقبض عليه ولكن رعاية منتخب سكسونيا له كان لها أثرها في حمايته . وتوصل مارتن لوثر في عام ١٥٢٠ إلى الاستنتاجات التالية : أن كل مسيحي معمد إنما يمكن اعتباره من رجال الدين ، وأن روما مدينة منحلة الأخلاق ، وأن البابا عدو المسيح ، كما نادى بضرورة زواج رجال الدين ، وجعل الطلاق أمراً مشروعاً وقد جمع أسس عقيدته اللغوية والسياسية ، وأخرجها في أسفار ثلاثة أطلق عليها رسائل الإصلاح . الأولى موجهة للمدنيين بالألمانية يحثهم فيها على المساهمة في إصلاح الكنيسة ، والثانية باللاتينية موجهة إلى رجال الدين والثالثة غريبة في نوعها تتعلق بالحرية المسيحية وموجهة إلى البابا « ليوالعاشر » ، يظهر له فيها لوثر غصه الشديد وبغضه للحقيقة الغالية وهي أن الشعوب المسيحية قد حادت عن جادة الصواب بالحرص له وبما يعرف بالكنيسة

الرومانية . ويشير فيها إلى أنه لذلك قد قاوم ، وبهيمتصر في المقاومة ما دامت عقيدته حية باقية .

حتمت هذه الرسائل انفصال لوثر عن الكنيسة وجعلت من المستحيل إصلاح علاقته بالبابا . وفعلًا أرسل البابا رسالة يدعو فيها للخضوع للكنيسة ولسلطة البابا الدينية دون قيد أو شرط . ولكن لوثر أحرق كتاب البابا هذا على الملأ من الناس في ١٠ ديسمبر ١٥٢٠ ، فأعلن البابا حرمانه من رحمة الكنيسة . ولكن مع هذا الحرمان من رحمة الكنيسة ، تمكن مارتن لوثر من المضي في دعوته وقد ساعدته بعض العوامل نذكر منها التأييد السياسي والديني الذي لاقاه مما كمل له الحماية ، فقد انتشرت كتاباته كما انتشرت كتابات «الريك دي هاتن» Ulrich de Hutten ، وغيرهما باللغتين اللاتينية والألمانية . والفصل يرجع إلى احتراع الطباعة في نشر تلك المؤلفات وإليها يرجع الفصل في دعوة «هاتن» Hutten الألمانين إلى السلاح ضد روما في عام ١٥٢٠ . وقد وصل لوثر في تلك الآونة إلى منزلة لم يكن يحلم بالوصول إليها ، فقد كان تسعة أعشار ألمانيًا كما ذكر أحد أتباع البابا «الاندير» Aléandre ، ينادون بحياته . بينما العشر الباقى الذي لم يكن يتبعه كان ينادى بسقوط روما .

أصبح لوثر بطلا شعبياً ، لأنه كان يعبر عن شعور الألمانين في الرغبة في مجارضة روما المعيسة إلى نعوسهم .

وقد ظهر ذلك جلياً في الدايته (١) في «ورمز» Worms في ٢٧ يناير ١٥٢١ ، لكي يبحث في أمر حرمان البابا لوثر من رحمة الكنيسة ، وطلب منه في هذا المجلس أن ينكر المبادئ التي نادى بها ، والتي تجعله عاقاً للبابا والكنيسة في روما ، وأن يدع ما عدا ذلك في كتاباته محل البحث في فرصة أخرى . ولكن لوثر اشترط أن تكون الأبحاث قائمة على أساس الكتاب المقدس وحده . لا على أساس التقاليد ، وبذا وقف موقف الفائر على رجال العهد القديم ، بل وعلى رجال النهضة الذين كان يمثلهم «إرازم» Erasmus ، فوقع الإمبراطور شارل الخامس مرسوم حرمانه من الحقوق

(١) الدايته Diei جمعية السائفة أو لتشريع . كان دايته الامبراطورية الرومانية المقدسة يدعى بغير انتظام . ونظمه الإمبراطور شارل الرابع فعمله في عام ١٣٥٦ ثلاث هيئات : المنتخبون ، والأمراء وممثلو المدن الامبراطورية . وفي عام ١٦٤٨ أصبح هيئة فيدرالية فوق الإمبراطور . وتسمى بها الهيئات للبرلمانية لبعض البلاد الأخرى . مثل السويد — دايته أيضا .

المدنية كما حرم من الحقوق الدينية من قبل وأمر بحرق مؤلفاته كما حرم نشر أى كتاب يتعلق بالكتاب المقدس أو بعالم مسائل العقيدة ، دون أخذ رأى كليات اللاهوت ، ولكن مشتبك سكنونيا حتى لوثر عندما جعله يقيم فى قصره فى «فارتسورج» و «Watburg» حيث بئى عشرة أشهر . وقد درس هناك لوثر اليونانية والعبرية ، وبدأ ترجمة الكتاب المقدس إلى الألمانية ، وقد كانت هذه الترجمة من أحسن ما كتب بالألمانية .

إن اللوثرية التى بدأت عند مطلع القرن السادس عشر كان مقديراً لها أن تنال قسطاً وافراً من النجاح ، وأن تصبح عاملاً دائماً فى تاريخ أوروبا الاجتماعى والدينى . ولهم ذلك يجب أن نلقى نظرة على حالة ألمانيا وأوروبا عندئذ لأن الحركة الدينية كانت فى بدايتها وبسالة بسيطة غير معقدة ، ولكنها لم تلبث أن تعقدت لارتباطها بأحوال ألمانيا الاجتماعية والسياسية وكذلك لاتصالها بالعلاقات الدولية بين قوى أوروبا العظمى ، ولم يكن شارل الخامس الإمبراطور ( منذ عام ١٥١٩ ) من حكام العالم العظام كما لم يكن سياسياً قديراً أو حديداً ماهراً . كان يحكم إمبراطورية واسعة الأرجاء . من أعظم ما عرف منذ أيام «بشرلمان» ، وكانت هذه الإمبراطورية مقسمة إلى وحدات سياسية عديدة كل منها مستقلة عن الأخرى ، ولكل منها طريقة خاصة للحكم وللمعالجة شئونها الخارجية . فالإمارات السبعة عشرة التى كان يحكمها فى الأراضى المنخفضة كان أبكل منها دستورها الخاص ، وفى أسانبا كان لكل من قشتالة وأرغونة وكاتلونبا دستورها الخاص وبرلمانها الخاص . كما كانت أملاكه الإيطالية مستقلة عن أسابا ، وكانت كل منها مستقلة عن الأخرى . فكانت مشكلته العظمى هى كيفية جمع هذه الممتلكات المتشعبة المتفرقة تحت راية واحدة ، وبشر النظام والسلام بين ربوعها ، والعمل على رفاهيتها . وليس فى فشل شارل الخامس فى ألمانيا ما يصرفنا عن النجاح الذى أحرره فى كثير من الميادين الأخرى ، فهو قد أدخل نظاماً أكثر إنسانية فى حكم مستعمرات أسابا الواسعة فى أمريكا ، كما ساهم فى إضعاف قوى المسلمين فى شمال أفريقيا ، وبدأ بإيجاد نوع من التوحيد فى الأراضى المنخفضة ، أما فى ألمانيا فكان سقوطه وفشله فيها تاماً ، ومع ذلك فلا يحق لنا أن نغفله حقه فى كل ما قام به من أعمال ، لقد كان كاثوليكياً متحمساً ، فلم يعطف على الحرية اللوثرية . ومع

ذلك قصيدتها إلى حياة السلام في ألمانيا وحاول طوال عهده أن يحول دون تسبب الحركة اللوثرية في نشر الفوضى بصورة أكبر في ألمانيا ، وأن يمنح ألمانيا على الرغم من الصعاب الدينية النظام الموحد المستقر الذي كان يتوق إليه كل مواطنيها . وفي الأمور الدينية كان بعيداً عن أن يكون متعصباً ؛ كان يأمل أن تترك حركة لوثر الزمن ليخمد نارا كما كان يأمل في تسوية هذه المسألة بالطرق السلمية .

### أما العوامل التي ساعدت على انتشار اللوثرية فهي :

١ - شخصية لوثر وقوة إيمانه بملذمه ، فقد كان يتصف بشجاعة لا تقهر وقوة عظيمة بعثته على إقناع مريديه بالثقة الكاملة من عريضه ، مما جعل فريقاً كبيراً من الشعب الألماني يعتقدون أنهم يستطيعون بقيادة لوثر الوصول إلى الحقيقة الخالصة التي قد ظلت فترة طويلة مختفية بين طبقات فساد الكثير من الكنائس الكاثوليكية ، وأن تلك الحقيقة لو نادى بها لوثر خارج ألمانيا لتقبلها العالم كله ، فهو لا يمكن أن يقاوم بغير الجشع والجهل . ومن ثم نشأ في ألمانيا أمل جديد في حياة مستقبلية أفضل من الناحية الدينية والسياسية والاجتماعية . هذه الآمال لم تتحقق في سهولة كما تصور أصحابها . غير أن نجاح هذه الحركة قد كان من دعائمه تلك الآمال للعريضة التي غمرت بها النفوس في ذلك الوقت . وليس من شك في أن شخصية لوثر القوية قد جذبت إليه النفوس ، فهو قد فهم الروح الألمانية فهماً عميقاً . فصارت خير معبر عن آمالها ورغباتها . وليس يفوتنا ما كان له من حط وفير في فهم اللغة الألمانية وتعمق أصولها وتقدير الألمان لإمامته الدينية وحربه المتصلة ضد الفساد الذي ساد الكنيسة الرومانية .

٢ - كانت أحوال ألمانيا السياسية كذلك مشجعة لنمو الحركة الجديدة وانتشارها . فقد كانت ألمانيا مقسمة سياسياً ؛ إذ كانت إمبراطورية بالإسم وكانت في الواقع اتحاداً فيدرالياً يضم الولايات المستقلة التي لا تقبل التدخل في شئونها . فلم يكن في استطاعة الإمبراطور دون معونة دويلات ألمانيا العظمى أن يعرض صرائب أو أن يجمع جيشاً أو يعلن حرباً ، ولم يكن من السهل سعيه أن يحصل على موافقة تلك الدويلات الألمانية . وكان لذلك أثره في نجاح لوثر . ولو ملك الإمبراطور ما ينفي له من قوة لاستطاع بها القضاء على لوثر وحركته . ولو كان غير مشغول بأمور أخرى لاستطاع أن يجمع جيشاً عظيماً من أسبانيا وإيطاليا . والأراضي المنخفضة والنمسا ، ولربما



استطاع به أن ينتصر على أعدائه اللوثرين . ولكنه لم يكن في حالة تسمح له بملك  
فقد كان مشغولاً بالأخطار المختلفة التي كانت تهدد ملكه العريض . فهو مشغول بحروبه  
ضد أسرة « الفالوا » في فرنسا والحروب الإيطالية (١٤٩٤ - ١٥٥٩) ، والاضطرابات  
في الأراضي المنخفضة ، كما أن أسبانيا لم تكن موالية له على الدوام ، كما أرسل  
حملات كبيرة لمحاربة المسلمين في شمال أفريقيا وفي النمسا حيث كان يحكم أخوه  
فريديناند وكان عليه أن يصد الأتراك العثمانيين الذين كانوا يهددون حدود الإمبراطورية  
الشرقية . وقد أدى العداء بين أسرتي الهابسبرج والفالوا إلى تقديم ملوك فرنسا المساعدة  
لللوثرين على الرغم من أنهم كانوا من الكاثوليك المتغافلين في كاثوليكيته ، ولكنهم  
إرادوا إحداث قلاقل للإمبراطور .

٣ - لاقت هذه الحركة كذلك رواجاً وتشجيعاً لأنها اعتبرت حركة تحرورية قومية  
ضد الأجنبي . حقيقة أن ألمانيا لم تكن عندئذ أمة موحدة كما كان الحال بالنسبة لإنجلترا  
وفرنسا وأسبانيا ، ولكن كان يسودها شعور الكراهية بالتدخل الأجنبي في شئونها ،  
فكان الألمانيون يكرهون « شارل الخامس » لأنه كان أسبانياً ، والبابا لأنه إيطالي ،  
ولذلك نجح لوثر في اجتذاب عدد كبير من الألمانين لأنه كان ينادي بأن ألمانيا يجب  
أن تكون للألمانين ، وهكذا اشتد أزر لوثر بسبب إقتناع الكثيرين بأهمية هذه الحركة  
ونخبرها على الألمانين . وقد حماها في بداية عهدها أنه لم يكن في إمكان الإمبراطور  
أن يجتمع جيشاً ليقضي عليها في مهدها ، فكان أمراً يدعو إلى الدهشة حقاً أن تبقى  
حركة لوثر في ألمانيا وتنعش لمدة ثلاثين عاماً دون أن تواجه مقاومة جريئة ، وإنما  
اقتصرت الأمر على أن مجالس الدايت نادت مع الإمبراطور بإلغائها وساعد على ذلك  
البابا . ولكن الحزب لم تقع إلا بعد موت لوثر نفسه .

٤ - ثم إن طبيعة ألمانيا السياسية وانقسامها إلى إمارات مستقلة جعلت إمرائها  
يرجعون بهذه الحركة ويعتقون العقيدة الجديدة لكي تكون خطوة في سبيل تحقيق  
استقلالهم السياسي إلى جانب انفصالهم الديني ، وقد ساعد على هذه الحركة ملاقاته لوثر  
من حامية « فردريك العاقل » (Frederic the Wise) ، منتخب سكسونيا ، الذي قام  
بمطور السياسي المشجع لحركة مارتن لوثر ، ولا أدل على ذلك من إيوائه في قصره  
في « فارتنبورج » Wartburg عندما فقد حقوقه الدينية والمدنية ، حيث بقى مختفياً  
عن الأنظار ما يقرب من العام .

٥ - وجود جامعة ناشئة خاضعة لـ لوتثر ومخاصمة لتعاليمه الأوامى جامعة « فتنرخ » Wittenburg التى أنشأها فرنتريك العاقل وكان عزيزاً بها . وقد أصبحت المركز الرئيسى للدعوة مارتن لوتثر ، فقد كانت كعبة للعلماء من كل أنحاء العالم وعلى وجه الخصوص ألمانيا ؛ فهى التى نشرت مؤلفات لوتثر الأولى وكانت بلغة يفهمها الألمان .

ولا يهوتنا ما كان للعالم « فيليب ملانكتون Philippe Melancton » ( ١٤٩٧ - ١٥٦٠ ) من فصل على هذه الحركة وهو من كبار الإنسانيين . ومن أقرباء « يوحنا روكلن Reuchlin » قدم إلى جامعة « Wittenburg » عام ١٥١٨ ليدرس بها الآداب الإغريقية واللاتينية ، ولم يلبث أن أصبح من أخلص تلاميذ لوتثر وأتباعه . ومن أظهر المنافخين عن القضية اللوتثرية - فوضع فى سبيلها جهوده وما أمتار به من دكاء ومرونة لم تكن من طباع لوتثر . وقد أفادت اللوتثرية بما انتصف به من مهارة دبلوماسية فى إيجاد حلول مرصية حاسمة للخدمة تلك للدعوة .

ومن نتائج حركة مارتن لوتثر ما يأتى :

١ - قيام ما يعرف بثورة للعالمين : وآيتها أن فلاحى ألمانيا ؛ وآسيا فى المنطقة الغربية والجنوبية الغربية منها كانوا فى حالة سيئة ، أسوأ مما كانوا عليه منذ نصف قرن وكانت حالتهم حالة استرقاق . وكانوا يقومون بكثير من الأعمال لساداتهم على شكل التزامات إقطاعية . وقد أثارتهم الحركة الدينية التى قام بها مارتن لوتثر . وكان فى مناداته بالحرية أكبر دافع لهم على أن يأملوا فى الوصول إلى التغييرات الاجتماعية فى حالتهم الراهنة . ولذلك ثاروا وآسيا فى الجنوب الغربى بالقرب من « فورتزبرج Wurzburg » ، وقدموا مطالبهم وكانت تنحصر فى اثنى عشر بنداً : فطالبوا كما فعل لوتثر من قبل أن تنظر مطالبهم على ضوء الكتاب المقدس . وأشاروا إلى أن الله خلقهم أحراراً ولذلك يجب أن يبقوا كذلك . فطالبوا بإلغاء تلك الالتزامات الإقطاعية التى كانوا يثنون من وطأة أحبائها كما نادوا بمحو ضريبة العشور . وقد قامت حرب أهلية من جراء ذلك عام ١٥٢٤ . وخشى لوتثر أن تؤثر تلك الحركة على دعوته الدينية لذلك عاون السلطات الزمنية على قمعها وفشلت الحركة كما فشلت حركة أخرى مماثلة قامت فى شمال ألمانيا .

ولكن كان لها آثارها على الحركة الدينية . فقد لجأ الفلاحون إلى لوثر فلم يجدوا منه المعونة بل وحلوا المقاومة . ومنذ ذلك الحين لم تعد حركة لوثر تلك الحركة الواسعة المحبة إلى النفوس كما كانت في البداية ؛ وإنما فقد لوثر مكانته الأولى ، وتأييد طبقة كبيرة من الفقراء . ومنذ تلك الآونة كان عليه أن يعتمد على الطبقة الوسطى والسلطات القائمة . ومن ثم بدأت اللوثرية تعتمد على سلطة الدولة . وهذا من سمات حركة اللوثرية .

٢- وإذا كان لوثر قد فقد تأييد بعض فقراء ألمانيا بسبب موقفه المعادي لثورة الفلاحين فهو قد كسب تأييد من هم أقوى ؛ ونعني بعض الأمراء ومنهم من اعتنق مذهبه في صراحة نذكر منهم « جان الثالث Jean-le Constant » منتخب سكسونيا ، وأخ فردريك الذي لم يعتنق المذهب الجديد . واكتفى بحماية لوثر وإيوائه ، كذلك فيليب Philippe أمسير مقاطعة « هس كاسل Hesse-Cassel » ، ثم دوق « مكلنبورج Mecklenburg » . ودوق « بوميرانيا Pomérania » وكثير من المدن الألمانية .

ولكن أهم من هذا كله في تلك الفترة كان اعتناق ألبرت صاحب براندنبورج Albert of Brandenburg — وكان رئيساً لطائفة الفرسان التيوتونيين Knights of Teutonic Order — اللوثرية ، وتحويله لبروسيا الشرقية من مقاطعة كنسية إلى مقاطعة رمنية وراثية بحيث سيطرة بولندا ؛ كما عقد معاهدة صداقة مع منتخب سكسونيا

الإمبراطور يستأنف جهوده لوضع حد لتنفيذ اللوثرية :

رأينا ما كان من اجتماع الدايت في « ورمز » ١٥٢١ ، وما كان من قراراته التي قضت بحرمان لوثر من حقوقه المدنية والدينية . وقررت كذلك حرق مؤلفاته ، لم يحرك الإمبراطور بعد ذلك ساكناً ليقض على اللوثرية إلا في عام ١٥٢٦ عندما دعا الدايت للاجتماع في « سباير Speier » . على أن هذا الاجتماع لم يسفر عن شيء . ونتج عنه أن أقام كل من أمراء سكسونيا وهس أقوى معقائين للوثرية في ذلك الوقت كنائس لوثرية .

ولكن اجتماع آخر للدايت بعد ذلك بثلاث سنوات (١٥٢٩) في نفس المكان

أكد أن مرسوم ورمز الصادر في ١٥٢١ ما يزال قائماً ، وآبته منع إقامة كتاتس للمذهب الجديد في أى مكان من ألمانيا .

وقد احتج معظم الحاضرين من اللوثرين وأعلنوا ما يلي :

"We hereby protest to you that we cannot and may not concur therein, but hold the resolution null and not binding":

«إننا في اجتماعنا هذا نحتج على هذا القرار . ونعلن أننا لن نستجيب لندائه ونعتبره لاغياً وغير دى موضوع » .

ومن هنا سنى أتباع مارتن لوثر « بالمحتجين » أى البروتستنت تلك التسمية التى لم تلبث أن شملت سائر المذاهب المسيحية غير الكاثوليكية .

بمجلس « أوجسبرج » Augsburg ١٥٣٠ :

كانت السنوات التى تلت مرسوم Worms من أكثر السنوات حرجاً في تاريخ ألمانيا ، إذ كان الإمبراطور مشغولاً بمشاكله المتعددة في أسبانيا ، وإيطاليا والأراضي المنخفضة ، مما حال بينه وبين إيجاد حل للمسألة الدينية التى أخذت في الانتشار بسرعة ومع ذلك حاول الإمبراطور أن يوفق بين عقائد البروتستنت والكاثوليك في المجلس الذى دعا إلى انعقاده في أوجسبرج ١٥٣٠ . وكان لوثر قد بقى في «كوبورج Cobourg» وهناك انبرى «ملانكتون Melancton» للدفاع عن التفضية اللوثرية في ذلك المجلس وكان مرأياً في جداله أثناء الدفاع ، ومع ذلك فإن رجال الدين الكاثوليك رفضوا كل ما عرض عليهم من حلول ، وأصرروا على اتخاذ كل الوسائل اللازمة للقضاء على المذهب اللوثرى .

حلف « شملكلد Schamalkald » (ديسمبر ١٥٣٠ - مارس ١٥٣١) :

تولى فيه الأمراء البروتستنت مسألة الدفاع عن اللوثرية وكانت الولايات الظاهرة في هذا الحلف سكسونيا وهس وبراندنبرج . وقد تكون ذلك الحلف رغم معارضة مارتن لوثر ، ومن ثم أصبح أمر الإصلاح الدينى بعد مجلس أوجسبرج مسألة يقوم بها رجال السياسة بعد أن كانت من اختصاص رجال الدين إلا أن الإمبراطور لم يستطع أن يتصدى لذلك إلا بعد مضي حوالى ١٥ عاماً إذ كان مشغولاً في حروبه مع

فرنسا وضد الأتراك ، كما أنه كان عظيم الأمل في إعادة الوحدة الدينية بمجرد اجتماع مجلس كنسي . ولكن قرارات هذا المجلس الذي اجتمع أخيراً في « ترانت » Trent في عام (١٥٤٥) لم ترض اللوثرين ، وهناك اتفاق البابا والامبراطور على إخضاعهم بالقوة ، وأماهما على ذلك ما ظهر من الإنشقاق بين صفوف اللوثرين . وانضمام « موريس » أحد أمراء سكسونيا للإمبراطور مقابل وعد صريح بأن يسند إليه منصب منتخب تلك الدوقية .

وهكذا حالت مشاغل الامبراطور دون وقوع الحرب بين الكاثوليك والبروتستانت حتى عام ١٥٤٧ عندما استطاع شارل أن يجمع جيشاً كبيراً ، وقد مات لوثر قبل أن تبدأ الحرب . بدأها موريس بغزو جميع أراضي قرية منتخب سكسونيا ولم تلبث الحيوش الامبراطورية أن انتصرت في موقعة « مهبيرج » Muhlberg على نهر الإلب في أبريل ١٥٤٧ . وكان البروتستانت يعتمدون على سكسونيا وهس . وسقطت في أيديهم « فيتنبورج » Wittenburg ، وهنا حصل موريس على المنصب الذي كان يطمح فيه وهو منتخب سكسونيا . وما كاد يحصل على ذلك المنصب حتى انقلب ضد الإمبراطور . وأخذ يقاوض هنري الثاني ملك فرنسا في احتلال الأسقفيات الثلاث . وقد ظهر موريس بعدائه للإمبراطور عند وصول الحيوش الفرنسية إلى نهر الراين ، واضطر كل من شارل الخامس وأخيه فرديناند إلى الفرار بسرعة عن طريق إنزبروك Innsbruck ، كما أجل يوليوس الثالث استئناف اجتماع مجلس ترانت ، وهنا اضطر الإمبراطور إلى عقد صلح « أوجسبرج » Augsburg سنة ١٥٥٥ .

#### صلح أوجسبرج ١٥٥٥ .

عهد شارل الخامس إلى ابنه فيليب بالأراضي المنخفضة عام ١٥٥٥ ، وأساساً في ١٥٥٦ ولكنه منذ عام ١٥٥٤ ترك لأخيه فرديناند شئون الامبراطورية والت على وجه الخصوص في المسألة الدينية في ألمانيا .

١ - قرر صلح أوجسبرج الحرية الدينية للإمارات اللوثرية . وتعهد الإمبراطور والمتخبون والأمراء بأن يتوكروا الولايات البروتستنتية تؤدي شعائرها الدينية بكل حرية ، وبألا يتعرضوا لهم بأي أدى . كما قرر ذلك الصلح أن يحترم الأمراء البروتستانت والمقاطعات البروتستنتية الحرية الدينية للأمراء والمقاطعات التي لازالت خاصة للدين القديم ألا وهو الكاثوليكية

٢ - ونص ذلك الصلح في قراراته على عدم الاعتراف بأي مذهب آخر غير المذهبين المذكورين . وهكذا لم يعترف هذا الصلح بمذهبي « كلن وزونجلي » Zwingli  
٣ - نص ذلك الصلح على أن يسمح للرعايا الراغبين في الانتقال من ولاية إلى أخرى ببيع ممتلكاتهم دون التعرض لهم بسوء .

٤ - نص هذا الصلح على أن تبقى الأراضي التي اغتصبت من الكنيسة الكاثوليكية قبل عام ١٥٥٢ في يد محتصبيها ، بينما تعاد تلك التي اغتصبت بعد ذلك التاريخ إلى حالتها الأولى . وكان الغرض من ذلك النص المحافظة على أملاك الكنيسة الكاثوليكية .  
لم يكن هذا الصلح إلا هدنة مؤقتة بين الطوائف البروتستنتية والكاثوليكية . ومع ذلك فقد كان كسباً عظيماً للبروتستنتية ، إذ أنها ضمنت للولايات البروتستنتية ولو إلى حين السلام في علاقاتها مع الولايات الكاثوليكية والإمبراطور . ولكن هذا الصلح لم يمنح الفرد حرية العقيدة وإنما منحها الولاية عامة . ومع ذلك فقد اعترف ببعض الحرية للفرد ، ذلك عندما نص الصلح على تسهيل عملية انتقال الفرد من ولاية إلى أخرى ، كما أن هذا الصلح لم يمنع المذاهب البروتستنتية الأخرى كذهب كلن وزونجلي الحرية الدينية مع أن مذهبهما كان قد اعتنقه كثير من الألمان وسكان الإمبراطورية . وقد كان ذلك النقص في شروط الصلح باعثاً على استئناف الصراع الديني وتحويل ألمانيا في القرن السابع عشر إلى ميدان للتضال اللول كما كانت الحال في إيطاليا في القرن السادس عشر كما نتج عن هذا الصلح ازدياد نفوذ الأمراء على حساب الإمبراطور إذ أصبح لهم حق تقرير مصير ولاياتهم الدينية .



## الفصل السادس

### انجلترا في القرن السادس عشر

تحت حكم أسرة التيودور ١٤٨٥ - ١٦٠٣

حكمت أسرة التيودور انجلترا عقب الحرب الأهلية المعروفة بحروب الوردتين (١٤٥٥ - ١٤٨٥) . وقد بلغ هنري السابع عرش انجلترا عقب واقعة « بوزورث » Bosworth عام ١٤٨٥ . وبذلك بدأ حكم أسرة التيودور الذي استمر خلال القرن السادس عشر . بدأ حكم هذه الأسرة بدءاً منواضعاً حالياً من الإسراف . ولكن لم يلبث أن أصبحت لها مكانة ممتازة في عهد « اتيزابيث » ويرجع ذلك إلى جهود جدها ، وكانت شبيهة في سلوكها . كما تماثلت ظروف اعتلائها العرش في العوصى وعدم الاستقرار

وأهم ما يميز عهد أسرة التيودور في انجلترا فيمكن تلخيصه فيما يلي

١ - سياسة الزواج الأسرى . تلك السياسة-التي كان يغنى من ورائها ربط وتوثيق العلاقات بين انجلترا وغيرها من الدول الأوروبية . وكذلك لتوسيع رقعتها وبناء إمبراطوريتها . وأدى اتباع هذه السياسة في انجلترا إلى ربط انجلترا بأساليا ، وآية ذلك زواج ماري تيودور بفيليب الثاني ملك أسانيا عام ١٥٥٤ ، وماتت ماري ١٥٥٨ . ووقع زواج ثان بين مارجريت ابنة هنري السابع و جيمس الرابع ملك اسكتلندا ، ثم ولد لهما ابن أصبح ملكاً على اسكتلندا باسم جيمس الخامس وتزوج هذا من أسرة « دي حيز » الفرنسية وولدت له ابنة هي التي عرفت باسم ماري الاسكتلندية التي صارت ملكة على اسكتلندا . وعندما تزوجت من ملك فرنسا فرانسوا الثاني ( ١٥٥٩ - ١٥٦٠ ) أصبحت ملكة على فرنسا . وقامت الثورة في اسكتلندا فاضطرت إلى التخلي

عن عرش اسكتلندا عام ١٥٦٧ وخلفها عليه ابنها جيمس السادس الذى أصبح يعرف بجيمس الأول عندما آل إليه ملك انجلترا عام ١٦٠٣ فأصبح ملكاً على انجلترا واسكتلندا معاً .

٢ - وفى عهد هذه الأسرة عرفت الطباعة فى انجلترا وانتشرت الثقافة والاتجاهات العلمية السليمة ، وذلك تبعاً للتحرر الفكري الذى ساد عصر النهضة .

٣ - ثم قامت الحركة الدينية فى انجلترا . وانتهت فى عهد أسرة التيودور باستقلال كنيسة انجلترا عن روما ، فأصبح لها مذهب جديد مستقل . وله كنيسة خاصة اسمها الكنيسة الانجليكانية .

٤ - انصرف انجلترا عن فكرتها السياسية التى كانت تهدف إلى توسعها فى فرنسا . ونحو انجهاها إلى العالم الجديد هادفة إلى تأسيس الامبراطورية البريطانية . ولم تكن انجلترا هى النائدة بهذا السلوك ، فقد سبقها إليه دول أخرى : ففي سياسة الزواج الأسرى سبقها أسرة الهابسبورج ، وفى مجال الطباعة واتساع النشر سبقها ألمانيا وغيرها ، وفى حركة الإصلاح الدينى سبقها ألمانيا وفرنسا . وفى الاتجاه نحو العالم الجديد سبقها كل من البرتغال وأسبانيا . على أن انجلترا قد تميزت عن كل ما ذكر من الدول التى سبقها ، بطابع خاص لم تسبقها إليه واحدة من تلك الدول .

وكان على مؤسس هذه الأسرة هنرى السابع أن يقضى على العوضى والاضطراب اللذين انتشرا فى البلاد قبل أيامه بسبب الحروب الأهلية . وكأنا بذر هذا الحاكم فى عهده بذرة أينع رهرها وطاب ثمرها فى الصف الثانى من القرن السادس عشر . ولإليه يرجع الفضل فى بناء ملكية التيودور على أسس قوية . وأن الظروف قد حيات له الحو الهادى الذى قام فيه بأعماله العظيمة ؛ إذ كانت حرب الوردتين قد أضعفت أصحاب المطامع من المتنافسين على الحكم فبات الشعب يتطلع إلى رسل السلم ، وقد توافر له ذلك بين يدي هذا الملك القوى . الذى آمن بالحياة المنظمة ، واستجاب إلى الشعب مسار على نفس النهج . ومن هنا وصف حكمهم المعلق بأنه حكم استبدادى برغم حلوه من الاستبداد . لأن البرلمان قد استجاب لهم فى كل ما أرادوا .



## حركة الإصلاح الدينى فى انجلترا

كان لموقع انجلترا الجغرافى أثره فى جعلها بمعزل عن أوروبا . ولكن كانت عزلتها فى الواقع ظاهرة أكثر منها واقعية . ومع ذلك كان للقناة الإنجليزية (بحر المانش) آثارها العميقة فى حياة انجلترا ، ومن ذلك أنها حتى عام ١٩١٤ تخلصت من الأعباء الحربية ، ونجت من الحروب التى احتاحت القارة . ولم يكن لها جيش قائم لأنها لم تكن فى حاجة إليه . وهكذا ذلك من الحد من سلطة ملوكها . إذ استطاع البرلمان أن يمارس نشاطه دون ضغط وفى أمان مطلق ، وكان ملوك فرنسا وأسبانيا وكثير من أمراء ألمانيا يعتمدون على الجيش فى تركيز السلطة فى أيديهم . من أجل ذلك نستطيع أن نقول إن انجلترا برلمانها كانت هبة البحر . كما كان العامل الجغرافى الذى عزلها عن بقية دول أوروبا سبباً من الأسباب التى ميزتها عن بقية هذه الدول فى سائر اتجاهاتها السياسية والدينية والفكرية . وعلى الرغم من كل ذلك لا ينبغي لنا أن نتصور تاريخ انجلترا منفرداً عن تاريخ أوروبا . وبحسبنا أن نذكر أن تاريخها فى القرن السادس عشر كان متصلاً تمام الاتصال بتاريخ سائر دول أوروبا .

والواقع أن حركة الإصلاح الدينى فى انجلترا لم تظهر إلا فى عهد ثانى ملوك أسرة التيودور وهو هنرى الثامن

هنرى الثامن ١٥٠٩ - ١٥٤٧

كان ذلك الملك شديد الاهتمام بتنظيم بحرية انجلترا فهو الذى وصع بوابة الأسطول ، فأنشأ أحواضاً لبناء السفن فى « وولويتش » Woolwich وفى « ديبورد » Depford ، كما أنشأ مدرسة للحجارة يطلق عليها « ترينيتى هوس » Trinity House وأهتم ببناء الأسطول الملكى

وكان اهتمامه عبر قاصر على ذلك بل امتد إلى الناحية الدينية . وكان للدين يومئذ أثره الواضح فى العلاقات السياسية . شأنه فى ذلك شأن الاقتصاد فى عصرنا الحديث . ومن مظاهر اهتمامه بالناحية الدينية مقاله الذى طعن فيه على لوثر ، وأنكر سلوكه الدينى وكان ذلك فى عام ١٥٢١ . وقد أرمى ذلك المقال البابا ليو العاشر ، الذى نعت كاتب المقال « محامى العقيدة » Fidei Defensor . وعلى الرغم من اهتمام

هنرى الثامن بالناحية الدينية، لم يقلب إلى الشعب الإنجليزي ذلك لأنه شعب لم تكن تهمه الحركات الدينية بقدر ما كانت تهم الاسكتلنديين . وأعمل ذلك راجع إلى أن الإنجليز لم يتأثروا بحركة لوثرية، ولم يكن بين أفراد هذا الشعب من يحتفظ بأثر للولازدية (١) (اتباع نيكلفت) غير قلة في لندن .

وليس يعوتنا أن نذكر أن الشعب الإنجليزي المطبوع بطابع المحافظة قد كان لا يزال يظهر ولاءه للكنيسة روما . وليس معنى هذا أن حركة الإصلاح اللوثرية قد أهمل شأنها تماماً في إنجلترا ، ويكفى أن نذكر اهتمام بعض الجامعات الإنجليزية وفي مقدمتها « كمبردج » Cambridge بدراسة حركة مارتين لوتر وأصولها .

وإذا كان وصف الإنجليز بالمحافظين قد غلب عليهم فلمهم لم يكونوا في عامتهم من الذين يشغلون أنفسهم بأمور الدين . بل كانوا يعادون رجال الدين ، وأكثر ما وضحت هذه الظاهرة بين سكان لندن من المشتغلين بالتجارة ولعل سلوك هؤلاء قد كان معشته ظهور طقة منافسة دفع أهلها إلى التجارة فقدم على رجال الكنيسة الذين كانت تؤول إليهم أموال كثيرة . وعلى الرغم من انصراف الشعب الإنجليزي عن رجال الدين فإن أمراده لم يسلكوا سلوك غيرهم من شعوب أوروبا من حيث إشعال نار الثورة والحروب الأهلية ، كما حدث في حركات الإصلاح الديني في ألمانيا وفرنسا .

وإذا كان هنرى الثامن يعد أول من بدأ حركة الإصلاح الديني في إنجلترا فهو قد ترك شئون دولته بين يدي « توماس ولسى » Thomas Wolsey مدة أربعة عشر عاماً (١٥١٥ - ١٥٢٩) وكان من رجال الدين ، كما كان من نخلصاء الملك الذى آمن بمقدرته الفائقة . وعمله المتصلب - وإقدامه على ما يملية عليه عقله وضميره . ظل خلال تلك السنوات يحكم إنجلترا بتفويض من هنرى الثامن حكماً مطلقاً غير منازع فيه من جانب زملائه أو البرلمان . وإذا كان من كبار رجال الكنيسة فإن أثره لم يكن وفقاً لى إنجلترا وحدها بل تعداها إلى أوروبا كلها : استمد سلطانه من روما ، ومنها كان يتوقع تحقيق كل ما يبتش بحاطره من مطامع غايتها الوصول إلى كرسي البابوية . ولذلك كان يهتم بمصير البابا ، فكان من أجل ذلك حريصاً على ألا يقع البابا أسيراً

<sup>٨</sup> (١) انظر ص ٢٤ هامش (١) .

في يد فرنسا لإدائها لن تلبث عندئذ أن تصبغ البابوية بأغراضها ، ونحوه يديه وبهج ذلك المنصب ، لذلك رأى أن تتخذ إنجلترا دوراً هاماً وظاهراً في ذلك الزوال الدولي ، الذي كان قائماً بين الإمبراطور وفرنسا في إيطاليا (الحروب الإيطالية) ، وفي عام ١٥٢١ استطاع « ولسي » أن يخالف الإمبراطور ولكن عندما وقعت الحرب بين الخصمين لم تفقد البابوية حريتها على يد فرنسا وإنما على يد الإمبراطورية . فلما وقع فرانسوا الأول أسيراً في « بافيا » Pavia عام ١٥٢٥ تلاه البابا ، فوقع هو الآخر أسيراً عام ١٥٢٧ . وبعد ذلك بعامين أي في ١٥٢٩ وقعت معاهدة برشلونه . وبمقتضاها سلبت سلطة البابا ، وأصبح الأمر كله بيد الإمبراطور ، وعندما حان وقت انتخاب البابا لم يف الإمبراطور بوعده الذي كان « ولسي » يستند إليه ليصل إلى كرسي البابوية . وكانت النتيجة اتهام سيطرة « ولسي » على السياسة الإنجليزية ، والتهديد لتأسيس الكنيسة الأنجليكانية . أما السبب المباشر لانهصال كنيسة إنجلترا عن كنيسة روما فقد كان مرجعه رغبة الملك هنري الثامن في الطلاق من زوجته « كاترين الأترجيونية » التي لم تنجب له غيرة بنت واحدة . أطلق عليها اسم « ماري » . وماتت من حملت منه بعدها أثناء الولادة . فقال إن ذلك مرجعه إلى غضب الله عليه لأنه تزوج بتصريح من البابا يوليوس الثاني أراد أن يطلق كاترين ليتزوج من « آن بولين » Anne Boleyn ولم يكن ذلك بالشئ الغريب ، إذ كان التصريح بذلك في يد البابا ، غير أن البابا في هذه الواقعة بالذات كان أسيراً لملك من الأمور شيئاً فأخذ يسوف في التصريح بالطلاق ، ذلك لأن تمكثريش الأترجيونية كانت من أقارب الإمبراطور . فاقترح البابا تحت هذا الضغط أن تؤلف في لندن محكمة يرأسها قاضيان من الكراذلة أحدهما إنجليزي وهو « ولسي » والآخر إيطالي وهو « كميجيو » ampeggio . وبإيعاز من الإمبراطور اقترح البابا نقل هذه المحكمة إلى روما .

ولما تمس هنري الثامن أن رحله الكاردينال « ولسي » قد فشل في تنفيذ رغبته في الطلاق استغنى عن خدماته ، وأحل محله « توماس مور » Thomas More ، ١٥٢٩ ، فرفعه إلى أعلى المراكز . ولكنه لن يلبث أن يرسله إلى الموت . وفي عام ١٥٣٠ اتهم « ولسي » بالخيانة العظمى وتقرر سجنه إلى لندن لحاكمته ولكنه مرض أثناء تلك الرحلة الحزينة . ومات في دير « ليسستر » Leicester ، وأناح وهو يحتضر الأظفار التي كان يطوى عليها صدره ، كما اعترف بأنه استبدل بمآربه الشخصية طاعة الله . وأنه يستحق الجزاء على ذلك .

وفي تلك الأثناء ظهرت على مسرح السياسة شخصية جديدة ، هي شخصية «توماس كرايمر» Thomas Cranmer ، الذي أولاه الملك الثقة التي أولاها «وامستني» من قبل . «وامستني» به في حل مشكلة الطلاق التي كان يواجهها . فاقترح «كرايمر» عليه أن يستشير كل جامعات أوروبا في مدى شرعية زواجه . وكانت آراء الجامعات فرنسا وإيطاليا تحدد قرار الملك الخاص بالطلاق وذلك في نظير حصولها على بعض المال . فشجع ذلك هنري الثامن على تحدي البابا ، فاستعان بالبرلمان ، ذلك البرلمان الشهير في تاريخ إنجلترا ، والمعروف ببرلمان الإصلاح الذي ظل قائماً مدة سبع سنوات (١٥٢٩ - ١٥٣٦) . وفي عام ١٥٣١ سن البرلمان عدة قوانين كان من شأنها الحد من سلطان البابا الديني فيما يتعلق بشئون إنجلترا الدينية . وأثار ذلك المخلصين للسلطان البابوي أمثال «توماس مور» الذي استقال عام ١٥٣٢ .

وفي عام ١٥٣٣ تزوج الملك سرّاً «آن بولين» بعد أن طلق زوجته «كاترين» . وعندما أصدر البرلمان قانوناً يمنع استئناف قضايا الزواج والطلاق في روما . أعلن الملك على الملأ زواجه الجديد . وأعلن «كرايمر» الذي أصبح رئيساً لكنيسة كاتدرائية بحكم الطلاق الذي لم يكن في الاستطاعة حينئذ السماح به إلا من الكنيسة الرومانية . وتوجت بذلك «آن بولين» ملكة على إنجلترا ، ثم لم تلبث أن أنجبت «اليزابيث» التي نودي بها ودية للعهد . فأعلن البابا بطلان حكم الطلاق ، وهدد الملك بالحرمان من رحمة الكنيسة إذا لم يعدل عن ذلك في بحر مدة معينة . وها قام البرلمان بخطوة جريئة عندما قرر قطع جميع الروابط بين كنيسة إنجلترا وكنيسة روما . وفي عام ١٥٣٤ صدق البرلمان على رواج الملك من «آن بولين» وعلى عدم قانونية زواجه من «كاترين» . وأعلن البرلمان أن ملك إنجلترا أصبح السيد الأعلى للكنيسة الأنجليكانية . كما أعلن البرلمان كذلك منع إرسال الأموال السنوية إلى البابا . وتعرف هذه القوانين الثلاثة الهامة التي حققت استقلال كنيسة إنجلترا عن كنيسة روما بقانون المعونات المالية السنوية Act of Annates وقانون الاستئناف Act of Appeals وقانون السيادة Act of Supremacy .

ومع ذلك فإن هنري الثامن لم يكن من المتحمسين لحركة الإصلاح الديني بمعنى أنه لم يرض بتغيير العقائد الكاثوليكية المعترف بها في إنجلترا من قديم ، ولكنه لاقى عداوة الكاثوليك والبروتستنت على حد سواء . فقد أساء إلى الكاثوليك بقطع الصلة

بين كنيسة إنجلترا وكنيسة روما. كما أساء إلى البروتستانت بتشبهه بالإبقاء على المبادئ الكاثوليكية. وقد جوزى كل من حهر برأيه بالموت، ومن بينهم شخصيتان مهمتان هما «توماس مور» Sir Thomas More والأسقف «فشر» Fisher حين امتنعا عن تأدية القسم بالولاء للملك كريتس، أعلى للكنيسة الانجليزية

وطهر على مسرح السياسة «كروويل» Cromwell. فقام بالخطوة التالية في ذلك الإصلاح، ألا وهي حل نظام الأديرة في إنجلترا وكان الغرض من ذلك مزدوجاً: القضاء على أعداء حركة انفصال كنيسة إنجلترا عن روما ألا وهم الرهبان والراهبات فهم حشد البابوية، وقد أساء إليهم ذلك الانفصال. كما أراد كروويل أن يحول كل إيرادات الأديرة الوفيرة إلى الحزينة الملكية، وتم له ما أراد على درجات فبدأ بزيارة بعض الأديرة وأخذ معه فريقاً من موطنى الدولة، واطلع على ما فيها من عيوب وفساد، ثم أعلن ذلك، وقرر التخلص منها. فقصى عليها نهائياً.

وفي عام ١٥٣٩ أعلن هنرى - بصفته سيداً أعلى للكنيسة - العقائد الأساسية للإنجليز فيما يعرف بقانون المواد الست التى وافق عليها البرلمان، وتلخص فى الاعتراف بالوجود الفعلى فى القربان. وعدم رواج رجال الدين، وفوائد إقامة حفلات القداس، وأهمية عملية الاعتراف. وتناول القربان المقدس بطريقة واحدة. وتقرر أن تكون عقوبة عدم الاعتراف بالمادة الأولى الحرق. أما عقوبة عدم الاعتراف بالمواد الأخرى فكانت السجن والمصادرة أولاً ثم عقوبة الموت إذا تكررت ذلك الأمر. لكن الملك ظل يعدل فى المواد المختلفة حتى عام ١٥٤٥ حيث بشر فى نهاية الأمر ما يعرف بكتاب الصلوات

#### الإصلاح الدينى فى عهد إدوارد السادس ١٥٤٧ - ١٥٥٣

عندما خلف أباه هنرى لم يكن قد بلغ من العمر ما يجاوز تسعة أعوام إلا ببضعة أشهر. وكان أبوه قبل موته قد عين مجلساً للوصاية وإدارة شئون الحكم فى عهد طفولته وأحييت رغبات هنرى الثامن بأدى الأمر فعين خاله دوق «سمرست» Duc de Somerset وصياً، وكان من المؤيدين لحركة الإصلاح، وأظهر ميوله فنشأ إدوارد تنشئة بروتستنتية، واتفق «سمرست» مع «كرانمر» على القضاء على العقيدة الكاثوليكية ولكن التغيير الفجائى كان من الخطورة بمكان للملك قرراً أن ينعذه على مراحل،

فأرسل « سمرست » مبعوثين من رجال الدنيا والدين إلى المقاطعات المختلفة فقاموا بتعديل طقوس الكنيسة الرومانية القديمة ، وقربوها بقرار المستلخ من نظام طقوس الكنائس الإصلاح وقد اعترضه أنجلو وزراء هنري الثامن القدامى وهو « جاردنر » Gardiner أسقف « وينشستر » Winchester على تلك التجديدات فأودع السجن .

في تلك الأثناء كان الهياج في اسكتلندا على أشده فقد اتخذت حركة الإصلاح الديني فيها طابعاً حماسياً متطرفاً يهوى ما كان بالقارة الأوروبية ، فطلب « ويليو Sommerest » بحيش يبلغ ١٨,٠٠٠ مقاتل إلى اسكتلندا . وأراد أن يجمع بين المملكتين بنزويج الأميرة الصغيرة ماري الاسكتلندية من إدوارد السادس ، وجعل ذلك تمهيداً للصالح ولكن رفض طلبه ، فوقع واقعة « بنكي » Pinky بين الفريقين على مقربة من أدنبرة ، فهزم الاسكتلنديون وفر غالبيتهم كما فقدوا الكثيرين من رجالهم . ولكن سمرست لم يستعد كثيراً من انتصاره ليرعته في العودة بسرعة إلى لندن .

وعند عودته دعا البرلمان لكي يلغى قوانين هنري الثامن . ويبدأ في عمل الإصلاح ، فألغى قانون المواد الميت ، فحرمت حملات القداس الخاصة وأعلن الاعتراف بسيادة الملك على شئون الكنيسة ، وفرض عقوبات شديدة على كل من لا يعترف بها . واستمرت الحركة الإصلاحية بعد سمرست أى في عهد نعوذ Northumberland وقد تميز هذا الأخير بعنفه وخطورته واندفاعه .

وفي ١٥٥٢ أصدر البرلمان قانوناً يعرض على رجال الدين استخدام كتاب صلاة جديد قد أعدّه كرانمر بمساعدة بعض المصلحين ، وكان كتاباً قيمياً حدم به العقيدة الجديدة ، ولا أدل على جودة ذلك الكتاب مما نشره أحد الكتاب الكاثوليك في امتداحه .

“He gave a strength to the newly established religion which it could never have drawn from any other source. He provided a substitute for the noble Latin on which the soul of Europe had formed for more than a thousand years.”

« لقد منح ذلك الكتاب العقيدة الجديدة قوة لم يكن في استطاعة أى مصدر آخر

أن عمدها يمثلها ، فقدم ما يقوم مقام الكاثوليكية التي اعتنقها الأوز وبيون لمدة تزيد على ألف عام .

ولم تكن تلك هي الخدمة الوحيدة التي قدمها كرانمر للعقيدة الجديدة بل ان استشهاده في عهد ماري - عندما أمرت بإحراقه - خلف لمعتني العقيدة الجديدة آثاراً لا تمحى ، وجعلهم يتشبثون بها عن ذي قبل . فقد بدأ عبد التنفيذ بمد يده اليمنى التي أخطأت عندما اضطرت تحت الضغط التوقيع بها على بعض حالات كان فيها إنكار للعقيدة الجديدة ، ثم لاقى مصيره في النار ، فاعتبر شهيداً من شهداء الإصلاح ولم يكن الوحيد الذي لاقى حتفه في عهد ملري تيودور

### الإصلاح الديني في عهد ماري تيودور ١٥٥٣ - ١٥٥٨

كانت كاثوليكية متحسسة لكاثوليكيها . بدأت عهدها بالقضاء على كل مانع من إصلاح ديني في عهد إدوارد السادس ، وأمرت بإحراق كرانمر وغيره من الأساقفة البروتستانت فيبلغ عدد الضحايا حوالي ثلاثمائة نفس . وقد خلعت ماري العقيدة الجديدة بتلك الاضطهادات ، إذ جعلتها تردد رسوخاً في القلوب ، ولا سيما لما رأى المؤيدون ولمسوا من شجاعة الشهداء واستبسالهم وتضحياتهم آخر الأمر بالحياة كل ذلك اتسبب النفوس ما بقي لها من ذكريات الماضي مثل قضايا الطلاق والزواج وما حول ذلك من أعمال الاضطهاد التي قام بها هنري الثامن ، فقد تمسحت تلك الذكريات دماء من استشهدوا في سبيل الدين الجديد

وغادر السجن الأسقف « جاردنر » Gardiner ووقف إلى حاب ماري تيودور ، فألغى كتاب الصلوات الذي ألفه كرانمر ١٥٥٢ ، كما أعيدت الصلة بين كيسة إنجلترا والكنيسة الرومانية . وأثارت الملكة الشعور القومي في إنجلترا تلك الاضطهادات كما أثارت كذلك عندما تحدته بزواجها من فيليب الثاني ملك أسبانيا في عام ١٥٥٤ . على الرغم من أنه قد أظهر بوضوح عدم رضاه عن ذلك الزواج ، وما يفتج عنه من تبعية لإنجلترا للسياسة الأسبانية ، وإذا كان الشعب الإنجليزي قد رضخ للأمر الواقع فذلك لأن ملري تيودور لم يكن لها وريث على العرش إلا إليزابيث ، وكانت على نقيصها الإنجليزية الأصل وكيسب أسبانية تحب حركة الإصلاح وليست متعصبة لكاثوليكية مثلها .

(م ٩ - تاريخ أوروبا الحديث)

١ - وقد تولت اليراث الحكم عام ١٥٥٨ وظلت تحكم حتى ١٦٠٣ وكانت الرغبة في حل المشكلة الدينية من أشد الأمور إلحاحاً في ذلك الوقت ، فقد كانت الأحوال الدينية في إنجلترا تضطرب اضطراباً شديداً منذ خمسة وعشرين عاماً قبل توليها الحكم ، فتارة يتغلب أنصار العقيدة الجديدة ، وتارة أخرى يتغلب أنصار الكاثوليكية ، واستشهد الكثيرون من معتنقي العقيدتين وإن كان ذلك لا يصل إلى من استشهد في سبيل العقيدة في جهات أخرى من أوروبا أثناء حركة الإصلاح الديني .

٢ - لم تكن مهمة اليراث هينة ، ذلك لأن الشعب الإنجليزي لم يكن راضياً عما جدد في عهد ماري تيودور من تعصب الكاثوليكية وإعادة بحلافيرها . كما أنه لم يرخص عن خطوات الإصلاح الديني التقدمية التي وضعت في عهد إدوارد السادس ، لذلك كان عليها أن تتخذ طريقاً وسطاً بين الأمرين لتكسب إلى جانبها غالبية الشعب الإنجليزي وقد ساعدها على تأدية تلك المهمة الصعبة بنجاح عدة عوامل من أهمها : -

١ - إن اضطهادات ماري وتمسكها الزائد للكاتوليكية قد عملت على زيادة البروتستنتين تعلقاً بالعقيدة الجديدة مما جعل الفريق البروتستنتي متفوقاً على الفريق الكاثوليكي .

٢ - كان لإنتشار الطبعة الإنجليزية للكتاب المقدس أثرها في ازدياد أتباع الدين الجديد ، إذ تبين للجميع أنه في استطاعتهم أن يحلوا مشاكلهم الدينية دون الاستعانة بأحد ، وكان الدين الجديد يدعو إلى ذلك .

٣ - كانت الرغبة في قطع الصلة بكنيسة روما قوية في النفوس ولم يكن طبعياً أن يثأق لإنجلترا ذلك إذا استمرت إنجلترا كاثوليكية .

٤ - أضعف من جانب الكاثوليك أن قضيتهم قد أصبحت قضية الأجانب ، فارى وزوجها فيليب الثاني وكلاهما كان أجنبياً في نظر الشعب قد عملا في حامية على إعادة الكاثوليكية ، ولذلك لقيت اليراث ولاء عظيم لأنها كانت إنجليزية ومؤيدة للعقيدة البروتستنتية .

٥ - وتم لإليزابيث ما أرادت دون استخدام وسائل العنف أو الشدة وساعدها على ذلك أن منصب رئيس أساقفة Canterbury كان شاغراً بموت « بول » Pole فأحلت محله « ماثيو باركر » Mathew Parker وقد جرف باعتدال آرائه البروتستنتية . وتبع ذلك ،



الملكية بإصدار أوامرها عن طريق البرلمان بأن تؤدي الصلاة والعقيدة والأوامر كلها في الكنيسة باللغة الإنجليزية واجتمع البرلمان في عام ١٥٥٩ وقرر النظام الديني الجديد على النحو التالي : —

١ — إلغاء قانون ١٥٥٤ فأدى ذلك إلى إعادة ذلك الانفصال الذي قرره هنري الثامن بين كنيسة إنجلترا وروما .

٢ — وقانون السيادة Act of Supremacy ، وبمنح الملكية السيطرة على الشؤون الدينية إلى جانب سيطرتها على الشؤون المدنية .

٣ — Act of Uniformity ينص على استخدام الكتاب الثاني للصلوات الذي صدر في عهد إدوارد السادس عام ١٥٥٢ .





## الفصل السابع

### عهد الملكة اليزابيث

(١٥٥٨ - ١٦٠٣)

كانت الأحوال في إنجلترا مضطربة تمام الاضطراب عند اعتلاء اليزابيث عرش إنجلترا وهي في سن الخامسة والعشرين ، كانت إنجلترا تعاني اضطراباً في نواحي حياتها المختلفة بسبب تلك التبعة التي نالت تحت أعبائها أثناء حكم ماري تيودور ، ووقوعها بسبب رواح الأخيرة من فيليب الثاني فريسة سهلة في يد أسبانيا ، وكانت تعاني من مشاكل الانقسامات الدينية التي تسببت فيها ماري تيودور . وكانت ميزانيتها غير مستقرة . وقواها الحربية غاية في الضعف والانحلال . وكانت كذلك تعتقر إلى زعماء وقادة للقيام على شئونها في السلم والحرب . وكان من السهل - وإنجلترا على الحال التي وصفنا - على أسبانيا وفرنسا أن تلحقا بها من الأضرار ما يؤذيها ، إلا أن التنافس الشديد بين هاتين الدولتين الكاثوليكيتين العظيمتين قد شغلها عن إنجلترا ، فنجت من كل ضرر محتمل . كان كلا الدولتين المشار إليهما تتنافسان يومئذ في السيطرة على أوروبا ، ومعنى ذلك أن الاتحاد بينهما كان مستحيلاً ، بل كانت كل منهما تنظر إلى الأخرى بعين الحذر وترقب اتجاهاتها في نقطة تامة . وساهمت المصاعب التي واجهت كلا الدولتين في نجاة إنجلترا منها . فقد ووجهت أسبانيا بثورة الأراضي المنخفضة ، كما ابتليت فرنسا بالحروب الدينية التي اشتعلت نيرانها فيها في تلك الأثناء . وكانت اليزابيث تغذى كلا منهما بالمال والرجال من حين لآخر ، كما استطاعت اليزابيث خلال تلك الظروف التي شغلت عنها الدولتان المتنافستان أن تهتم بحل المشكلة الدينية ، ووفقت في أول أعوام حكمها في أن تبعث إلى الوجود الإصلاحات التي قام بها أبوها هنري الثامن من قبل . واستطاعت إنجلترا أن تعلن قيام الكنيسة الأنجليكانية كنيسة رسمية في بلادها ، وأفادت من ذلك ، لأن هذا العمل قرب وجهات النظر بين إنجلترا

واسكتلندا ؛ فقد كان عام ١٥٥٩ عام انفصال الكنيسة في كل منهما عن روما . ومع أن وقوع الحادثين في وقت واحد كان بمحض الصدفة ، فقد ترتب على ذلك الانفصال نتائج هامة بالنسبة لكليهما ، إذ ترتب على الإصلاح الديني في كليهما نجاحهما من خطر أوروبا وسلطانها الروحي والزمني . ومن قبل كانت إنجلترا دولة رومانية كاثوليكية خاضعة لأسبانيا ؛ ولم يكن يخطئ اسكتلندا من ذلك يختلف عن حظ إنجلترا ، فقد كانت هي الأخرى دولة كاثوليكية رومانية خاضعة لسلطان فرنسا ، ولا غرابة في ذلك إذ كانت ملكتها ماري الاسكتلندية Mary Queen of Scots - وهي الكاثوليكية المتعصبة - زوجة لدوقين فرنسا اللقي أصبح فرنسوا الثاني في عام ١٥٥٩ ولم يعيش طويلا بل مات في العام التالي . وبعد عامين من ذلك للتاريخ أصبحت كل منهما بروتستانتية كما خلصت كلاهما من النفوذ الأجنبي . وكان استقلال الدولتين الديني غاملا أساسياً في استقلالهما السياسي . ونجحت هذه الحركة في كل من إنجلترا واسكتلندا لأن المنافسة استمرت بين أسبانيا وفرنسا . ومن مزايا ذلك الحادث الذي أدى إلى استقلالهما أنه قرب سياسياً بين الدولتين إنجلترا واسكتلندا .

#### موقف اليزابيث من ماري الاسكتلندية :

ولم يلبث الأمر طويلا حتى اشتعلت نار الخلاف بين الملكتين ماري الاسكتلندية واليزابيث في إنجلترا ، وهو خلاف كان معناه الأول إغراء ماري الاسكتلندية بعرش إنجلترا ؛ يعاونها في ذلك ملك أسبانيا ويا با روما . ومن وسائل ذلك كان موقفها المعادي لكنيسة الإصلاح في اسكتلندا مما أدى إلى إثارة الشعب عليها واضطرارها إلى التفرار إلى إنجلترا لائحة إلى اليزابيث ؛ لاطلباً في السلام ولكن رغبة في تنحية اليزابيث عن العرش لتعتليه ، وباتت تدبر لذلك مؤامرات استعانت في تدبيرها ببعض رجال البلاط وكرار الساسة في إنجلترا ، وانكشف أمرها لدى اليزابيث ، فلم تر بلداً من سجنها . على أن هذا العمل لم يبطل نشاطها في تدبير المؤامرات ؛ وصبرت اليزابيث على ذلك مدة تسعة عشر عاماً ( ١٥٦٨ - ١٥٨٧ ) برغم إلحاح البرلمان بالتخلص منها عن طريق الموت . ولعل السبب في صبر اليزابيث طوال ذلك الوقت أن يكون حرصها على تجنب الصدام العسكري مع فيليب الثاني الذي لم ييأس من تحقيق آماله في حكم إنجلترا مادامت ماري عدوة اليزابيث على قيد الحياة . ولم يكن غريباً أن تخشى اليزابيث عدوان أسبانيا .

خاصة وأن 'دوق الفا وجيشه القوي كانا في الأراضي المنخفضة وعلى بعد قريب من إنجلترا . وظاهر أن الزابث كانت حريصة على تجنب الصدام العسكري مع أسبانيا ، على أن الجهود الفردية من رجال إنجلترا وبخاصة بحارتها قد استمرت ، وكانوا يكثرون من أعمال القرصنة ومهاجمة الأسطول الأسباني في طريق عودته معاً بحرات العالم الجديد . لذلك بينما تميز التاريخ الرسمي للحكومة في هذه الفترة بنخلوه من أحداث التصادم بين الطرفين كان نشاط الأفراد غير الرسمي يبدأ عهداً جديداً في تاريخ العالم .

لذلك لم تقم الحرب بين الفريقين بالمعنى الصحيح حتى تاريخ موقعة الأرمادا ١٥٨٨ . ومع ذلك فقد كانت سياسة كل منهما تنلر بأن الاصطدام واقع بينهما لا محالة ، إذ حرم فيليب الثاني على كل الدول الأوروبية أن تقترب من سواحل الأقاليم التي اكتشفها أسبانيا والبرتغال حديثاً ، كما اعتقد أنه في مقدوره أن يعاقب كل من يخالف هذه الأوامر ، أو يصبط في مياه المستعمرات الأسبانية بإرساله إلى محاكم التفتيش ، كما أن فيليب لم يكن راضياً عما آلت إليه العلاقات بين إنجلترا وأسبانيا . وقد ظل فيليب خلال الأعوام الإثني عشر الأولى من حكم الزابث يحاول التآمر على قتلها والإغارة على بلادها ، وإنما حالت دون ذلك مشاغله الحمة والتردد في عريته ، وتحمل خلال ذلك كثيراً من الإهانات التي وجهها إليه كل من « هوكنز » Hawkins و « دريك » Drake .

وأتاح كل ذلك لإنليزابيث خلال ذلك الوقت الطويل أن تمضى في إصلاح شئون بلادها . وتوطيد مركزها وهي في نفس الوقت لم تنقطع عن التصدي لمعاكسة فيليب بطريق غير مباشر ، ومن ذلك أنها عاوت الأراضي المنخفضة في الحصول على استقلالها ، كما شجعت القراصنة الإنجليز وفي مقدمتهم « هوكنز » و « دريك » على مهاجمة الأسطول الأسباني . وكانت المستعمرات الأسبانية في العالم الجديد مسرحاً لهذا العدوان ، وإذا كان فيليب قد أغلق ثغور هذه المستعمرات في وجه المتجربين من غير الأسبان فقد كان أهلها يرحبون بالقراصنة الإنجليز وما تحمله سفنهم من خير يتمثل في المنسوجات الصوفية والرقيق . وكان أحد قادة القراصنة ويدعى « هوكنز » يزود أهل المستعمرات بالرقيق على حين كان الثاني وهو « دريك » يسطو على السفن الأسبانية ، وينهب ما كانت تحمل من كنوز تلك المستعمرات وبخاصة ما كان فيها من ذهب وفضة . وقد كان لعمل إنجلترا هذا غير المشروع نتائجها التي عادت عليها

بالربح الوفير ، فأثرى تجارها بما حملوا إلى بلادهم من سلع المستعمرات الآفة بعد أن كانت تجلبهم قاصرة على دول أوروبا .

### موقعة الأرمادا :

كان مصرع ماري الاسكتلندية ١٥٨٧ على يد اليزابث أول نثر الحرب التي و بين الدولتين . وعرفت في تاريخ الحروب باسم « حرب الأرمادا » . وقد أسبانيا في الإعداد لهذه الحرب نفقات باهظة فأقنع أسطولها الذي باركه البابا من له في ٣٠ مايو سنة ١٥٨٨ بقيادة اللوق « ميدينا سيدينا » Medina Sedina ، ولم يك دراية بمثل هذا العمل ولكنه كان من الإقطاعيين ، فكان ذلك كل مؤهلاته . والخطوة تقتضي أن يتقدم الأسطول في بحر المانش إلى « دنكرك » و « نيوپورت » Nieuport ومن هنا ينقل جيش بارما إلى إنجلترا حيث تحلج اليزابث لتخلفه العرش ابنة فيليب الثاني ،

وقشلت الحملة بما أعده القدر من أسباب عليها لم تجل بخاطر فيليب ولا بخاطر افسائ الأسطول كانت ثقيلة بطيئة الحركة وعليها رجال غير مدربين . فدار حولها سفن الأسطول الإنجليزي الصغيرة الخفيفة ، وعليها رجال مهرة من للقر وغيرهم ممن تعودوا ركوب البحر وأصبحوا سادة في هذا الميدان . وشاركت في عواهل الطبيعة فبعثت بعواصف عاتية حطمت الأسطول الأسباني على صخور الهز وليس يصوتنا آخر الأمر أن نشير إلى الأسطول الهولندي وكان يحوم حول دنكرك فوق بذلك بارما الذي اضطر إلى اللقاء بالساحل ، وفي خلال ذلك أخذ قائد القرم الإنجليزي يعمل في تحطيم ما تبقى من السفن الأسبانية ،

ومن عجائب القدر أن الانتصار لم يكن مستحيلا بالنسبة لجيوش أسبانيا رغم ما ذكرنا لو أتبع لأسطولها أن يبلغ أرض إنجلترا ، فقد كان جيش إنجلترا الذي يربط في « تيليري » Tilbiry للدفاع عن لندن — لحداثة عهد جنده وعدم من يقودهم بأمور الحرب — غير كفاء لأداء مهمته . وظهر في هذا الوقت اثبات اليزابيث ورباطة حاشها . وبحسبها أن تقف بين جنودها الذين ذكرنا ، بحياتها لترفع من روحهم المعنوية وهي تقول :

« اثبتوا أمام أعدائكم الطغاة لتعثوا في قلوبهم الرعب ، وأحب أن تعلموا أن

كان سلوكي دائماً مستندة إلى الإيمان بالله وما تُنطوي عليه صنوبر رعاياي من الولاء .  
الصادق والعزيمة القوية ، وها أنا بينكم في قلب المنعمة ، فلما الموت في سبيل بلادى .  
ولما الخلاص معكم تحت راية النصر . واعلموا أنني أعرف أن لي جسد المرأة للضعيف .  
ولكن في قلب لا يكون إلا للملوك وملوك إنجلترا بالذات .

على أن معركة الأرمادا لم تكن بالفصل الأخير في سلسلة الحروب الطويلة التي  
استمرت بعد وفاة فيليب الثاني واليزابيث ولم تنته إلا في عام ١٦٠٤ ، بل كانت  
الفصل الأول منها .

### أهم نتائج موقعة الأرمادا :

١ - وكان من نتائج هزيمة أسبانيا وتحطيم الأرمادا أن آذنت شمس أسبانيا بمغيب ،  
ولاحت شمس إنجلترا بالشروق . وإن كانت لم تتحقق نتائج فور الهزيمة . فهزيمة  
فيليب على استئناف الحرب لم تنته ، ولكنه أثر أن يكون استعداداته لذلك قوياً محكماً  
لا يتيح لإنجلترا أن تفلت منه ، غير أن الظروف لم تمكنه من الأمر كما تصور ، إذ  
كانت أطماعه في فرنسا تشغل باله كما أن عزمه على ما أراد قد اقتصاه مشروعات  
عديدة كلفته نفقات باهظة وقمت بأسبانيا على باب الإفلاس .

٢ - ومن نتائجها أن يتشجع الثائرون من شعب الأراضي المنخفضة في الاستمرار  
في المطالبة باستقلالهم ، وكان الأمل في ذلك عملاً نفوسهم .

٣ - اطمأنت فرنسا بعد تلك الهزيمة التي حلت بأسبانيا فأمنت خطر فيليب الثاني  
وكان نفوذه مؤيداً بمساندة البابا قد تغلغل في فرنسا ، وكان فيليب يومئذ رئيساً للعصبة  
الكاثوليكية . وتحلصت فرنسا نهائياً من هذا النفوذ بجهود هنري نافر الذي أصبح  
يعرف بهنري الرابع .

وهناك فريق من النقاد يوجهون اللوم إلى الملكة اليزابيث فيتهمونها بالتقصير في البذل  
بسحاء على تحرير من يناوئون أسبانيا في الأراضي المنخفضة وفي فرنسا . ويعجبون  
من إحجامها عن الاستمرار في محاربة فيليب الثاني - بعد الذي أصابه من ضعف  
وإنحفاق - لإمكان الاستيلاء على بعض المستعمرات التي كانت واقعة تحت سلطانه .  
وأكثر الظن أن ما طمست دار الوثائق في بلاط اليزابيث من امتناعها عما أراد النقاد  
قد خفي عليهم . فبنت من تلك الوثائق أن حال إنجلترا المالية لم تكن لتعين على بذل

الجهود التي أشار إليها النقاد ، كما ثبت أن الإصلاحات الداخلية في إنجلترا قد كانت في ميسر الحاجة إلى توجيه جهود الملكة إليها لأن ذلك قد كان أجلى عليها وأنفع لها . من تشييت الجهود في مساعدة الحركات البروتستنتية بصورة أوقع خارج إنجلترا . وقد أثبتت الأيام حكمة سياسة الملكة الرشيدة في اتجاهها نحو تركيز جهودها في وضع الأسس القوية لبناء إمبراطوريتها بتقوية أسطولها العظيم .

### الزاييث والاستعمار :

وثابت أن إنجلترا لم يكن في استطاعتها أيام الزاييث أن تبدأ ببناء إمبراطوريتها لفقرها إلى المال والرجال ، إذ كان عدد سكانها لا يجاوز خمسة ملايين نسمة ، ولهذا كله جاءت محاولات « سير والتر رالي » Sir Walter Raleigh في تأسيس مستعمرة فرجينيا عام ١٥٨٤ بالفشل . وفي بداية القرن السابع عشر أيام أسرة ستيوارت تحسن أمور البلاد المالية ويزداد عدد سكانها فيبدأ التفكير في حركة الاستعمار ويساعد على ذلك الاضطهاد الديني الذي وقع باليهوديتان في عهد شارل الأول فيضطر عدد كبير منهم إلى الهجرة إلى أمريكا الشمالية فيؤسسون فيها مستعمرات لهم جنوبي نهر سنت لورنس ، عرفت باسم إنجلترا الجديدة « New England » .

### الزاييث وبناء قوة إنجلترا البحرية :

بدأت إنجلترا تهتم بقوتها البحرية في عهد أسرة التيودور فبلغت مركزاً هاماً في عهد الزايث ، إذ طعن الإنجليز في عهد هذه الأسرة إلى حقيقة هامة وهي أن موقعهم المنعزل لم يعد كذلك ، بل أصبح مركزاً متوسطاً للطرق التجارية الحديثة ، وفتحوا إلى المكاسب التي تعود عليهم لوقاموا ببعض المخاطر في سبيل الكشف . وترتب على التغير في طرق التجارة نتيجة للكشف الجغرافية البرتغالية التنافس بين الدول الثلاث أسبانيا وفرنسا وإنجلترا على السيادة البحرية ، ذلك لأن كلا منها كانت تواقع المحيط الأطلسي الذي أصبح الطريق التجاري الهام بين غرب أوروبا ومنطقة حزر الهند الشرقية أي في الشرق الأقصى .

وكانت أسبانيا وجارتها البرتغال أولى هذه الدول استعلالاً للموقف . وقد عمرتا بالسكان أمريكا الجنوبية والوسطى . وأرادت فرنسا أن تحل محلهما أسبانيا ، فتنافسها في سيادة البحار وفي الاستعمار في العالم الجديد ، ولكن عندما كشف كولمبس أمريكا



كانت فرنسا مشغولة بمشاكلها الداخلية وبالنزاع الأسرى بينها وبين أسرة الهبسبورج ، وقد كانت الحروب الدينية التي اندلعت في فرنسا ( ١٥٦٠ - ١٥٩٨ ) ، ونجت منها إنجلترا في عهد إليزابيث من العوامل التي جعلت فرنسا تنصرف كذلك عن الميدان الاستعماري .

وهناك حقيقة هامة يجب أن نشير إليها وهي أن طائفة البروتستانت في كل من هولندا وإنجلترا كانت طبقة تجارية وبحرية ، كما كانت طائفة الهيجونوت من أنشط الطبقات في فرنسا ، ولكن أيد فريق كبير منها في مذبة « سان برثلميوس St. Bartholomew » ، عام ١٥٧٢ في فرنسا على حين أصبح « دريك » وبحارته البروتستانت أبطالاً في نظر الشعب الإنجليزي .

نضيف إلى ذلك أن طبيعة إنجلترا وقرب سواحلها من البحر جعل اتصالها بالبحر سهلاً ولا سيما لندن التي تقع على البحر بينما كانت عاصمة فرنسا باريس تقع في الداخل . أما أسبانيا فعلى الرغم من موقعها البحري الممتاز ، فإن تخلفها في ميدان الصناعة قد جعلها تخلو من التحار الخطرين والسحارة المهرة ، بل ومن الساسة المحنكين ، ولكنها امتازت أيام عظمتها بقوة جيشها البري ، وجنودها الأشداء .

ساعدت تلك العوامل إلى جانب نمو الحركة التجارية في إنجلترا على نجاح القوة البحرية في عهد إليزابيث ونجاح حركة الاستعمار أيام الأسرة التي تلت حكمها وهي أسرة استيوارت .

ومن كل ما ذكرنا نرى كيف نجح الإنجليز والهولنديون حيث فشل الأسبانيون ، وقد كانوا في عهد هيليب الثاني أقوى دول الاستعمار ، ذلك لأن الإنجليز والهولنديين تعلموا الاتجار مع المستعمرات الأمريكية المكتشفة حديثاً على عكس الأسبانيين ، ففي سبيل بيع مصوغاتهم من المنسوجات أخذ التحار الإنجليز الهجئون للمحاطرة يبحثون عن أسواق جديدة لهم منذ بداية القرن الخامس عشر . فانبجوا في عهد إليزابيث إلى ميادين بعيدة في أفريقيا وآسيا وأمريكا . ونجحت البراييت في توسيع حركة بلادها التجارية بروسيا وذلك بإنشاء أول شركة غربية في موسكو وهي « شركة موسكو الإنجليزية » .

وكان لانتعاش إليزابيث بأهمية التجارة أثر كبير في اتصالها بالرأى العام ، فاستطاعت بمعاونة « سيسيل » Cecil - رئيس مجلسها الخاص - أن توثق صلاتها بمؤسس البورصة

الملكية و ستر توماس جريشام Str Thomas Gresham ، واعتمدت عليه في الحصول على القروض التي استعانت بها في سد حاجاتها في الدناخل وتحقيق سياستها في الخارج ، كما اتخذت منه مستشاراً لشؤونها المالية .

### علاقة الزايبث بالبرلمان :

بدأ مجلس العموم في البرلمان الانجليزي أيام الزايبث يتجه اتجاها سياسياً خاصاً في اتصاله بالحكومة مؤيداً أو ناقداً . فكان أعضاؤه أشد حماساً من الملكة نفسها في موقفها السياسي من البابا وأسبانيا كلها . ومن ذلك إظهار ولائهم للملكة وإصرارهم على اتخاذ إجراءات من شأنها حماية الملكة وضمان سلامتها ، ثم نصحوها لها بالزواج بغية الإبقاء على الحكم في أسرتها بتعيين من يخلفها على العرش ، كما نصحوها لها بالخلص من عدوتها ماري الاسكتلندية وكانت مهيمنة في إنجلترا عن طريق الإسراع بإعدامها . كان البرلمان في بداية عهد أسرة التيودور كما تبينا نحاضعاً لإرادة الملك منفلاً لأوامره وكان لذلك أثره في نجاح سياسة الإصلاح الديني .

أما اليرايث فقد اتصفت كما تقدم بالحرص على احترام حقوق أعضاء البرلمان وامتيازاتهم ، وكانت في ذلك واضحة الدهن بحيث أدركت أن قوتها لا تستند إلى إيمانها بالحق الإلهي كما هو الحال في فرنسا ، وإنما إلى ولاء الشعب الذي يعمل في برلمانها . وكانت طوال عهدها موفقة في اتصالاتها برجال الدولة وأعضاء البرلمان . وخرجت من دنياها مستحقة لتقدير رجال الدولة وبخاصة أعضاء البرلمان . ذلك لأنها استجابت لرغبتهم في إلغاء الاحتكارات التجارية المختلفة التي كانت بغضضة إلى نفوسهم .

### نهضة العلوم والآداب :

وامتاز عصر الزايبث بنهضة في العلوم والآداب . وكان عصرًا زاخراً تحسد عليه إنجلترا ، وبحسبها أن يكون من رجال هذا العصر شكسبير (١٥٦٤-١٦١٦) بانتاجه الأدبي الذي عدته الأجيال من معجزات ذلك العصر .

يستطيع القارئ أن يتصور معنا بعد الذي ذكرنا من ملامح عصر الزايبث وسماته أنه كان بحق عصر أسرة التيودور الذهبي .

## الفصل الثامن

### COUNTER REFORMATION انتعاش الكاثوليكية

أخلعت البروتستنتية في الانتشار وتوطيد مركزها في أوروبا دون أن تلقى مقاومة تذكر حتى منتصف القرن السادس عشر ؛ بل أن البابوية نفسها لم تكترث كثيرا لهذا الخطر فانصرف البابوات عدلث عن الأمور الروحية واهتموا بالمسائل العمرانية والسياسية . فكليات السابع ( ١٥٢٣ - ١٥٣٤ ) من أسرة للمديشى ومن قبله ليو العاشر ويوليوس الثاني اهتموا جميعا بتشجيع الآداب والفنون والحركة الإنسانية كما اهتموا بالسياسة .

أما البابا پول الثالث ( ١٥٣٤ - ١٥٤٩ ) فكان مشغولا بأطماعه السياسية ، يرمى إلى تمليك ابنه دوقية « بارما » ، وكان يرى أنه من الممكن التوصل إلى حل سلمى بين الكاثوليك والبروتستنت ، وأن التعاهم بينهما ليس مستحيلا . ولكن جهوده في هله السبيل فشلت جميعا . وكان هله البابا آخر بابوات النهضة ، وأول من عمل منهم على احياء الكاثوليكية ، ومع ذلك فإن أهمية عهد بابويته ترجع إلى أنه بدأ بإخلاص في العمل على إصلاح أحوال الكنيسة الكاثوليكية ، وذلك لأنه وجد أن الحاجة كانت ماسة وملحة لكي تستطيع مواجهة أعدائها البروتستنت . وقد اتفق الرأى بين كبار رجال الكاثوليكية على ضرورة إصلاح وتطهير الكنيسة الكاثوليكية بعد أن تبين لهم ماوصلت إليه من انحلال وما أصابها من فساد ، إذ أصبحت الإدارة الكنسية فاسدة وغير صالحة سواء في ذلك الإدارة البابوية نفسها أو موقف رجال الدين والأنظمة التى سادت الأديرة . كان رجال الدين يحبون حياة العلمانيين في الملابس والمأكلى ، وكان الأساقفة يتقاضون مرتبات كبيرة ودخولا أخرى دون أن يؤدوا وظائفهم الدينية كما يذى إذ كانوا كثيرى التغيب عن أسقفياتهم ، وفقدت بعض الأديرة مظهرها الدينى . ومن ذلك يتبين أن الحاجة إلى الإصلاح كانت ملحة دون أن يتسبب ذلك فى إضعاف سلطان البابا

والكنيسة الرئيسية في روما ، ودون التعرض للعقائد الكاثوليكية . ومن ذلك نبتين أن الغرض من حركة الإصلاح كان المحافظة على نظم الكنيسة وقواعدها . وقد بدأ البابا بول الثالث في التمهيد لذلك ، فشكل لجانا للبحث في الإصلاحات التي يجب إجراؤها ، وعين عددا من الكراطة المعروفين بتحويلهم لحركة الإصلاح : ومنهم « كرافا » Carafa وهو الذي أصبح فيما بعد للبابا بول الرابع . على أن البابا بول الثالث كان هو الذي اتخذ الوسائل الثلاث التي ينبغي أن تتبع في إصلاح الكنيسة وهي قانون الجروت ١٥٤٠ . وإعادة تنظيم محاكم التفتيش عام ١٥٤٢ ، ودعوة مجلس ديني للاجتماع في « ترنت » عام ١٥٤٥ .

#### ١ - جماعة الجزويت :

أنشأها « إجناس ليولا Ignatius Loyola » ( ١٤٩١ - ١٥٦٦ ) وهو أسباني الأصل ينتمي إلى مملكة « نافار » . بدأ حياته جنديا ولكنه في عام ١٥٢١ أصيب بجروح في ساقه أثناء إحدى المواقع ضد الفرنسيين عوقته عن مواصلة جهوده الحربية ، فتعلم اللاتينية في برشلونه . ثم التحق بجامعة باريس عام ١٥٢٨ ، المركز الرئيسي عندئذ في أوروبا وبقى سبع سنوات يدرس الفلسفة والدين إلى أن تمكن من الحصول على درجة الماجستير . وأثناء وجوده في باريس جمع حوله جماعة من الأصدقاء والأتباع . ومنهم Faber « فابر » و « إكزافييه » Xavier و « ليميز » Lainez . و « سلمبرون » Salmeron . وفي عام ١٥٣٤ اجتمع مع ستة آخرين من أتباعه في كنيسة « سانت ماري » Ste. Marie في « مونتمارتر » Montmartre حيث تعاملوا على خدمة الله راغبين متعشرين . ثم قرروا الحج إلى الأراضي المقدسة لتحويل المسلمين إلى المسيحية . وبعد علمين اجتمعوا في النلقية حيث كانوا قد صمموا على السفر إلى الأراضي المقدسة ، ولكن وقوع الحرب بين البنادقة والأتراك منهم من ذلك فقرروا عندئذ وضع أنفسهم تحت تصرف البابا . وفي روما استطاعوا أن يطبقوا مبادئهم ، فأخلوا يقومون بالوعظ محاولين إثبات سمو مبادئهم . وقد جذب ذلك إليهم عددا جديدا من الأعوان ، وكان لزعم الجزويت « إجناس ليولا » أعداء كذلك اتهموه بالهرطقة . ولكن محاكم التفتيش برأته ، وفي عام ١٥٣٩ قدم طلبا إلى البابا ليسمح له بتأسيس النظام الجديد ، وكان ليولا قد اتخذ مع إخوانه اسم الجزويت في عام ١٥٣٧ . وقد أقر البابا بول الثالث هذه الجماعة في ٢٧ سبتمبر عام ١٥٤٠ .

وإن قيمة العمل الذى قام به « إجناس » وأهميته إعا تنضج فى المباحث التى وضعها لهذه الجماعة ، إذ كان مثالا للأسبانى المتفانى فى خلمة الكاثوليكية والجهاد فى سبيلها سلك سيلا اتصف من أجلها بصفات البطل المغامر من أمثال « دون كوشوت Don Quixote » ، وكان حازما حريصا رغم ذلك لأنه كان قادرا على ضبط النفس والتوفيق بين الحماسة والحذر . كرم حياته لخدمة هذه الجماعة .

ظهرت مبادئ هذه الجماعة التى وضع « ليولا » أنظمتها بنفسه فى القانون البابوى الذى أقرها . وكانت تقوم أساسا على الطاعة العمياء . ولا عجب فى ذلك فواضعها جملى خضع للقوانين العسكرية ، وكثيرا ما صرح بأنه ما يزال جنديا يخضع لله لا لقائد عسكرى . سلكت هذه الجماعة فى تكوينها وتشكيلها سبيل إبعاد الضعفاء ، شأنها فى ذلك شأن عصبة المحاربين فكانت لا تقبل عضوا من أعضائها إلا بعد تدريبه واختبار قدرته على تحمل مشاق الجهاد فى سبيل الخدمة الدينية لمدة لا تقل عن عامين وكان نظامها هذا يخالف أنظمة الجماعات الأخرى التى كانت تكتفى فى إختيار أعضائها بتدريبهم عاما واحدا . كان لهذه الجماعة رئيس له صفات القائد العسكرى المحنك ، يقوم بائحابه مجلس مكون من الأعضاء الرئيسين لهذه الطائفة . وكان القائد يتمتع بفرد مطلق ، وكانت المناطق التى يظهر فيها نشاط هذه الجماعة مقسمة إلى أقاليم ، على رأس كل منها حاكم يعينه القائد العام . ولم يكن الغرض من تأسيس هذه الجماعة التأمل ، وإنما كان الغرض منها العمل ، فلم تكن نظاما من أنظمة الرهبة ، وعلى ذلك لم يختلفوا عن رجال الدين الآخرين من حيث اللبس والمعيشة فى الحياة العامة ، فكانوا ينتشرون بين الناس ليرشدوهم إلى أقوم السبل فى نظرهم . وانتشر نشاطهم بفضل إدارتهم الحكيمة فكان منهم الكتاب والاساتذة والبشرون . وكان التعليم من أنجح وسائلهم . وقد برعوا فيه . ساروا على نهج الانسانيين ، فجعلوا أساس دراساتهم قائما على دراسة اللغات القديمة وبخاصة الإغريقية واللاتينية : ثم هم الذين أسسوا التعليم الثانوى وكانت معاملهم تتميز باهتمامها بتدريس الأمور الدينية والدنيوية فى آن معا ، مما جعلها مقصدا لأبناء النبلاء والأمرء طمعا فى التأهيل الصحيح .

كانت أغراض « ليولا » من تأسيس هذه الجماعة واضحة ، فكل من ينتمى إليها يستطيع الوعد والإرشاد والاستماع إلى الاعترافات . وتعليم الأفراد لبث للمعتقدات

الكاثوليكية . وامتازت جماعة الجزويت بحسن إدارتها وحزمها ونظمها الدقيق ، وأصبحت لأكثر من قرن أهم عوامل انتشار الكاثوليكية والدعاية لها . وعلى الرغم من صرامة قوانين هذه الجماعة ، فقد نمت نموًا سريعًا ، فهذه الجماعة التي كانت تتكون من عشر أعضاء في عام ١٥٤٠ عند الاعتراف بها رسميًا ، أصبحت عدد ممات ليولا في عام ١٥٥٦ تتكون من ١٥٠٠ عضو إنتشروا بين اثني عشر إقليمًا ، أحدها في اليابان والآخر في الصين كما أصبح الجزويت بديرين ٣٦ كلية لها حوالي ستة آلاف من الطلاب .

ولما كان من أغراض هذه الجماعة الرئيسية الدفاع عن الكنيسة الكاثوليكية أمام هجمات البروتستنتية ؛ فقد نشأت في جميع المناطق التي نشأت فيها البروتستنتية . فنجدها في ألمانيا تنجح في الحد من انتشار البروتستنتية في ألمانيا الجنوبية وفي منطقة الراين ، كما نجحت في جعل النمسا وإفريقيا مقلين للكاثوليكية مما قلقت به من تدريس لأبناء الأشراف والبلدان بها . وظهر نموذ هذه الجماعة وتأثيرها في المقاطعات الجنوبية للأراضي المنخفضة ( بلجيكا الحالية ) حيث أسسوا كليات « لوفان » Louvain ، و « مالين » Malines . وأصبحوا كذلك يتمتعون بمركز ممتاز في كل من البرتغال وإسبانيا ؛ فيصبح « رودريجز » Rodriguez من أوائل أتباع ليولا مربيًا لوارث عرش البرتغال وفي فرنسا إصطدم جماعة الجزويت بكل من البرلمان والجامعة . ومع ذلك فانهم نجحوا في إنشاء بعض المعاهد في باريس . وفي عام ١٥٦٤ أنشأوا معهدًا يطلق عليه Collège de Clermont وهو ما يعرف اليوم بالليسيه .

ولم تقتصر جهود جماعة الجزويت على أوروبا وحدها ؛ فهذه « فرانسوا أجزافيه » Xavier François رفيق ليولا يغادر أوروبا عام ١٥٤١ ويصبح رسول الكاثوليكية في الهند والصين واليابان حيث يصل عام ١٥٤٩ . وتلك جماعة منهم ترحل في نفس العام إلى البرازيل وتلك جهودها في التبشير حتى انتشر ملههم في معظم المستعمرات .

## ٢ - مجلس ترنت ( ١٥٤٥ - ١٥٦٣ ) :

كان البابا يتمتع بسلطة مطلقة ، ومن أجل ذلك استطاع في الماضي أن يعارض كل اقتراح للإصلاح قلّمته المجالس الوطنية . والكنسية . ولكن عندما استعمل خطر انتشار البروتستنتية ؛ وتعرضت الكنيسة للخطر استقر الرأي على عقد مجلس . في ترنت للبحث في إصلاح الكنيسة الكاثوليكية ، والعمل على التوفيق بينها وبين البروتستنتية . ولهذا

المجلس أهميته العظمى في تاريخ الكنيسة الرومانية ؛ فمن طريقه نظمت عقائدها وحددت مبادئها . شاركت البابوية في أعمال هذا المجلس ، وكان مركزها حرجا محاطا بالمخاطر . ولكنها خرجت منه سليمة منتصرة .

وإذا صح أن المجلس كما سبق قد كان ميالا إلى الابتعاد عن العنف والرجة في المساواة بين المذاهب من ناحية الحقوق ، إلا أنه أصر على موقفه من حيث معارضة المبادئ الثلاثة الأساسية التي تفرق بين المذاهب والتي اعتبرها البروتستانتون أساسا للعقيدة المسيحية ؛ وهي الاعتقاد على الكتاب المقدس وحده ، ثم عقيدة التبرير بالإيمان وحده ، وثالثا العقيدة في موضوع القربان . وأدى استمرار المجلس على موقفه هذا إلى وجود صدع في بنائه ، واتسعت شقة الخلاف بين أعضائه ، وانقطعت وسائل التفاهم مع البروتستانتين ، وانعلمت آمال الإمبراطور التي كان يعلقها على جهود هذا المجلس . ولم يصبح غريبا بعد ذلك أن يقع أول صدام عسكري بين الإمبراطور والبروتستانت في « مهلبرج » Muhlberg عام ١٥٤٧ . وكان من نتائج هذا الصدام العسكري وما أعقبه من خلافات أن يتوقف المجلس عدة مرات عن الانعقاد ثم ينبجج في استئناف جلساته عام ١٥٦٢ ويمكن خلال إنعقاد جلساته المتتالية من النجاح في الوصول إلى حل أمور تهم الكنيسة وترضيها ؛ منها أن تعتبر الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس هي الترجمة المعتمدة وأن تحتفظ الكنيسة بأسرارها السبعة ؛ وكان البروتستانتون يريدون إيقاعها إلى سرين فقط ؛ فيعتبر الاعتقاد في القربان ماديا كما تريده الكنيسة لأرواحيا كما أراحه كلفن ، وأن تقوم العقيدة المسيحية على التقاليد والتسميات البابوية إلى جانب الكتاب المقدس ، وأن تكون السيادة العليا للكنيسة روما كما يعتبر البابا خليفة للسيد المسيح .

أما عن شعائر الدين فقد تقرر الإبقاء على استعمال اللاتينية في الصلاة ، كما تقرر تحريم زواج القساوسة على الرغم من رغبة الإمبراطور فرديناند في إبادة زواجهم ، كما تقرر إلزام الأساقفة بالإقامة في مقار أسقفيتهم . وتقرر كذلك تحديد سن كل من الأسقف والقسيس عند التمييز ؛ فلا تقل سن الأول عن ثلاثين عاما ولا تقل سن الثاني عن ٢٥ عاما كما تقرر إنشاء مدارس خاصة لتخريج رجال الدين .

وإذا كان المجلس كما تبين لنا قد نجح في تنظيم الشعائر الدينية وتثبيت قواعدها وتطهير الكنيسة مما علق بها من فساد وإهمال ؛ فإنه قد فشل تماما في التوفيق بين البروتستانت والكاثوليك .

## (٣) محاكم التفتيش Inquisition :

اتخذ الكاثوليك محاكم التفتيش وسيلة من وسائل لانعاش الكاثوليكية ولكنها لم تأت بما كانوا يأملون لها من نجاح . ومحاكم التفتيش لم تكن بالشئ الجديد ولكنها قديمة ترجع نشأتها إلى أيام المصور الوسطى كوسيلة من وسائل الإرهاب والتعذيب لحماية المسيحية ؛ كانت نشأتها في فرنسا في القرن الثالث عشر أثناء الحروب الصليبية ثم أعيد إنشاؤها في أسبانيا بعد ذلك لاضطهاد العرب واليهود وتعذيبهم . واستأنفت نشاطها في النصف الأول من القرن السادس عشر في كل من أسبانيا والأراضي المنخفضة . على أنها لم تكن ذات أثر فعال كما كانت في الماضي ؛ فقد بطل استخدامهما في البلاد التي خرجت على الكنيسة الكاثوليكية ولم تلق بهصفة مستديمة تشجيعا ، كما لم يكتب لها الاستمرار في البلاد الكاثوليكية وفي مقدمة هذه البلاد فرنسا . ولم يتمحق الغرض الذي أراده الكاثوليك من إنشاء هذه المحاكم ؛ وآية ذلك أنها دفعت البروتستنت إلى الاستماتة في الداء على الانفصال عن الكنيسة الكاثوليكية كما حدث في الأراضي المنخفضة الشمالية ؛ ومن ذلك نرى أنها كانت أكبر عامل معوق لانعاش الكاثوليكية . وإذا صح أن يكون لتلك المحاكم من أثر يمكن أن نقول إنه قد نفع فإن هذا الأثر يمحصر في تطهير أسبانيا وإيطاليا من المخالفين للعقيدة الكاثوليكية ، ثم هي قد أعانت على جعل السلطة قوية في قبضة الملكية في أسبانيا حيث كان الولاء للملكية من مكملات الإيمان بالكاثوليكية . ولكنها كانت أصلا محكمة دينية وتميزت بوسائلها القاسية . وقد تكون نوع من هذه المحاكم في عام ١٥٤٢ عندما أصدر پول الثالث القانون البابوي بملك وكان الكاردينال « كارافا » Caraffa الذي أصبح فيما بعد پول الرابع ( ١٥٥٥ - ١٥٥٩ ) هو الذي أشار بملك ، وكان القانون الجديد نخاصا بتنظيم محاكم التفتيش في روما .

وقد أصبحت محكمة التفتيش الجديدة المكونة من خمسة كرادلة قادرة على معاقبة معتنقى الهرطقة أيا كانت الطبقة التي ينسبون إليها ؛ فلها حق سجنهم دون محاكمة ومعاقبتهم إذا ثبتت إدانتهم . ومن وسائلها استخدام التعذيب بأنواعه والسجن والمصادرة . وكان لهذه المحاكم حق اللجوء إلى السلطة المدنية ؛ تستعين بها على محاربة الأخطاء التي بدأت تنتشر في العالم للمسيحي ، وكانت تلجأ إلى تعذيب المتهمين حتى يعترفوا ببلغتهم .



وقد فرضت رقابة شديدة على الطبع والنشر لأنه لم يعترف في القرن السادس عشر بجرية القول والعبادة . وقد كانت الرقابة على الكتب المطبوعة عامة في أوروبا في العصور الكاثوليكية والبروتستنتية . وقد اهتم مجلس ترنت بهذا الموضوع فأوصى بتشديد هذه الرقابة . ومع ذلك فإن إعاقة تنظيم محاكم التفتيش في روما كانت فرصة لتحقيق ذلك الغرض فتوسعت في قوائم الكتب المحظورة استعمالها . ومن قبل أحرقت كثير من الكتب المحظورة . ونشرت في عام ١٥٥٩ قائمة تمثل هذه الكتب

#### (٤) قيمة البابوية :

ومن العوامل الهامة التي ساعدت على انتعاش الكاثوليكية وتطهير عقائدها عاملاً كان أنه ما لمجلس ترنت من أهمية ؛ بل وأكثر من ذلك ، من حيث أنه كان أسرع تأثيراً في تحقيق أهداف هذه الحركة . هذا العامل هو تحسين ملاحظ في أخلاق من ملأوا كرسى البابوية ما بين عامي ١٥٣٤ ، ١٥٦٣ ؛ يظهر ذلك التحسين منذ تولى البابا « بول الثالث » عام ١٥٣٤ ووصل إلى أعلى درجاته أثناء بابوية « بيوس الخامس » عام ١٥٦٣ . إمتاز بابوات النهضة بذل محتلمهم . وغيرة ثقافتهم . وتشجيعهم لرجال الفنون والآداب وإهتمامهم بالأمور السياسية . وتدخلهم فيها . وكان للبابوات نزع تحريم الزواج عليهم أبناء كانوا يسسونهم إلى أبنوتهم . وكان البابوات يخضعون كل الحرص على وضع هؤلاء الأبناء في مراكز سامية . استعملوا في ذلك كل الوسائل وبنوا الحرب إذا اقتضت الضرورة . وكانت حياة البابوات مليئة بالفصائح الخلقية ، وكان البلاط يعيش على نفقات باهظة تجمع من بيع الوظائف الدينية وصكوك الغفران . وينشط البابوات نشاطاً سياسياً ملحوظاً أثناء المنافسة بين فرنسا وإسبانيا في السيادة على إيطاليا ؛ ومن مظاهر ذلك انضمام البابا بول الثالث إلى فرنسا ، والبابا يوليوس الثالث إلى الإمبراطورية . ويبلغ الأمر بهول الرابع وكان من أسرة « كرافا » في نابولي أن يلعبه عداؤه لإسبانيا إلى التحالف مع الأتراك العثمانيين . وخلال هذه الظروف تشط البروتستنتية نشاطاً ملحوظاً له خطورته ، فلا يقتصر انتشارها على ألمانيا وإيطاليا وفرنسا ؛ بل يعلو تلك البلاد إلى روما نفسها . وهناك استيقظت البابوية على هذا اللوى ، وبدأت تفكر في إصلاح أمورها .

فيبادر البابا بول الثالث بتأسيس جماعة الجزويت ويشعر من بعده بول الرابع بالحاجة إلى الإصلاح برغم مشاكله الدينية ، فيبدأ بإدخال الإصلاح على الكنيسة .

-١٤٨-

ولكن "خير الحقيقى الذى يدعو إلى الدهشة حقاً هو ما حدث فى عهد البابا « بيوس الرابع » Pius IV عام ١٥٥٩ إذ يتضمن سلطانه الأمر «إعدام من حامت حولهم الشبهات من أبناء البابوت ، ويرى من الخير التمجيل باستدعاء مجلس « تربت » ثم يعان ضرورة المبادرة بالإصلاح حتى إذا كان يمس شخصية البابا نفسه .

ولما اعتلى كرسى البابوية البابا بيوس الخامس ضرب مثلاً منقطع النظير فى الزهد والتقشف ؛ فكان ينهض مع الفجر ، ويسعى حافى القدمين ، ولا يستريح وقت الظهر ويعمل طوال نهاره وطرفاً من الليل ، ويكتفى من الراد بأقله . وقد أثرت حياته هذه فىمن خلفوه على كرسى البابوية . فحلت حياتهم من الرينغ والطمع والتمضائح التى دنست عهود أسلافهم . وكان طبيعياً أن يحلوبة رجال الكنيسة حذو الدانوات فانتظمت حياتهم الكنسية ومن ذلك أن أصبح الكرادلة وكبار رجال الدين أكثر مواظبة على حضور الصلوات ؛ حينها ، وغلت ديارهم من كل ما يطاق الألسنة بالعيب فيهم والظعن على سلوكهم . ولم يؤثر "ك الساولك الطيب فى حياة رجال الكنيسة وحسب ؛ بل امتد إلى حياة الشعب الإيطالى .

## الفصل التاسع

### ثورة الأراضي المنخفضة

#### كيف آلت الأراضي المنخفضة إلى أسبانيا ؟

آلت هذه الأراضي إلى أسبانيا عندما ماتت ماري البرحنديّة زوج الإمبراطور مكسميليان في عام ١٤٨٢ ، وكان قد تروح منها في عام ١٤٧٧ ، وقد أصبحت الأراضي المنخفضة عند وفاة زوجته تحت وصايته وحكمها نيابة عنه ابنه فيليب ، وقد تزوج فيليب هذا في عام ١٤٩٦ من « جوانا » الأسبانية فورث ابنهما شارل عرش أسبانيا باسم « شارل الأول » ملحقاً بها الأملاك البرحنديّة وأهمها الأراضي المنخفضة . ثم انتخب إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة باسم « شارل الخامس » .

وتج عن هذا الإرث البرحندي أد أصبحت أسبانيا ترقب باهتمام بالغ كل ما يقع في بريطانيا وأسبانيا وفرنسا وغرب أوروبا بصفة عامة ، وإن كان لهذا الإرث مسوئته بالنسبة لآل هابسبورج أنفسهم وبالنسبة لألمانيا والإمبراطورية ، فقد ورع جهود الأباطرة « ووجهها نحو غرب أوروبا ، بينما كانت مصالح الإمبراطورية الرئيسة تقع في شرق أوروبا حيث تقع فيينا مفتاح الباب الشرق لها . وكثيراً ما تعرضت العاصمة فيينا لغارات الأتراك والمخربين والسلاف وغيرهم .

#### الاختلافات الواضحة بين الأسبانيين وشعب الأراضي المنخفضة :

- وأصبحت الأراضي المنخفضة المحور الرئيسي الذي تدور حوله السياسة الأسبانية . ومن الغريب أن الأراضي المنخفضة كانت تختلف عن أسبانيا تمام الاختلاف ، فيها كانت أسبانيا لا تزال إقطاعية أرستقراطية كانت الأراضي المنخفضة قطعاً مكوناً في نخبته من مدن عديدة تعيش على التجارة . ونجحت أسبانيا إلى حد بعيد في توطيد الحكم المركزي فيها .، بينما كانت الأراضي المنخفضة تتكون من سبع عشرة ولاية مستقلة لكل منها دستورها الخاص ، حتى لتكاد كل منها تكون جمهورية مستقلة بشؤونها الخاصة ، كذلك كان شأن الحياة السياسية في ذلك الوقت . وقد نشأ عن صراع

الأسانيين مع العرب وعن طبيعتهم الخاصة أن أصبحوا شعباً متعصباً لكاثوليكيته ، فقد تميزت أسانيا بتعصبها الشديد الذي عرفت به مدحكها العرب . وكانت الأراضي المنخفضة كاثوليكية كذلك في غالبيتها وبقيت على هذه الحالة حتى انتهاء الصراع بينها وبين أسبانيا ، ومع ذلك فقد كان يسود ربوع الأراضي المنخفضة الحرية والتقدم ، كما كانت الآراء الحديثة تلقى ترحيباً ، وأخذت اللوثرية تنتشر بين ربوعها . لذلك كانت العلاقات بين الشعبين من أصعب المشاكل القائمة ، وقد يقال أنه من الممكن حل هذه المشكلة لو منحت تلك الولايات استقلالاً داخلياً واسعاً ، وحرية قومية ، ولكن لم تكن هذه الآراء التقدمية التي تدفع إلى التسامح معروفة بعد ( أي في القرن السادس عشر ) . فكان منح الشعوب المحكومة بعض الحرية والاستقلال الداخلي يفسر على أنه ضعف من الحاكم . ولم يكن فيليب الثاني ( ١٥٢٧ - ١٥٩٨ ) المستند المتعصب ليقبل أن تنعت أسبانيا بالضعف عندما تحصل إلى هذه الدرجة التي تمنح فيها شعب الأراضي المنخفضة حريته واستقلاله الذاتي ، لم يكن فيليب الثاني المغرور بسلطانه ، المتعصب بصلابة الرأي يقبل ذلك العمل ، مع أن الحكمة كانت تقتضيه أن يعمل على استمالة هذه الولايات الغنية بدلا من تنفيرها بوسائل الغش والخداع وتسليط رجال الدين عليها التماساً لجعلها خاضعة له خضوعاً تاماً . فوسائل السلم قد نجحت في النهاية في الإبقاء على الولايات الجنوبية من الأراضي المنخفضة ( بلجيكا ) تابعة لأسبانيا ، تلك الوسائل التي رفض فيليب الثاني بادئ الأمر أن يستعين بها على استمالة هذه الولايات جميعاً .

كانت الولايات التسع عشرة من الناحية السياسية تكون إسمياً جزءاً من أملاك الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ومع أن الإمبراطور كان الحاكم لهذه الولايات إلا أنها كانت لا تتبعه إلا تعية إسمية ، وكان نفوذه فيها ضعيفاً للغاية ، لذلك كانت السياسة الأسبانية تنحى نحو تركيز سلطتها في هذه المنطقة . وكانت هذه ظاهرة من الظواهر السياسية في القرن السادس عشر ، وكانت الأراضي المنخفضة في أخذها بالمبادئ الاستقلالية وعدم وضوحها لسلطة موحدة إنما تمثل خروجاً على ما كان سائلاً في غرب أوروبا في ذلك العهد من القدرة على تجميع السلطة . ولكن حكام هذه الولايات مكسمليان وفيليب الأول وشارل الخامس وفيليب الثاني على التوالي قد أراد كل منهم أن يوحدوا ويجمعها تحت حكم واحد ، وظهرت الرغبة بين هذه الولايات بضرورة إيجاد

نوع من الوحدة بينها ، وقد كان هناك اتفاق شبه جماعي على ذلك ، فاستحدثت بعض المجالس المركزية ، وقد أثبتت صلاحيتها ومهارتها في العمل .

ونجى شارل الخامس بعد تجارب عديدة عام ١٥٣١ في إنشاء ما أسماه بمجلس الدولة 'Council of State' للإشراف على السياسة العامة للأراضي المنخفضة ، وإنشاء المجلس الخاص Private Council وكان بمثابة محكمة قضائية عليا تقضي في الخلافات القائمة بين الولايات المختلفة . كما أنشأ مجلساً مالياً Financial Council للإشراف على الأمور المالية للولايات السبع عشرة . كانت هذه المجالس تشبه المجالس السائدة في ذلك العصر في دول أوروبا المختلفة . وكان يتهم بأعبائها موظفون يعينهم الحاكم ( الملك ) ليحققوا له من أمور السلطان ما يريد ، وتميز أعضاء مجلس الدولة بأنهم كانوا يبقون في وظائفهم مدى الحياة . ونضيف إلى هذه المجالس مجلساً آخر نشأ في هذه الولايات عام ١٤٦٣ ، وكان يعرف بمجلس طبقات الأمة States General ، وقد أخذت المكرة والتسمية من فرنسا . لم يكن هذا المجلس من المجالس الأصلية في هذه الولايات ، وإنما كان في بداية الأمر عاملاً على تسهيل شئون الحكم وجمع الضرائب من الولايات المختلفة . كما لم يكن أعضاؤه منتخبين ولم يكن لهذا المجلس سلطان أو نفوذ ما ، فلم يكن حتماً على الولايات المختلفة أن تأخذ بقرارات هذا المجلس ، كما لم يكن أعضاؤه ممثلي الولايات وإنما كانوا مبعوثين منها وكان لا يؤخذ بقرارات هذا المجلس إلا إذا وافقت عليها السلطات المختلفة في الولايات جميعاً .

وكان هذا المجلس يختلف عن مجلس طبقات الأمة الفرنسي ، كما أنه يختلف اختلافاً جوهرياً عن البرلمان الإنجليزي ، فكانت جلساته عبارة عن مناقشات ومدالات بين سفراء هذه الولايات أو مندوبيها ، فن هنا لم يكن هذا المجلس إدارة حقيقية للحكم المركزي ، وتميز هذا المجلس بكثرة اجتماعاته ، وقد أصبح فيما بعد المكان الذي ظهرت فيه معارضة الولايات لسياسة ملك أسبانيا ، كما أخذت هذه المعارضة تقوى فيه تدريجياً .

وإذا أردنا التماس الحياة السياسية الحقبة لهذه الولايات ( الهولندية والبلجيكية ) فإننا لا نجد لها في المجالس المركزية وإنما نعر عليها في المجالس المحلية الإقليمية . فقد

كانت المجالس الوطنية المحلية قوية إلى حد أنها استطاعت أن تقاوم كل عدوان خارجي ، ولم يقع الاتحاد بين هذه الولايات إلا في حالات معدودة لمواجهة الأزمات الشديدة ، الأزمات التي كانت تهدد حياة هذه الولايات وكيانها . فتمثلت في المجالس المحلية الإقليمية بحياة سياسية قوية لا يمكن أن تقارن بها الحياة في أى بقعة من بقاع أوروبا في تلك الفترة . هكذا رأى « جرانت » الذى يقول « a political life incomparably more intense than any that was to be found in Europe at this epoch » . وتظهر قوة هذه الحياة السياسية المستقلة وأخذ هذه الولايات بمبادئ الحرية والاستقلال ما أعلنته هولندا بعد قرن ونصف قرن - مع العلم بأنها كانت تتكون من سبع ولايات تتحد في ديانتها ، ومصالحها التجارية وشعورها القوي - من أنه من حسن حظها وتوفيق إله إياها أنها لم تكن موحدة . فقد كان لكل ولاية حاكمها Stadhouder ولها مجالسها الخاصة . كما أن الولاية الواحدة لم تكن تكون وحدة متماسكة تماماً في نظمها بل كان للمدن مجالسها ونظمها الخاصة بها .

**الحياة الاقتصادية :** امتازت هذه الولايات بحياتها التجارية العظيمة ، فقد كانت مهداً للتطورات الاقتصادية والتجارية في هذه الحقبة التي أخذت فيها الأهمية التجارية لإيطاليا في الاندثار ، والتي لم تكن قد ظهرت فيها بعد الأهمية التجارية لانجلترا . وقد نتج عن ذلك إثراء هذه الولايات ، فكانت « أنتورب » Antwerp تتمتع بمركز هائز وسيطرة تجارية لم تعرفها من قبل أى مدينة من مدن أوروبا ، فأصبحت مركزاً مهماً في التعامل الدولي ، وفاقت كلا من « بروكس » Bruges و « غنت » Ghent في الثروة والتمتع بالحرية المطلقة في الاتصالات . وكان لنمو التجارة في المحيط الأطلسي أن أصبحت « أنتورب » تفوق مدن Flanders « الفاندر » في مركزها الممتاز بالنسبة للتعامل الدولي . وقد تأثرت كل من « بروكس » Bruges و « يبر » Ypres في الفلاندر بقيام الصناعات الصوفية في انجلترا .

ومع ذلك فقد كانت الأراضي المنخفضة أكبر وأعظم المصادر التي تسهم في إثراء أسبانيا . وكما كانت تجارة هذه الأقاليم مرتبطة ارتباطاً عظيماً بانجلترا في الفترة التي كان فيها فيليب الثاني يحكم إنجلترا مع زوجه ماري تيودور ( ١٥٥٤ - ١٥٥٨ ) ، وكان فيليب الثاني يقدر مدى أهمية مصادقة إنجلترا ، كما كان أبوه يقدرها من قبل وكان كذلك يترك الخسارة القادحة التي يمكن أن تحصل بأسبانيا إذا توقفت هذه

التجارة ، إدا كان في مقلور إنجلترا - إدا كانت على علاقة غير طيبة بأسبانيا - أن تقطع المواصلات البحرية بينها وبين الأراضي المنخفضة على حين أنه إدا كانت العلاقات علاقات صداقة فإن إنجلترا تحمي هذه المواصلات .

الناحية الدينية : كان فيليب الثاني كاثوليكياً مخلصاً في كاثوليكيته ، وكان الدين هو الاعتبار الأول الذي يوجه نحوه فيليب الثاني اهتمامه .

ولم تكن الحياة الدينية في الأراضي المنخفضة أقل أثراً من الحياة السياسية والتجارية بها ، إدا كانت مساوية الكنيسة واضحة ، وكانت من هذه الناحية لا تختلف كثيراً عنها في ألمانيا . وظهر «إرزمس» (١) في الأراضي المنخفضة في روتردام وهي مسقط رأسه ، وقام بنشاطه المبكر ، وكان لتعالجه الإنسانية أثرها العميق في توجيه الأذهان نحو الإصلاح ، فأدخلت كثير من التعديلات في نظم التربية ، وقد ساءل نمو الطاعة على نشر حركة الإصلاح .

أما في المجال الأدبي ، فقد كانت هذه الولايات تفتقر إلى لغة قومية . وبرغم أن اللغة الفلمنكية القديمة لا تزال معروفة ومستعملة إلا أن اللغة الفرنسية استطاعت أن تحتل مكانة ممتازة في عالمي السياسة والأدب ، لم يلتفت إلى الاحتفاظ باللاتينية كلعنة للثقافة في أي مكان في أوروبا كما كانت الحال في الأراضي المنخفضة ، فكان أرزمس يكتب غالباً باللاتينية . ومع أن نتاج الأراضي المنخفضة الأدنى لم يكن عظيمًا لأن نتاجها الفني قد عوضها عن هذا النقص ، إذ استمر فن التصوير في ازدهاره ، وكان لإيطاليا أثرها العظيم في إنعاش هذا الفن ، على أن النصف الثاني من القرن السادس عشر لم يكن عصر الازدهار في تاريخ الفن في الأراضي المنخفضة .

### ➤ الأراضي المنخفضة تحت حكم فيليب الثاني .

بسطت الامبراطورية نفوذها على الأراضي المنخفضة في عهد شارل الخامس ، ثم خلف غيليب الثاني أباه في حكم الأراضي المنخفضة (١٥٢٧ - ١٥٩٨) وكان الأمل عظيمًا في أن يسودها السلام ، إدا استقل الحكم الجديد بحماسة عظيمة . فقد انتهت الحروب الإيطالية بانتصار أسبانيا وتفوق قواتها على فرنسا . فأحررت قوات أسبانيا انتصارين عظيمين في نهاية هذه الحرب وهما انتصار سانت

كونتان ، St Quentin وانتصار « حرافلين » Cravelines وقد قام بهما الضباط والجنود الفلمنكيون بلور خطير ، فقد كان Emmanuel Philibert of Savoy حاكم الأراضي المنخفضة يومئذ يقود القوات الأسبانية في معركة St'Quentin بينما ساهم في هزيمة المعركة كذلك Count Egmont من الأراضي المنخفضة وقاد الجيوش في الانتصار الثاني في « حرافلين » Gravelines .

### الأراضي المنخفضة تحت حكم « مارجریت أوف بارما » (١٥٥٩-١٥٦٧) :

عيت « مارجریت أوف بارما » Margaret of parma حاكمة على الأراضي المنخفضة عقب عقد صلح Cateau-Cambrésis عام ١٥٥٩ . رهي ابنة غير شرعية لشارل الخامس ، وهي أم « اسكندر صاحب بارما » Alexander of Parma الذي سيقوم بدور هام في تاريخ هذه الولايات في نهاية ذلك القرن . كانت مارجریت فلمنكية الأصل ، قديرة في إدارتها مملوءة نشاطاً وحيوية ، تجيد لغة البلاد ، ولو تركها فيليب الثاني تحكم بمساعدة الفلمنكيين لنجحت ، ولو كان حكمها حكماً مرضياً عنه . ولكن لم تترك لها حرية التصرف ، فكان فيليب الثاني يصدر إليها أوامر سرية باضطهاد المخالفين للعقيدة الكاثوليكية ، كما عين فيليب الكاردينال « جرانفيللا » Granvella رئيساً للمجلس . وكان فيليب الثاني على اتصال دائم به على عليه سياسته .

وبدأت الصعوبات تظهر بسرعة في وجه الحاكم الجديد . ذلك لأن الحرب التي اشتركت فيها أسبانيا المعروفة « بالحروب الإيطالية » قد كلفتها أموالاً طائلة ، وجعلت حكومتها مشرفة على الإفلاس مما جعل فيليب الثاني يطلب من الولايات أن تدفع أكثر مما كانت تراه ، كما أنه أراد أن يترك بعضاً من جنده في أراضيها . وكان يرى من وراء ذلك إلى التخفيف عن أسبانيا بعض أعبائها الاقتصادية ، وجعل هؤلاء الجنود عوناً للحكومة إذا وجدت أي مقاومة وطنية . وقد كانت المعارضة قوية ضد هذين الإجراءين لدرجة أن فيليب الثاني وعد بسحب القوات وبتخفيض المبالغ التي أراد جمعها من سكان هذه الولايات . ولكن لم يلبث الأمر طويلاً حتى نشأت مشكلة جديدة ذلك عندما ظهرت الحاجة إلى إعادة تنظيم الأسقفيات في الأراضي المنخفضة ، كانت حالتها في حاجة إلى تغيير اقتضاه أمران :



أولهما : أن توزيع الأسقفيات لم يكن يتفق مع الوحدات السياسية :

وثانيهما : تبعية هذه الأسقفيات لرئيس أساقفة « كولونيا » Cologne

و « ريمس » Reims .

وإذا كانت الولايات قد رحبت بإعادة تنظيم الأسقفيات وإصلاح الأوضاع المتعاقمة بتبعيةها ، إلا أنها لم ترحب بمسلك أسايا في الإصلاح ذلك لأن ملك أسانيا كان يريد أن يجعل من حقه في تعيين الأساقفة الحدود وسيلة لتحويلهم إلى أعوان حاضعين لاسبانيا ، فيراقبون بالتالي الأهالي مراقبة دقيقة ، وينشئون في أراضيهم ما يماثل محاكم التفتيش .

وقد رأس حركة مقاومة الحكم الإسباني ممثلاً في الكريديال « حرازيللا » شحبيتان مختلفان عن بعضهما تمام الاختلاف ، فعمل على إقصائه من منصبه الرفيع في الأراضي المنخفضة ، وهما الكونت « إجمونت » Count Egmont و « أمير أورنج » Prince of Orange وكان « إجمونت » يملك صياعاً واسعة ، وقد قاد جيوش أسايا بشجاعة فائقة ، وأظهر تفوقاً عظيماً في كل من موقعي St. Quentin ، Gravelines ، كان كريماً ، محبوباً ، صريحاً ، ولكنه اتصف بالغرور :

أما « وليم أورنج » William of Orange المعروف في التاريخ « بالصامت » The silent فكان ينتسب إلى ولاية « أورنج » Orange على نهر الرون ، ويحكم « هولندا » Holland و « زيلندا » Zeeland ، و « يوترخت » Utrecht ، كما كان بالإضافة إلى ذلك على علاقات وثيقة بألمانيا حيث كان يمتلك بعض الأراضي ، وكان مقرباً من شارل الخامس الذي استعان به عندما تنازل عن لقيه الامبراطوري وعن أملاكه . وكان وليم أورنج لوثرانيا ، ولكنه تربى على المذهب الكاثوليكي . ولم يلبث أن تحول إلى الكالفينية . اتصف بشانه وشجاعته ، وكبريائه وهي كبرياء لم تحل من العطف . كان هذا الأرستقراطي العظيم يحقد على وجود القوات الأسانية بلاده ، كما كان يشفق على أولئك الذين وقعوا تحت طغيان أسبانيا وقسوتها . فقام - بما اتصف به من مزايا عسكرية وتمسك بالمدأ ، وسيطرة تامة على الشؤون الدبلوماسية - بقيادة

الشعب القلمسكى في مطالبه للتخلص من النير الأسبانى ، وقد أخذ عليه بعض النقاد أموراً منها أنه كان أول أمره من الموالين للحكم الأسبانى ثم انقلب ثائراً عليه ، وكان كاثوليكياً ثم أصبح لوثيرياً ثم كلفياً . وإقراراً للحق أن الرجل من عشاق الحرية ومن المؤمنين بها فعلم على سيادتها ، وكان يبغيض التعصب فأضحى مصيره القتل كمصير صديقه « احموت » Egmont ، وهو يعد من أبطال الحرية العظام ، في أوروبا .

ناصل حزب المعارضة كى يقضى على حكومة الأراضي المنخفضة وقد أثار ذلك فيليب الثانى لدرجة عظيمة . ولكنه وجد أنه من الضروري أن يرضخ للأمر الواقع ، وأن يحنى رأسه بعض الوقت للعاصفة . فاستعد « جرافيللا » Granvella عام ١٥٦٤ ، وتحقق بذلك أحد مطالب المعارضة . وقد طلت عندئذ مارحريت أنه في استطاعتها أن تحكم — بعد إقصائه — بالعدل وأن تصلح من شئون الأراضي المنخفضة . ولكن كانت المقاومة في هذه الآونة قد انتقلت إلى دائرة أوسع وظهرت فيها روح جديدة . ويرجع ذلك التطور إلى أن المذهب الكفى بدأ يتوغل داخل الأراضي المنخفضة متخذاً طابعاً ثورياً مليئاً بالتعصب . ووحدت تعاليم المذهب الجديد ترحيباً لدى كثير من النفوس نظراً لأنها كانت مكتوبة بالفرنسية مما جعلها مفهومة لدى العالوية العظمى من السكان ، كما أنها كانت تنادى بالحكم الذاتي المستقل وتؤيد مقاومة الحكام الذين يصطهدون الأفراد . لذلك انسجمت هذه التعاليم مع حركة المقاومة التي كانت قائمة في الأراضي المنخفضة ضد أسايا .

ولم يكن عزل حرافيللا ليثنى فيليب الثانى عن عزمه في المضى في سياسته فقد أخذت محاكم التفتيش تعمل بعنف ، كما أخذت قوانين الاضطهاد Placards تنفذ بدقة . وراح عليها فيليب الثانى بأن فرص على سكان الأراضي المنخفضة أن يوافقوا على مبادئ مجلس « ترانت » Trent (١) عندئذ قدم الثرون بليرار من ونيم أوريج احتجاجاً على هذا الاضطهاد . وسلمه Egmont بيده للملك في يناير ١٥٦٥ .

ولما لم يجد هذا الاحتجاج اشتد هياج النفوس ، وأخذت فئة من صغار النبلاء ومهم « مريكس » Marnix الكلفى ، و Brederode الكاثوليكى تقاوم بعنف محاكم التفتيش ، وفي ابريل ١٥٦٦ قتلوا التماساً إلى الحاكم وعرفوا عندئذ بالمسولين Gueux تسمية لحقت بهم كذلك التي لحقت بروتستنت فرنسا بالهيجونوت Huguenots

ولما لم يجد الاحتجاج ، بلغ الهياج أشده في الأراضي المنخفضة في هذه الفترة إذ امتنعت الحكومة عن إيقاف العمل بالاضطهادات الشنيعة وإيقاف أعمال محاكم التفتيش . وانتشرت العوضى فعمت الأراضي المنخفضة . ومع أن أعضاء المذهب الكلفني كانوا قلة إلا أنهم استطاعوا بمساعدة السلطات المحلية السلبية في موقفها أن يبادوا في تحريضهم وهياجهم والإحلال بالأمن . فأعدت أماكن لإقامة شعائر كلفن علناً ، وأخذ الثوار في تخريب الكنائس الكاثوليكية للدرجة أنارت كلا من « وليم أورنج » و « كونت اجموت » مهاجم الثوار بين ما هاجموا كنيسة « انتورب » Antwerp الغنية بمحلفاتها الغنية التي ترجع إلى العصور الوسطى .

أثارت كل هذه الاعتداءات فيليب الثاني إثارة عظيمة ، ولكنه تروث فلم يظهر نوابه مباشرة . ولا عرانة في ذلك فإنه لم يتصف بالصراحة ولا بالذكاء كما خلا من الإنسانية ، فلم يلبث أن ضرب ضربته القاضية عندما أرسل جيشاً مكوناً من ١٨,٠٠٠ مقاتل من الأسبانيين والإيطاليين وعلى رأسهم دوق ألفا Aiva عام ١٥٦٧ ، فلم يرق ذلك مرحريت . فاعتزل الحكم ، وحل محلها دوق ألفا ، فأصبح حاكماً عاماً على الأراضي المنخفضة (١٥٦٧ - ١٥٧٣) . أراد أن يطق في الأراضي المنخفضة سائر النظم المتبعة في أسبانيا وأن يخضعها إخضاعاً تاماً ، هادفاً بذلك إلى تثبيت مكانه في بلاط فيليب الثاني ، إذ كان مركزه مزعراً في أسبانيا ، فخطر له أن من وسائل ذلك التغلب على خصوم أسبانيا في الأراضي المنخفضة ، لذلك لم يتوان لحظة ولحظة في تنفيذ خطة إرهابية للسيطرة على الموقف ، فقصص على كل من « كونت هورن » Horn Admiral Count و « كونت احمونت » Count Egmont وأودعهما السجن (وكانا كاثوليكين) بعد أن نصح إليهما من قبل وليم أورنج بمعادرة البلاد إلى مكان أمين بعض الوقت وذلك حين فطن إلى نوايا فيليب ولكهما كانا مغمشين كل الاطمئنان لدوق ألفا ، ولذلك لم يبارحا البلاد بيما فضل وليم أورنج أن ينسحب إلى أملاكه في ألمانيا حتى تزول ساعة الخطر .

وأنشأ دوق Aiva مجلس الدم ، الذي استحق هذه التسمية بسبب ضحاياه العديدة ثم أدين كل من « هورن » Horn و « احمونت » Egmont وحكم عليهما بالموت لتأمرهما على ملك أسبانيا . ولم يشفع لهما مركزهما الرفيع في الدولة ولا أصلهما

الارستقراطي ولا الخدمات الجليلة التي قدمها لبلدهما ؛ فقد أعدما في ميدان السوق في بروكسل في ٥ يونيو ١٥٦٨ .

واستمر « ألفا » يعمل على تنفيذ سياسته الفادرة ست سوات ، أحرز في بدايتها بعض النجاح . فحكم بالموت عن طريق مجلس الدم على حوالي ١٨٠٠ نفس من الثوار والمارقين . وساهمت في النهاية عوامل عدة لم تكن في الحسان في فشله في مهمته منها :

(١) المقاومة الشديدة العنيفة الصداقة التي واجهها من شخص التفت حوله قلوب سكان الأراضي المنخفضة وعقدت عليه أمانها وهو الأمير أورنج ، وقد حكم عليه مجلس الدم بالموت عيائياً أثناء وجوده في ألمانيا . وقد نشر عندئذ مقالا وهو بعيد عن بلاده بعنوان « التبرير » هاجم فيه طغيان فيليب وطمحه مهاجمة سافرة كما أنه لم يقع في داره بل شن غارات مختلفة على الأراضي المنخفضة ومع أن قواته كانت أقل عدداً وتنظيماً من قوات « ألفا » وهزمت أكثر من مرة إلا أنها قد كلفت « ألفا » نفقات باهظة .

في تلك الأثناء اعتنق أمير أورنج الكلمة ، وأظهر إخلاصاً عميقاً لها ، كما تميز بروح تسامح دينية غير عادية ، بل وغير مألوقة في ذلك العهد . سمح في أن يهاجم جيش Alva وينزل به خسائر كثيرة وإن كان الانتصار في النهاية لدوق ألفا . ثم جمع جيشاً جعل قيادته لأخيه « لويس ناسو » Louis of Nassau . وقد نجح هذا القائد في بادئ الأمر فأحرز بعض الانتصارات في « فريزلاند » Friesland وكان يأمل في الحصول على معونة الهيجونوت . ولكن ألفا بادر بمواجهة قواته في « ييمسجن » Jemingen فاضطرت قوات « لويس ناسو » غير المدربة إلى الفرار أمام المحاربين المدربين من الأسبان في ٢٢ يوليو ١٥٦٨ ، ونجح ناسو في الفرار ولكن لم يستطع غالبية حنده ذلك ، ولم يقتل من المحاربين الأسبان في المعركة أكثر من سبعة وكان واضحاً من ذلك مدى عجز الأراضي المنخفضة عن بيل استقلالها والمضي في مقاومتها .

على أن ذلك لم يثن أورنج عن عزمه وتصميمه ؛ ففي سبتمبر ١٥٦٨ دخل ولاية « برabant » Brabant ونارل قوات ألفا التي رفضت مواجعتها ، ومع ذلك فقد برلت بقواته خسائر فادحة ؛ فاضطر إلى أن يعود من حيث أتى بعد شهر دون أن يسجج في تحقيق أى نتائج حاسمة .

وانتصر « ألفا » من جديد ، واشتدت وطأة قسوته واضطهاداته مما جعله يقيم في « انفرس » تمثالا ضخماً لنفسه احتفالاً بهذه المناسبة : « لأنه أخذ الثورة ، وعاقب المتمردين ، وثبت العقيدة ، وضمن العدالة ، ووطد السلام » .

على أن إجراءات ألفا الوحشية فشلت في أن تحقق انتصاراً شاملاً ، وكان ألفا في نهاية عام ١٥٦٩ يفخر بأنه قد قضى على الهرطقة وأخضع الولايات ، ويرى أنه لم يعد أمامه سوى أن ينفذ بقية خطته الخاصة بجعل الولايات تكفر عما تسببت فيه من اضطرابات وتساهم بدرجة كبيرة في تنمية الموارد الملكية في المستقبل لتنفيذ ما أراد .

(٢) العامل الثاني هو فرض ضرائب جديدة ، وهنا أثبت « ألفا » أنه قليل الدراية بالشئون المالية إذ غاب عنه أن هذه الضرائب التي فرضها على بعض السلع الهامة من شأنها أن تعوق التجارة ، ولا تحقق الغرض الذي من أجله فرضها وهو زيادة موارد الدولة . كما أثبت قصر نظره وعدم حكمة عندما أثار الجميع ضده الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء ، فالتحدوا جميعاً عند المساس بمصالحهم التجارية ، هذا مع العلم بأن الكاثوليك كانوا قد أيدوا من قبل إجراءات « ألفا » التسمية للقضاء على أعداء الكاثوليكية ولكنهم لم يلبثوا أن رفعوا صده راية العصيان ، فاشتدت المعارضة في مدريد وفي الأراضي المنخفضة ، وركدت التجارة وأغلقت التجار محالهم معضلين ذلك على تأدية للمضرائب المطلوبة . وامتألت نفوس الغالبية العظمى من الشعب بالاستياء العام والكراهية البالغة نحاه شخص « ألفا » als البغيض .

(٣) أما العامل الثالث فهو جهود الثائرين في البحر :

في هذا الجو المشحون بالاستياء والغضب كان من السهل إثارة الشعب ودفعه إلى مقاومة هذا الحكم الغاشم . وفر فريق من سكان الأراضي المنخفضة أمام الاضطهاد والخوف من الخضوع لسلطان دوق ألفا ، وكانوا من هواة ركوب البحر ، فاشتغلوا بالقرصة في القناة الإنجليزية ، وأخلوا يشنون الحرب باسم « وليم أورنج » ضد دوق ألفا ، وتميزت عملياتهم بالشجاعة والجوراء فتسببوا في إنزال خسائر جمة بالسفن الأسبانية ، كما وحدوا في إنجلترا سوقاً رائجة لأسلحتهم . وفي بداية عام ١٥٧٢ احتج ألفا لدى اليزابث على إيوائها أولئك البحارة الذين اعتادوا الإقامة في بعض غفور جنوب إنجلترا . ولم ترغب اليزابث في إثارة الأسبانيين عليها فأرسلت أوامرها إلى قراصنة

الأراضي المنخفضة تعلن حرمانهم من المؤن . فلما قسى عليهم الجوع غادرت ابلجوترا سفنهم الأربع والعشرون تحت قيادة النيل الفلمنكى « وليام دلامارك » de la Marck William قاصدة الاعارة على الأراضي المنخفضة ، مدفعت الريح هذه السمن صوب مدخل نهر « الموز » Meuse فأصحت في مواجهة مدينة « بريل » Brill . هنالك خطر لم - وكان عددهم لا يجاوز خمسين ومائتي رجل - أن يحتلوا مدينة « بريل » فبعثوا إلى من فيها رسالة يطلبون إليهم تسليم المدينة ، ولم يكن القراصنة يتوقعون وراء رسالتهم تلك سوى التهديد وإثارة الرعب ولكن وقع بسبب هذه الرسالة أثر لم يحظر على نال . فهي لم تكذب تلغفهم حتى نشرت الرعب بين المواطنين والحكام على حد سواء فمروا تاركين مدينتهم الحصينة لقمة سائغة لمن كان يسميهم أعداؤهم عدلئذ متسولي الحر Water Beggers فاستولوا على هذه المدينة باسم « الأمير أورانج » .

أثر سقوط « بريل »

لما فشل الأسبانيون في تخليص « بريل » Brill من أيدي القراصنة ملأت الشجاعة قلوب أهالي الأراضي المنخفضة ودفعتهم إلى المضي في مقاومتهم الباسلة لتخليص سائر المواقع من النفوذ الأسباني ، كما شجعت ولیم أورنج على المضي في قيادة الحركة ، فلم تلت « فلاشخ » Flushing أن خلصت نفسها من الحكم الأسباني ، وحدث حلوها المدن الرئيسية في « هولندا » Holland « وزيلاندا » Zeeland وكثير من المدن في جيلدرلاند Gelderland وفي « أوفرسل » Overijssel وفي « فريزلاند » Freesland . وهكذا لم ينته عام ١٥٧٢ إلا وكادت نسبة كبيرة من سكان الأراضي المنخفضة في ثورة عارمة على سلطان دوق « ألبا » .

أدت الخلافات بين الولايات الكاثوليكية والبروتستنتية إلى نقص « صلح حنت (١) » ١٥٧٦ . عندما اتحدت الولايات الوالونية الكاثوليكية في الجنوب بمقتضى اتفاق مفصل يعرف باتحاد « آراس » Arras الكاثوليكي في يناير ١٥٧٩ بينما قبل ولیم أورنج على مصمص أن يرصخ للأمر الواقع ، وأن يترك جاباً آماله بخصوص توحيد الأراضي المنخفضة كلها تحت راية واحدة ، وأن يقبل تشكيل اتحاد « يوترخت » Utrecht ، ثم عام ١٥٧٩ بعد بضعة أيام من عقد اتحاد آراس . وهنا انحصرت مهسة ولیم أورنج في حماية معتنى العقيدة الكلفنية بالولايات الشمالية وكان هؤلاء

(١) صلح حنت ١٥٧٦ ترتب على تأخير دفع مرمات الحد الأسبان ثورهم وقيامهم بسلة من أعمال السلب كان نصيب أتورب مهاكيرا أدى ذلك الفص والاسياء من هذا الاعتداء الوحش إلى جمع سمل ولايات الأراضي المنخفضة . فانهروليم أورنج الفرصة ، وعقدما يعرف بمصلح حنت Ghent في نوفمبر ١٥٧٦ ، وفيه اتحد الشمال الهولندي مع الجنوب الولندي على مواجهة الخطر الأسباني المشترك متعاضين من حلافتهم الدينية

على أتم استعداد للتصحيح بكل شيء في سبيل عقيدتهم وكان اتحاد يوترخت يتكون من «زيلندا Zceland» و«يوتريخت Utrecht» ، و«جلدرلاند Gelderland» و«أوفريسال Overysse» و«فريزلاند Friesland» و«بروينجن Broningen» و«هولندا Houand» و«هولندا الحديثة» أو هولندا الحديثة .

وعقد اتحاد آراس المكون من عشرة الولايات الأخرى صاحبه مع أسانيا ، وتبين عندئذ لليب الثاني ملك أسانيا عدم جدوى محاولة ضم الأراضي المنخفضة جميعاً وجعلها تابعة لأسانيا ، إذ أثبت أهالي الولايات الجنوبية إرتباطهم بأسانيا وبقبولهم إياها حاكماً عليهم لعامل أسامى يرتبط بالعقيدة الدينية ألا وهي الكاثوليكية ، ومن ثم أصبح الصراع في الأراضي المنخفضة صراعاً دينياً .

وبذلك وصح ولیم أورنج نواة تلك الدولة التي كان مقدرها أن تسود البحار دهرأ وأن تنشئ إمبراطورية عظيمة في الشرق ، وأن تصارع الحرية الانجليزية والجيوش الفرنسية ، وأن تستحق اعتراف الإنسانية بجميلها كمصدر هام لحرية الفكر ووطن للمدرسة عظيمة من الرسامين كان لهم أثرهم القوي في حضارة أوروبا .

على أن المكافأة التي أعلنت لمن يعتال «ولیم أورنج» قد أثمرت عندما وقعت محاولة اغتياله في عام ١٥٨٢ ، ولكنه نجا منها ، على أنه لم يبع في المرة الثانية من يد كاثوليكي متعصب يدعى «بلترار جيرار Balthasar Gerard» . وقع ذلك في ديفت Deft في يوليو عام ١٥٨٤ . وكان قائد الكفاح يباع من العمر واحداً وخمسين عاماً .

ويعتبر ولیم أورنج بحق مؤسس هولندا الحديثة ، التي تم الاعتراف بها رسمياً بعد صراع طويل متقطع في صلح «مونستر Munster» عام ١٦٤٨ ، عندما أعلنت أسانيا استقلال «المقاطعات المتحدة الشمالية» التي وضع ولیم أورنج الركيزة الأولى لها في اتحاد يوتريخت عام ١٥٧٩ . كما نص الصلح على منح الهولنديين حرية التجارة في المهد الشرقية والغربية . وقد كان هذا الصلح بين أسانيا وهولندا ضربة قاصمة لفران ، إذ كان الفرنسيون يأملون في ضم الفلنדרز إلى بلادهم . ولكن هذه المعاهدة على أي حال أثبتت أن أسبانيا قد قضى عليها كدولة لها سيطرتها في أوروبا .





## الباب الثاني

أوروبا في القرن السابع عشر



## أوروبا في القرن السابع عشر

لو استعرضنا تاريخ أوروبا في القرن السابع عشر لو جدنا أنه في الوقت الذي أخذت فيه ملكية البوربون في فرنسا تعمل على تركيز السلطة في يدها بحيث أصبح ملوكها يحكمون دون منازع : كانت ملكية استيوارت في إنجلترا في صراع مرير ضد البرلمان الذي كان يدافع عن حقوقه وامتيازاته . وكانت الغلبة له في النهاية . وهكذا نجد أنه في الوقت الذي انجهت فيه الملكية في فرنسا انحأها استبدادياً أى نحو الحكم المطلق تنجبه الملكية في إنجلترا نحو الحكم الديمقراطي فتسودها ملكية مقيدة . وليس من شك في أن الظروف التي أحاطت بكل من الدولتين والعوامل الجغرافية الخاصة بكل منها قد فرقت بين اتجاهاتهما .

أما ألمانيا فقد أصبحت في القرن السابع عشر كما كانت إيطاليا في القرن السادس عشر مسرحاً لحرب طويلة مدمرة دامت ثلاثين عاماً ، كانت عند نشأتها دينية أهلية ، لم تلبث أن تغيرت في طابعها بحيث لم تعد دينية أهلية ، تلك هي حرب الثلاثين عاماً التي كان مسرح أحداثها ألمانيا نفسها فأحدثت بها ضرراً بليغاً لا يمكن إغفاله ، مما عوق ألمانيا عن ركب الحضارة مدة قرنين من الزمن .

شاهد منتصف ذلك القرن كذلك مولد دولة جديدة هي الأراضي المنخفضة الشمالية التي أصبحت تعرف بهولندا (١) ، والتي أدهشت العالم بنشاطها التجارى والاستعماري .

فرنسا في القرن السابع عشر ( ١٥٩٤ - ١٧١٥ ) :

يبدأ عهد أسرة البوربون باعتلاء هنرى الرابع عرش فرنسا عام ١٥٩٤ ،

(١) انظر ثورة الأراضي المنخفضة واستقلال هولندا من ص ١٤١ - ١٥٣

- ١٦٦ -

وسنوضح فيما يلي الصعوبات التي اعترضت طريقه إلى عرش فرنسا ، وكيف استطاع أن يتغلب عليها .

ثم نتكلم عن عصر الوزراء العظام ( ١٦٢٤ - ١٦٦١ ) موضحين الجهود التي بذلها كل من ريشيلير ( ١٦٢٤ - ١٦٤٢ ) ومزان ( ١٦٤٣ - ١٦٦١ ) لإعلاء شأن ملكية البوربون .

ونختتم في النهاية حديثنا عن أسرة البوربون في القرن السابع عشر عند عصر لويس الرابع عشر ( ١٦٦١ - ١٧١٥ ) .



## الفصل الأول

هنرى الرابع مؤسس أسرة البوربون

( ١٥٩٤ - ١٦١٠ )

هنرى « نافار » :

اشتهر أمر هنرى نافار Navarre فى نهاية الحروب الدينية فى فرنسا (١٥٦٠ - ١٥٩٨) . كان زعيماً من زعماء الهيجونوت ، وآلت إليه ولاية العهد لعرش فرنسا فى عام ١٥٨٤ بعد موت أخى الملك هنرى الثالث وولى عهد العرش ، وكان يدعى « دوق دانسون » Duke d'Alencon ، ذلك لأن فرع البوربون كان يلى فرع الغالوا فى أحقيته فى عرش فرنسا ، كما كان هنرى نافار متزوجاً من مرجريت أخت الملك هنرى الثالث من أسرة الغالوا الحاكمة . ولو كان هنرى كاثوليكياً لما كانت هنالك أى موانع لولايته العهد ، ولكنه كان من أشد أنصار البروتستنتية بل كان زعيماً للبروتستنت منذ وفاة كل من «كونديه» Condé و«كولينى» Coligny وكان أعطباء الاتحاد الكاثوليكي - الذى كان يسيطر على شئون فرنسا من ١٥٧٦ - ١٥٩٤ ، وتأييده أسبانيا حاميته - يفضلون قيام جمهورية فى فرنسا على تولية هنرى نافار الحكم ، ولما قتل هنرى الثالث على يد «جالكليمان» Jacques Clément فى عام ١٥٨٩ أصبح هنرى الحق فى أن يعتلى عرش فرنسا ، ولكن كان عليه أن يغزو باريس التى كانت تحتلها الجنود الأسبانية لكى يصل إلى العرش الفرنسى . ولم يكن ذلك الغزو أمراً هيناً ، لأن هنرى نافار كان قد فقد ثقة الكثيرين من أتباعه الهيجونوت بسبب ما تردد عندئذ من شائعات عن احتمال تغيير هنرى نافار لعقيدته ، كما أن أعضاء الحزب الكاثوليكي أرادوا إنقاذ العرش من ملك بروتستنتي فأعلنوا دوق بوربون من ذوى قربى هنرى ملكاً على فرنسا .

### معركة ايفرى Ivry عام ١٥٩٠ :

لم يتبن هنرى نافر - وسط هذه الظروف المطلمة التى دكرنا - أملاً كبيراً إلا فى الاستنجاد بمعوية إنجلترا ، إذ كانت الزباث عندئذ فى حرب صريحة مع فيليب الثانى ، فلم يكن غريباً أن تباذر بنجدته ، فقد بعثت إليه بقوة من خمسة آلاف مقاتل ( ٥٠٠٠ ) من الإنجليز والاسكتلنديين ، على أن هنرى نافر ظفر بالنصر على قوات الحلف الكاثوليكي التى كان يقودها « ماين » Mayenne فى موقعة « اركس » Arques فى ٢١ سبتمبر ١٥٨٩ قبل وصول النجدة التى كان ينتظرها ، فلما بلغته تقدمها مع بقية الجيوش نحو باريس ، وكان الأمل عظيماً فى أن يكون لعامل المفاجأة أثره ، فى إسقاط العاصمة الفرنسية ، ولكن خبر الغزو المتوقع وصلها فى الوقت المناسب . هنالك تحول بقواته نحو نورمانديا لتخليصها من جيوش الحلف ، بطراً لأهمية المقاطعة فى الاتصال المباشر مع إنجلترا وإمداداتها . فحاصرت هذه القوات « درو » Dreux ، وتطراً لأهميتها بادر « ماين » بنجدتها وعند التحام الطرفين على مقربة من هذا الموقع ظفر بالنصر فى معركة « ايفرى » Ivry فى مارس ١٥٩٠ .

كانت « ايفرى » من المواقع الحاسمة فى تاريخ هنرى نافر ، ويرجع الانتصار فيها إلى تفوق فرق المشاة بجيشه ، كما أن هنرى كقائد لفرق الفرسان قد اتبع طريقة ألمانية جديدة فى القتال كان لها أثرها فى انتصاره فى هذه الموقعة . وكان لهذا الانتصار كذلك أثره فى ارباد شعبية هنرى وتردد ما يشبه الأساطير حول اسمه ، فأخذ الجميع يشيدون بشجاعته ، وإنسانيته ، وتسامحه ، وتفوقه فى ميادين القتال . وقد عفا عن الفرنسيين الذين وقعوا فى قبضة يده ، ولكنه لم يتوان فى قتل الألمان الذين انضموا لأعدائه بعد أن كانوا يعملون ضمن صفوفه ، وكثيراً ما أظهر عطفه على فقراء الفرنسيين . كل هذه الصفات الحميدة علقت باسمه وجعلته أكثر ملوك فرنسا شعبية . وقد كان فى الواقع يتمتع بكافة هذه الصفات الحميدة .

كانت موقعة « ايفرى » حاسمة للدرجة أنه كان من الواضح أن باريس لن تلبث أن تخضع هنرى ، إذا ما بادر بالتقدم نحوها ، وقد توقفت أسباب تأخره فى إنجاز هذا الأمر كما اختلف المؤرخون فيها . واتضح أن السبب الرئيسى أنه لم يكن فى استطاعة جيشه بعد هذه الانتصارات أن يقوم بهجوم سريع على باريس ، فلم تتقدم

القوات لمحاصرة باريس إلا في مايو ١٥٩٠ . وكان أعوان الحلف الكاثوليكي يختلفون فيما بينهم وكان لاختلافهم يومئذ دوى ، ولكن الحصار أسكتهم بعض الوقت . وقد كان المعروف أن برلمان باريس لا يرضى الاعتراف بأى قوة أجنبية ولو كان مصدرها البابا أو أسبانيا الكاثوليكية . ولكن عندما هاجم هنرى نافار باريس كان السفيران الأسباني والبابوي يتمتعان بفضو عظيم . وقد أخذت جماعة الجزويت والوعاظ يثيرون حماس الشعب الدينى . كان انتصار هنرى يسدو يومئذ أمراً محققاً ؛ فقد انتشرت المجاعة في المدينة ومعها انتشر الوباء . وكانت باريس في حالة أسوأ بكثير مما كانت عليه عندما حاصرها هنرى الثالث أثناء الحروب الدينية . ولكن الداريسيين كانوا يعرفون أن استسلامهم معناه تصيب ملك من الهيجونوت عليهم .

لم يلبث هنرى نافار أن فقد هذه الفرصة المريدة للاستيلاء على باريس عندما تقدمت القوات الأسبانية وعلى رأسها دوق « بارما » Parma من الأراضي المحصنة ، ذلك لأن قضية الحلف الكاثوليكي كانت في الوقت نفسه قضية ملك أسبانيا فيليب الثاني ؛ فقد كان انتصار هنرى نافار وسيطرته على الموقف في فرنسا معناه فقدان فيليب الثاني لأطماعه فيها وربطها بمجلة السياسة الأسبانية . وقد استطاع دوق « بارما » أن يقصد باريس من الحصار وكانت هذه العملية الحربية آتت قادها من أبرع ما شاهدهته الاستراتيجية ، وقد كشفت عن مدى تفوق قيادة دوق بارما للقوات الأسبانية ؛ فاستولى دوق بارما على « لانيي » Legny ، وأرسل إلى باريس بعض المسؤن والدخائر ، وتحدى هنرى عندما أبى أن يواجهه في قتال ، فعاد عندئذ أدراجه إلى الأراضي المنخفضة .

وبحث بذلك باريس من الحصار . ولكن بعد الخطر عنها جعل الانقسام يعود إلى صفوف الحلف الكاثوليكي من حديد بسبب خلو عرش فرنسا بموت الكاردينال « بوربون » أثناء حصار باريس بعد أن نودى به ليشغله ، وأصبح الموقف يحتم اختيار ترشيح حديد للعرش الفرنسى . وكان أمر ذلك ليس بالشئ اليسير ؛ فهنا فيليب يرى الفرصة سانحة فيتطلع إلى العرش الفرنسى ، ومستنداً في ذلك على أن صليبه يحميه ، وخطره في سعيه هذا أن يجعل من نفسه حامياً لفرنسا Pretector of France ، وقاوم غالبية الفرنسيين تلك الأطماع نظراً لأن تحقيقها معناه تحويل فرنسا إلى التسمية لأسبانيا . وانقسم أعضاء الحلف على أنفسهم عندما ظهرت مطاعم البعض في العرش . ( م ١١ - تاريخ أوروبا الحديث )

على أن مركز هنرى نافار كان مليئاً بالصعوبات . فهو يدين البروتستنتية ، ولذلك لجأ إليه الكثيرون من مؤيديه من الكاثوليك يذكرونه بوعده ، ويحثونه على التحول إلى الكاثوليكية ، بينما أصدر البابا قراراً ينفر الكاثوليك منه ، ويدعوهم إلى الانفضاض من حوله . كما بدأ الهيجونوت يشكون في نواياه وإخلاصه لهم ، ولا سيما بعد أن وصلت إليهم أخبار احتمال تحوله عن عقيدتهم . كما أعلنت جامعة السوربون أنه لن يتمكن من اعتلاء عرش فرنسا حتى ولو تحول إلى الكاثوليكية .

كان عليه عندئذ أن يعتمد على المساعدة الأجنبية مرة أخرى ، وآية ذلك أن أرسلت له إليزابيث معونة من المال مع ستة آلاف مقاتل ٦,٠٠٠ ، كما جاء لئجده من ألمانيا ١٢,٠٠٠ جندي .

فاز هنرى نافار بمجموعة من الانتصارات فسقطت في يده « شارتر » Chartres و « نويون » Noyon ، واتبع ذلك بمحاصرة « روان » Rouen ، ولموقعها أهمية كبرى ، لأنه لو سيطر عليها لأصبح من السهل عليه الاستيلاء على باريس ، ولأنه أن يكون على اتصال مباشر بإنجلترا . ولم يكن بين أفراد جيشه البالغ عددهم يومئذ ٤٠,٠٠٠ سوى ٨٠٠٠ من الفرنسيين ، وضم الجيش فوق ما ذكرنا ٤,٠٠٠ من الجنود البريطانيين تحت قيادة « اسكس » . ووجد هنرى في قيادة القوات الأجنبية كل ما كان ينتظره من طاعة وتوفيق . وبدأ سقوط « روان » محققاً عندما اعترض دوق بارما من جديد طريق هنرى . على أن الأول ما لبث حتى عاد إلى الأراضي المسخضة دون أن يحقق ما كان يأمل أعضاء الحلف الكاثوليكي من معاونته في المستقبل ، إذ كانت هذه آخر معاركه فقد مات في ديسمبر ١٥٩١ .

#### هنرى نافار يصبح الملك هنرى الرابع :

من كل مامر بنا يتضح أن أساحة الحرب وحدها لن تبليع بهنرى عرش فرنسا . ولو أنه تحول إلى العقيدة الكاثوليكية لبلغ ما أراد في سهولة ويسر . فلم يكن خافياً يومئذ ما كان يهدد استقلال بلاده وسلامتها من أخطار . ولن يكون عجباً أن تنتقل أهمية الأمور من ميدان الحرب إلى ميدان السياسة على الرغم من استمرار القتال . بات ما يشغل الأذهان أمراً واحداً ، وهو هل يتحول



هنرى من عقيدته البروتستنتية إلى الكاثوليكية ؟ لم يلبث أمر ذلك أن وضع ، فيها هو هنرى يعلن كاثوليكيته في كنيسة « سانت دينس » St. Denis في ٢٥ يولييه ١٥٩٣ . ثم يتوج بعد ذلك بقليل عام ١٥٩٤ في كنيسة « شارتر » Chartres ، لكنما كان أثر تحوله إلى الكاثوليكية كأثر السحر في النفوس ، فقد كان الرعايا الفرنسيون يثقون في أحلاق هنرى نافر ويعتقدون اعتقاداً راسخاً في الملكية ، ويكرهون أشد الكراهية الحكم الأجنبي . وكانت شعبية هنرى عظيمة لدرجة أن الكثيرين ممن حاربوه لأسباب تتعلق بالعقيدة كانوا يقدرونه ويحبونه . وقد تسابقت مدن فرنسا المعظمى بتقديم ولائها لئلاطه : « مو » Meaux ثم « بيرون » Peronne ، « مونديديه » Mondidier ، « روا » Roye ، « بنتواز » Pontoise ثم « أورليان » Orléans و « بوج » Bourges و « أميان » Amiens و « ريمس » Reims ، ثم « ليون » Lyons حيث قامت ثورة لطرود دوق « نيمور » Nemours شقيق دوق « ماين » Mayenne . وظلت باريس خارج هذا النطاق بعض الوقت ، وزاد في حرج الموقف وحود حامية أسبانيا بها ، ولكن حاكم باريس الجديد « بريساك » Brissac الذى عينه « ماين » بدأ توأ يفاوض هنرى ، فحصل على شروط طيبة بالنسبة له ولمواطنيه أهالى باريس ، ومن ذلك ألا تقام شعائر الميجونوت الدينية داخل باريس ، وألا تصدر الأملاك ، كما اتفق على إعلان هدنة عامة والسماح للأجانب بمغادرة باريس في سلام ، وأن يكافأ الحاكم على جليل خدماته ، وهكذا تم ترتيب كل شيء . وقدم هنرى بنفسه إلى مدخل قصر « التويلرى » Tuileries ، وعلى الرغم من أن العاصفة قد أخرت حضوره ساعتين كاملتين إلا أنه وجد الجميع في انتظاره ، وقد زادت تصرفاته الحكيمة بعد ذلك في التفاف القلوب حوله ، فقد زار دوق « نيمور » Nemours وعما عن عدوته القديمة « مدام دي مونتبنسية » Madame de Montpensier ، وشاهد بنفسه مبارحة الجيوش الأسبانية للعاصمة دون أن يتعرض لها بأى أذى . كل ذلك زاد من حب الشعب له وتقديره إياه ، وقد عفا عن جميع أعدائه ، ومن ذلك يبلو أنه كان يهتم بالصالح العام قبل أى شيء آخر ، وإن مذكرات وزيره الميجونوتى « سلى » Sully لتشهد وتثبت أن حكومته كانت قائمة على مراعاة الصالح العام قبل أى شيء آخر ، ولذلك نجح هنرى الرابع في التغلب على كافة الصعاب التى واجهته ، وكان جديراً بتقدير الشعب الفرنسى له فأصبح يحق أحد أبطال فرنسا البارزين .

وليس معنى هذا أن سبيل الحياة أصبحت بعد ذلك سهلة مبعدة فقد كان لازماً عليه أن يتخطى كثيراً من العقبات لتدين له البلاد بالطاعة الكاملة . ولتستقر أمورها بعد أن زعزعها الحروب الأهلية ثلاثين عاماً أو يزيد .

وأخطر المشاكل التي واجهته ملكاً موقف أسبانيا منه ، فخطر الأسبان لم ينقطع بخروج القوات الأسبانية من باريس : إذ كان لا يزال ماثلاً في الشمال على أتم استعداد للإساءة إلى مركز الملك ، والعمل على تقويض عرشه إذا أمكن .

كما كان عليه أن يواجه غضب الهيجونوت وسخطهم عليه لتحويله عن عقيدتهم واعتناقه للكاتوليكية . وكان عليه أن يعمل بكل الوسائل على إرضاء هذه الطائفة التي تزعمها ، ولم يخف عنه مدى ما وصات إليه من سلطان وقوة . ثم كان عليه منذ الوهلة الأولى أن يعمل على إعادة تنظيم فرنسا داخلياً وإقرار السلام والطمأنينة بها ، وذلك بمعالجة جميع مشاكلها الاجتماعية والاقتصادية ، كما كان لازماً عليه أن يدعم اقتصادها وينهض به ، وقد أصابه الشيء الكثير من الاضطراب نتيجة لأحداث الحروب الدينية الطويلة .

#### الخطر الأسباني :

واقترضته الظروف أن يبدأ بالتخلص من الخطر الأسباني ليتمكن من التفرغ لحل المشاكل الأخرى . فبدأ بإعلان الحرب على أسبانيا في يناير ١٥٩٥ ، واعتمد في ذلك على حماسة الفرنسيين لهذا الاجراء بسبب بغضهم الشديد للأسبان ، كانت مطامع ملكهم فيليب الثاني في عرش فرنسا قد تبينت لهم أثناء الحروب الدينية ، كما اعتمد على ولاء ذلك الشعب وحبه لمخلصه من ذلك الخطر الماثل . ومع ذلك فلم يكن صراعه ضد أسبانيا أمراً هيناً ، إذ كانت أسبانيا تملك أسرع فرق المشاة في أوروبا كلها ، كما صرح الملك نفسه بذلك . كانت « بريتانيا » Brittany مركز قوة الأسبانيين في فرنسا ، حيث أقاموا قلعة « كروازيل » Croisil ، وقد استولت عليها القوات الفرنسية . ولكن الخطر الرئيسي كان يقع على الحدود الشمالية حيث تستطيع القوات الأسبانية أن تتقدم من ولايات الأراضي المنخفضة الجنوبية وكانت يومئذ خاضعة لها . وقد استطاع الأسبانون أن يضعوا أيديهم على مناطق عديدة ، فمن طريق الخديعة استطاعوا أن يخضعوا لسلطانهم عدة مدن في بيكارديا ، كما استولوا على كاليه Calais ولكن أهم من هذا كله مدينة « أميان » Amiens ، حيث كان الهيجونوت « فاقم » ؟

على الملك لتحويله إلى الكاثوليكية ، وعلى ذلك كان هذا الخطر لا يستهان به ، ولم تلبث أن وصلت الامدادات من إنجلترا تتمثل في ٤٠٠٠ محارب ، وبفضلها استطاع هنري أن يحاصر المدينة ، وأن يهزم القوات الأسبانية بسهولة ، فسقطت أميان في يد الملك في عام ١٥٩٧ .

وبعد ذلك عقد صلح أميان بين هنري الرابع واسبانيا في عام ١٥٩٨ . واحتجت ملكة إنجلترا لأن ذلك الصلح قد عقد دون إشراكها فيه . ونهت الملك بأنه ليس من اللائق أن يقوم بمفاوضات أخرى دون إشراك إنجلترا والأراضي المنخفضة الثائرة ، وكان رد فرنسا يتمثل في اعتذارها بأنها كانت في حالة لا تسمح لها بتأخير عقد الصلح ، ولذلك سارعت بعقده . وتقابل المفاوضون الفرنسيون والأسبانيون والبابويون في « فرفان » Vervins على مقربة من حدود الأراضي المنخفضة واتفقوا على شروط الصلح . فتنازلت أسبانيا عن « كاليه » Calais ، والمواقع التي حصلت عليها حديثاً في بيكارديا ومنها « بلافيت » Blavet ولا ترجع أهمية هذا الصلح في مواده وإنما في حقيقة هامة ، وهي أن هنري الرابع قد استطاع أن يفلح فرنسا من أطاع فيليب الثاني ومشروعاته الضخمة لضمها لحكم أسبانيا ، كما تمكن من إقامة ملكية قومية فيها ، تعمل لصالح البلاد وتخليصها من كل الأضرار التي نزلت بها نتيجة لتلك الحروب الطويلة التي عرضت استقلالها للخطر .

### التسوية الدينية :

كانت التسوية الدينية جزءاً من حركة واسعة النطاق لإعادة بناء فرنسا سياسياً والاجتماعياً ، وقد اشتهر اسم هنري الرابع ، بإنجاز ذلك العمل الهام وقورن عمله في هذا المجال بأعمال « نابليون » Napoleon عندما تمكن له السلطان في فرنسا . وكانت تسوية ١٥٩٨ التي حررت باسم مرسوم نانت أول اعتراف رسمي صريح بالتسامح الديني في تاريخ الانسانية في غرب أوروبا .

### مرسوم نانت ١٥٩٨ :

كانت التسوية الدينية من المسائل الملحة التي واجهت هنري الرابع مؤسس أسرة البويربون في مطلع عهده . فالهيجونوت الذين تحملوا التاج الفرنسي أكثر من ثلاثين

عاماً ، وقد ازدادت أعدادهم كان في استطاعتهم في أى وقت أن ينزلوا إلى الميدان جيشاً لا يقل عدد رجاله عن خمسة وعشرين ألفاً ، لهذا لم يكن من اليسير إخضاعهم . واستطاع الملك - بعد مفاوضات مضنية استغرقت وقتاً طويلاً ، ثم قبلت بعد تردد من جانب الكاثوليك للضرورة فرضتها الظروف - أن يوصل إلى تسوية مرسوم « نانت » وعن طريق هذه التسوية منح الميحيوت حرية العبادة في أماكن معينة نص عليها الاتفاق ، ومنها قلاع السلاء وغيرها كما أعطتهم نفس الحقوق المدنية والاجتماعية المسموحة لغيرهم وأكدت لهم الحماية القانونية . ولتوكيد الضمان الخاص بسلامتهم سمح لهم أن يقيموا حاميات في مائة وخمسين مدينة . وكانت هذه الحاميات في غالبيتها تتكون من البروتستانت الذين يتقاصون أجورهم من الدولة وكان على رأس كل حامية رئيس من الميحيوت ، وأهم هذه المواقع الحصينة « لاروشيل » la Rochelle و « سومير » Saumur و « مونيلييه » Montpellier . وتدل طواهر الأمور وحقائقها على شيء لم يكن في الحسبان ، آتية قيام دولة هييجووتية صغيرة في قلب فرنسا لها جيشها وقلاعها ونظمها الخاصة

ولمرسوم انت أهمية عظمى في تاريخ الإنسانية باعتباره أول اعتراف عام بقيام أكثر من طائفة دينية داخل الدولة الواحدة . وحملت هذه التسوية الشهيرة التسامح الديني حزماً من القانون الدستوري لفرنسا قبل الاعتراف به في إنجلترا وألمانيا بوقت طويل . لم يتم استصدار المرسوم في سهولة ويسر ذلك لأن أعلية الكاثوليك في فرنسا لم تكن راضية عنه ، واشتدت حوله المعارضة في برلمان باريس وكان طبعاً أن يعارضوا لأن المرسوم كان يقضى بمنح الميحيوت امتيازات دينية وسياسية ومدنية وقضائية . ولما اشتدت المعارضة رأى الملك أن يشهد مناقشة المرسوم بنفسه . فذهب إلى البرلمان بغية التأثير على أعضائه وقد تم له ما أراد وهو الموافقة على صدور المرسوم .

واستمر العمل بهذا المرسوم ثلاثين عاماً ، ثم استبدل بمرسوم آخر يعرف بمرسوم « أليس » Aiais ١٦٢٩ أيام كان تريشيليو رئيساً للوزارة في فرنسا . وكان الذي دعاه إلى ذلك خوفاً من تلك الامتيازات السياسية التي حققها المرسوم السابق للميحيوت حين تبين له تعارضها مع سياسته التي كانت تهدف إلى تركيز السلطة في يد ملكية البوربون في فرنسا . فهو يريد للبوربون أن يكونوا على استعداد لمقاومة سلطان أسرة الهينسبورج في أوروبا ووضع حد لنفوذها . وقد كرس جهوده لتحقيق هذا الغرض

طوك سيطرته على شتون فرنسا في المدة بين عامي ١٦٢٤ ، ١٦٤٢ ، واستعان في سلوكه هذا بمحاربة الهيجونوت داخل فرنسا ومحاللة البروتستنت في ألمانيا . وقد قضى مرسوم « أليس » بحرمان الهيجونوت من الامتيازات السياسية مقابل الإبقاء على حريتهم الدينية كاملة غير منقوصة . وطل الهيجونوت يتمتعون بحريتهم الدينية وما لهم حول ذلك من امتيازات متينة ، وحماية قانونية حتى صدور « مرسوم فونتبلو » عام ١٦٨٥ في عهد لويس الرابع عشر . وبصدوره أصبح « مرسوم نانت » لاغياً . وترتب عليه حملة من الاضطهادات السافرة ضد الهيجونوت ، فهاجر منهم عدد كبير يعدون بالآلاف ، ليتمكنوا من ممارسة عقيدتهم في أمان في جهات أخرى . وعلى الرغم من صدور مرسوم ١٦٢٩ Aiais استمر العمل بمرسوم « نانت » قائماً قرابة قرن من الزمن لأنه صدر من ملك قوى ، ولأن العصبة الكاثوليكية قد انحلت بعد أن هزمت في فرنسا ، فبادر أبرز من فيها من الشخصيات ، وفي مقدمتهم « ماين Mayenne » إلى الالتجاء إلى الملك ملتجئين عقد اتفاقيات فردية معه . ولعل الذي ألبأ إلى ذلك إحساسهم بما أصاب الشعب من إرهاب بسبب توالى الحروب الدينية أكثر من ثلاثين عاماً .

### الاصلاحات الاقتصادية :

كانت البلاد في حاجة إلى الاصلاح والهدوء . وقد ساءت أحوال التجارة والزراعة نتيجة للغوضى التي عمت البلاد أثناء الحروب الدينية ، وبلغ سوء الأحوال الزراعية أن هجر بعض الفلاحين حقولهم ، كما أقفرت بعض القرى من سكانها تماماً ، وقد تسببت الحروب الداخلية في إفقار جميع الطبقات ، وهبوط قيمة للعملة . فقد أثقلت كاهل رجال الدين والنساء أعباء الحرب المالية ، وعندما سرح الجيش الفرنسي على أثر انتهاء الحرب : لم يجد الكثيرون عملاً يرتزقون منه فانتشرت أعمال السرقة ، ووقعت أثقل الأعباء المالية على طبقة الفلاحين فأصابهم المحاعات والأوبئة . ولذلك كادت تقع بعض ثورات من جانب الفلاحين ، ومنها تلك التي قام بها حوالي ٢٠,٠٠٠ منهم في جنوب غرب فرنسا على مقربة من « برجيراك Bergerac » ، نادوا فيها بالحرية والعدالة وكانت الحركة ضد النبلاء أكثر منها ضد الملك .

كان على الحكومة أن تبذل جهوداً عظيمة لكي تعيد الرفاهية إلى البلاد . وتميز

عهد هنرى الرابع بالاهتمام البالغ برفع شأن فرنسا الاقتصادى ، والعمل على ملء خزانها بالمال . وقد استعان فى ذلك « بسلى » الذى عرف بمقدرته الفائقة على العمل بالإضافة إلى شدة غوره . فوقع على عاتقه تطهير الميدان الاقتصادى الملىء بالفساد كآن غرضه الأول أن تسير الأمور بدقة وأمانة دون أن يحدث تغييراً يذكر فى الأداة الحكومية ، وأن يضرب بشدة على أيدي المفسدين والمرتشين ، وأن يشجع التجارة عن طريق شق الطرق وإصلاحها ، وأن يبحث عن موارد جديدة لإثراء الدولة .

وكان نظام الضرائب فى فرنسا يختلف تماماً عنه فى إنجلترا . فقد كانت أعباء الضرائب على الفرد الفرنسى العادى أكثر منها على مثله فى إنجلترا ، ونظام التمييز أكثر وضوحاً فى فرنسا منه فى إنجلترا ، وبيع الوظائف أكثر أهمية ووضوحاً فى فرنسا . ولم يكن هناك برلمان منتخب ينتقد سياسة الدولة فى هذا الصدد ، كما لم يستحدم ملاك الأراضي فى الأقاليم كأعوان للحكومة على تنفيذ نظمها كما هو الحال فى إنجلترا ، وكان المصدر الأكبر للإيراد يحصل من ضرائب « التالى » *Tailles* ( الأرض ) ، وكلها ضرائب على الأرض والمنازل تعرض على الطبقات التى لا امتيازات لها . ومن هذه الضرائب كانت تتكون نصف موارد الدولة الطبيعية . ثم يليها ضريبة الملح ( *La Gabelle* ) التى احتكرت الدولة الاتجار فيه ، وكان عوؤها الثقيل يقع على للطبقات الدنيا . لم يقترح « سلى » أو غيره إلغاء نظام الامتيازات ولكنه قلل من أعداد أصحاب الامتيازات ، وقد استطاع عن طريق إدارته المالية الحازمة أن يترك خزانة الدولة عند مقتل الملك هنرى الرابع عامرة بالأموال .

واهتم « سلى » بإصلاح الطرق ، وبناء الكبارى ، وإنشاء القنوات ، واستطاع بذلك أن يعيد الزراعة وأن ينهض بها . وأما فى الميدان الصناعى فقد استعان ببعض الهيجونوت فى صناعة الحرير واتسع نطاق هذه الصناعة وازدهرت على وجه الخصوص فى « بواتو » *Poitou* . وزاد التبادل التجارى بين فرنسا وغيرها من الدول ، فأصبح من صادراتها كثير من نجاج الصناعات المختلفة وخاصة ما يتعلق منها بالكياليات مثل الخيوط الذهبية وألوان الزحاج وأنواع مختلفة من المنسوجات الحريرية .

وقد تحقق الكثير من مشروعات الحكومة الاقتصادية ، فزاد الدخل وانخفضت قيمة الديون ، وتبدلت أحوال فرنسا ، فعد أن كانت عند تولية الملك هنرى

الرابع تعاني من ثقل الديون والاضطرابات المالية أصبحت عند انتهاء حكمه ، وقد تخلصت من ديونها وازدهرت أحوالها الاقتصادية

### تنظيم إدارة الحكم :

كان هنري الرابع يجد أن حبر إصلاح للإدارة إما يتاحص في تركيز السلطة في يده ، فأعاد تنظيم المجلس الملكي « Conseil du Roi » ، وكان هذا المجلس هو السند القوي للملك فرنسا ، وقد بدل ملك أسرة العالوا Valois من قبل جهودا عظيمة في تنظيمه لإعلاء شأنه فرادوا من عدد أعضائه على حين خفض هنري الرابع من عددهم ، كما أنه قد حد من نموهم ، وكان الملك وحده صاحب الحق في تعيين أعضائه ، كما كان يشرف ويسيطر على المجالس المختلفة كافة . المجلس الخاص ومجلس الدولة والمالية مستحدا في ذلك سيطرته أول الأمر على المجلس الملكي .

رفض هنري الرابع رغم رجاحة عقله أن يدعو مجلس طبقات الأمة للاعتماد ، كما رفض أن يشرك معه رعاياه في التمرس بالقيام بأعباء الحكم .

وإذا كان مجلس طبقات الأمة في عهده قد كان ضعيف الشأن فإن برلمان باريس كان يتمتع بعمود كبير ، ولم يكن هنري الرابع يحد في القضاء على ذلك العمود ، لأن رجال القانون أعضاء هذا البرلمان كانوا العون الرئيسي للملكية صدد مطالب السلاء ورجال الدين ، ولذلك لم يعمل على الحد من سلطانهم . على أن هؤلاء الأعوان المخلصين للملكية قد أثبتوا فيما بعد أنهم حطروا لا يستهان به عليها . واتخذ هنري الرابع من الإجراءات ما يزيد من استقلال البرلمان ، ولكنه بذلك قد مهد له السبيل إلى تحدى الملكية ، فاستحدث في عام ١٦٠٤ نظاماً جديداً بالنسبة للتصرف في مقاعد البرلمان الشاغرة . وقبل صدور هذا النظام كان أعضاء البرلمان يشترطون مقاعدهم بالمال ولهم حق بيعها ولكن تحت شروط معينة . وكان التغيير الجديد الذي طرأ على هذه الطريقة هو إلغاء تلك الشروط ، فأصبحوا أكثر حرية في بيع تلك الوظائف وإذا مات أحد الأعضاء ، ولم تبادر الدولة بالتصرف في مقعده في البرلمان فإنه يصبح ملكاً لأرملته أولوريته . وهكذا أصبحت العضوية في البرلمان نتيجة للنظام الجديد مستقلة وراثية ، ولم يعد للملك أي نفوذ عليها . وكان الملك يحصل على قيمة العضوية سـوياً مما يوفر له في النهاية قدراً كبيراً من المال .

وفي عام ١٥٩٩ طلق هنري الرابع زوجته « مرجريت فالوا » التي تزوجها في عام ١٥٧٢ لأنه لم ينجب منها أطفالا ، وتزوج من « ماري ديمدنتشي » Marie de Médicis وهي من ذوى قربنى كاترين ديمدنتشي فأصبح له طفل ذكر في عام ١٦٠١ مؤملا في أن يصبح من بعده ملكا ، لذلك ضمن هنري بقاء العرش في أسرته . على أن ذلك الزواج الجديد قد ضاعف من تدبير المؤامرات حوله . وقبل إن محاولات اغتياله قد بلغت اثنتي عشرة مرة .

#### سياسة هنري الرابع الخارجية :

١ - بعد معاهدة « فرفان » Vervins ، التي عقدت بين فرنسا وأسبانيا والبابا عام ١٥٩٨ ، اتبع هنري الرابع سياسة سلمية حتى يتفرغ لحل مشاكل فرنسا الداخلية وينهض بها . ومع ذلك فقد كان يعمل على رفع مركز فرنسا في العالم الخارجي ، فاصطدم مع دوق سافوى عام ١٦٠٠ في حرب قصيرة ، ضم في نهايتها « برجي » Burgey إلى فرنسا .

٢ - أثر كما ذكرنا أن يتبع سياسة سامية ولكنه لم يلبث في أواخر عهده أن فكر في مهاجمة الهابسبورج ومحاربتهم ، وتلك فكرة قد تمحس لها « كوليني » منذ حوالى حسين عاما ، وتتلخص في استعانة بروتستانت ألمانيا وسكان الأراضي المنخفضة لمهاجمة أسرة الهابسبورج تمهيدا لاحتلال الأراضي المنخفضة الأسانية والوصول بحدود فرنسا إلى الراين وتلزع هنري الرابع لتنفيذ هذا المشروع بالنزاع على مصير « كليف حوليش » Cleves Julich الواقعة على حدود فرنسا الشرقية ، إذ صادف في آخر أيام هنري الرابع أن أصبحت إمارة ( حوليه ) Juliers إمارة يتنازع الحكم فيها كل من البروتستانت والكاثوليك وكانت هذه الإمارة تتم أوروبا كلها لموقعها الممتاز على نهر الراين ، ولتحكمها في الطريق بين ألمانيا والأراضي المنخفضة ، ولذلك كانت أسرة الهابسبورج الكاثوليكية ترغب في ضمها إلى أملاكها بينما كان ينازعها في ذلك البروتستنت ، وانحاز هنري الرابع إلى الجلب البروتستنتي ، وأخذ يعد العدة فعلا ليتقدم بجيش عظيم لحماية ( جوليه ) Juliers من أطماع الهابسبورج . فأثار ذلك المنعصين من الكاثوليك ضده ، فقتله منعصب كاثوليكي يدعى ( رفاك ) Ravallac عند ما كان يعد العدة للتقدم بقواته في عام ١٦١٠ .



## الفصل الثاني

### عصر الوزراء العظام

فرنسا في عهد لويس الثالث عشر ( ١٦١٠ - ١٦٤٣ )

وريشيليو ( ١٦٢٤ - ١٦٤٢ )

كان لويس الثالث عشر يبلغ التاسعة من عمره عندما قتل أبوه ولذلك أصبحت أمه « ماري ديمدنتشي » وصية عليه إلى أن استطاع أن يتولى شئون الدولة بنفسه في عام ١٦٢٤ ، وكان قد بلغ من العمر ثلاثا وعشرين سنة . وتصعد في عهد الوصاية كل ما قام به هنري الرابع من إصلاحات ، فاشتدت الفوضى وسادت الاضطرابات البلاد ، ومرجع ذلك الأساسي شدة كراهية الرأي العام الفرنسي لأغراض « ماري ديمدنتشي » التي كانت تعمل على الاتحاد بين البيت المالكي في فرنسا وفي أسبانيا على عكس ما سلكه براه الرأي العام الفرنسي إذ كان يعتبر أسبانيا ألد أعداء فرنسا . ترتب على ذلك الخلاف الشديد في وجهات النظر وقوع حركات ثورية في عهدها بين صفوف الطبقات الأرستقراطية والبروتستانتية . واشتدت الفوضى في فرنسا مما جعل الحاجة ماسة إلى دهوة مجلس طققات الآمة في عام ١٦١٤ إلى الاجتماع . وكان لهذا الاجتماع أهميته من حيث أنه كان الأخير إلى أن دعاه لويس السادس عشر إلى الاجتماع في ٥ مايو ١٧٨٩ . فكان المجلس الأخير بداية لأحداث الثورة الفرنسية .

اجتمع المجلس في عام ١٦١٤ لحث أسباب تدهور الأحوال في فرنسا عدلثا وليقدم حلولا لمعالجتها . كان ريشيليو في المجلس أحد ممثلي رجال الدين في « بواتو » portou وقد وقع الاختيار عليه ليمثل رجال الدين كافة . وذلك عندما أظهر ميوله نحو الحكومة القائمة . وما يلاحظ على الخطاب الذي ألقاه في هذا المجلس أنه دافع

بحرارة عن رأيه الخاص بالسماح لرجال الدين بالاشتراك في الشئون العامة والسياسية للدولة . ولم يسفر هذا الاجتماع عن شيء لأن مجلس طققات الأمة لم يكن يملك من السلطات غير إبداء النصيح والإرشاد للحكومة : كما لم يكن هناك أى إلزام بالأخذ بهذه الآراء .

وبهذا في هذا المجال ما كان من أمر ريشيليو الذى استطاع فيما بعد أن يقضى على الفوضى ، وأن يعين لويس الثالث عشر على تعزيز الملكية وتقوية سلطتها . استطاع في عام ١٦١٦ أن يصبح وزيرا للخارجية في فرنسا نتيجة لتقربه من الملكة الأم ومستشارها الإيطالى « كونسيني » Concini . وفى سبيل تدعيم مركزه أخفى أول الأمر اتجاهاته السياسية ، فأظهر استحسانا لسياسة الملكة وكونسيني فى تأييد أسبانيا والعمل على مصادقتها علما بأن سياسته - فيما بعد عندما أصبح يسيطر على الموقف فى فرنسا - كانت معاداة أسبانيا ومحاربتها . اضطر ريشيليو إلى الاستقالة فى عام ١٦١٧ على أثر قتل كونسيني . وظل ريشيليو بين عامى ١٦١٨ ، ١٦٢٤ بعيدا عن السياسة الفرنسية إذ كان وزيرا للملكة الأم المغضوب عليها ومستشارا أعظم لها ، وقد أجبرها أنها الملك على اعتزال السياسة والاعتكاف فى قصر « بلوا » Blois ونفى ريشيليو إلى « أفينيون » Avignon فى عام ١٦١٨ حيث بقى عاما ، ثم استأنف عمله بالقرب من الملكة . وقد أصبح كارديبالا عام ١٦٢٢ .

وفى عام ١٦٢٤ أصبح أحد وزراء لويس الثالث ، وعندما تم القبض على « فيوفيل » Vieuville وسجنه فى قصر « أموار » أصبح ريشيليو رئيسا لمجلس وزراء لويس الثالث عشر . ومنذ ذلك التاريخ غدا ريشيليو الحاكم بأمره فى فرنسا حين صار رئيس الوزراء بل الوزير الوحيد صاحب النفوذ خلال الثمانية عشر عاما التالية أى حتى عام ١٦٤٢ . ووجد ريشيليو فى لويس الثالث عشر ملكا قوى الشكيمة يخشى على ملكه ويغار عليه . وقد أدرك ذلك الملك مدى إحلاص ريشيليو للملكية ، وقدر تلك الجهود التى كان يبذلها لتركز السلطة بيد الملك وليحقق لفرنسا مكانة مرموقة بين دول أوروبا . لذلك كله أطلق الملك عن طيب خاطر يد ريشيليو فى تصريف شئون فرنسا كافة .

#### سياسة ريشيليو الداخلية :

أما سياسة ريشيليو الداخلية فقد ارتبطت أشد الارتباط بسياسته الخارجية ، ذلك أنه كان يهدف إلى رفع مركز أمته بين دول أوروبا ، ويرى أن أسرة الهبسبورج القوية

تقف حجر عثرة في هذا السبيل ، لذلك عول على الحد من سلطاتها بكل الوسائل ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يفعل أى شيء في هذا الصدد دون تهيئة الجو الصحى داخل فرنسا نفسها . لذلك ارتبطت سياسته الخارجية بالداحلية ارتباطاً قوياً . وفيما يلي ماد كره ريشيليو موضعاً أهداف سياسته في الداخل والخارج فيما يلي :

« عندما شرفتموني جلالتيكم بالمشاركة في مجالسكم الاستشارية تبئت بصدق أن الهيجونوت يشاركونكم في الحكم ، وأن البلاء كانوا يسلكون سلوكاً لا يدل على أنهم من رعاياكم . كما كان رؤساء الأقاليم منهم يتصرفون وكأنهم حكام مستقلون وقد أهمل شأن المعاهدات الأجنبية ، وتغلبت المصالح الخاصة ، كما تنست أن قبل جلالتيكم قد تصادى بحيث كان الناس لا يشعرون به ، ولأنى أعاهد جلالتيكم على أن أمتثل كل جهودى ونفوذى لتحطيم طائفة الهيجونوت ، ولأحط من كبرياء السلاء ، وأن أسوق كل الرعايا نحو تأدية ما عليهم من واجبات وأن استرد لفرنسا صديتها بين الشعوب الأجنبية » .

في هذه العبارات لخص ريشيليو سياسته الداخلية موضعاً مدى ارتباطها بالسياسة الخارجية .

#### ١ - سياسته إزاء الهيجونوت :

كان واضحاً أمام ريشيليو منذ أول عهده بالسلطة أن أهم ما يهتم به العناية وبذل الجهد هي مسألة القضاء على النفوذ السياسى للبروتستانت . كان ريشيليو من القلائل الذين اشتهروا بتسامحهم الدينى ، ولذلك لم يكن في نزاعه ضد البروتستانت في فرنسا ، ليتعرض لعقائدهم الدينية ، وإنما أراد أن يسلبهم تلك الامتيازات السياسية التى منحهم إياها « مرسوم نانت » فجعلهم قوة لا يستهان بها في مقاومة الملكية والتصدى لها ، سمح لهم هذا المرسوم بامتلاك عدد كبير من القلاع والحصون في مدن عديدة زادت على المائة . وكانت لهم مجالسهم الخاصة التى يناقشون فيها مشاكلهم السياسية والدينية وقد أظهروا اهتماماً في هذه المجالس بالاستعداد العسكرى ، وكانت السلطات المناوئة للحكومة القائمة في فرنسا تستعين بهذه القوات . وقد حدث أن استعان بها « كونديه » عندما باوأ الملكة « ماري ديمدتشى » ، كما استعانت بها الملكة الأم نفسها عندما أبعدت عن الحكم وكان حصن « لاروشيل » من أقوى معاقلم لذلك وجه ريشيليو جهوده

لإسقاطه : ونجح في إسقاط الحصن في أكتوبر ١٦٢٨ ، بعد حصار دام خمسة عشر شهراً . وقد أمن ريشيليو السكان على حياتهم وأملاكهم وعلى تأدية صلواتهم بكل حرية ، ولكنه أنزع منهم الاستقلال الذى كانوا يتمتعون به من قبل ، وحردهم من امتيازاتهم السياسية وحطم حصونهم ، ومنح الكاثوليك الحرية الكاملة لتأدية شعائرهم الدينية في تلك المواقع . واستطاع ريشيليو في العام التالى أن يكمل جهوده ضد الهيجونوت بالانتصار على رعايتهم في جنوب فرنسا ، وأن يعقد معهم ما يعرف بصليح « اليس » ١٦٢٩ Alais ، وقد جددت بمقتضاه السود الدينية لمرسوم نانت . ونجح ريشيليو في استرداد كافة المواقع المحصنة التى كانوا يسيطرون عليها وأن يقصى بالتالى على هؤلاء السياسى وعلى الخطر الذى كانت تتعرض له الملكية في فرنسا من ذلك النهوض .

وليس يهوتا هنا أن يذكر أن ريشيليو قد عاون البروتستنت في الخارج أى في ألمانيا أثناء حرب الثلاثين عاماً وفي أماكن أخرى من أوروبا لاعطفاً على عقيدتهم ولكن أعدائه الشديد إراء القوى الكاثوليكية المعادية لهم . وقد أراد قتل أن يصطر إلى شيوخ نمار حروب خارج فرنسا ضد هذه القوى أن يقصى على نفوذ الهيجونوت داخل فرنسا وأن يقلم أطراف النلاء بها .

## ٢ - ريشيليو يواجه أعداء البيت المالک في فرنسا :

من الغريب أنه بينما كان ريشيليو يعمل طوال حكمه على تركيز السلطة في يد الملك كان أفراد أسرة البيت المالک يعاونون البلاء في تحديهم لسلطان ريشيليو وآمرهم على حياته . وكانت الملكة الأم « ماري ديمتشي » وأخ الملك « حاستون أوف أورليان » Gaston of Orleans يتآمران معهم باستمرار لخلع الكاردينال ريشيليو . وهكذا امتلأت حياة ريشيليو بكل أنواع المؤامرات ، وهى مؤامرات تملأ أحداثها مجلدات ضخمة . ففي عام ١٦٢٦ ، أى بعد عامين من وصوله إلى الحكم دبرت أول مؤامرة ضده عندما تقرر رواج « حاستون » من مدموزيل « مونسنييه » Mlle de Monpensier الجميلة العبية على أن هذا المشروع لم يستحسنه أصدقاء « حاستون » ولذلك وأوا أن خير وسيلة لمنع تنفيذ ذلك الزواج أن يقضوا على الوزير الذى أعده وهو ريشيليو . ولكن المؤامرة كشفت في حينها ، وتم عقد الزواج رغم أنف المعارضين . كان نساء البيت المالک كذلك أشد أعداء ريشيليو شكيمة وقوة . فكانت الملكة الأم

مارى ديمدتشى ألد أعدائه ، ولم تكن زوج الملك أقل عداء له منها . ولكنها كانت أقل نشاطا فى تدبير المؤامرات ضده ، على أن عداءهما لريشيليو لم يكن له أثره على مركزه ، لأن الملك لم يكن لأى منهما شيئا من العواطف .

### ٣ - ريشيليو يحد من سلطان النبلاء فى فرنسا :

وجد البروتستنت فى بلاء فرنسا معيا لهم ضد عدوهم المشترك ريشيليو أو بعبارة أصح ضد التاج . وقد شن ريشيليو طوال حياته حرباً شعواء على النبلاء محاولاً الانتقاص من سلطانهم بكل الوسائل ، ولكن النبلاء كانوا فى عهده لايزالون أقرباء وأعنياء ومحبين للحروب ، ومع كل ما دله ريشيليو لإضعاف شوكتهم فقد طلبوا العقبة الكؤود فى سبيل السلطة الملكية . إذ كانوا يتمتعون بامتيازات عديدة ولا سيما فيما يتعلق بالضرائب ، ولم يستطع ريشيليو بطبيعة الحال أن يقضى عليها ، بل طلت حتى وقوع أحداث الثورة الفرنسية حيث قضى عليها فى عام ١٧٨٩ . ولكنه استطاع أن يحد من عدد أصحاب هذه الامتيازات ، كما أنه سلب النبلاء سلطانهم فى الأقاليم عند ما استخدم ريشيليو عمال الملك أو مندوبيه فى الأقاليم *Intendants du Roi* ليحد من سلطانهم فيها . وأصبح عمال الملك فى الأقاليم حري عرن للملكية على تركيز السلطة فى يدها ، وذلك عندما كانت قرية ، ولكنهم استبدوا بالأمور وأصبحو ملوكا غير متوجين عندما صعدت الملكية كما حدث فى عهد كل من لويس الخامس عشر والسادس عشر ، والملك ألغت الجمعية الوطنية هذه الوظيفة فى ١٧٨٩ . وإذا كان ريشيليو قد نجح تماماً فى تحطيم نفوذ الهيئتين السياسى والسجاة من المؤامرات التى حيكت حوله فإنه لم ينجح فى تحقيق هدفه الخاص بكسر شوكة النبلاء تحقيقاً تاماً وإن كان قد حقق حاساً منه .

### ٤ - إعادة التنظيم الإدارى داخل فرنسا :

كان ريشيليو حريصاً على أن يستقر حكم ملوك أسرة البوربون على أسس وطيدة ولذلك لم يترك أى فرع من فروع الإدارة دون رقابته وإشرافه المباشر عليه . فكان نشاطه يبدأ عند تعيين الموظف الصغير ، ويمتد ويتسع حتى يشمل تقرير السلام والحرب ، كان ريشيليو عظيم الثقة بنفسه وبوسائل الحكم التى ارتضاها لفرنسا فى عهده . ولم يكن يؤمن بسور الهيئات التشريعية ، وإن كان قد جمع « مجلس الأعيان »

Conseil des Notables مرتين ، وكان رأيه استشاريا . اجتمع أو لهما عام ١٦٢٥ والثاني في العام التالي ١٦٢٦ ، وعرض على كل منهما بعض مسائل الدولة الهامة . ولكنه حكّم فرنسا دون الأخذ بأي مشورة أو نصيح ، غير مال بمعارضة الكنيسة والنبلاء .

لم يكن يفقه كثيرا في أمور الاقتصاد ولا المالية العامة ، فعلى الرغم من المدة الطويلة التي تمتع فيها بسلطان مطلق لم يعالج ارمالك النظام المالي في فرنسا وما به من فساد وظلم . وعلى ذلك فإن أهمية ريشيليو كانت لا ترتبط في الواقع بأي مقدرة على حل المشاكل المالية ، على أنه أدرك أن تلك الامتيازات التي كان يتمتع بها النبلاء وغيرهم من الطبقات المميرة جعلت العبء الأكبر منها يقع على عاتق الطبقة الدنيا . فأراضى الكنيسة والنبلاء ورجال البلاط معفاة كلها تقريبا من الضرائب . حاول ريشيليو التقليل من عدد المعفيين من ضريبة العقار التاي ، بمقتضى مرسوم أصدره عام ١٦٣٤ .

اهتمام ريشيليو ببناء الاسطول والجيش :

فطن ريشيليو أيضا إلى أهمية اشتراك فرنسا في الميادين الاستعمارية ، فلم تشغله حرب الثلاثين عاما عن ذلك وإن كانت قد جعلته لا يسهم في هذا المضمار عما كان يرنو إليه ويتطلع إلى تحقيقه . تبين له أن فرنسا بسواحلها الممتدة امتدادا كبيرا وشعبها الميال إلى ارتياد البحار بلد له مستقبل بحري عظيم ، ولذلك تعهد بنفسه شئون المستعمرات والبحرية فأصبح في عام ١٦٢٦ رئيسا أعلى للبحرية والتجارة . هذا ببناء الأسطول الذي لم يكن له وجود عندما آلت إليه إدارة شئون فرنسا عام ١٦٢٤ مما اضطره في حربه ضد الهيجونوت في « لاروشيل » إلى الاستعانة بالسفن المولدة ونجح في النهاية في تكوين أسطول لفرنسا مقدرا ما له من أهمية في حمايتها . وحماية تجارتها ، وقد كان افتقار فرنسا إلى الأسطول يكلف التجار الفرنسيين خسائر جمة ، كما كان يعوق ازدهار التجارة .

وفي عام ١٦٣٨ أسس في أمريكا الشمالية شركة فرنسا الجديدة لتشجيع حركة التجارة افرنسية في العالم الجديد . وبلغ اهتمام ريشيليو بترويج التجارة أنه عقد مع الروسية معاهدة تجارية عام ١٦٢٩ ، راعتير من أوائل المعاهدات التجارية الهامة بين البلدين .

كما اهتم ريشيليو بتقوية جيش فرنسا كما قدر هنرى الرابع أنه فى استطاعته أن  
• يجد جيشا من ٣٤ ألف مقاتل ليحقق آماله . وفى عام ١٦٢١ كان جيش فرنسا  
أثناء حروبها ضد الهيجونوت يتكون من ١٢ ألف مقاتل ثم لم يلبث بفضل جهود  
ريشيليو أن وصل إلى ٦٠ ألف مقاتل ، وفى عام ١٦٣٨ كان عدد القوات الفرنسية  
قد بلغ ١٥٠ ألف مقاتل .

### سياسة ريشيليو الخارجية :

ارتبطت سياسة فرنسا الداخلية ارتباطا وثيقا بسياستها الخارجية فى عهد ريشيليو  
فقد كان إعلاء شأن الملكية فى فرنسا هو الهدف الأسمى الذى يسعى له ريشيليو فى  
السياستين .

وتتلخص سياسته الخارجية بالتالى فى محاربة أسرة الهسبرج بمرعيا فى النمسا  
وأسانيا بطرق مباشرة أو غير مباشرة ، تتلخص فى معاونة أعدائها ضدها ، وإثارة  
القتال فى أملاكها وكانت أسبانيا قد بلغت مبلغا عظيما من القوة خلال القرن  
السادس عشر ، لم يعكر صفوه إلا هزيمة الأرمادا الشهيرة فى ١٥٨٨ . فكانت فى  
عهد ريشيليو عند مطلع القرن السابع عشر لانزال تتمتع بنفوذ عظيم فى إيطاليا  
حصلت عليه فى عام ١٥٥٩ بمقتضى معاهدة «كاتو كبرسيس» Cateau-Cambrésis  
كما كانت لانزال تتمتع بنفوذ ملموس فى الأراضى المنخفضة الجنوبية على الأقل .

ولكن أثناء سيادة ريشيليو على السياسة الفرنسية كان فيليب الرابع يحكم أسبانيا  
(١٦٢١ - ١٦٦٥) ، وقد وقعت بأسبانيا فى عهده أربع مصائب . تدمير أسطولها ،  
وثورة كتالونيا ، وفقدان أسبانيا للبرتغال ، وثورة نابولى . ويرجع السبب الأساسى  
لتلك المصائب إلى أطماع أسبانيا الواسعة فى القيام بدور رئيسى فى السياسة الأوروبية  
مع ما كانت تعانيه فى تلك الفترة من فقر وإجهاد ، وسوء إدارة ، وعدم اتحاد  
جغرافى أو سياسى . كانت أسبانيا فى تلك الفترة لسوء إدارتها الداخلية ، واحتلال  
الميزانية ، واضطراب الأحوال فى الأقاليم التابعة لها ، وضياح مستعمراتها ،  
لاستطيع أن تقود العالم الكاثولى ضد البروتستنتية .

وحاول ريشيليو إثارة القلاقل فى وجه أسبانيا فى ميادين مختلفة دون حوص  
غمار حرب صريحة ضدها حتى عام ١٦٣٥ عندما استدعت الضرورة وقوع حرب  
سافرة بين البوربون والهسبورج

مسجد ريشيليو في إيطاليا في بداية عام ١٦٢٥ يتعاقد مع كل من « البندقية » و « سافوى » ، ولا يتأخر عن إرسال الحملات لمعاونة « منتوا » Mantua في وسط إيطاليا الشمالي ، ونجده كذلك يحارب دوق سافوى عندما اضطر الأخير إلى عقد تحالف مع أسانبا عام ١٦٢٩ ، فيوجه إلى سافوى جيشا في عام ١٦٣٠ ، وأصاب هذا الجيش نجاحا ، فضم بعض الأراضي الإيطالية إلى فرنسا ، كما اضطر شارل عمانويل دوق سافوى أن يخضع أمام انتصارات لويس الثالث عشر .

لم يتوان ريشيليو كذلك في مساعدة البروتستنت في الأراضي المنخفضة وفي ألمانيا ومساعدة ملك الدنمرك في حرب الثلاثين عاما بالمال والرجال ، كما أنه أمد الملك « جوستاف أدولف » ملك السويد عندما أخذ على عاتقه حماية بروتستنت ألمانيا بالمال والرجال .

وعاون ريشيليو هولندا التي بدأت من جديد حربها ضد أسانبا في عام ١٦٢١ ، بعد انقضاء مدة الهدنة بينهما وكانت تبلغ اثنتي عشرة سنة . وفي هذا سار ريشيليو على نهج سياسة هنري الرابع ، واتبع سياسة استمرت إلى أن جاء لويس الرابع عشر فلم يتبعها . أراد ريشيليو بهذه الخطوة أن يحصل على أكثر من استقلال هولندا الذي كان قد تم الحصول عليه تقريبا ، لقد أراد أن يحصل مدن بلجيكا من سيطرة أسانبا حتى يتقاسم مع هولندا شيئا من تلك العناثم ، بل كان يطمح في تقسيم بلجيكا بينه وبين هولندا وإذا كان لم ينجح في ذلك ، فقد نجح لويس الرابع عشر فيما بعد عندما ضم إلى فرنسا « آرتوا » Artois و « دنكيرك » Dunkirk وأجزاء من بلاد « الفلندرز » Flanders و « هولت » Hainault فقيت كلها تحت سيطرة فرنسا ، وانتهت تلك الحرب الطويلة بين هولندا وأسانبا عام ١٦٤٨ عندما اعترفت أسانبا باستقلال هولندا في صلح وستفاليا الذي حتم حرب الثلاثين عاما .

وإذا كان ريشيليو قد نجح في إثارة القلاقل لأسرة الهابسبورج بفرعها في النمسا وأسانبا ، بل استطاع في النهاية أن يقلل من نفوذ هذه الأسرة . وأن يقطع شوطا بعيدا في إضعاف شأن أسانبا فقد أتاحت له هذه الفرصة أثناء حرب الثلاثين عاما التي اشترك فيها في بادئ الأمر بطريقة غير مباشرة ، عندما شجع كلا من ملك الدنمرك والسويد على خوض غمارها ضد الهابسبورج والكاثوليك معتمدا على أن كلا من الدولتين كانت على العقيدة اللوثرية ، كما اعتمد في ذلك على ما كان



لكل من الملكين الدانمركى ثم السويدى من أطماع سياسية فى الاشتراك فى هذه الحرب إلى جانب البروتستنت .

وفى عام ١٦٣٥ عندما لاحت بشائر السلام العام فى ألمانيا دخلت حرب الثلاثين عاماً فى طور حديد، تميزت فيه الحرب بفقدانها لذلك الطابع الدينى الذى تميزت به أصلاً ، واختتمت فى غمرة النضال بين أسرى الوردون والهيسبورج للسيطرة على أوروبا . يتبين ذلك من المعاهدات التى عقدت عندئذ ، ومن إعلان فرنسا الكاثوليكية الحرب السافرة على أسرة الهيسبورج بفرعها فى النمسا وأسبانيا .

عندما فقدت السويد ملكها وقائدها العظيم جستاف أدولف فى عام ١٦٣٥ ، رأى ريشيليو أنه يجب أن يتدخل جدياً فى هذه الحرب ، ولا سيما بعد هزيمة البروتستنت فى موقعة « نوردينجن » وكان يحشى أن يؤدى ذلك إلى انتهاء الحرب فى ألمانيا ، وضباب الفرصة على فرنسا فى خدمة أغراضها السياسية فى ألمانيا ، ومنع أسرة الهيسبورج من السيطرة على شئونها ، ولهذا الأسباب ، دخلت الحرب فى طور جديد يمتاز بفقدانه تلك الصفة الدينية التى كانت تميز الطور الأول إلى حد ما ، وأصبحت حرباً ذات أغراض سياسية بحتة ، وغدت دوراً من أدوار الصراع بين كل من أسرى الوردون والهيسبورج للسيطرة على أوروبا ، فأعلنت فرنسا الحرب على أسرة الهيسبورج بفرعها فى النمسا وأسبانيا عام ١٦٣٥ . ولا أدل على عدم الاكتراث بالناحية الدينية من التحالفات التى عقدت فى ذلك العام . التحالف بين فرنسا الكاثوليكية والسويد البروتستنتية « معاهدة كامبيير » Campiégne فى عام ١٦٣٥ وجمهورية هولندا البروتستنتية ضد ألمانيا اللوثرية والنمسا الكاثوليكية وأسبانيا الكاثوليكية . أما سافوى فقد كان سلوكها مذبذباً فى الحرب فهى تارة مع فريق وتارة أخرى مع الفريق الآخر .

ويعتبر ريشيليو الرعيم الأول لتلك الحرب القاسية المهلكة ، بل يسبب إلى هذا الكاردينال الكاثوليكي الفضل فى نجاح الحركة البروتستنتية فى ألمانيا بسبب ما قام به فى سبيل نصرتها . وكان فى سياسته تلك يهدف إلى العمل على إعلاء شأن الملكية فى فرنسا ، وتمكينها من الوصول إلى مكانة مهابة بين دول أوروبا العظمى ، وذلك عن طريق الحد من سلطان أسرة الهيسبورج ، ونجحت سياسته فى تحقيق الأغراض المرجوة منها إذ نتج عنها الحد من سلطان الهيسبورج فى ألمانيا والامبراطورية عندما

اعترف في صلح وستفاليا في عام ١٦٤٨ بالحرية للبروتستنت ، ومنح الأفراد والحكام الألمان مزيداً من الاستقلال والنفوذ على حساب الامراتور ، وعندما ترتب على هذه السياسة هزيمة أسبانيا وسقوطها كقوة لها كيانها في السياسة الأوروبية . وقد ظلت فرنسا في حربها ضد أسبانيا بعد انتهاء حرب الثلاثين عاماً مدة عشر عاماً أى إلى صلح البراس عام ١٦٥٩ .

انتصر السويديون في هذا الدور في عام ١٦٣٦ مما جعلهم يستولون على براندنبرج وبوميرانيا وسكسونيا وثورنجا . كما نجح الفرنسيون في الاستيلاء على الألزاس واللورين . وإذا كان ريشليو قد مات ١٦٤٢ قل أن يحى ثمار سياسته فإن خليفته مزران ( ١٦٤٣ - ١٦٦١ ) قد حى ثمار هذه السياسة ، عندما انتصرت قوات فرنسا بقيادة كونديه في موقعة « روكرا » Rocroy في الأراضى المنخفضة في عام ١٦٤٣ .

### عهد الوزير الأعظم مزران ١٦٤٣ - ١٦٦١

حت فرنسا ثمار سياسة ريشليو الحكيمة في عهد خليفته وتلميذه الوزير الأعظم مراد الذى سار على نهج أستاذه ، فاستطاع أن يحقق الأهداف التى كان يعمل سلفه من أجلها . فبلغت فرنسا بمقتضى صلح وستفاليا ١٦٤٨ ، مبلغاً عظيماً من السطوة والنفوذ . ويكنى أنها نجحت في تحطيم ألمانيا وإضعافها ، وكانت هذه هى السياسة التقليدية لفرنسا عندئذ ، وكانت تهدف إلى عدم قيام حار قوى على حدودها الشرقية وبمقتضى هذا الصلح حصلت فرنسا على الألزاس النمساوية وعلى « تول » و « متز » و « فردان » ، ولم تلت حتى ضمت إليها أملاكاً أخرى بعد مضي أحد عشر عاماً من تاريخ ذلك الصلح أى في عام ١٦٥٩ بمقتضى صلح الرانس الذى أنهى الحرب بين الأوروبيين في فرنسا وفرنس الجبسبورج في أسبانيا .

على الرغم من تلك الانتصارات العظيمة التى حققها مزران لفرنسا نتيجة لاشتراكها في حرب الثلاثين عاماً وقعت الثورة داخل فرنسا مهددت وحدتها ، وأثرت على مركز مراد وحملته بآذى الأمر غير قادر على قمعها والسيطرة على الأمور في فرنسا . وكان المتسلط على شئون فرنسا في تلك الفترة أجيبان عنها : الملكة آن النمساوية Anne of Austria ابنة فيليب الثالث وزوج لويس الثالث عشر والوصية على ابنها

الطفل الملك لويس الرابع عشر . أما الشخصية الثانية وهى الأبرز فكانت شخصية الكاردينال الإيطالى « مزران » Mazarin ، ذلك لأن الملك لويس الثالث عشر مات عام ١٦٤٣ عن طفل لم يتعد الخامسة من عمره . واستطاعت أمه أن تتخلص من المجلس الذى عين ليرشدها فى الحكم ، واعتمدت على مزران فى تسيير دفة الأمور فى فرنسا . كانت الأم الملكة آن مكروهة من الشعب لأنها أجنبية ولأنها استعانت بأجنبي فى تصريف أمور الدولة ، بالإضافة إلى ذلك كانت تصرفاتها وتصرفات وزيرها الأعظم مزران بغیضة إلى أمراء البيت المالک وإلى النبلاء وإلى برلمان باريس والشعب الباريسى ، أى أن سائر الطبقات قد كرهت الوصية كما كرهت مزران ، وراد فى كراهية النفوس لمزران ما استحدثته من ضرائب لتمويل الحرب أولا وفى ألمانيا ثم ضد أسبانيا ، تلك الحرب التى استمرت أحد عشر عاماً بعد صلح وستفاليا . ( ١٦٤٨ ) ، الذى أهى الحرب ضد ألمانيا .

كانت روح الثورة ظاهرة عامة فى أوروبا فى عام ١٦٤٨ ، إذ قامت الثورة فى نابولى وكتالونيا والبرتغال وإنجلترا . كان طبعياً أن تتأثر فرنسا بهذه الروح الثورية ، ف وقعت بها ثورتان عجبتان تعرفان ثورتي الفروند الأولى (١) والفروند الثانية . وكانت لهما آثارهما الخطيرة فى تعريض الملكية فى فرنسا للسخرة والخطر والاضمار .

كان مزران يسلك سياسة داخلية وأخرى خارجية لا تختلفان عن سياسة سلفه العظيم ريشيليو ، فقد كان كلاهما يعمل على تركيز السلطة فى يد الملكية فى الداخل ، كما كانا يعملان على رفع مكانتها ومركزها فى أوروبا عن طريق الانتقاص من سلطة أسرة الهابسبورج فى أوروبا . على أن خصومه لم يعترضوا على سياسته أو يهتموا بها ولكنهم كانوا يخالفونه فى رأى فيما يتعلق بسياسته الاقتصادية ، إذ اشتد السخط عليه بسبب تلك الضرائب التى استحدثها ، ومنها فرصه ضريبة على المساكن فى ضواحي العاصمة ، وكانت مسألة المراقبة الدستورية لشئون الملكية المتطرفة كذلك من عوامل

---

(١) الفروند : حرب أهلية وقعت فى فرنسا أثناء حادثة الملك لويس الرابع عشر بين عامى ١٦٤٨ و ١٦٥٢ . وكانت السلطة يومئذ لأمه الملكة آن للتساوية ووزيرها الكاردينال « مزران » Mazarin . وسمى القامعون بها باء « فروندور » Frondeurs . أى رماة المقايح نظراً لما حدث مرة فى إحدى المشاجرات فى الشارع .

الخلافاً . كانت هذه الآراء كلها ظاهرة عند الثائمين بحركة الفروند الأولى وعلى وجه الخصوص بين أعضاء برلمان باريس الذين تزعموا ثورة الفروند الأولى وأكسوها ذلك الجلال الذى لا يمكن أن توصف به ثورة الفروند الثانية .

### ثورة الفروند الأولى :

قامت كلا الثورتين ضد الملكية فى فرنسا ولكن كان لكل منهما أسبابها وقد تعارضت تماماً هذه الأسباب وللك فشكل الثورتان .

انضم أعضاء برلمان باريس إلى البلاء الثائرين فى الحركة الأولى ، وكانوا يدافعون عن قضية دستورية لها أهميتها ، نهضوا يكافحون فى سبيل الحرية المدنية والضمانات الدستورية ، وإدخال نظام الرقابة على الأموال العامة . ولم يكن فى الواقع برلمان باريس صالحاً للقيام بالإصلاح الدستورى لامن حيث تكوينه ولا اختصاصاته فقد كانت مهمته الرئيسية بل والوحيدة فى كثير من الأحيان قضائية ، فهو بمثابة المحكمة العليا . وكان أعضاؤه يصلون إلى مراكزهم عن طريق تراءى العضوية أو وراثتها وهكذا لم يكن للشعب ولا للملك نفوذ فى تعيين هؤلاء الأعضاء كان لهذا البرلمان اختصاص تشريعى واحد وهو خاص بتسجيل المراسيم الملكية وشروعات القوانين التى كانت لا تصبح نافذة إلا بعد تسجيلها فى برلمان باريس . اعتمد البرلمان على حقه هذا فرفض فى أغسطس ١٦٤٨ أن يسجل صريية الحرب التى قرضها مزران . واعتمد فى موقفه الجرىء هذا على رأى العام الثائر فى فرنسا بسبب الضرورية وغيرها من الالتزامات المهرقة . وأخذ يتقرب من الهيئات الأخرى التى تنزع من مجلس الملك مثل مجلس الحسانات ، ومجلس الجمارك وقد أعلنت تلك المجالس تأييدها لموقف البرلمان ، وطالبت بتخفيض الضرائب ، وعدم سجن أى شخص دون محاكمته ، وطالبت كذلك بإلغاء وطيفة عمال الملك فى الأقاليم بسبب ما وصلوا إليه من سلطان ونموذ .

وشجع الحكومة على اتخاذ اجراءات شديدة ضد متزعمى الحركة تلك الانتصارات التى حققها جيوش فرنسا على أسبانيا ، فنادرت الحكومة بالقض على زعماء الحركة بالبرلمان ، إلا أن الملك لم يلبث أن استسلم نتيجة لوصول أخبار إعدام شارل الأول ملك إنجلترا . وإذا كان مزران قد تراجع واستسلم بعض الوقت إلا أنه كان يستعمل

للضرب على أيدي الثوار . فعهد إلى «كونديه» Condé بقيادة القوات الحكومية التي حاصرت باريس . وأظهرت الأحداث أنه ليس هناك أى اتفاق في وجهات النظر بين أعضاء البرلمان والنبلاء . فقد أساء أعضاء البرلمان إلى قضيتهم بانضمامهم إلى النبلاء المتحدرين الذين أثاروا بدورهم عواطف غوغاء باريس ، أولئك النبلاء الذين كانوا يرغبون في أن يؤكد مجلس طبقات الأمة امتيازاتهم ويوسعها ، بينما كانت مطالب أعضاء البرلمان تختلف عن مطالبهم ، ولكل كراهيتهم المشتركة للكاردينال مزران دفعهم إلى الاشتراك معاً في هذه الحركة .

وفي عام ١٦٤٩ وقع اتفاق الصلح ، ووعدت الحكومة بتقديم بعض الترضيات فيما يتعلق ببعض المسائل المالية التي لن يلبث أن يسحبها مزران في أقرب فرصة مواتية .

أما ثورة القرون الثانية : فكانت أضعف مبدئاً من الأولى ، إذ لم تكن لها أغراض دستورية ، وإنما كانت من عمل الارستقراطية الغاضبة الساخطة ، وتنحصر في مجموعها في أطماع الأمير «كونديه» . بدأت في مطلع عام ١٦٥٠ باعتقال «كونديه» صاحب انتصار «روكروا» Rocroi «ولينز» Lens ، وقائد جيش الوصي على العرش في الثورة الأولى وكان ذلك الاجراء جريئاً من جانب مزران إذ كان «كونديه» رجلاً له قدره وشهرته وثروته . اتخذ مزران ذلك الاجراء عندما تبين خطورة ذلك الجندي المتعجرف . انفجرت في البلاد موجة عنيفة من الغضب ، وانضم القائد «تورين» إلى جانب النبلاء رعم طبيعته المسالمة والموالية للملكية ، وانضم شعب باريس الغاضب إلى الثائرين مطالباً بالإفراج عن «كونديه» والقص على مزران . فأحنى الأخير رأسه للعاصفة بادىء الأمر عندما أطلق سراح «كونديه» وانسحب إلى ما وراء حدود فرنسا في يناير ١٦٥١ . ولكنه أخذ يستعد لاسترداد مقاليد الامور إلى يده ويد الملكة الوصية على العرش في فرنسا . استطاع الجانب الملكي المغلوب على أمره عندئذ أن يستميل «تورين» ، وأن يعيده إلى حظيرته مما رجح كفة القوات الملكية . هزم «كونديه» عام ١٦٥٢ ، حارج أبواب باريس وكاد يقع في الأسر . لكنه استطاع أن يفر من فرنسا وينسحب إلى أسبانيا .

وفي ٢١ أكتوبر ١٦٥٢ عاد لويس الرابع عشر مرة أخرى إلى باريس ،

وانتهت حرب الفروند الثانية ، وقد خلفت هذه الثورة الهزيلة درساً انطبعت آثاره عميقة في وعى الملك الصغير . وتلك هي الأهمية الرئيسية التي كانت للفروند في تاريخ فرنسا . فلم ينس لويس الرابع عشر مطلقاً الإهانات التي نزلت به صيباً وتعرض الملكية للأسيار على يد النبلاء الثائرين . خرج من هذه التجربة بحكمة آتيتها أن فرنسا في حاجة إلى يد حديدية للملك مستبِد ، لا يثق في وزراء عظام ينهضون بأعماله ، ولكنه يعالج الأمور كلها بنفسه . وهكذا أدت اضطرابات الفروند إلى الحكم الفردي للويس الرابع عشر .

حظر عندئذ مرران على أعضاء البرلمان التدخل في الشؤون العامة لفرنسا ، كما أعاد نظام عمل الملك في الأقاليم ، أي أعاد الانظمة التي وضعها ريشيليو من قبله . وفي صلح البرانس ١٦٥٩ صدر العفو عن «كونديه» وسمح له بالعودة إلى فرنسا . أما سياسة مزران الخارجية . فقد كانت استثنافاً لسياسة ريشيليو ، فاستمر في العمل على تحقيق الخطة التي وضعها ريشيليو من قبل . وقد انتصرت الجيوش الفرنسية في الأراضي المنخفضة في موقعة «روكروا» Rocroi عام ١٦٤٣ ، وكان الأمير «كونديه» القائد المشهور هو صاحب ذلك النصر الحاسم . وهكذا تحقق النصر الأول للخطة التي وضعها ريشيليو في عهد خليفته مرران .

عندما تولى مزران شئون فرنسا بعد وفاة ريشيليو كانت فرنسا لا تزال في حربها ضد الهبسبورج في ألمانيا وأسبانيا فقد أعلن ريشيليو تلك الحرب منذ عام ١٦٣٥ (١) على أنها لم تتوقف ولم تنته عند عقد صلح وستفاليا Westphalia في عام ١٦٤٨ ، تلك المعاهدة التي عقدت بين فرنسا والإمبراطور فردناند الثالث . فقد ظلت الحرب قائمة بين فرنسا وأسبانيا ، وكانت كلاهما في حالة إعياء شديد .

لم يدخر مزران وسعاً في العمل على إضعاف شأن أسبانيا ، فأخذ يغذي الثورة في نابولي وكاتالونيا والبرتغال ، وهو لم يحجم في سبيل حمل عدوه على عقد الصلح عن التحالف مع الجمهورية الانجليزية التي استباحته دم ملك إنجلترا (شارل الأول) .

كان لذلك التحالف بين فرنسا و « اليفركرمويل » وقد أصبح ديكتاتوراً على إنجلترا (١٦٥٣ - ١٦٥٨) أثره في توحيد كافة فرنسا والعمل على إنهاء الحرب بينها وبين أسبانيا ، فتقدم جيش بيوريتاني الإنجليزي ليحارب تحت قيادة « تورين » فكانت في مارس ١٦٥٧ موقعة « الدن » Dunes الحاسمة التي هزمت فيها قوات أسبانيا هزيمة ساحقة . مهدت لإنهاء الحرب واستولى الانجليز على دنكرك لقاء مساعدتهم لفرنسا .

قامت بعد ذلك مفاوضات جديدة بين الطرفين لعقد الصلح ، فعقد صلح البرانس عام ١٦٥٩ . ويعتبر تنمة لصلح وستفاليا ، أي أنه أنهى تلك الحلقة الهامة من حلقات الصراع بين البوربون والهابسبورج في النصف الأول من القرن السابع عشر .

حققت فرنسا مكاسب بمقتضى هذا الصلح على حساب أسبانيا فاستولت على إقليم « روسيون » Roussillon في الجنوب وجزءاً من « أرتوا » Artois وبعض المدن على الحدود الشمالية الشرقية في بلاد « الفلاندرز » Flanders (أو « هنولت » Henault) و « لكسمبورج » Luxembourg .

وأهم من هذا الكسب المادى ما كسبته فرنسا من ناحية ازدياد مكانتها في أوروبا ، فقد كانت هي التي فرضت الصلح على ألمانيا عام ١٦٤٨ ، كما أنها قد أملت إرادتها على أسبانيا عام ١٦٥٩ . وصلى العفو عن « كونديه » وسمح له بالعودة إلى فرنسا ، وتم الاتفاق لتحسين العلاقات بين فرنسا وأسبانيا على أن يتزوج لويس الرابع عشر من الأميرة الأسبانية « ماريا تريزا » Maria-Theresa كبرى بات فيليب الرابع . وتنازل لويس الرابع عشر في ذلك العقد عن كل ما يخص زوجته من أملاك أسبانية أو من حق في عرش أسبانيا . ولكنه اشترط أن يكون ذلك لقاء مبلغ كبير من المال تدفعه أسبانيا . ولما لم تقم بسداد ذلك المبلغ فقد اعتبر لويس الرابع عشر نفسه غير مقيد بتعهداته . وقد شغل الملك بتلك المسألة جزءاً كبيراً من حياته ، فكان للصلح نصراً عظيماً لمرزان الذى لم يعيش طويلاً بعده ، إذ مات عام ١٦٦١

-١٩٤-

عند موت مزران قرر لويس الرابع عشر أن يحكم فرنسا بنفسه . وقد اشتهر عصره بأنه كان عصر عظمة فرنسا وأبتها . وامتاز هذا العصر إلى جانب عظمته في النواحي الأدبية والفلسفية والإصلاحية بأنه كان عصر حروب مستمرة أراد بها لويس الرابع عشر أن يكسب لفرنسا مكانة ممتازة في أوروبا .





## الفصل الثالث

عصر لويس الرابع عشر

( ١٦٦١ - ١٧١٥ )

عند موت مزران في ٩ مارس ١٦٦١ كان لويس الرابع عشر يبلغ الثالثة والعشرين من عمره ، وقد أظهر منذ البداية اتجاهه نحو الانفراد بالحكم والتحكم في كيفية إنفاق أموال الدولة ، استعان في الحكم بثلاثة من المستشارين ، «أوتلييه» Le Tellier للشئون الحربية و «ليون» Lionne للسياسة الخارجية و «فوكيه» Fouquet للشئون الاقتصادية ، وكان مركز «فوكيه» حرجاً بسبب انعدام ثقة الملك في سلوكه ، ولا أدل على ذلك من أن الملك عين كولبير مساعداً له إلا أنه لم يلبث أن حل محله .

سوء الحالة الاقتصادية : كان اقتصاد فرنسا متدهوراً للغاية ، فبلغت ديون فرنسا ما يزيد على أحد عشر مليوناً من الجنيهات ، ولم تتخذ أية إجراءات لتسديد هذه الديون على أقساط ، وزاد الموقف المالى سوءاً أنه لم يحصل عن ضريبة العقار أو «التاي» المبالغ المتوقعة لسد حاجيات الدولة ، وراد عبء الضرائب على الطبقات الدنيا التي كان يقع على عاتقها النصيب الأكبر منها سبب رداءة الحصول مما هدد بالثورة التي قام بها بالفعل بعض صغار الفلاحين ، لكن أحمدت نازها بالقوة . وانخفضت قيمة العملة الفرنسية إذا قورنت بالعملتين الأسبانية وال هولندية ، واختل الميزان التجاري بفرنسا .

اهتمام لويس الرابع بالإصلاحات الاقتصادية : على أن موارد فرنسا المتعددة وطاقاتها الواسعة وكثرة عدد سكانها ، كل هذه الأمور كانت كفيلة على الرغم من تخلفها عندئذ في الصناعة والزراعة بأن تجعلها تنهض باقتصادياتها . فقد كانت أكثر دول أوروبا القومية سكاناً ، ففيها حوالي خمسة عشر مليوناً من المواطنين

الذين يعملون في فلاحه الأرض ، وما يزيد على خمسة ملايين يرتزقون من ريع أراضيهم أو من مكاسبهم في الصناعة والتجارة ، أو من مرتبات يتقاضونها لشغلهم بعض المناصب الإدارية وغيرها .

وعندما بدأت حركة الإصلاحات الاقتصادية في فرنسا أثناء أعوام الستينات ١٦٦٠ ، استغل لويس الرابع عشر أولئك الإداريين الذين درجهم مزران في هذا المجال ، وعلى رأسهم الوزير « كولبير » الذي حل محل « فوكيه » ، كما استفاد من جهود طائفة من الفنانين ممن كان كل من مزران وفوكيه يشجعانهم ، ومنهم المعماريون والنحاتون والرسميون .

وقد كان للاستقرار الذي حققه لويس الرابع عشر لبعض الأوضاع القائمة أثره في نجاح الإصلاحات الاقتصادية . فكان الملك وحده صاحب الحق في تعيين أعضاء « المجلس الأعلى » Conseil d'en haut ، وكان عدداً أعضائه يتراوح بين ثلاثة أعضاء وخمسة يستدعيه الملك إذا كان في حاجة إلى نصحه ورأيه . استعان لويس الرابع عشر في أمور الحكم بمندوبي الملك في الأقاليم الذين اشتهر أمرهم في عهد كل من مزران وریشيليو . أصبحوا في عهد لويس الرابع عشر حكاماً مقيمين في الأقاليم ، ثابتين في مراكزهم حتى يكونوا على بينة بكل ما يجري في نواحيهم ، بينما كانوا في العهدين السابقين مفتشين متنقلين بين أقاليمهم وعاصمة البلاد حيث مقر الحكومة المركزية .

كاد الإصلاح الرئيسي الذي شاهدته الستينات ( ١٦٦٠ ) في فرنسا يرتبط بصفة خاصة بالإقتصاد والمسائل المالية . تأثرت ميزانية فرنسا كثيراً بسبب ما أنفقت من أموال كثيرة في المدة السابقة لحكم لويس الرابع عشر : أثناء محاربة ریشيليو في العشرينيات ( ١٦٢٠ ) ، وعند مقاومة مزران لحركتي الفروندي في الأربعينيات ( ١٦٤٠ ) والخمسينيات ( ١٦٥٠ ) ، وهكذا على الرغم من إمكانيات فرنسا الواسعة وطاقاتها الكبيرة وعدد سكانها الكبير ، فلما قد تخلفت عن كل من منافستها إنجلترا وهولندا في ميدان التجارة وميدان التوسع فيما وراء البحار ، ولا يغوتنا أن نذكر أن كلا من الدولتين قد نجت من التورط في حرب الثلاثين عاماً التي كلفت فرنسا الكثير من المال والجهد .

على أن الإحراعات العديدة التي اتخذت للنهوض باقتصاديات فرنسا وأحوالها

المالية عندئذ كانت حكيمة للغاية وموفقة ، فاستحقت ثناء رجال الاقتصاد فيما بعد كما استحققت تقريظ كتاب الإقتصاد كذلك : فقد أحييت المصانع القديمة وأنشئت كذلك مصانع جديدة . وكان اهتمام الملك بإقامة القصور الملكية ، وتزويدها بكل ما يليق بها من متاع وأدوات للزينة كما نشاهد في « فرساي » وفي « مارلي » Marly عاملا مساعداً ومشجعاً على إتاحة فرص كثيرة ومتعددة لبعض الصناعات الفرنسية مثل « الجوبلان » و « المرايا » و « المنسوجات الرقيقة الرائعة » ، كما أن ذلك الإهتمام قد فتح مجالات متعددة لعدد كبير من الرسامين والمثاليين والمصورين . وللآلاف من المشتغلين بصناعة الأثاث والأدوات الفصينة وغيرها من الصناعات المرتبطة بتزيين القصور .

ثم إن حياة القصر الحافلة بالمسرات . الراحرة بالاحتفالات قد أتاحت فرصة العمل للكثيرين من المشتغلين بصناعة الدانتيل والتطريز والتفصيل والحياطة وصناعة الخلى والأحذية والقبعات . واشتهرت بعض هذه الصناعات التي صدرتها فرنسا للخارج مثل الساعات والمنسوجات الرقيقة والدانتيل والقطع الفنية الرائعة ، وبذلك أضافت فرنسا إلى صادراتها التقليدية من نبيذ ومنسوجات خشنة رصيداً جديداً من الصادرات التي عادت عليها بالربح الوفير .

وأنشئ عدد كبير من الشركات التجارية في حوض بحر الميطيق وفي البحر المتوسط وفي منطقة الهند الشرقية والعالم الجديد . وكان لويس الرابع عشر من أكبر المشجعين لهذه الشركات فساهم فيها بأمواله ، كما شجع النبلاء على المبادرة بالإسهام فيها والإقبال على عقد الصفقات التجارية الكبيرة في عرض البحار . ولا ننسى أن احتياجات الجيش والبحرية المتزايدة قد ساهمت في زيادة إنتاج الملابس الرسمية الخاصة بأفراد كل منها ، وكذلك لإنتاج الأسلحة والبنادق والسفن .

#### اهتمام لويس الرابع عشر بالجيش والبحرية :

أما الأمر الثاني وقد بدأ في نفس الوقت الذي بدأ فيه العمل على تحسين أحوال فرنسا الاقتصادية والمالية وكان نجاحه يترتب على نجاح الإصلاح الاقتصادي ، فقد كان يتعلق بإصلاح الجيش وإنشاء البحرية . قام « لوتلييه » Le Tellier ، بكثير من الاجراءات المبدئية بصدد ذلك ، وكان الأمر يقضى عندئذ تنظيم الجيش وتحويله إلى أداة فعالة لتحقيق سياسة التناح ، وكان ذلك يحتم القضاء على فكرة أن

الضباط النبيل هو صاحب الفرقة والمسيطر عليها حتى لا تتكرر أحداث الفروند ، وجعل أمر تدريب الضباط في المستقبل تحت إشراف الحكومة ، كما كان ذلك النظام الجديد يهدف إلى أن تكون المهارة والشجاعة والتفوق في الجيش هي وسائل الترقى فيه ، وليس مجرد الإلتواء إلى طبقة النبلاء . وليس معنى ذلك أن لويس الرابع عشر كان ضد النبلاء وارتقاؤهم مناصب عليا في الجيش بل أراد أن يعظم الجيش بكفاءات جديدة لاتسدها الطبقة .

وظل الجيش في أوائل الستينات ( ١٦٦٠ ) قليل العدد بسبب الصهوبات الاقتصادية ولكن لم تلبث أن ازدادت أعداده كنتيجة حتمية للحروب التي خاضها لويس الرابع عشر . وقد أصبح عدد أفراد الجيش بما فيها الحرس الوطني أثناء حرب الوراثة الأسبانية حوالي ٣٥٠,٠٠٠ مقاتل ، إلا أن هذا قد خفص بعد الانتهاء من الحرب ، بينما كان الجنود المتبقون في الجيش يستخدمون في أداء واجبات مختلفة أثناء السلم ، كانوا يعملون في بناء الحصون وإصلاحها كما كانوا يساهمون في أعمال الحفر وبناء القصور الملكية .

وإذا كان الجيش يدين خاصة « للوتيليه » Le Tellier وابنه « لوفوا » Louvois و « مارتنيه » Martinet و « فوبان » Vauban فإن مسئولية البحرية كانت تقع على عاتق « كولبير » Colbert وابنه « ستيجنيلي » Steignelay . وقد ازداد عدد السفن فبعد أن كانت في ١٦٦١ تبلغ عشرين سفينة مزودة بستين من رجال الحرب البحريين أصبحت في ١٦٨٨ - ١٤٠ سفينة بها ٢٣٠ من هؤلاء ، وارتبط بهذا نمو البحرية التجارية ولاسيما في منطقة جزر الهند الشرقية التي كان يستعان بها أثناء الحروب . وقد كان كولبير مدر كلاً لأهمية الصلة بين البحرية ونمو المستعمرات ، ولذلك أصبحت المستعمرات الفرنسية تنوع وزارة البحرية . وكان لتوحيد إدارة البحرية التجارية والبحرية العسكرية وجعلهما تحت سلطة واحدة أثره في تسهيل عملية اشتراكهما في الحرب بعد عام ١٦٩٢ ، وبعد عام ١٧٠٤ عندما اضطرت فرنسا أن تواجه للقوى البحرية لانيجلترا وهولندا مجتمعة .

وإلى جانب ذلك كان هناك أسطول الغلايين في كل من « برست » و « طولون » . وكان يستخدم في البحر المتوسط بصفة خاصة لحماية ثغر مرسيليا من خطر قراصنة شهاب مريشيا . كما كان هناك أسطول صغير من الغلايين في « روشفور » Rochefort .

ليستخدم في الدفاع عن المياه الغربية والشمالية الغربية ، على أن استخدام الغلايين أصبح صعباً نظراً لقلة عدد الرقيق الذين كانوا يعملون في تسيرها .

### اهتمام لويس الرابع عشر بالعلوم والفنون :

لم يكن اهتمام لويس الرابع عشر بالعلوم والفنون بأقل من اهتمامه بالقوات المسلحة بل كان شغوفاً بالتقدم العلمي وازدهار الفنون .

اهتم بالأكاديمية الفرنسية التي أسسها ريشليو عام ١٦٣٥ . وأصر بأن يصبح كل من « راسين » Racine و « بوالو » Boileau من بين أعضائها ، ونجح في ذلك . وقد عهد إلى الأكاديمية بتأليف معجم في اللغة الفرنسية وظل العمل مستمراً فيه حتى عام ١٦٦٣ عندما أنشأ لويس الرابع عشر « الأكاديمية الصغرى للرسم والميداليات » La Petite Academie des Inscriptions et Médailles . وكانت عندئذ تتكون من أربعة أعضاء فقط لإنجاز الأمور العاجلة : للكلمات المدونة على العملات ، والميداليات والتمائيل ومراجعة الأشعار والقطع الثرية المهداة إلى الملك لتأكيد لياقتها لعظمته ، ومهما قبل عن أهمية هذه الأكاديمية فإن للعرض الرئيسي منها كان الهوض بمستوى اللغة الفرنسية عندما تستخدم في المناسبات الرسمية .

وفي عام ١٦٦٥ أسست « مجلة العلماء » فكانت المجال الذي أوسع صفحاته للتأليف العلمي العمل المفيد في تقدم النهضة الصناعية . وفي ١٦٦٦ تأسست أكاديمية العلوم ( من خمسة عشر عضواً ) ، وشجعت التأليف العلمي في العلوم الطبيعية ، ودعمت بحوث العلماء الأجانب داخل فرنسا : ونذكر على سبيل المثال العالم الهولندي « هويجنز » Huygens والعالم الملكي الإيطالي « كاسيني » Cassini والعالم الدنمركي « رومر » Romer .

ويتضح اهتمامه الشخصي بالفنون في تأسيسه لأكاديمية التصوير والعمارة عام ١٦٧١ ولم يقتصر تشجيعه المادى على الفنانين الفرنسيين وحدهم بل عداهم إلى الاحانب بصرف النظر عن موضوعات أعمالهم الفنية .

## لويس الرابع وأوروبا :

احتلت المشاكل الداخلية في بداية حكم لويس الرابع عشر المطلق مكانة كبيرة . وكما لوح للدوفين في تعليماته له بأن كل شيء في أوروبا كان يلوح هادئاً ، فقد أعادت معاهدتا وستفاليا والبرانس السلام إلى أوروبا . على أن الحالة في أوروبا لا يمكن أن تستمر جامدة ، وقد كانت سياسة فرنسا الخارجية وعلاقاتها الأوروبية دائماً الشغل الشاغل للملك فرنسا . وقد شغل لويس الرابع عشر بأربع حروب ( ١٦٦٧ - ١٦٦٨ ) و ( ١٦٧٢ إلى ١٦٧٨ - ١٦٧٩ ) ، ( ١٦٨٨ - ٩ إلى ١٦٩٧ ) ، ( ١٧٠٢ - ١٧١٣ - ١٧١٤ ) ، تمخلت الاصلاحات الداخلية وأوقعتها بعض الوقت . ولم يكن السبب الذي دفع إلى هذه الحروب بعيداً . فقد نجحت فرنسا في أن تمتد حدودها شمالاً وشرقاً ، ولكن كان من السهل بمكان مهاجمة هذه الأملاك عن طريق أودية الانهار الجارية جنوبي الاراضي المنخفضة والحواس الأدي لنهر الراين ، وعن طريق اللورين وثغرة « بلفور » Belfort في إقليم برجنديا وخلال ممرات سافوا . هذه المواقع كانت حساسة للغاية بالنسبة لفرنسا وأمنها . وعلى ذلك كانت سياسة لويس الرابع عشر الخارجية في كثير من الاحيان دفاعية حتى عندما كان يشأ عنها الحرب .

ولكن استعادة فرنسا لقوتها وتصميم لويس الرابع عشر ووزرائه على استغلال موارد فرنسا كان ذلك كله يتسبب في خفاق مشاكل الدول الأوروبية . كما أن جهوده المتصلة للنهوض بالقوة البحرية لفرنسا حتى لاتتفوق عليها القوى البحرية الأوروبية في الميادين التجارية والمغامرات الاستعمارية قد ووجعت بكل مقاومة كل ذلك جعل فرنسا قوة خطيرة يخشى منها على استقرار الأمن الأوروبي .

## العلاقات بين فرنسا والامبراطورية :

توترت العلاقات بين فرنسا والإمبراطور منذ عقد صلح وستفاليا ١٦٤٨ . ويمقتضى هذا الصلح تعهد الامبراطور فرديناند الثالث بالأبقاء على أي مساعدة لفليب الرابع ملك أسبانيا في حربة ضد فرنسا . ولكن قل أن يمضي وقت طويل أرسل الإمبراطور حيشاً ليحارب إلى جانب الاسان في الاراضي المنخفضة الجنوبية . وكانت الإمبراطورية مجهدة بسبب الحروب التي اضطرت إلى خوضها في ألمانيا.

- ٢٠١ -

كما كانت دويلات الراين يخشى على سلامتها فكانت حلفا منها أعلنت اتباعه سياسة الحياد . ونجح مزران في أن يدخل فرنسا ضمن « أعضاء تحالف الراين » League of the Rhine . وقد أكدت إحدى مواد التحالف بالانضمام الإمبراطورية أى معونة مالية أو عسكرية لاعداء فرنسا . وكان الإمبراطور ليوبولد قد خلف أباه على عرش الإمبراطورية في يولييه ١٦٥٨ ، ولم يجدد هذا التحالف بعد صلح البرانس على الرغم من محاولات لويس الرابع عشر في عام ١٦٦٥ . لم تكن ولايات الراين في حاجة إلى أى مساعدة رهن السلم ، وقد كانت تعتمد بالنسبة لمركزها داخل الإمبراطورية على ضمانات فرنسا والسويد .

### حرب الملكة والاستحقاق:

وقد أثارت الحرب التي بدأها لويس الرابع عشر مطالبا بحقوق زوجته في عام ١٦٦٧ ، موجة عداوة ضده في الإمبراطورية ، حيث كان الرأي السائد بأن ملك فرنسا قد كسب بمقتضى صلح البرانس عام ١٦٥٩ ما فيه الكفاية وكان عليه من أجل ذلك أن يتغاضى عن عدم حصوله على المال الذي وعد به عند زواجه من الأميرة الأسبانية . وقد أثار هجوم القوات الفرنسية على الأراضي المنخفضة الأسبانية كبير أساقفة « تريير » Trier خاصة كما أثار هجومها على « الفرانش كونيته » Franche-Comté ضيقاً وامتعاضاً لسكان الراين .

نجحت قوات فرنسا في هذه الحرب في الاستيلاء على سلسلة من المدن الفلمنكية مثل « شرلروا » Charleroi و « أرمنتيير » Armentières و « تورنى » Tournai و « دوى » Douai و « ليل » Lille ، وهى مواقع لارالت توجد إلى اليوم داخل حدود فرنسا الشمالية .

على أن هذه الانتصارات السريعة أثارت مخاوف أوروبا ، فتكون التحالف الثلاثى من هولندا والسويد وإنجلترا لمقاومة تقدم القوات الفرنسية . وبدلاً من أن يقاوم لويس الرابع عشر تهديداً في صلح « أكس لاشابل » Aix la Chapelle عام ١٦٦٨ أن يرد إلى أسبانيا ما كسبه من مواقع فيما عدا المواقع المذكورة فيما تقدم أى في الأراضي المنخفضة الأسبانية .

## الحرب ضد هولندا :

ظل السلام سائداً حتى عام ١٦٧٢ عندما بدأت فرنسا حربها ضد هولندا فقد كانت المنافسة التجارية بين الدولتين كبيرة ، كما أن نشاط هولندا التجاري كان أكبر معوق لنمو فرنسا ونشاطها التجاري الذي رسمه لها كولبير . وكانت هولندا كذلك ملاذاً للمضطهدين الدينيين والسياسيين من أبناء فرنسا . ثم إن لويس الرابع عشر لم يكن ليغفر لهولندا انضمامها الى التحالف الثلاثي ضده عام ١٦٦٧ .

بدأ لويس الرابع عشر بتعزيز التحالف الثلاثي ف عقد مع شارل الثاني ملك إنجلترا ما يعرف بمعاهدة دوفر السرية ١٦٧٠ ، تعهد بمقتضاها ملك إنجلترا بمساعدة لويس الرابع عشر عندما يدعو إلى ذلك ، واتصلت السويد عن المحالفة بعد حصولها على بعض المال . وعندئذ أصبح الهولنديون وحدهم يواجهون خطر الهجوم الفرنسي . عبرت الجيوش الفرنسية نهر الراين واستولت على كثير من المدن واتلحاح حتى أصبحت على مقربة من « أمستردام » . قامت عندئذ ثورة داخل هولندا ترتب عليها استبعاد حاكمها « ديوييت » De Witt واستدعاء وليم أورنج ( وهو الذي سيصبح وليم الثالث ملك إنجلترا في عام ١٦٨٨ ) ليتقلد زمام أمورها وسط تلك الظروف الصعبة .

نجح وليم أورنج في تكوين تحالف من هولندا وأسبانيا وبراندنبرج كما تعهدت الإمبراطورية بمقاومة لويس الرابع عشر . واضطر شارل الثاني ملك إنجلترا تحت تأثير الرأي العام الإنجليزي إلى نقد تحالفه مع لويس الرابع عشر وأن يتحد بعد ذلك بقليل مع أعضاء الحلف الجديد .

على أن فرنسا كانت في مركز قوى جداً بسبب انتصاراتها العديدة وتفوق قواتها فوافقت على شروط صلح « نيمجن » ١٦٧٨ - ١٦٧٩ ، تنازلت بمقتضاه أسبانيا عن إقليم « فرانش كونتيه » Franche-Comté لفرنسا ، وكان نصيب فرنسا من وراء هذا الصلح كبيراً حتى أن الفرنسيين لقبوا ملكهم لويس الرابع عشر « بالمعظم » Le Grand . ولكن الملك ومستشاريه كانوا يقلرون مدى ضعف مركز فرنسا ولاسيما على حدودها الشرقية .

أما بالنسبة لشمال فرنسا فقد نجح « فوبان » Vauban في أن يبني الحاجز الحديدي Barricre de fer الذي صممه من قبل ، وأتاح له انتصارات فرنسا وحصولها



على بعض المواقع الهامة في هذه المنطقة فرصة التنفيذ . وكان هذا الحاجز يتكون من قلاع تربطها قنوات وجار مائية ، وقد أثبت قوة مقاومته عندما تعرضت فرنسا للغزو من الشمال .

#### مكاسب جديدة لفرنسا :

كانت فرنسا تهدف إلى تحقيق خط دفاع قوى على حدودها الشرقية على غرار ما حققته في الشمال . كان نهر الراين والموزيل يكونان حاجزاً طبيعياً على حدود فرنسا الشرقية ، ولكن هذه الحدود لم تكن آمنة تماماً بسبب نفوذ الإمبراطور في بعض مناطقها مما جعل فرنسا تهتم بتقويتها . واستخدمت في هذا السبيل المحاكم المحلية المعروفة « بمجالس الضم » Chambers of Reunion لكي تقرر مدى حقوق الملك في الألزاس والأسقفيات الثلاث و « فراش كونتية » ، ولما كانت لغة المدافع على استعداد دائماً لتعويض ما يفعله القانون . فإن نتائج ذلك التحقيق الذي لا نظير له كانت مرضية للمجلس . فنحت فرنسا السيادة التامة على الألزاس وأكملتها بالاحتلال الحربي لمدينة ستراسبورج ( سبتمبر ١٦٨١ ) . وخرج لويس من هذه الحرب القصيرة التي أثارها هذه الإجراءات التعسفية مكللاً بمجاح ملحوظ . ولم يكن الإمبراطور - بسبب انشغاله بالغزو التركي الذي كان يشق طريقه إلى أبواب فيينا - في حالة تمككه من تقديم عون ذي أثر لدول التحالف الثلاثي في عملياتها الحربية .

أساء ذلك التوسع الفرنسي في ألمانيا إلى الإمبراطور والألمان في آن واحد ، ولذلك بادر الإمبراطور إلى دعوة الدايت الألماني إلى الاعتقاد في « راتشون » Ratisbon عام ١٦٨٤ لينظر في الأمر ، وبصع حذاً لأطماع لويس الرابع عشر في ألمانيا . وهنا استخدم ملك فرنسا التهديد ملوحاً بقوته العسكرية ، فاضطر الدايت أن يعترف بالأمر الواقع . ولذلك يعتبر عام ١٦٨٤ الذي انتصر فيه لويس الرابع عشر على الدايت الألماني قمة القوة والسيطرة التي بلغتها فرنسا في عهده .

ومما لا شك فيه أن لويس الرابع عشر قد اعتمد في العهد الأول من حكمه عندما تفوقت قواته على أوروبا على ميول ملوك أسرة استيوارت تجاه فرنسا ومحاولة الملكين الأخيرين فيها تقليد ملك فرنسا في اتباع اتجاهاته السياسية والدينية . وقد كان كلاهما يدين بحق الملك المقدس . كما كان كل منهما على العقيدة الكاثوليكية وإن كان شارل الثاني لم يجهر بها ، بينما أعلنها خليفته وأخوه جيمس الثاني .

## حرب الوراثة الأسبانية (١٧٠٢ - ١٧١٣)

كان ملك أسبانيا شارل الثاني مريضاً منذ سنوات عديدة لا أمل في شفائه ولا في وريث يخلفه على العرش ، كان من المتوقع أن موت هذا الملك سيتسبب في مشكلة عويصة ، من يحكم الإمبراطورية الأسبانية العظيمة التي سيخلو عرشها بموت هذا الملك ، فالممتلكات الأوروبية التي كان يملكها الفرع الأسباني من أسرة الهابسبورج كانت إمبراطورية شاسعة تضم بين جوانبها ميلان وبابولي وصقلية وسردينيا وجزر البليار ، والأراضي المنخفضة الأسبانية وأسبانيا نفسها . على أن الأملاك غير الأوروبية كانت أكثر اتساعاً فهي تضم جزر الفيلبين والكناري وكوبا والمكسيك وفلوريدا وكاليفورنيا وبها ، وكذلك أقاليم أمريكا الجنوبية باستثناء حيانا والبرازيل البرتغالية .

أحوال أسبانيا .

طلت أسبانيا تتمتع بقوتها ومركزها في أوروبا خلال القرن السادس عشر بل وكذلك أثناء القرن السابع عشر . فقد أثبتت حتى منتصف هذا القرن عظمتها مواهبها العسكرية . بينما كان لغنائها وكتابتها الفضل في جعلها من أميز وأعظم دول أوروبا عندئذ . ولكن مما لاشك فيه أن ضعفها كان واضحاً في نهاية القرن السابع عشر ، وأن هذا الضعف يرجع إلى عدة عوامل تتعلق بنظمها السياسية والاجتماعية .

وعلى الرغم من اختلاف الآراء في بواعث وأسباب هذا الضعف فما لاشك فيه أن هناك عوامل متعددة قد تضافرت على تدهورها وإضعاف قواها .

### أولاً - نظمها المالية :

فقد كانت يومئذ أسوأ الأنظمة المتبعة في أوروبا ، فكانت الحكومة تعاني من الامتيازات المالية العديدة للكنيسة ورجائها والبلاء ، تلك الامتيازات التي كانت فرنسا تعاني منها كذلك حتى وقوع أحداث الثورة الفرنسية . كما أن أسبانيا كانت تقاسي كذلك من مساوئ أخرى في نظم مالية خاصة بها ، فنظام الضرائب المتبع فيها كان فيه قضاء على الصناعات المحلية دون أن يتسبب في ازدياد دخل الدولة .

### ثانياً - أحوالها الفكرية :

ترجمت أسبانيا في القرن السادس عشر وبداية القرن السابع عشر حركة مقاومة البروتستنتية والتعصب للكاتوليكية ، وكان هذا الاتجاه يلائم خلق الشعب الأسباني وسلوكه ولكن نتج عن انتصار الكاثوليكية انتصاراً تاماً بين أرجائها ، وعن وسائل الإرهاب التي اتبعتها الكنيسة فيها باستخدام محاكم التفتيش وغيرها من الوسائل التعسفية ؛ نتج عن ذلك كله طغيان واستبداد فكري شديد الخطورة . فعندما بدأت الحركة العلمية تزدھر في أوروبا ، وتنتشر في ربوعها المختلفة ، أكسبت يقاعها قوة وثروة لم يكن هناك أى احتمال لنجاح هذه الحركة العلمية في أسبانيا ، حيث لم يكن التفكير الحر مباحاً في المسائل السياسية أو الفكرية أو العلمية أو الدينية . ومع ذلك ففي القرن السادس وبداية القرن السابع عشر بدأت في داخل أسبانيا حركة فكرية أدبية وفنية لانظير لها ، ولكنها سرعان ما انطفأت ونجت في منتصف القرن السابع عشر . فعادت أسبانيا إلى الظلام الفكري والسياسي .

### ثالثاً : أنهكت أسبانيا في العمل على تحقيق مشروعاتها الاستعمارية الواسعة :

يضاف إلى ما تقدم أن أسبانيا ظلت طوال القرنين الماضيين منهكة في مشاريع واسعة النطاق للتوسع والاستعمار في أنحاء العالم المختلفة . فاتجهت أطماعها إلى غزو الأمريكيتين واحتلالها ، كما كانت تطمح في بسط سيطرتها على إيطاليا ، ونجحت في ذلك . ولم يكن اهتمامها بحرب الثلاثين عاماً أقل من اهتمام النمسا ، وحاربت أعواماً طويلة لتعيد سيطرتها على الأراضي المنخفضة ولتغزو إنجلترا ، ونتج عن نضالها هذا في الميادين المختلفة كثير من الانتصارات والأعهاد الحربية العظيمة ، ولكنه أنهك قواها الحربية ، وتسبب في تدهور أحوالها المالية وانصراف ملوكها عن الاهتمام بإصلاح أحوال الشعب الأسباني ، وتسبب كل ذلك في إهمال تقوية الأساس الذي كان يتحتم على هذه الإمبراطورية الواسعة أن تقوم عليه . وهكذا تبين للتاريخ أن التوسع في المشاريع الاستعمارية قد تكون نتائجه عكس ما يريد المستعمرون .

### قيمة شارل الثاني في أسبانيا :

أثبت التاريخ أن عهد شارل الثاني كان نكسة على أسبانيا ، فلم يكن - لمرضه الذي

- ٢٠٩ -

غطى أيامه كلها - بقادر على تصريف أمور الحكم لأنه لم يدرك مشاكل شعبه . وقد أصيب في أواخر أيامه بالبله والسفه . ولذلك طلت أوروبا خلال ثلاثين عاماً مشغولة بمسألة هامة وهي مصير أملاك أسبانيا الواسعة بعد موته .

ولم يكن ذلك بالأمر اليسير ؛ فلم يكن لشارل الثاني وريث مباشر يخلفه على العرش ، ولو كان له وريث فلن أطاع الطامعين من ساسة أوروبا ما كانت لتجعل هذا الملك العريض يؤول إليه دون نضال وحرب . وكان هناك باختصار مطالبون ثلاثة بأحقيتهم في هذا الإرث العظيم :

١ - حفيد لويس الرابع عشر من زوجته ماريا تريزا ابنة فيليب الرابع ملك أسبانيا .

٢ - الإمبراطور ليوبولد الثاني وهو ابن ماريا أخت فيليب الرابع ، وكان يطالب بالملك الأسباني لابنة شارل . وكان لويس الرابع عشر أقوى مركزاً من حيث صلته بالملك الأسباني .

٣ - منتخب بيت بافاريا « ماكس إيمانويل » Max Emmanuel وقد تزوج من حفيدة فيليب الرابع .

اهتم وليم الثالث ملك إنجلترا بهذه المشكلة التي لو حلت في صالح فرنسا لجعلت لويس الرابع عشر يسيطر على ملك عريض . ولما لم يكن الشعب الإنجليزي على استعداد لدخول حرب جديدة ، فقد كان عليه أن يلجأ إلى وسائل دبلوماسية . فبدأ وليم يقاوض لويس الرابع عشر ، واقترح عليه مشروع اتفاقيتين على توزيع هذه الأملاك ، فعل ذلك دون أن يستشير أسبانيا ملكاً وشعباً . وكان للرأى في الاتفاقية الأولى أن تؤول أملاك أسبانيا إلى منتخب بافاريا ، لأن ذلك لن يترتب عليه زعزعة التوازن الدولي في أوروبا . بينما تحصل كل من النمسا وفرنسا على بعض الأملاك الاستعمارية الواسعة . ولكن هذه الاتفاقية لم تنفذ بسبب موت منتخب بافاريا . فأعدت اتفاقية تقسيم ثابته ، مقتضاها أن تؤول أملاك أسبانيا هذه المرة إلى الأمير النمسي شارل ، الابن الثاني للإمبراطور ليوبولد على حين تحصل فرنسا على أملاك أسبانيا في إيطاليا . وبينما كانت المفاوضات تجري مع وليم الثالث ، كان سفير فرنسا في مدريد يحاول التأثير على ملك أسبانيا وبلاطه . ولم يكن عجباً أن يظهر بعد وفاة شارل الثاني أنه كان قد أوصى بأملاكه جميعاً لخفيد لويس الرابع عشر « دوق أنجو » .

وهنا تبين للويس الرابع عشر أن وصية شارل الثاني أجدى على فرنسا من اتفاقية التقسيم الثانية ، ولما كان الامبراطور النمساوى قد رفض التوقيع عليها ؛ فقد كان عليه أن يستعد للحرب . فوسع بحاقته نطاقها إذ كان تسرعه في إعلان نيته بأن يكون الحفيده عرشاً أسبانياً وفرنسا أثره في إثارة دول أوروبا . ولم تقف حماقته عند هذا الحد ؛ بل إنه أعلن عزمه على توحيد الجيوش الفرنسية والأسباني . وبأمر بإرسال الحاميات الفرنسية إلى مدن الأراضي المنخفضة الأسبانية ، وأساء إلى شعور الانجليز عندما اعترف بابن جيمس الثاني ملكاً عليهم على الرغم من تعهده في صلح ررويدك بعدم مساعدة أى فرد من أسرة استيوارت للعودة إلى عرش إنجلترا . فآثار بذلك الشعب الانجليزى إلى الحرب ولم يكن البرلمان موافقاً على النفقات التى تتطلبها مثل هذه الحرب ؛ فاضطر بعد ذلك إلى المبادرة بإقرارها . وهنا قام وليم الثالث بعمل يعد من أفضل أعماله وهو تكوين الحلف العظيم Grand Alliance ضد فرنسا . وإذا كان قد مات قبل بدء المعركة ، فإن دبلوماسياً قديراً وقائداً مغواراً هو « دوق ملبرا » Duke of Malborough قد استطاع أن ينفذ خطط الملك . ومن ثم بدأت حرب الوراثة الأسبانية .

وقعت أسايا وبارباريا إلى حاب فرنسا وقدمت بافاريا مساعدة حدية لفرنسا بينما لم تقدم أسايا على الرغم من إمكانياتها الضخمة وحيشها القوى أى مساعدة لفرنسا . وكل ذلك يرجع إلى سوء إدارتها ، وصغف حكومتها ، على حين وقعت سائر الدول الأوروبية العظمى في الحاب الآخر الذى يصم : إنجلترا . وهولندا ، والامبراطورية ، وإمارة براندبرج الانتخابية التى أصبحت مملكة في عام ١٧٠٠ . تسلم قيادة قوات الحلفاء القائد الانجليزى العظيم دوق « ملبرا » الذى قدمت بلاده معظم نفقات الحرب وإن كانت لم تقدم كثيراً من الرجال . وكان معه في القيادة الأمير « يوجين » Eugene ممثل الامبراطورية وكانت هناك صداقة تجمع بين القائدين ، كما كانا على أتم تفاهم واتفاق في توجيه المعركة بالاشتراك مع « هينسيوس » Heinsius حاكم الأراضي المنخفضة يومئذ . وهكذا كان الوفاق يسود قوى الحلف العظيم على تعدد دوله بينما لم يكن هناك اتفاق حقيقى بين فرنسا وأسبانيا على الرغم من أن ملك الأخيرة كان حفيد ملك الأولى اتسع نطاق هذه الحرب وتعددت ميادينها . وكان يبدو أن هذه الحرب لن تلت أن تتصل بحرب أخرى كانت تقع في شرق أوروبا ،

حيث كانت روسيا وبولندا وبعض الدويلات الألمانية تهاجم ثورة السويد . أما مسرح هذه الحرب ( حرب الوراثة الأسبانية ) فقد وزع بين البقاع التالية :

١ - الأراضي المنخفضة ، حيث أغار الإنجليز والهولنديون على الأملاك الأسبانية .

٢ - إيطاليا ، حيث حاولت القوات النمسية أن تطرد الفرنسيين والأسبان من ميلان .

٣ - بافاريا ، وكانت في بداية الحرب أكثر الميادين نشاطاً بالنسبة للحركات العدائية بين الطرفين ، واستطاعت قوى فرنسا وبافاريا أن تصمد في هذا الميدان ، بينما استحال على قوات النمسا أن تتقدم بقوات كافية لمساعدة القائد « ملبرا » ، ولاح في عدة مناسبات أن النصر في هذا الميدان قد يكون في جانب فرنسا .

٤ - أسبانيا ، كانت الميدان الرابع للقتال حيث كان للأحداث أهميتها العظمى في مصير الحرب . ومهما يكن من أهمية للمعارك التي حدثت في هذه الميادين الأربعة فإننا لن ندخل في تفاصيلها وإنما نكتفي بذكر ما يلي : أن موقعة « بلنهم » Blenheim في ألمانيا في عام ١٧٠٤ قد قسمت الحرب إلى قسمين غير متكافئين .

في القسم الأول منها كادت القوى أن تتعادل ، ولم يبدِ عدتذ أن فرنسا هي الدولة التي ستهمز في النهاية . بينما استطاع « ملبرا » الذي قاد قواته بمهارة عظيمة أن يلحق بقوات القائد « يوجين » وأن ينزلا معاً بقوات فرنسا هزيمة مكررة في موقعة « بلنهم » ١٧٠٤ . كانت هذه الموقعة حاسمة لدرجة أنها أنهت الحرب في بافاريا ، بينما استمرت الحرب في الميادين الأخرى . ومنذ ذلك التاريخ كانت كمة الحلفاء هي الكفة الراححة .

استعادت قوات القائد « ملبرا » بعد انتصاره العظيم في « راملي » Ramilies بالأراضي المنخفضة ، واستطاعت أن تبسط سلطانها عليها ، ووطد « يوجين » القائد النمسي سيطرة القوات النمسية في شمال إيطاليا عن طريق بعض المعونة التي قدمها له « فيكتور أماديوس » Amadeus صاحب سافوى . كما تعددت خسائر الفرنسيين وحلفائهم الأسبان فاستولى الانجليز على جبل طارق في عام ١٧٠٤ ، واستطاع أرشيدوق النمسا شارل أن يدخل أسبانيا وأن يتبوأ عرشها باسم شارل الثالث .

على أن انجلترا استطاعت في عام ١٧٠٣ أن تعقد محالة « مثنوي » Methuen مع البرتغال (١)، وهي تنص على حرية انجلترا في استخدام ثغرشونه الهام على المحيط الأطلسي ، بينما أمنت انجلترا البرتغال ضد حارتها القوية أسانيا ولولا حصول انجلترا على هذا الامتياز العظيم لما استطاعت أن تستولى على حل طارق ، ولا أن تنتزع من أسبانيا ثغر « بورت ماهون » في جزيرة مودقة .

ويتضح من الأحداث السابقة أن فرسا قد هزمت هزيمة واحدة في هذه الحرب التي لم تعد عليها بأي كسب . ومع ذلك لم يلبث حادثان على حارب عظيم من الأهمية أن غبرا الحال بعض الشيء ، مما حسن موقف فرسا في هذه الحرب الحاسرة : أولها : اشتداد هياج الشعب الأساني الذي رفض أن يكون ملكه بمسواً أي شارل ابن الامبراطور ؛ فثار وقاوم الملك الجديد حتى أنزل وحده بالأعداء هزيمة فادحة ، وأعاد فيليب الخامس منتصراً إلى مدريد . ونجح الشعب الأساني في طرد العدو من أنحاء أسايا فيما عدا حل طارق .

أما الأمر الثاني الذي ساعد فرسا على تحسين موقفها ف يرجع إلى صلابه عود لويس الرابع عشر وقوة شخصيته ؛ عندما طالب بشروط الصلح قدمت له شروط مهينة جعلته على الرغم من ضعف قواه يقبضهم على استئناف الحرب وقد بدأ موقف فرنسا على الرغم مما خضرت يتحسن شيئاً شيئاً . ففي عام ١٧١١ حدث ما جنب فرنسا الوقوع في شر مستطير ؛ ذلك أن حزب الوري تغلب على حزب الهويج ، فقبض بمساعدة الملكة آن على رمام الأمور في انجلترا . وكان يميل إلى السلم فدأت مفاوضات الصلح وعقدت فرنسا الصلح مع بريطانيا في «يوتريخت» Utrecht عام ١٧١٣ ، ومع النمسا في «رستاد» Rastad في عام ١٧١٤ .

أعجب المؤرخون الحديثون بسلوك لويس الرابع عشر بعد انتهاء عهد حروبه الطويلة ، وكانت تلك السنوات الأخيرة من حياته ذات طابع ميم ومؤثر . تميزت بإصراره على المقاومة وعدم خضوعه لشروط أعدائه المذلة على الرغم من ظروفه غير الملائمة ، كما تميزت بتعاطفه الشديد مع شعبه المتألم المحزون ، وتميزت كذلك بسعيه الحثيث في استغلال التغيير الذي طرأ على السياسة الداخلية لانجلترا في عام ١٧١٠ لكي يحصل على شروط ملائمة لفرنسا ، فعقد صلح يوتريخت عام ١٧١٣ ، وبمقتضاه

اضطرت فرنسا أن تنازل لبريطانيا عن بعض أملاكها في المستعمرات ، وهي شبه جزيرة أكاديا وجزيرة نيوفوندلاند ، والمنطقة حول خليج هدسن و « سان كريستوفر » Christopher في جزر الهند الشرقية . ولكن هذه المواقع لم تكن مهمة إذا قورنت بنمو المستعمرات الفرنسية في ذلك الحين . كما تعهد لويس الرابع عشر ألا يتسبب في قلقلة نظام الحكم البروتستنتي في إنجلترا ، وبأن يطرد جيمس الثالث المدعى على عرشها من فرنسا ، وكان الشرط المهيمن الوحيد هو تعهد فرنسا بتحطيم ثغر دنكرك ؛ لأنه كان يمثل خطراً كبيراً يهدد إنجلترا . وفي مقابل ذلك حصلت فرنسا على إمارة « أورانج » Orange ، وكانت مقاطعة ورثها وليم أورانج في داخل الأراضي الفرنسية .

واعترف بحفيد لويس الرابع عشر ملكاً على أسبانيا باسم فيليب الخامس ، واشترط ألا يجمع بين التاجين . وقد أمنت حدود فرنسا الشرقية فلم تفقد فرنسا أى أملاك في هذه الناحية .

بمقتضى هذا الصلح حصلت إنجلترا على كل من صحرة جبل طارق وبورت ماهون في جزيرة مورقة Minorca بينما آلت الأراضي المنخفضة الأسبانية إلى النمسا وكذلك ضمت إليها كل من ميلان و نابولي وسردينيا ؛ بينما آلت جزيرة صقلية إلى ملك سافوى .

### سياسة لويس الرابع عشر الدينية

أولاً - سياسته إزاء الهيجونوت ( إلغاء مرسوم نانت ) :

من الأمور المؤسفة التي وقعت في عهد لويس الرابع عشر إلغاء مرسوم نانت ١٦٨٥ ، فقد كان الهيجونوت أثناء حربى الفروند موالين للملكية في فرنسا ، بل إنهم سارعوا بتقديم المعونات المالية لها عندئذ . وقد اعترف مزران بموقفهم العظيم ، كما لم يكن الملك لينسى الخدمات والمساعدات التي قدموها عندئذ في أخرج الظروف . هذا بالإضافة إلى أنه لم يكن متعصباً بل عرف بالتسامح الديني لأنه بطبيعته لم يكن ميالاً إلى المناقشات الدينية والخوض فيها ؛ وإنما كان اهتمامه منصباً على أمر واحد هو الولاء للنزلة . ولذلك كانت جماعة الجانسنست بمبادئها تهدد الأسس الدينية والاجتماعية التي يقوم عليها المجتمع الفرنسى ، مما جعل أفراد هذه الطائفة أشد خطراً من طائفة الهيجونوت . على أن لويس الرابع عشر كان في الوقت نفسه حريصاً على تجنب كل



ما من شأنه إضعاف وحدة البلاد الدينية ، ومن مآثور أقواله فيما يتعلق بالسباح لليهود بممارسة مآدثهم في حرية . « لآمانع من ذلك إذا لم يكن فيه مساس بالكنيسة الكاثوليكية » . ووجه الميحرىوت بعد حربى العروند بحركة عدائية من جانب الكنيسة الكاثوليكية خاصة وليس من ناحية البلاط . كان رجال الكنيسة الكاثوليكية حريصين على إعادة عدد كبير من رجال الدين البروتستنت إلى العقيدة الكاثوليكية ، كما اعترضوا على انتهاء الميجونوت فرصة انتشار الاضطرابات في فرنسا منذ عام ١٥٩٨ لتفسير مرسوم نانت تفسيراً جعلهم يضآعفون من إنشاء معابد للممارسة ديانآتهم خارج الأماكن التى اتفق عليها . وأقر وزراء منهم « لوتليه » Le Tellier شكآوى رجال الدين الكاثوليك التى تضمنت الحقبة التالية ؛ وهى أنهم قد أصبحوا يكونون « دولة داخل الدولة » ، وطالبت بالعمل على الحد من حرياتهم . وقد أصغى لويس الرابع عشر لتلك المطالبات ؛ فبدأ لإجراءاته ضد الميجونوت من عام ١٦٦٩ ، وموضحاً بأن بروتستنت فرنسا قد تنازلوا عن امتيازآتهم فأصلح أوآمره في السبعينيات ( ١٦٧٠ ) بهدم دور عبادآتهم التى أنشأت بعد عام ١٥٩٨ ، وأمر بالآ تقام الشعائر الجنآثرية الخاصة بهم إلا ليلاً ، كما صدرت بعض القوابن بتشجيع ممن يرغب منهم في الارتداد إلى الكاثوليكية ، ومنها الوعود بالمنح المالية .

ومن العوامل التى أسهمت في دفع لويس الرابع عشر إلى إصدار قراره بإلغآء مرسوم نانت « رسالة لوتليه » Le Tellier الذى كتب إلى الملك وهو محتضر ، يطالب فيها ملحقاً بإلغآء المرسوم لتستطيع روحه الاستقرار والطمآينة . وأغراه بعض الناصحين من بطانته بالمجد الذى ينتظره إذا ما هو نفذ ذلك الإلغآء فيكون بذلك الملك الوحيد الذى نجح حيث فشل كل من هنرى الرابع ولويس الثالث عشر في القضاء على التفرقة والشقاق الدينى داخل فرنسا ، كما أن لويس الرابع عشر لم يكن على علاقات طيبة مع البابا « إنوسنت » الحادى عشر . وقد رأى أن إلغآء المرسوم يحول دون تدخل البابا في الحريات الغآلية Gallien - Liberties ، أى ما حصلت عليه كنيسة فرنسا من حريات واستقلال في بعض الأمور عن كنيسة روما .

وقبل إلغآء لويس الرابع عشر للمرسوم في فرنسا بالترحيب من جانب طوائف الكاثوليك والجانسنت والجزويت والجاليكانيين على السواء . أما الدول البروتستنتية فقد أدانت لويس الرابع عشر وكانت من قبل تمتدح روضح التسامح الدينى السالفة في

فرنسا للدرجة أن جرداً كبيراً من الإنجليز والهولنديين قد أقاموا في فرنسا إقامة دائمة ، حيث كانوا يمارسون ديانتهم المخالفة للكاتوليكية في أمان واطمئنان ، وأنهم لويس الرابع عشر نتيجة لذلك بالتعصب في سائر الدول الأوروبية . من المؤكد أن ذلك الإجراء قد كلف لويس الرابع عشر غالياً ، وأسهم في تنفير الدول من فرنسا بعد عام ١٦٨٥ . ثم كانت هناك آثار سيئة للغاية على الاقتصاد الفرنسي نظراً لفرار ١٠٪ من الهيجونوت ( وكان عددهم بفرنسا يبلغ حوالي المليونين ) . استطاع ذلك العدد من الهيجونوت الفرار من فرنسا على الرغم من العقبات التي وضعتها حكومة فرنسا في سبيل تعويق مغادرتهم للبلاد . على أن بعض الأبحاث الحديثة قد عدلت الصورة فيما يتعلق بأثر مغادرتهم لفرنسا على الحالة الاقتصادية بها . حقيقة أن صناعة الساعات قد تخلفت وظلت كذلك مدة عشر سنوات . كما أن الدول التي استقبلت الفارين من الهيجونوت من الصناعات مثل العاملين في صناعة الورق والخبراء الاقتصاديين قد استفادت كثيراً منهم ، فاستفادت كل من إنجلترا وهولندا بل وبروسيا ، وكانت الأخيرة بصدد بناء اقتصادياتها .

من الواضح أن فرنسا لم تصار كثيراً في اقتصادياتها بسبب فرار الهيجونوت إذ أن بعض هؤلاء الفارين قد عادوا إلى فرنسا ، كما أن من بقي منهم بالخارج لم يتعاون مع القوى المعادية لفرنسا على أمل أن يسمح لهم لويس بالعودة إلى وطنهم بعد أن يطمئنهم على حرية ممارسة عقيدتهم ، بينما قدم بعض الهيجونوت من المشتغلين بأعمال البنوك في جنيف أجل الخلفاء لفرنسا . ثم إن هذه الخسارة التي مئت بها فرنسا بسبب فرارهم منها عوضت عنها هجرة الآلاف من الكاثوليك الإيرلنديين والاسكتلنديين من مؤيدي أسرة استيوارت إلى فرنسا بعد عام ١٦٨٨ .

ومن الشائع أن لويس الرابع عشر قد تأثر كذلك فيما يتعلق بإلغاء مرسوم نانت ١٦٨٥ بزوجه « مدام ديمانتون » de Maintenon التي تزوجها بعد موت زوجها ماريا تريزا الأسبانية في عام ١٦٨٣ .

ثانياً - سياسة لويس الرابع عشر إزاء كنيسة روما :

حصل لويس الرابع عشر نتيجة لنزاع قام بينه وبين البابوية في عام ١٦٨٣ على ما يعرف « بالحرية الجاليلية » Gallican Liberties ، فاكسب ملك فرنسا بمقتضى

هذه الاتفاقية نفوذاً وسلطاناً فتخلص من سلطة البابا ، في فرنسا على الشؤون الروحية ،  
وعبثاً حاول البابا إنوسنت الحادى عشر Innocent xi استرداد نفوذه .

### ثالثاً — إزاء الجانسلست (١) .

نسبة إلى الأسقف جانسن Jansen أسقف «ايبر» Ipres ( ١٥٨٣ —  
١٦٣٨ ) . كان الجانسنست بيوريتان الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا اتصفوا بالاستقامة  
وشدة الغيرة على المبادئ ، أرادوا العودة بالمسيحية إلى بساطتها الأولى ، فادوا حياة  
أكثر رهداً وتقشراً ، وهاجموا ما اتصف به العهد من جروح على المبادئ الحلقية .  
اشتهرت تلك الحركة بما اقترن بها من أسماء لامعة . وانضم إليها «راسين» Racine  
ودعاهما في شعره المصقول المليء بالتأمل . كما كان «بسكال» Pascal لسان حال هذه  
الجماعة ، وقد اشتهر بمؤلفه الرسائل الإقليمية (١٦٥٦—١٦٥٧) Lottres Provinciales  
في هذه الرسائل الجدلالية المشهورة استخدمت جميع أساليب السخرية الخفيفة والجدل  
الحار المهاجمة الفتاوى التي استخدمها اليسوعيون لخلق الغموض في التمييز بين الخطأ  
والصواب . وزاد في أهمية هذه الرسائل أن مؤلفها لم يكن من رجال الدين المحترفين ،  
ولأنما كان رياضياً عقرياً تتمتع بذكاء حاد ، ووضوح في الذهن وسلاسة في الأسلوب .  
رأى الملك في تلك الجماعة ومبادئها اعتداء على سلطته وسلطة البابوية معاً لأنهم اعترفوا  
بسيادة المجالس الدينية على البابا ، فأصبحوا يرضع كراهية الملكية والبابوية  
واليسوعيين جميعاً ، فأصدر البابا أوامره ضدها كما اتبع لويس الرابع عشر العنف  
للقضاء عليها ، وإن الوحشية المنقطعة النظير التي اتصفت بها هذه الحركة لتعد صفحة  
سوداء في تاريخ التعصب الدينى ، إذ طردت الراهبات من ديرهن في «بوررويال»  
دى شان PortRoyal de champs وهدم الدير ، وانتهكت من حوله حرمة المقابر .

---

(١) الجانسلست نسبة إلى «جانسن» كورنيليس Cornelius gan san أسقف «يبر» Ypres عاش بين  
عامى ١٥٨٣ — ١٦٣٨ آثار كتابه «أغصين» — الذى نشر عام ١٦٤٠ ، وندى فيه بإلحاح بصورة رحمة الله  
وحفظه هداية الإنسان — عاصفة من المعارضة فأداله البابا «أوربان» الثامن Urban VII عام ١٦٤٢ .  
وكان الجانسلست شأن عظيم في فرنسا في القرن السابع عشر ، ومركزها «بوررويال» وأحسن أنصارها  
أمراً «أرنولد» و «بسكال» . أدان الحزب هذه الجماعة على يد البابا «النسوت» العاشر عام ١٦٥٣ ،  
ثم مرة أخرى على يد البابا «كلمانس» الحادى عشر في عام ١٧١٣ أدى اضطهادهم إلى اغلاق «بوررويال»  
وفراق أنصارهم من فرنسا في أوائل القرن ١٨ . وظلت آثار الجانسلست قائمة في «بوتوغت» Utrecht  
«هارلم» Haarlem حتى أيام القرن التاسع عشر .



## الفصل الرابع

إنجلترا في القرن السابع عشر في عهد أسرة إستيوارت

(١٦٠٣ - ١٧١٤)

تميز تاريخ إنجلترا في القرن السابع عشر . أى في عهد أسرة إستيوارت بذلك الصراع المزير الذى وقع بين الملكية والبرلمان على خلاف ما تميز به حكم أسرة التيودور أثناء القرن السادس عشر (١٤٨٥ - ١٦٠٣) من هدوء واستقرار وسلام في العلاقات بين الملكية والبرلمان ، بل إن أسرة التيودور قد نجحت في حكم إنجلترا حكماً يكاد يكون مطلقاً ، ولم يكن ذلك ضد إرادة الشعب ، بل بموافقة الشعب نفسه ، وتميز البرلمان عندئذ بأنه كان أداة طيعة في أيدي ملوك هذه الأسرة . ويتضح ذلك جلياً في مؤازرة البرلمان للملوك في تحقيق سياستهم الدينية .

قام الصراع بين الملكية والبرلمان في عهد أسرة ستيوارت لتدعيم حقوق البرلمان في حكم إنجلترا ، والعمل على الاستزادة منها أمام تعنت ملوك هذه الأسرة ومحاولاتهم حكم البلاد حكماً فردياً . وإن ظروف إنجلترا الجغرافية وطبيعتها الجزرية وبعدها بالتالى عن ميادين الصراع في القارة الأوروبية نفسها - وإن كان الفاصل بينها وبين القارة مجرد بحر المانش الضيق - جعلتها بمأمن من الأخطار الخارجية المفاجئة . وأغنتها عن وجود الجيش القائم الذى استخدم في اللول الاستبدادية كأداة لتدعيم أصول الحكم المطلق . وعندما دعت الحاجة في إنجلترا في عهد هذه الأسرة إلى وجود ذلك الجيش ، استبد الحكم بالحكم ؛ ولكن مقاومة البرلمان ومعارضته الشديدة قضت على هذه المحاولات ، وأوجدت كراهية كبيرة تجاه الجيش القائم ، ولذلك كان من أهم مواد قانون الحقوق ١٦٨٩ تحريم وجود جيش قائم . لا عجب إذن أن يعتبر البرلمان

الانجليزى ومحافظة على حقوق الشعب هبة البحر كما هو الحال بالنسبة للأسطول البريطانى .

وإذا كان بحر الماش يفصل إنجلترا عن القارة الأوروبية ، فإن ذلك لا يحول دون كونها جزءاً من أوروبا ، فهى لم تتخلف عن أوروبا في ميادين النهضة والكشوف الجغرافية والإصلاح الدينى . ولكن ذلك العاصل الضيق مضافاً إليه طبيعة الشعب الإنجليزي قد جعلت لهذه الحركات في إنجلترا مميزات الخاصة التى تجعلها تختلف عن الحركات المناظرة لها في القارة الأوروبية .

#### الأسباب التى فرقت بين العهدين :

وإذا بحثنا عن الأسباب التى أدت إلى وضوح الفرق بين العهدين ، عهد أسرة التيودور وعهد أسرة استيوارت لوجدنا أن مرجع ذلك هو ظروف داخلية وأخرى خارجية ، ففي عهد التيودور ساد الهدوء وعلاقات السلام بين البرلمان والملكية نظراً لأن إنجلترا كانت قد شمت خوض الحروب داخلية كانت أو خارجية ، لأن هذا العهد جاء على أثر حروب الوردتين التى استمرت ثلاثين عاماً . فكان الشعب تواقاً إلى السلام والهدوء فقل راضياً أن يحكم ملوك أسرة التيودور حكماً شبه مطلق ، فلم يدع البرلمان إلا نادراً أثناء هذا الحكم . أما الظروف الخارجية فبعثها خوفاً من حارتها اسكتلندا ، وما قد تشه عليها من حملات ، فكان على الشعب إذن أن يطلق السلطة في يد ملوك أسرة التيودور حتى يأمن الخطر الخارجى . ونلاحظ أن عهد استيوارت قد جاء على أثر عهد ازدهار وتقدم في الفنون والآداب ، وكان عهد اليزابيث عهداً ذهبياً كما كان عصر سلام ، وقد حاولت هذه الملكة أن تتجنب الحرب قدر استطاعتها . أما اسكتلندا فكانت في عهد استيوارت جزءاً مكملًا لإنجلترا ، وإن كان الاتحاد الحقيقى بين كل من اسكتلندا وإنجلترا لم يتم بصورة قاطعة إلا في بداية القرن الثامن عشر عندما أصبح هناك برلمان واحد يمثل كلا من إنجلترا واسكتلندا ، إذن كان هناك استقرار في الداخل واطمئنان لعدم حدوث أى غارات من الشمال .

كما أن أعضاء البرلمان الانجليزى — وقد مر بهم عصر النهضة وفيه استنارة ، وقد تأثروا بميزات هذا العصر ، وبدأوا ينشئون بما اكتسبوه من حقوق دستورية يرجع عهدها إلى القرن الثالث عشر الميلادى — لم يكن من السهل عليهم أن يتنازلوا عن هذه

الحقوق بسهولة ، لذلك أصر أعضاء البرلمان على التمسك بهذه الحقوق وإسماؤها  
 في سبيل الزود عنها ، وزاد من إصرارهم أن ملوك أسرة استيوارت كانوا قد تشبثوا  
 بحق الملك المقدس ، فالملك منهم كان يعتبر نفسه ظل الله على الأرض ، ينفذ كل  
 ما يبدو له صالحاً من أعمال ومشروعات دون أن يحاسب على ذلك ، لا يشاركه في ذلك  
 كـله أحد ، وسلوكوا بذلك سلوك ملوك فرنسا في ذلك الوقت ، فاندفعوا إلى تثبيت  
 دعائم الحكم المطلق غافلين في ذلك عن الفرق الكبير بين كل من فرنسا وإنجلترا والظروف  
 التي تحيط بفرنسا ، فالأخيرة دولة داخل القارة الأوروبية ، ولها حدودها المشتركة  
 مع أسبانيا جنوباً ومع ألمانيا شرقاً ، عليها أن تحتفظ بجيش قائم لكي ترد عنها عدوان  
 هؤلاء الجيران ، وكان لوجود هذا الجيش القائم أثره في تدعيم وتوطيد أركان الحكم  
 المطلق في فرنسا .

أما إنجلترا فكان لها ذلك القنال الانجليزي الذي يفصلها عن فرنسا ، كان له أثره  
 في تغير طبيعة الحكم فيها ، إذ أصبحت إنجلترا بمنأى عن الحروب القارية أو التي  
 داخل قارة أوروبا ، فلا يصيبها منها ما يصيب فرنسا ، ومع ذلك لا يجب أن نبالغ  
 في حقيقة أن إنجلترا كانت منفصلة تماماً عن القارة .

#### السياسة المالية :

إن الظروف الاقتصادية التي اجتاحت أوروبا عند مطلع القرون الحديثة نتيجة  
 لأحداث الكشوف الجغرافية واكتشاف المعادن النفيسة ، أدت إلى بحس قيمة العملة  
 فلم تعد التخصيصات المالية بكافية لسد حاجات الملوك ، فاتجه الملوك إلى الطرق غير  
 الدستورية للحصول على المريد من المال ، ولم يتنبه البرلمان إلى ذلك الأمر ، لأن البرلمان  
 لم يكن يشرف عندئذ على الناحية المالية ، ولو كان يعمل لكان من الممكن أن يزيد  
 من التخصيصات الملكية ومن هنا كانت السياسة المالية للملك هذه الأسرة من العوامل  
 التي أدت إلى النزاع بين الملكية والبرلمان .

#### السياسة الخارجية :

لم يكن لأسرة استيوارت في النصف الأول من القرن السابع عشر أى شاط يط بذكر  
 في السياسة الخارجية من حيث أنها لم تمهد السبل لرعاياها لكي يحققوا مكاسب تجارية  
 كبيرة بمناسبة بدء علاقات السلام والصدقة مع أسبانيا بين عامي ١٦٠٤ - ١٦٢٥ ،

فلم يمنح هؤلاء التجار المقومات الخاصة للاستفادة من هذا الصلح أو تلك الصداقة . وكان جيمس الأول ، باتباعه سياسة السلام مع أسبانيا ، إنما يخالف سياسة اليرايث الخارجية التي كانت ضد أسبانيا ، وتعتبرها العدو الأكبر لآنجلترا .

وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر ملاحظ أن إنجلترا قد ساعدت فرنسا في تحقيق أطامعها وأغراضها التوسعية ، وسارت في ركب هذه السياسة غير مدركة مدى خطورة ذلك وما قد ينجم عن موقفها السلبي أو المشجع من إدياد قوة فرنسا في عهد لويس الرابع عشر .

#### السياسة الدينية :

في النصف الأول من عهد هذه الأسرة ، أي حوالي منتصف القرن السابع عشر سلكت أسرة استيوارت سياسة عدم التسامح إزاء المذاهب البروتستنتية المخالفة للعقيدة الأنجليكانية وعلى رأسها البيورثان أو المتطهرون من البروتستنت . وفي الوقت نفسه حاولت منذ مطلع عهد هذه الأسرة أن تتسامح مع الكاثوليك فعارض البرلمان مما جعل الملك يرضح للأمر الواقع . أما في العهد الثاني من أيام هذه الأسرة وهو الذي يبدأ بعودة الملكية سنة ١٦٦٠ ، أي عهد كل من شارل الثاني وجيمس الثاني . فقد تميز باعتناق الملكية للكاثوليكية وإن كان الأول منهما لم يجهر بها ، وتتميز كذلك بمحاولة كل منهما فرصها على إنجلترا ، وتلك السياسة أدت إلى الصدام العنيف بين البرلمان والملكية .

جيمس الأول ١٦٠٣ - ١٦٢٥ : ولم يكن مؤسس هذه الأسرة وهو جيمس السادس ملك اسكتلندا من قبل حكيماً في تصرفاته بل كان متهوراً يتمسك بحق الملك المقدس في صرامة وعنف ، وأدى ذلك إلى اصطدامه السريع مع البرلمان ، فوضعت بذلك بذور الشقاق بين الملكية والبرلمان منذ بداية حكم هذا الملك مما أدى إلى وقوع الثورة في عهد شارل الأول الذي امتد حكمه من ١٦٢٥ إلى مقتله عام ١٦٤٩ .

وكانت السياسة الدينية من العوامل التي أثارت البرلمان صده فقد اعتنق سياسة اضطهاد جماعة البيورثان ، وحاول أن يمنع الكاثوليك تساعاً دينياً مما أثار البرلمان عليه ، فاضطر إلى اضطهاد الكاثوليك كما فعل بالنسبة للبروتستنت غير الأنجليكان ، وترتب على ذلك تلك المؤامرة التي دبرها الكاثوليك للقضاء على الملكية والبرلمان معاً



وهي المعروفة بمؤامرة البارود التي دبرها «جاي فوكس» Guy Fawkes ، فعرفت كذلك باسمه ، وكان المتآمرون قد وضعوا باروداً في الطابق الأسفل بمبنى البرلمان الانجليزي ، وتعمدوا أن يكون ذلك أثناء جلسة الافتتاح في ٥ نوفمبر سنة ١٦٠٥ وكان غرضهم أن يقتل الملك ف قضى بذلك على البرلمان والملك معاً . ولكن أمر هذه المؤامرة اكتشف في الوقت المناسب ، فنجت الملكية والبرلمان ، وقبض على المتآمرين ، وترتب على ذلك اضطهاد الكاثوليك في إنجلترا لمدة قرنين ، فحرموا من سائر الحقوق المدنية ، واصطهدوا ولم يعد لأبنائهم أى حق في التعليم أو الالتحاق بمعاهد الدولة العلمية . ولم يرفع عنهم ذلك الاضطهاد إلا عند مطلع القرن التاسع عشر .

#### السياسة الدستورية :

كانت سياسة الملك الدستورية سياسة عقيمة ، فأعضاء البرلمان في ذلك العهد كانوا يعتدون بشخصياتهم ، ويتششون بحقوقهم الدستورية ، إذ أرادوا الاستمرار في التمتع بهذه الحقوق . بينما كان الملك يطالب لنفسه بالسلطان المطلق ، فتتج عن ذلك الصراع بين الاتحامين ، ومن ثم أصبحت هناك قضية هامة و حاسمة إلى اتخاذ قرار بشأنها ، وهي لمن تكون الغلبة والسيطرة على الحكم في إنجلترا ، أهى للملك أم للبرلمان ؟ وكان جيمس الأول أول من أظهر عداوة السافر للبرلمان عندما ذكر لأعضائه أن الحقوق التي يتمتعون بها ليست حقوقاً ثابتة أو دائمة وإنما للملك الحق في أن يمنحهم إياها أو أن يحرمهم منها . . . وأضاف إلى ذلك أن الأمور الهامة التي تتعلق بالمسائل القومية أو الدينية ليست من اختصاص أعضاء البرلمان ، وإنما عليهم الموافقة على الأموال اللازمة للدولة والتمديد عن آراء الشعب الانجليزي الذي يمثلونه في البرلمان ، وقد ثارت ثائرة أعضاء البرلمان على أثر هذا التصريح ، فأعلنوا وكتبوا في صفحة من صفحات مجلس العموم أنهم يمتلكون هذه الحقوق امتلاكاً تاماً وقد ورثوها عن الشعب الانجليزي منذ القدم ، وأن لهم حق النظر في كل المسائل الهامة لأنهم يعملون لصالح هذا الشعب الذي يمثلونه . فما كان من الملك إلا أن انتزع هذه الصمحة ومزقها ورأى عندئذ أن يحل البرلمان سنة ١٦٢١ .

## السياسة الخارجية :

أغضبت السياسة الخارجية أعضاء البرلمان ، فقد كانت إنجلترا في حرب ضد أسبانيا منذ واقعة الأرمادا سنة ١٥٨٨ ، ولم يعقد الصلح بينها وبين إنجلترا إلا عند مطلع عهد جيمس الأول سنة ١٦٠٤ ، وقد ذكرنا أن جيمس الأول لم يهيء للشعب فرص الاستفادة من هذا الصلح فلم يهيء لهم وسائل الانجار مع مستعمرات أسبانيا في العالم الجديد ، بينما كان لهذا الصلح أثره في التزام إنجلترا بمنع تجارة التهريب التي كانت إنجلترا تجني من ورائها أرباحاً طائلة وبمعنى أصبح ذلك بمصالح التجار ومرتادى البحار ، وعندما بدأ جيمس الأول يشعر بخطأ هذا الاتجاه في السياسة الخارجية كان عهده قد أشرف على الانتهاء ، فقد جمع البرلمان بعد ذلك ، واتفق معه على إعلان الحرب على أسبانيا سنة ١٦٢٤ - ١٦٢٥ . يضاف إلى العوامل السابقة عامل آخر ، وهو يتعلق بشخصية وزير ومن أعظم مستشاري جيمس الأول وهو جورج فيليبس، Georges Villiers (دوق بكنجهام) ، اختاره الملك ليستعين به . وكان هذا المستشار متعصباً لرأيه ، يساند الملك في اتجاهه نحو عدم الاعتراف بحقوق البرلمان . فكرهه لذلك الأعضاء وطالبوا الملك باستبعاده ، ولكن الملك أصر على إبقائه ، ولم يكن البرلمان يملك إلا أمراً واحداً لاستبعاد غير المرغوب فيهم من الوزراء وهو إلقاء تهمة الخيانة العظمى عليهم . فكان الوزير المتهم يحاكم أمام مجلس اللوردات بمقتضى هذا القانون ، فيصدر الحكم بتغيبه أو قتله أو مصادرة أملاكه . وكانت هذه الطريقة تعسفية إلى حد بعيد ، وظل معمولاً بها إلى أن ظهر مبدأ المسؤولية الوزارية في القرن الثامن عشر ، وهي أن يكون الوزير مسئولاً أمام البرلمان عن إنجازاته وأعماله ، فإذا أخطأ كان عليه أن يتحمل نتائج ذلك الخطأ .

، عل الرغم من صلور هذا القرار فإن الملك أصر على موقفه ومنع تنفيذه فكان هذا أكبر تحدى للبرلمان .

شارل الأول ١٦٢٥

١٠ مات جيمس الأول ، وبولى شارل الأول ، كانت هذه المشكلة هي المشكلة الاولى التي واجهته . وكان شارل صديقاً حميماً للدوق باكنجهام المتهم فرفض أن يجيب البرلمان إلى رغبته ، وطل دوق باكنجهام يتمتع بنفوذه . ولا أدل على غضب

## - ٢٢٦ -

البرلمان من سلوك الملك الجديد من أنه لم يوافق على منح الملك إيرادات الجمارك المخصصة له مدى الحياة كما كان متبعاً في الماضي ، وإنما منحه هذا الحق لمدة عام واحد ، وكانت المخصصات الملكية في ذلك الوقت عبارة عن الإيراد الخاص بالملك ثم الإيراد الذي يعود عليه من بعض الإقطاعيات وبعض إيرادات الجمارك ، ومن ثم بدأ عهد شارل الأول هذه البداية السيئة . وكان أعضاء البرلمان في ذلك الوقت - وقد تبيينوا الاتجاه المطلق في عهد الملك السابق ، وموقف شارل الأول المماثل لسلفه - قد بدأوا يفكرون في الطريقة المثلى للوقوف في وجه الملك الجديد ، وكانوا ذوي خبرة استطاعوا أن يكتسبوا أثناء ممارستهم للحكم المحلي ، ودراستهم المستفيضة للقانون العام لانجلترا ، وكانوا قوة لا يستهان بها واجهت شارل الأول منذ بداية عهده ، فلم يكن باستطاعة هذا الملك إزاء موقفهم المعارض إلا أن يحل البرلمان ، ويقبض على من يثير المشاكل ضده به ، ويدعوه السجن . وقد استطاع البرلمان بمساعدة قاضي القضاة في محكمة الدعاوى العامة وكان سير « ادوارد كوك » Sir Edward Coke أن يحصل على موافقة الملك على ما يعرف بملتمس الحقوق Petition of Rights في عام ١٦٢٨ ، وكان ينص على عدم قانونية الأمور التالية :

- أولاً : فرض الضرائب أو القروض دون موافقة البرلمان .
- ثانياً : القبض على الأفراد أو سجنهم دون محاكمة .
- ثالثاً : استخدام قرارات لجان الأحكام العرفية زمن السلم .
- رابعاً : إيواء الجند والبحارة في منازل الأهالي دون موافقتهم .

الحكم المطبق في عهد شارل الأول ( ١٦٢٩ - ١٦٤٠ ) :

نجح البرلمان في أن يحصل على موافقة الملك على ملتمس الحقوق ١٦٢٨ ، ولو احترم الملك هذا الملتمس لسارت الأمور سيراً طبيعياً ، ولكن شارل كان يعتبر نفسه الحاكم المطلق لهذا الشعب ، فبدأ ينقض هذا الملتمس ، ويتصرف تصرفاً مخالفاً له منذ سنة ١٦٢٩ ، وأدى ذلك إلى نفور البرلمان منه ، واحتدام النزاع بين الملكية والبرلمان ، وزاد من حدة هذا النزاع أن شارل تزوج سنة ١٦٢٩ من هنرييت الفرنسية ، وساعد الكاثوليك في فرنسا ضد البروتستنت ، فكان ذلك يخالف سياسة إنجلترا ، وزاد من

هذا النفور أن دوق بكنجهام قتل في سنة ١٦٢٨ على يد أحد المتعصبين من السيوريتان ، وأدى ذلك إلى رغبة الملك في الانتقام من البرلمان ، فأمر بفض البرلمان ولكن البرلمان رفض تنفيذ أوامر الملك . ولكنه توصل إلى استصدار القرار التالي تحت تأثير Sir John Elliott « إن كل من يبتدع جديداً في الدين أو يفرض ضريبة دون موافقة البرلمان يعتبر عدواً للدولة والمصلحة العامة » .

وواضح أن الملك كان هو المقصود بذلك ، فما كان من شارل الأول إلا أن فض البرلمان ، وحكم حكماً مطلقاً في المدة من ١٦٢٩ - ١٦٤٠ ، وفي حلالها وضعت بلنور عوامل الثورة العظمى التي أدت إلى الحرب الأهلية بين الملكية وأتباعها والبرلمان وأتباعه وقد انتقم الملك من « اليوت » فأودعه السجن مع صديقيه « فالتين » Valentine « وسترود » Strode . فأت « اليوت » في قلعة لندن ١٦٣٢ ، واستمر صديقه في سجنهما إحدى عشرة سنة ، وانتقم الملك بذلك لصديقه دوق « بكنجهام » في شخص « اليوت » ولكنه لم يلبث حتى دفع الثمن غالياً . واستعان الملك بشخصيتين في تصريف شؤون الدولة على النحو الذي يريد ، فسلك كلاهما سياسة استبدادية امتنزا في أثارت الشعب الذي كان يرقب عن كثب تصرفات الملك وأعوانه .

كان أولهما « توماس وتورث » Thomas wentworth

استعان به الملك في تصريف شؤون الدولة ، فأتبع وسائل غير مشروعة في سبيل تزويد الملك بالمال حيث فرض ضرائب جمركية بمراسيم ملكية ، واستحدثت ضرائب جديدة فرضها على سائر طبقات الشعب دون موافقة البرلمان . كما جدد ضرائب أخرى ومنها ضريبة السمن ، وكانت تجبي على الموانئ أثناء الحرب . ولكنه فرضها على كل أنحاء انجلترا زمن السلم ، فاستطاع بذلك تقديم الأموال اللازمة للملك ، فكان للملك أثره في أنه أصبح شخصية مكروهة من الشعب مما أدى إلى إعدامه سنة ١٦٤١ بعد صدور تهمة الخيانة العظمى ضده .

وثانيهما : كان « لود » Laud رئيس أساقفة كنتربري ، وقد عمل هذا بلنور على تركيز السلطة في يد الملك عن طريق نشر العقيدة الانجليكانية والقضاء على السيوريتان ، فاضطهد كل من رفض أن يتبع كنيسة انجلترا ، واستعان « لود » بالمحاكم والمجالس الاستثنائية لإلقاء الرعب في النفوس ، فتعقب المخالفين بالمصادرة

والاضطهاد ، وحرمانهم من مصادر أرزاقهم ، بل عرضهم كذلك لألوان التعذيب والتشويه ، فأدى ذلك إلى التلجر وإلى هجرة اعداد غفيرة منهم إلى سواحل امريكا الشمالية حيث هاجر بين عامى ١٦٢٩ ، ١٦٤٠ مئآت من الإنجليز من الزراع ورجال الدين وعيظهم ممن رغوا فى العبادة وفق طريقتهم ، فتركوا بلادهم واستقروا على سواحل « ماساشوسيتس » Massachusetts وقد نقل من هاجر منهم بسبب اضطهادات « لود » إلى « بيوانجلند » النظم والمجالس التى اعتادوها فى بلادهم . وصدق القول بأن سياسة لود الدينية قد أدت إلى تأسيس المستعمرات الإنجليزية فى « نيوانجلند » .

وعندما أراد أن يفرض العقيدة الانجليكانية على الشعب الاسكتلندى ، وكانت الكنيسة البرستارية (١) Prespetrian Church هى السائدة فيها ، وكانت تعتمد على عقيدة كلفن ، رفض الاسكتلنديون عتناق المذهب الانجليكانى فأعدوا جيشاً للإغارة على انجلترا من الشمال ليحدثوا الفلاقل والاضطرابات حول شارل الأول . فاضطر إلى دعوة البرلمان إلى الاجتماع للحصول على المال اللازم لمواجهة خطر الغزو الاسكتلندى .

البرلمان القصير وقد استمر من ٣ أبريل إلى ٥ مايو ١٦٤٠ :

واجتمع البرلمان فى أبريل سنة ١٦٤٠ ويعرف بالبرلمان القصير ، لأنه لم يستمر غير وقت قصير لا يعدو الشهر الواحد حيث انقضى فى الخامس من مايو ، وسبب ذلك أن البرلمان عندما عرضت عليه الموافقة على الأموال اللازمة لتجهيز الجيش اشترط أن يتعهد الملك باحترام ما حياء فى ملتقى الحقوق ، ولكن شارل الأول رفض الالتزام بهذه الحقوق مما أدى إلى غضب البرلمان وعدم موافقته على مد الملك بالأموال اللازمة لصعد العدوان الاسكتلندى ، فرفض الملك البرلمان ، وحاول أن يصعد الاسكتلنديين بما لديه

#### (١) البرستاريون Prespetarians

شيوخ الكنيسة وقد سماوا بذلك لإصرارهم على أن الحكومة الكسبية فى العهد الجديد كانت من شيوخ الكنيسة ومن مهم من حدامها ، وكانوا متساوين فى السلطان ، والمصب والرتبة . وقد استقر هذا النظام الكسبى فى اسكتلندا فى عام ١٦٩٦ . وكانت مواد هذا النظام تنص عليها العقيدة التى قام بصياغتها المصلح الدينى «جون نوكس» John Knox فى عام ١٥٦٠ ؛ وقد أقرها البرلمان ثم صدق عليها عام ١٥٦٧ وأخيراً استقر هذا النظام الكسبى بمقتضى قانون أصدره مجلس الشيوخ الاسكتلندى عام ١٦٩٦ ؛ ثم تأكد ضمانه بعد ذلك فى الاتفاق الذى تم بشأن الوحدة بين انجلترا واسكتلندا عام ١٧٠٧ . وكان أول بيت لاجتماع البرستاريين فى انجلترا فى «فاندزورث» Wandsworth فى «سرى» Surrey فى ٢٠ نوفمبر ١٥٧٢ :

من موارد ضئيلة ولكن دون جدوى ، فقد ارتد جيشه وتقدمت القوات الاسكتلندية تحت قيادة «الكسندر ليزلي» Alexander Leslie ، فعبت نهر «التويد» Tweed واحتلت «درايم» Durham و «نورثمبرلاند» Northumberland ، وأصبحت هكذا جيوش اسكتلندا تحتل أشهر مقاطعات انجلترا في الشمال ، واشترط القائد الاسكتلندي ضمن شروطه للانسحاب والتقهقر الحصول على مبالغ وفيرة من المال ، فرأى الملك ألا مفر من الخضوع ودعوة البرلمان للاجتماع ،

اجتماع البرلمان الطويل (١٦٤٠ - ١٦٥٣) :

اجتمع البرلمان في نوفمبر من العام نفسه ، وعرف (بالبرلمان الطويل) لأنه ظل منعقداً مدة ثلاثة عشر عاماً ، ولهذا البرلمان أهمية عظمى في تاريخ إنجلترا بل أن أهميته قد جاوزتها وعمت آثاره أوروبا كلها بل والعالم أجمع . فكانت قراراته أمثلة حية للتحرر واحترام الحقوق السياسية والمدنية للأفراد . وتزعم الموقف في البرلمان نخبة من الساسة المخلصين للدستور والبرلمان ممن عرفوا بتحمسهم للمحافظة على حقوق الشعب ، وكان منهم «هامدن» Hampden و «هولز» Holes و «پيم» Pym .

وضع هذا البرلمان حللاً نهائياً لاستبداد ملك إنجلترا مما كان له آثاره العظيمة في تنمية الحرية السياسية في أنحاء العالم كافة ، عندما بدأ هذا البرلمان بإلغاء ما يعرف بالمجالس الاستثنائية التي كانت مصدراً للاستبداد . ولم يكتف بذلك بل أثار ما جاء في ملتصق الحقوق ، فأكد أن الملك لا يملك حق فرض أى ضريبة أو الحصول على المال بأي وسيلة أخرى دون موافقة البرلمان ، وهكذا ضمن البرلمان حقه في السيطرة على سياسة إنجلترا المالية ، وكذلك ضمن للأفراد حقوقهم المدنية ، فصدر قرار يؤكد حماية الأفراد وعدم سجنهم دون سبب ما ضرورة إجراء محاكمة تبت في قراراتها معهم ، وكان ذلك بسبب ما حدث «بلجون البيوت» وصديقه «ستروود» Strode و «فلنتن» Velentino . عندما قبض عليهم على أثر مقتل دوق «بكنجهام» في عام ١٦٢٨ . وبذلك حمى البرلمان أفراد الشعب الإنجليزي من تحكم الملك وأحكامه التعسفية ضدهم ، وعمل البرلمان منذ الوهلة الأولى على أن تضمن هذه القرارات الهامة دستور الدولة ، وأن تتخذ كافة الإجراءات لحمايتها ، ولما كانت شخصية «إيرل سترافورد» من الشخصيات البغيضة المهددة لما حصل عليه البرلمان حينئذ من مكاسب ، فقد رأى

التخلص منها ، وفعلنا وجهت إليه تهمة الخيانة العظمى فأعدم في عام ١٦٤١ ، ولا ق  
« لود » نفس المصير بعد أربع سنوات أى عام ١٦٤٥

وعندما ظهرت الحاجة إلى تعيين ضباط للجيش الموجه إلى إيرلندا للقضاء على  
الفتنة التي بدأت باعتماد بعض الكاثوليك على عدد كبير من البروتستنت وقتلهم ،  
وكان الملك في العادة هو الذى يعين الضباط حتم « بيم » Pym بأن يكون ذلك الأمر  
أيضاً من حق البرلمان ، وأصر على أن يكون وزراء الملك موضع ثقة البرلمان . ومعنى  
هذا أن البرلمان سلب الملك كل حقوقه ، وأصبح المسيطر على سياسة الدولة المالية  
والدينية والحربية . ولم يكن شارل الأول ليقبل ذلك الوضع ، فدبر أمراً للقضاء على  
زعماء حركة المعارضة وقادتها داخل البرلمان وهم « بيم » Pym و « ستروود » Strode  
و « هامبلن » Hampden و « هولز » Holes و « هرلرج » Hazlerig . ولكن  
لحسن حظ البرلمان أن أمر هذه المؤامرة التي دبرها شارل قد اكتشف في الوقت المناسب  
فتخلف الأعضاء الخمسة عن حضور الجلسة . وكان لهذا أثره الكبير في إحداث ضجة  
كبيرة في إنجلترا ، إذ بدأت النفوس تشعر بخطورة اتجاهات الملك المطلقة ، وشعر  
أعضاء البرلمان بأن الحقوق التي كسبها الشعب الانجليزى على وشك أن يفقدها ، وثار  
الرأى العام في لندن لأن مؤامرة الملك كانت ننسمن اعتماداً صريحاً على حرية البرلمان  
وكيانه ، فشر الملك شارل بالخطر المحدق به ، واضطر إلى مغادرة لندن بسرعة ليتبعد  
عن الشعب الغاضب .

### الحرب الأهلية بين الملك والبرلمان :

وهنا بدأت الحرب الأهلية بين البرلمان والملك ، وانضم إلى الملك الأشراف وأتباع  
الكنيسة الانجليكانية والكاثوليكية ، بينما استعان البرلمان بالطبقة الوسطى ، وكان أفرادها  
يوصفون بلوى الرموس المستديرة Round Heads (١) كما استعان بمعتقى العقيدة  
البروتستنتية غير الانجليكانية مثل البرسبتارية والبيوريتان . واستطاع البرلمان كلك

(١) دوى الرموس المستديرة : Round Heads

عرف أتباع الملك شارل الأول ومضدوه أثناء الحرب الأهلية التي بدأت في إنجلترا في عام ١٦٤٢  
بالفرسان ، بينما عرف أصدقاء البرلمان بلوى الرموس المستديرة ، ويقال أن التسمية ترجع إلى أنهم كانوا  
يرتدون حل رؤوسهم قعة أشبه ما تكون في استدارتها بالسلطانية أو الطبق بينما قص شعر رؤوسهم بحيث  
لا يمتدح طوله حالة الخنقة .

الوصول إلى التحالف مع اسكتلندا ضد الملك والكنيسة الانجليكانية ، واستمرت هذه الحرب مدة خمس سنوات ابتداء من عام ١٦٤٤ ، وانتهت سنة ١٦٤٩ بهزيمة الملك وإعدامه .

وانتصرت قوات البرلمان على قوات الملك لأسباب متعددة من أهمها :

- ١ - أن الطبقة الوسطى اشتركت في الحرب إلى جانب البرلمان وهي صاحبة الثروة في إنجلترا وانضمت إليها أقاليم إنجلترا الشرقية التي تزخر بمراكزها الصناعية والتجارية ، وبذلك توفرت الأموال اللازمة لتكوين جيش نموذجي ، كما انضمت القوة البحرية أي قوة الأسطول مما كان له أثره في ترجيح كفة البرلمان على الملك .
- ٢ - ظهور شخصية أوليفر كرومويل بين المقاتلين فاستطاع هذا الجندي الشجاع أن ينظم جيشاً نموذجياً كسب به المعارك المختلفة التي دارت بين الفريقين وأصبحت له شهرة عالمية ، أشاد بها القائد «الفرنسي تورين» Turenne الذي شهد براءة هذا الجيش عندما أرسل كرومويل جيشاً لفرنسا لمساعدتها في حروبها ضد أسبانيا ، فأحرزت يومئذ نصراً في موقعة «الدين» Duno المشهورة . واستطاعت هذه القوات التي دربها وقادها « أوليفر كرومويل » أن تنصر على قوات الملك شارل الأول في موقعي «مارستون مور» سنة ١٦٤٤ و« نازبي » Nasby سنة ١٦٤٥ . وتعتبر موقعة «مارستون مور» أشهر مواقع هذه الحرب ، ظهرت فيها مقدرة كرومويل الحربية العظيمة التي رفعتة إلى مصاف عظماء القواد ، وقد اعترف له البرلمان بذلك . وعرف كرومويل بتسامحه ، فأصبح مجال الترقى في الجيش أمام الجميع بصرف النظر عن اختلافاتهم الدينية ، على أن البرلمان الذي استطاع أن يثابك هذه الانتصارات على الملكية في ميدان الحرب فشل في ميدان الصلح . فلم يستطع بعد ذلك أن يوحّد صفوفه وأن يتبع سياسة سليمة بين الفريقين بل إن البرلمان اتبع سياسة اضطهاد لإزاء معتنقي العقيدة الانجليكانية ، وكان يحرمهم معاشاتهم . وأخذ يطارد الملكيين ويفرض عليهم غرامات وادحة . كما أن البرلمان بدأ يحقد على الجيش ويخشى ازدياد نفوذه نتيجة لتلك الانتصارات التي أحررها . وهكذا بدأت تظهر الفارقة بين صفوف المنتصرين من أعضاء حزب البرلمان والجيش . ولم يعد البرلمان الذي أظهر عداءه لحرية الرأي البروتستنتي في إنجلترا كما لم يتقدم خدمات الجيش الذي يرجع إليه الفضل في انتصاراته الساحقة على الملك لم يعد صالحاً لحكم إنجلترا . وقد أثارت تصرفات البرلمان يومئذ غضب كل من



الشخصيتين العظيمتين في إنجلترا في ذلك العهد وهما « أوليفر كرومويل » و « ميلتون » .  
ويتبين من المفاوضات التي بدأت بين البرلمان والحيش والملك أنه لم تكن هناك  
أى فكرة لاستبعاد الملك عن العرش ، بل كان كل من البرلمان والحيش يرغب في عودة  
الملك إلى الحكم ، وقد عبر كل فريق عن آرائه وماذته وكانت جميعها في صالح  
الدولة لو أخذ بها . كان الملك بطبيعة الحال ينادى بالملكية وكتاب العبادة الانجليزية  
( أى العقيدة الانجليكانية ) . بينما كان البرلمان ينادى باحترام القانون العام والحكومة  
المستولة ، والحيش ينادى بضرورة التسامح الديني لسائر الطوائف البروتستنتية .

في الواقع أن كل هذه الأمور كانت لصالح الملكية في إنجلترا ، فلو أخذ بها  
جميعاً لاستطاعت الملكية أن تستقر . على أنه لم يكن مقدراً لشارل الأول أن يعود  
للحكم ثانية ، إذ رأى لسوء حظه أثناء المفاوضات أن يتهمز فرصة الخلاف بين البرلمان  
والحيش وموقف اسكتلندا من إنجلترا ليقصى على أعدائه جميعاً ، وليعيد لنفسه الحكم  
المطلق في إنجلترا . وهذا أكبر دليل على أن الملك لم يتخل عن عقيدة حقه المقدس .  
فبينما كان يفاوض الحيش والبرلمان أخذ يعد العدة لاستئناف الحرب وذلك عن طريق  
إثارة المدن الكبرى والتحالف مع رعاياه الاسكتلنديين . ولا حكام المؤامرة هو الملك  
من يد الحيش . ولكن الجيش لم يلد أن قص عليه ولم يغفر له تحالفه من الاسكتلنديين  
وتآمره بالتالي على سلامة البلاد وعقيدتها الدينية .

وعند عودة أوليفر كرومويل من صد الاسكتلنديين المناصرين للملك في « بريستون »  
Preston - وكان نفوذه قد ازداد نتيجة التطهر الذي قام به « برايد » Pride  
عام ١٦٤٩ بطرد الأعضاء البارزين من الحزب الملكي في البرلمان - أصبح الجمهوريئاً  
للتخلص من الملك . وقد أجمعت الآراء على ذلك . فادانت الهيئة التي حاكمته وكانت  
مكونة من أعدائه . واتهمته بالخيانة العظمى فأعدم في « هوايت هول » white Hall (١)  
في فبراير ١٦٤٩ ، ونسى الانجليز الأخطاء التي ارتكبها شارل واعتروه شهيداً .

(١) « هوايت هول » white Hall ( في لندن ) :

تقريباً « هيوبرت دي بورج » Hubert de Burgh إيرل أوف كنت Earl of Kent قبل منتصف  
القرن الثالث عشر ، ثم آل بناء على وصيته إلى « الرهبان السود » في هوبورن Black Friars of Hopporn  
الذين باعوه إلى أسقف « يورك » ، ومن هنا صار اسم « يورك بلاس » York Palace . وظل محل إقامة  
الأساقفة في هذه المدينة حتى استولى عليه هنري الثامن من الكاردينال Wolsey في عام ١٥٢٠ . وأصبح  
خلال ذلك القرن مقراً للبلاد . وقد نقل إليه في عام ١٦٠٣ حكام الملكة إليزابيث هجرأ في موكب كبير  
من ريتشموند Richmond ، حيث كانت قد توفيت . ويخبرنا « كامدن » أنه بهذه المناسبة تم تأليف  
مدائح فيه اطراء لجلالتها

## عهد سيطرة أوليفر كرمويل : ١٦٤٩ - ١٦٥٨ :

اجتمع البرلمان عقب إعدام الملك وألغى الملكية ، وأعلن سيادة الأمة ، ونادى بالجمهورية ، وألغى مجلس اللوردات ، وألف هيئة تنفيذية مكونة من واحد وأربعين عضواً ، من بينهم أوليفر كرمويل الذى استطاع أن يحكم بمساعدة مجلس العموم مدة أربع سنوات من سنة ١٦٤٩ - ١٦٥٣ ، ثم لم يلبث أن نشأ نزاع وخلاف بين الجيش والبرلمان . فبينما كان كرمويل يرغب فى حل مجلس العموم بدعوى عدم تمثيله للشعب الانجليزى تمثيلاً سليماً ، كان المجلس يرغب فى التخلص من الجيش بتسريحه ، إذ كان لا يرى ضرورة لبقائه بعد انتهاء الحرب . على أن كرمويل لم يلبث أن دخل قاعة المجلس بصحبة بعض جنده فى اليوم الذى حدد لتسريح الجيش ، وأمر جنده بطرد النواب ثم حل الهيئة التنفيذية ، وحكم إنجلترا بمفرده بمعاونة الجيش مدة خمس سنوات ١٦٥٣ - ١٦٥٨ . أطلق على نفسه أثناءها « حامي الجمهورية » ، وتمتع خلال هذه المدة بسلطة مطلقة . على أن هذه الديكتاتورية كانت قصيرة الأمد إذ بعد وفاته انتقلت إلى ابنه ريتشارد . ولم يكن يتمتع بخبرة عسكرية أو سياسية ، فعجز عن ملء الفراغ الذى تركه أبوه بعد موته ، مما اضطره إلى اعتزال الحكم بعد شهر قلائل .

واضطرت الأحوال فى إنجلترا ، وتداعى النظام ، وانتشرت الفوضى وذلك لأن ثورة كرمويل لم تقم على أسس وطيدة ، كما أن نظام الحكم الذى اتبعه كان يعتمد على قوة مستمدة من شخص واحد فلم يكف يسقط ذلك الشخص حتى انهار ذلك النظام . وهذا هو شأن الحكم الفردى الذى يعتمد على شخص واحد . واستمرت الفوضى مدة عام تقريباً بعد اعتزال ريتشارد الحكم ، سادت خلاله المازعات بين البرلمان والجيش إلى أن زحف قائد الجيش الاسكتلندى القائد «جورج منك» G.Monk فطلب من البرلمان القديم أن يعد العدة لدعوة برلمان جديد للاعقاد ، ولما كان غالبية الأعضاء الجدد من الملكيين فقد استدعوا شارل الثانى ليحكم إنجلترا دون قيد ولا شرط .



## الفصل الخامس

عهد الجمهورية ( ١٦٤٩ - ١٦٥٣ )

والديكتاتورية ( ١٦٥٣ - ١٦٥٨ )

لم يكن مركز كرومويل وأتباعه عقب التخلص من الملك آمناً ، إذ أنكر صغار النبلاء وجماعة البرستريان ذلك السلطان ، وشلت حركة البحرية بسبب تمرد أفرادها بينما كانت سفن التفيتش الملكية تسيطر على البحار تحت زعامة «الأمير روبر» Rupert وثارت كل من اسكتلندا وإيرلندا على الأوضاع القائمة ، وقد أساء إلى الاسكتلنديين مقتل الملك فاحتضنوا شارل الصغير إلى ان تحين الفرصة لإعادة أسرة استيوارت إلى الحكم . ولم تعترف «فرجينيا» Virginia ولا «بربادوس» Barbados بسلطة المعتصمين . وإذا كانت ولاية «ماساشوستس» Massachusetts لم تظهر عداء لآراء الحكم الجديد إلا أنها منذ بداية النزاع بين الملك والبرلمان قد أظهرت استقلالاً تاماً عن إنجلترا . استنكرت كذلك كل من هولندا وفرنسا وأسبانيا عملية إعدام الملك . ومع ذلك فقد نجح أوليفر كرومويل بجيشه القوي وبفضل مجهودات القائد البحري «بلاك» Blake في التغلب على هذه الصعاب في مدى السنوات الأربع التالية ، ويلتلك أدهشت هذه الجمهورية أوروبا جميعاً . فعلى الرغم من تلك الحرب التي استمرت خمس سنوات بين الملك والبرلمان ( ١٦٤٤ - ١٦٤٩ ) ، والتي يحتمل أن تكون قد أنهكتها ، نبعدها تظهر قدرة حربية لم تتميز بها إنجلترا في أي عصر سابق ، كما تبدى حماسة منقطعة النظير في أعمال الهجوم والحرب . وفعلاً تملأ أحداث المعارك تاريخ الجمهورية ، مما جعل إنجلترا تتميز في ذلك العهد بمركزها الحربي الممتاز بين دول أوروبا . وقد صرح بكفاءة الجنود الإنجليز في تلك الآونة القائد الفرنسي المشهور «تورين» عندما كتب لمزران ، وكان على أهبة البله في واقعة «الدين» عام ١٦٥٧ ، فذكر في رسالته أنه لم يكن هناك جيش في أوروبا يصارع جيش كرومويل في نظامه وتدريبه .

### السياسة الخارجية لعهدى الجمهورية والديكتاتورية في إنجلترا :

لهذين العهدين أهمية خاصة من ناحية السياسة الخارجية ؛ فقد استطاع الجيش الإنجليزي حينئذ أن يحقق انتصارات عديدة وأن ينال مركزاً مرموقاً بين الجيوش الأوروبية وقد ذكرت شهادة القائد الفرنسي العظيم «تورين» بكفاءة هذا الجيش وتفوقه في ميدان الحرب .

ولم يكن تفوق إنجلترا البحري يومئذ بأقل من تفوقها البري ؛ إذ استطاع الأسطول الإنجليزي بقيادة «بليك» أن يتفوق على قطع الأسطول التي كان يقودها الأمير «روبير» . فطاردها مطاردة عنيفة وأوصلت القطع البحرية الإنجليزية إلى حوض البحر المتوسط ، حيث صوبت المدفعية بعض ضرباتها نحو تونس ، وأقامت العلم الإنجليزي بعض الوقت في مالطة والبندقية ومرسيليا وطولون . وهكذا أثبت «بليك» قبل ظهور الحاجة إلى الاستيلاء على سلسلة من الثغور البحرية على طول الطريق البحري إلى الهند مدة طويلة — سهولة تحقيق أمثال هذا المشروع .

### أوليفر كرمويل والبرتغال :

والواقع أن ذلك النصر الذي أحرزه «بليك» القائد البحري على الأمير «روبير» يرجع إلى حد كبير إلى تلك المعاهدة التي عقدها كرمويل مع البرتغال في عام ١٦٥٤ ، وقد أدرك بثاقب فكره وبعد نظره السيامي أهمية موقع البرتغال بالنسبة للأسطول الإنجليزي . ولقد سارت السياسة الإنجليزية بعد ذلك وفقاً لهذه الخطة ؛ فتجدد هذا التحالف عند مطلع القرن الثامن عشر في معاهدة «مثنوين» Methuen (١) أما أهمية هذا التحالف فترجع إلى حاجة الأسطول الإنجليزي إلى محطة على الطريق بين إنجلترا وحوض البحر المتوسط ؛ ذلك لأنه إذا ما غادر الأسطول الإنجليزي بريطانيا وسار في المحيط الأطلسي ثم أراد بعد ذلك أن يدخل حوض البحر المتوسط ليقوم بأي عملية عسكرية أو تجارية فيه فإنه من المتعذر عليه — وقد أصابه الإرهاق بطول المسافة التي قطعها في عرض البحر دون توقف — أن يحرز نصراً أو تفوقاً على أعدائه . وهكذا أتاحت معاهدة التحالف الأولى التي عقدها أوليفر كرمويل مع البرتغال لبليك الفرصة —

بعد استنجام قطع أسطوله وتزويدها بما يلزمها من وقود ومؤونة - لكي يطارد عدوه الأمير « روبر » وأن يحقق نصراً ساحقاً على قواته أما معاهدة التحالف الثانية فقد عقدتها إنجلترا مع البرتغال في ظروف مختلفة أثناء أحداث حرب الوراثة الأسبانية وكانت العامل الرئيسي الذي جعل إنجلترا تستولى على محضرة جبل طارق جنوبي أسبانيا و « بورت ماهون » Port Mahon بجزيرة « مينورقة » Minorca ، إحدى جزر البليار المواجهة للساحل الشرقي لأسبانيا المطل على حوض البحر المتوسط .

### أوليفر كروميل وهولندا :

استطاع أوليفر كروميل أن يضع سياسة استعمارية ثابتة لإنجلترا عندما أصغر قانون الملاحة عام ١٦٥١ ، وكان هذا القانون يقضي بالآ تحمل السلع الإنجليزية إلا على سفن الإنجليزية . وكان الغرض من ذلك أن تستأثر إنجلترا بالأرباح الوفيرة التي كانت تعود عليها من الاتجار مع المستعمرات الإنجليزية في العالم الجديد والعمل على الحد من نشاط الهولنديين في هذا المجال ، ولما كان في تطبيق إنجلترا لهذا القانون ما يقتضي تحلّي هولندا عن مكاسب تجارية عظيمة ، فقد أدى ذلك إلى وقوع ثلاث حروب كبيرة بين عامي ١٦٥١ ، ١٦٥٤ بين الدولتين ، وذلك على الرغم من التقارب الذي كان يبدو بين كل من هولندا وإنجلترا ، فكلاهما يدين بالعقيدة البروتستنتية ، وكلاهما يحترم الأنظمة الديمقراطية في الحكم . على أن ذلك التقارب كان ظاهرياً ، فقد كانت المنافسة بين الشعبين شديدة وقوية نظراً لاصطدام المصالح التجارية ، كما كان الهولنديون يؤيدون عودة أسرة ستيوارت إلى الحكم في إنجلترا ، ذلك لأنه منذ رواج حاكم هولندا وليم أورنج بالأميرة ماري ابنة شارل الأول وأخت كل من شارل الثاني وجيمس الثاني أصبح الهولنديون يؤيدون أسرة ستيوارت التي كان يحشها الجمهوريون حينئذ في إنجلترا . فوقعت الحرب بين الدولتين على يد قائدين عظيمين من قواد أوروبا البحرين وهما « بليك » Blake و « ترومب » Tromp . وانتهت بمعاهدة عقدت بينهما عام ١٦٥٤ اضطرت هولندا بمقتضاها أن تحترم العمل بقانون الملاحة الإنجليزي . ثم عقد كروميل معاهدات صداقة مع كل من فرنسا والسويد ، واستأنف النزاع التقليدي ضد أسبانيا الكاثوليكية .

### كرومويل وأسبانيا :

كانت رغبة كرومويل في مساعدة التجار الإنجليز والمستعمرين منهم واتجاهاته نحو تأييد البروتستانت مما دفعه إلى محاربة الأسبان . وهو بهذه السياسة قد أحجى مطالب تجار إنجلترا في الاتجار مع المستعمرات الأسبانية وفي إبعاد خطر محاكم التفتيش عنهم ، ولقد اصطدمت القوات الأسبانية مع المستعمرين والتجار والقراصنة الإنجليز في مياه جزر الهند الغربية بسبب تلك السياسة الاحتكارية التي اتبعتها أسبانيا ، فحرمت على غير الأسبان ارتياد المياه المحيطة بمستعمراتها مع أن إنجلترا كانت تملك بعض المستعمرات في تلك البقاع ، وقد أرسل كرومويل الإمدادات إلى المستعمرين الإنجليز فاستولوا على جزيرة « جاميكا » Jamaica ١٦٥٥ . وكان الاستيلاء عليها خطوة هامة لتوسيع نطاق المستعمرات الإنجليزية في منطقة جزر الهند الغربية . وظلت جزيرة جاميكا مدة المائة وخمسين عاماً التالية مركزاً نشطاً للتجارة والسياسة والحرب .

يستتقد بعض المؤرخين سياسة كرومويل الخارجية فيما يتعلق بتركيزه لمجهود إنجلترا الحربي والبحري ضد أسبانيا بدلاً من توجيهه نحو فرنسا التي أخذت قوتها في الازدياد في تلك الأثناء ، ويرون أن إنجلترا لم تستخدم قواها فيما يعود عليها بالفائدة ، ولكن بعد إيمان النظر يتبين في سر العوامل التي جعلت إنجلترا تفضل حينئذ التحالف مع فرنسا على معاداتها ، فقد كان كرومويل يخشى أن تعاون فرنسا أسرة استيوارت على العودة إلى الحكم في إنجلترا ، كما تبين كرومويل أن فرنسا في سياستها الخارجية لم تكن تتقيد بالمسائل الدينية . ثم إن أطاع ملك فرنسا لويس الرابع عشر التوسعية لم تكن قد ظهرت بعد . نضيف إلى ذلك أن أوليفر كرومويل في محاربته لأسبانيا إنما كان يتمشى مع اتجاه الرأي العام في إنجلترا الذي كان عندئذ يرى في أسبانيا العدو الأكبر بسبب تصادم المصالح التجارية للبلدين .

وقد نجح كرومويل في الحصوصك على ثغر « دنكيرك » Dunkirk المهم نظير مساعدته لفرنسا في حربها ضد أسبانيا عام ١٦٥٧ .

### سياسة كرومويل في أيرلندا :

لسياسة كرومويل في كل من أيرلندا واسكتلندا آثارها في علاقة إنجلترا بكل منهما ، وما زالت آثار هذه السياسة باقية إلى اليوم . أراد كرومويل أن يجمع شمل هذه الأجزاء

الثلاثة ، إنجلترا وإيرلندا واسكتلندا تحت لواء الجمهورية ، أراد كرمويل بذلك أن يضم الغلبة للجمهورية البيوريتانية في سائر أنحاء الجزر البريطانية حتى لا يتمكن أسرة استيوارت من قلب النظام الجديد واستعادة نفودها . فرأى أن يحول جنسية الإيرلنديين إلى الانجليزية وديانتهم إلى البروتستنتية ، وكان يخشى عواقب التصعب الديني الذي أظهره الكاثوليك عندما وقعت تلك المذبحة في عام ١٦٤١ ، فقتل فيها عدد كبير من البروتستنت . وأراد كذلك أن يكافئ أولئك الصباط الذين ساعدوه على الانتصار أثناء الحرب الأهلية ، فأقطعهم بعض الأراضي الصالحة للزراعة في إيرلندا ، وكان ذلك على حساب السكان الأصليين الذين اضطروا إلى مغادرة أراضيهم والإقامة في مناطق مليئة بالمستقعات الموحشة في «كونوت» Connaught ، حيث لا تزال دريتهم باقية إلى اليوم . وكانت سياسة كرمويل في إيرلندا كما كانت في اسكتلندا عقيمة لم تحقق الأغراض المرجوة منها ؛ بعيداً عن أن يحقق كرمويل التقارب بين الكاثوليك والبروتستنت في إيرلندا ، فقد تسببت سياسته في زيادة كراهية السكان الأصليين من الإيرلنديين للبروتستنتية التي تسببت في وقوع مذابح «دروجيدا» Drogheda و«ويكسنورد» Wexford ، كما تسببت في قلقلة الآلاف من الأسر الكاثوليك المتواضعة لإفساح الطريق لأرستقراطية أجنبية . كان لهذه السياسة أسوأ الأثر في العلاقة بين الكاثوليك والبروتستنت في إيرلندا ولا زالت آثار هذه السياسة باقية إلى اليوم .

### سياسة كرمويل في اسكتلندا :

كانت سياسة كرمويل في اسكتلندا مماثلة لسياسته في إيرلندا ، ولكنها تمت في نطاق أضيق وبطريقة أقل عنفاً منها في إيرلندا . لم يرض الاسكتلنديون - الذين قاوموا حركة «لود» الهادفة إلى ضمهم إلى كنيسة إنجلترا الانجليكانية - عن إعدام ملك إنجلترا شارل الأول وكان اسكتلندي الأصل . ورحب الاسكتلنديون بشارل الثاني ونادوا به ملكاً على اسكتلندا وحاولوا إعادته إلى عرش إنجلترا . ولكن كرمويل أحبط مسعاهم في «دنبار» Dunbar عام ١٦٥٠ وفي «ورسستر» Worcester عام ١٦٥١ ، ثم تلقت اسكتلندا حرعة من العلاج الذي قدمه كرمويل لإيرلندا . ومع ذلك فقد خلفت آثاراً مرة . كان كرمويل محباً للاتحاد . وعلى ذلك للمرة الأولى تتحد كل من إنجلترا واسكتلندا وإيرلندا تحت برلمان واحد . وهكذا أصبح حامياً لبريطانيا العظمى

كلها لا لانجلترا فحسب . ولكن هذا الاتحاد القائم على العنف والظلم لم يكن ليدوم طويلا . فلم يلبث أن تصدع الاتحاد الذي حققه كرمويل عندما عادت الملكية إلى انجلترا ، وبدأ البرلمان في كل من « دبلن » و « أدنبره » بمارس أعماله . واستمر العداء بين الكاثوليك والبروتستنت إلى يومنا هذا . وكان لابد من مرور سعة وأربعين عاماً لتتفق اسكتلندا وانجلترا على الاتحاد .

أما من ناحية تقييم عهد كرمويل من الناحية الدستورية ، فعلى الرغم من غنى عهد الجمهورية بالمناقشات البرلمانية والتجارب الدستورية الجديدة فإنه ليس غير فصل دنجيل ، حشره الزمن في تاريخ انجلترا ، لم يساهم في إحداث أى تغيير في النظم المتبعة ، كما أن تجربة الحكم الجمهورى ثم الديكتاتورى لم تتكرر مرة أخرى بعد ذلك في تاريخ انجلترا . ولو تطلعنا إلى الظروف التى وصل على أثرها كرمويل إلى الحكم لتبين لنا أن مركزه قد اضطره إلى رئاسة حكومة عسكرية ، فأرغم على أن يكون حاكماً مستبداً غير مبال للحرية ، وذلك لأنه كان لا يعتمد في مركزه على أى حق وراثى . ولو خير أفراد الشعب الإنجليزى عقب إعدام شارل الأول لتغلب رأى المطالب بإرجاع الملكية . وكان كل ما يركز عليه كرمويل في حكمه شخصيته القوية والتسامع الدينى الذى أظهره إزاء جميع المذاهب البروتستانتية . وعلى الرغم من المكاسب والأجساد الحربية والبحرية التى حققها كرمويل لانجلترا فإن الشعب الإنجليزى لم يرض عن طريقة الحكم التى انتهجها . وكان من أبرز آثار ذلك العهد في تاريخ انجلترا هو البغض الشديد الذى تميز به الشعب الإنجليزى للجيش القائم ، فاعتبره أفراد الشعب الإنجليزى عدواً لحرية المدنية ، تلك الحرية التى ظل الشعب الإنجليزى يتميز بتعلقه بها .



## الفصل السادس

عودة الملكية إلى إنجلترا ( ١٦٦٠ - ١٦٨٨ )

والثورة العظمى ( ١٦٨٨ - ١٦٨٩ )

في هذا العهد الذي حكم فيه للمرة الثانية ملكان من أسرة استيوارت تجمعت أسباب التدمير والثورة التي لم تلت أن وقعت ، وأدت إلى تدعيم المبادئ الديمقراطية والحكم الملكي الدستوري في إنجلترا . هذه الثورة تعرف بالثورة العظمى أو الثورة المجيدة ، ووقعت أحداثها فيما بين عامي ١٦٨٨ ، ١٦٨٩ .

فعلى أثر الفوضى التي وقعت في عهد ريتشارد بن كرومويل ، وما كان من تدخل الجيش لقمع الثورة ، دعى برلمان جديد للانعقاد عرف ببرلمان الفرسان ( ١٦٦١ - ١٦٧٩ ) ، وكان في غالبيته يتكون من أعضاء الملك ، النزعة ، ولا عجب بعد ذلك أن يستدعى مثل هذا البرلمان شارل الثاني من منفاه بفردا ليحكم إنجلترا .

تلك ظاهرة غريبة في تاريخ الحكم ، فالاعتاد أن الملك هو الذي يدعو البرلمان إلى الاجتماع . أما في هذه الحالة فالبرلمان هو الذي دعا الملك ليحكم إنجلترا . ولكن وقع هذا البرلمان في خطأ كبير ، منشؤه أنه قد نسي ما حدث في عهد الملكية الأولى من أسرة استيوارت ثم في العهد الذي تلاه من أيام أوليفر كرومويل ؛ إذ كان على البرلمان أن يضع من الشروط ما يحدد مدى سلطات الملك واحتصاصاته ، فيضمن بذلك سلامة الحكم البرلماني . وقد أدت غفلة البرلمان هذه إلى خلق أسباب الخلاف في عهد هذا الملك . ثم اشتدادها في عهد خليفته من بعده ( جيمس الثاني ١٦٨٥ - ١٦٨٨ ) .

عهد شارل الثاني ( ١٦٦١ - ١٦٨٥ ) :

بدأ هذا الخلاف يظهر بين الملك والبرلمان بسبب تصرفات مستشار الملك الأعظم « كلارندن » Clarendon ١٦٦٠ - ١٦٦٧ ، واستطاع الملك أن يتصرف في ثغر دنكيرك في عام ١٦٦٢ ، عندما باعه لفرنسا بمبلغ خمسة ملايين جنيه ، وذلك لأن الملك

لم يكن لديه من المال ما يكفي نفقاته وسد حاجاته ، على أن البرلمان اعتر تصرف الملك في دنكرك خسارة كبيرة ، ثم وقعت عدة أحداث بين عامي ١٦٦٥ ، ١٦٦٧ أثارت الرأي العام في إنجلترا ، كما أدت إلى اتهام الوزير « كلارندن » بالخيانة العظمى ، فنتى في عام ١٦٦٧ . وظل في المنفى حتى مات ، إذ وقعت حرب حديدة بين إنجلترا وهولندا طهر خلالها أسطول هولندا عند مصب هر التيمز فأثار الرعب في نفوس الإنجليز ، بل صادف عام ١٦٦٧ إنتشار وباء الطاعون في لندن ، كما حدث حريق لندن المشهور ، وخيل للجميع حينئذ أن جماعة الكاثوليك بإنجلترا قد دبروه لإعادة العقيدة الكاثوليكية في إنجلترا . أدت تلك الأحداث إلى نفي « كلارندن » .

تألفت على أثر ذلك وزارة عرفت بورارة « الكابال » . وإسمها مكون من مجموعة الحروف الأولى من أسماء أعضائها . فالأول يبدأ بحرف « ٢ » وهو الوزير « كليفورد » Clifford والثاني بحرف « A » وهو « أرلنجتون » Arlington والثالث بحرف « B » « بكنجهام » Buckingham والرابع بحرف « A » « أشلي كوبر » Ashley Cooper ( فيما بعد عرف بلورد شافنسبري ) والخامس بحرف « L » « لودريل » Lauderdale .

لم يرض البرلمان عن هذه الحكومة ، ذلك لأن شارل الثاني كان في قرارة نفسه كاثوليكياً ، شقى بالنفي وذاق مرارة التشريد في بداية حياته . مما جعله لا يجهز بكاثوليكيته ، ولكنه لم يلبث أن اتبع سياسة كاثوليكية ، وظهر ذلك في وزارة « الكابال » في شخصيتي « كليفورد » و « أرلنجتن » ، إذ كان كلاهما كاثوليكاً ، كما اتبع سياسة خارجية لا تتفق ومصالح إنجلترا ، بل تعرضها للخطر ، وهي سياسة التحالف مع فرنسا ضد هولندا بعد أن اضطر في بداية الأمر أن يتحالف مع السويد وهولندا ضد فرنسا .

وتلورت ساسته ضد فرنسا في وضع حد لأطماع لويس الرابع عشر الذي اضطر إلى الموافقة على معاهدة « اكس لاشايل » ١٦٦٠ ، ولكن في ١٦٧٠ اتبع شارل الثاني تلك السياسة العقيمة التي أثارت عليه الرأي العام البريطاني عندما عقد معاهدة دوفر مع لويس الرابع عشر في عام ١٦٧٠ ، فاتفقت الدولتان على غزو هولندا واقتسام أملاكها فيما بينهما ؛ بينما كانت هناك شروط سرية لهذه المعاهدة تقضى بأن عد لويس الرابع عشر شارل الثاني بالمعونة من رجال وأموال لكي يعيد العقيدة الكاثوليكية إلى إنجلترا .

وتعرضت هولندا لخطر الغزو الفرنسي نتيجة لمخالفة دوغر ، وكادت جيوش لويس الرابع عشر أن تنتصر عليها لولا ثورة الشعب الهولندي وطرده للحاكم « دى ويت » de Wit ودعوته لوليم أورنج ليكون حاكماً على هولندا سنة ١٦٧٢ . وكان الحاكم الجديد بعيد النظر فأمر بهدم الجسور والسدود الموجودة في هولندا حتى تغمر المياه الأراضي الهولندية . وفعلنا نجحت هذه الخطة وارتدت جيوش لويس الرابع عشر عن هولندا ، وأنقذت هولندا من الغزو الفرنسي ، كما أحرز الأسطول الهولندي نصراً عظيماً على القوات الفرنسية الانجليزية ومن ثم أصبح وليم عماد المحالفات التي تكونت ضد لويس الرابع عشر ، وجعلته ينهار في النهاية .

أهم النتائج التي تربت على السياسة الخارجية العقيمة لشارل الثاني :

١ - بدأ أعضاء البرلمان يتألمون على الملك نتيجة لتلك الحوادث المفاجئة ، فأجبروه في عام ١٦٧٣ على قبول قانون « الاختبار » Test act ، ويتحتم بمقتضاه على كل موظف أن يؤدي قسماً بإنكار الوجود الفعلي في القربان أى بإنكار العقيدة الكاثوليكية ، مما جعل دوق يورك أخا الملك يتخلى عن منصبه كقائد للأسطول الانجليزي ، ومما اضطر كلا من « كليفورد » و « أرلنجتون » إلى اعتزال الوزارة بينما استبعد الملك « أشلي كوبر » لمبادئه الحرة ، رغبته في تقييد السلطة الملكية ، وبذلك سقطت وزارة « الكانال » .

٢ - كما اضطر « برلمان الفرسان » الملك أن ينهي تحالفه مع لويس الرابع عشر ، وينهي الحرب مع هولندا سنة ١٦٧٤ ، عندما بين لأعضائه أن الغرض من محاربة هولندا لم يكن كسب منافع تجارية للشعب الانجليزي ، ولا مراعاة لمصلحة الطبقة الوسطى من التجار ، ولا متابعة المنافسة البحرية بين إنجلترا وهولندا ، وإنما الغرض منها القضاء على استقلال هولندا لإفساح الطريق للغزو الفرنسي لأوروبا ، واتضح للبرلمان كذلك أن فقدان هولندا استقلالها يعرض إنجلترا للخطر ، إذ يجعل مصب نهر الراين في يد فرنسا ، وتبين أيضاً أن فرنسا عدو أقوى وأشد كيداً من هولندا ، واتضح للبرلمان أن سيطرة فرنسا على امستردام تجعلها خطراً يهدد السيطرة البحرية لانجلترا .

وقد استطاعت إنجلترا في مناسبات مختلفة أن تتبين وجه الخطر في سيطرة قوة كبيرة على الأراضي المنخفضة ، فقد وقع أيام الملكة إليزابيث سنة ١٥٨٨ عندما كانت

أسبانيا تسيطر على الأراضي المنخفضة أن تعرضت سواحل إنجلترا الجنوبية للغزو الأسباني معتمدة على مساعدة الجيش الأسباني بالأراضي المنخفضة ، وحدث مثل ذلك أيضاً أثناء حروب الثورة الفرنسية في عام ١٧٩٣ ، وأيام الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ ، إذ أن فصلحة إنجلترا كانت تقضى بالعمل على الإبقاء على استقلال هولندا ، ومنع أى قوة أجنبية من السيطرة عليها ، ولذلك كانت سياسة البرلمان الذى أجبر الملك شارل الثانى على الخروج من هذه الحرب هى السياسة الحكيمة بالنسبة لأمن إنجلترا وسلامتها .

وعلى الرغم من نجاح هولندا من حطر الغزو الفرنسى فلما ظلت تسيطر على السياسة الانجليزية بل والأوروبية خلال الأربعين عاماً التالية ، أى إلى صلح «يوتريخت» Utrecht ١٧١٣ . لم يستطع لويس الرابع عشر بعد عام ١٦٧٤ أن يطمع فى مؤازرة إنجلترا لإياه لإخضاع أوروبا . ولكنه استطاع أن ينال حيادها عن طريق رشوة زعماء البرلمان تارة وتقديم الأموال للملك تارة أخرى وقد ظلت إنجلترا كذلك حتى عام ١٦٨٨ .

٣ - نتج كذلك عن السياسة الخارجية الخرقاء التى انتهجتها أسرة امبيوارت ، تلك السياسة التى قامت على الاتحاد مع فرنسا ضد هولندا لاصيانة مصالح إنجلترا البحرية والتجارية وإنما للتمهيد لعظمة فرنسا أن تركزت السلطة فى يد البرلمان خلال الأربع سنوات التالية ١٦٧٤ - ١٦٧٨ على أساس تأييد العقيدة الانجليكانية . وتدارك عندئذ شارل الثانى خطورة الموقف فتخلى عن مشاريعه الكاثوليكية وعمل على تأمين مركزه بالتحالف مع حزب «التورى» Tory (١) «الانجليكاني» النزعة ، وكان على رأسه وزيره الأول «داني» Danby ، ويعتبر مؤسس حزب التورى أى حزب المحافظين ، وغالبية أعضائه من ملاك الأراضي من المؤيدين للكنيسة الانجليكانية والسلطة الملكية ، وكان «داني» خلال سيطرته ١٦٧٤ - ١٦٧٨ صديقاً لهولندا ، وعدواً لفرنسا عمل على توطيد أواصر الصداقة بين هولندا وإنجلترا بنزويج ولهم حاكم هولندا من «مارى» ابنة جيمس أنخى الملك وولى العهد على الرغم من معارضة الأخير . أما حزب «الهويج» (٢) أى الأحرار فكان لا يؤيد سلطة الملك المطلقة .

(١ ، ٢) «الهويج» «التورى» أو الأحرار والمحافظون : Whig and Tory

وصفان أطلقا فى القرن الثامن عشر على وجه الخصوص للإشارة إلى حزبين سياسيين متصارعين ؛ وكان أول ما ظهر فى عام ١٦٧٩ أثناء الصراع الشديد الذى نشب يومئذ حول مشروع قانون حرمان «جيمس» دوق يورك (جيمس الثانى فيما بعد) من حقه الوراثى فى تولى العرش «قانون الحرمان» =

## ويعمل على ازدياد حريات الأفراد ، وكان حزب الخارجين على الكنيسة الأنجليكانية

**Exclusion Bill** ، والمويج ، **whig** كلمة اسكتلندية من أصل غال كانت تطلق في الأصل على لصوص الماشية والحيول ؛ ومنها انتقلت إلى الاسكتلنديين البرسبترين **Presbyterians** وكان مضمونها العام يشير إلى الروح البرسبترية والثورية بوصف به عادة من كانوا يدعون السلطة والمقدرة على إبعاد الوريث عن العرش . أما «التوري» **Tory** فكان اصطلاحاً إيرلندياً يشير إلى الخارجين على البابوية ، ويطلق على الذين يؤيدون حق «حيس» في تولي العرش على الرغم من ملعبه الكاثوليكي الروماني هذا وقد كانت ثورة ١٦٨٨ ، ١٦٨٩ سبباً في إزالة كثير من الفوارق بين هذين الحزبين من ناحية المبدأ لأنها كانت عملاً مشتركاً قاما به سوياً . ومنذ ذلك الحين اعتنق كثير من أعضاء حزب المحافظين بعض مبادئ حزب الأحرار فيما يتعلق بالحد من حقوق الملكية الدستورية ؛ ومناخسة الملكية التي تقوم على الحق الأعلى المطلق ، وأصبحوا يمثلون عنصر المعارضة في عهد الملكة «آن» وفي مقاسمتهم أحياناً الأقاليم ؛ إذ أغلوا يرفضون التسامح الديني والتورط في المشاكل الخارجية . وأصبحت صفة «التوريزم» **Toryism** وصفاً قاصراً على مذهب الأنجليكية والطبقات العليا من المجتمع ، كما قصر صفة «المويج» **whigism** على الأمر الأرستقراطية من ملاك الأراضي وأصحاب المصالح المالية من الطبقات المتوسطة الغنية . وكان موت الملكة «آن» في عام ١٧١٤ - الأمر الذي ترقب عليه تولى «جورج الأول» العرش كرشح لحزب الأحرار وهروب زعيم المحافظين في عام ١٧١٥ إلى فرنسا وهو «هنري سان جون» اللفايكونت الأول لاقليم دولنجروك - عاملاً هاماً في القضاء على نموذ المحافظين كمحزب سياسي ؛ ثم مرت حسون عاماً تولى فيها حكم البلاد جماعات الأرستقراطيين ومن يتصلون بهم من الذين يعتبرون أنفسهم من الأحرار إيماناً وتقليداً . هذا يبين أصح المتشددين من المحافظين بوصفهم بأهم يقاتبه ، على الرغم من لقاء مائة من أعيان الأقاليم الذين يمثلون أنفسهم من المحافظين أعضاء في مجلس العموم خلال سنوات حكم حزب الأحرار . وبقيت طؤلاء المحافظين أهميهم الكبرى أفراداً وعلى مستوى السياسة المحلية والإدارة . وكان حكم الملك جورج الثالث (١٧٦٠ - ١٨٢٠) بمثابة عهد جديد في تطور معنى هاتين الكلمتين : الأحرار والمحافظين . فلم يكن هناك في ذلك الحين أحرار ؛ وإنما كان هناك جماعات من الأرستقراطيين وغيرهم من ذوي الصلات الأسرية ، يعملون في البرلمان اعتماداً على المحسوبية والنفوذ . ولم يكن هناك كذلك حزب المحافظين ؛ إنما كان هناك شعور بالمحافظين وتقاليدهم ومزاجهم تحيا جميعاً بين الأسر والفتات الاجتماعية . أما هؤلاء الذين كانوا يسمون بأصدقاء الملك والذين كان يفضل جورج الثالث اختيار وزراءه من بينهم (خاصة في عهد لورد نورث ١٧٧٠ - ١٧٨٢) ؛ فكانوا يأتون من كلا المنصريين وليس من أحدهما فقط . ولكن حدث في عام ١٧٨٤ - بعد وقوع بعض التطورات السياسية العميقة التي هزت الشعور العام هزاً عنيفاً عندما نشبت المشاكل التي احتدم حولها الحدال مثل تلك التي أثارها «جون ويلك» **John willke** وقيام الثورة الأمريكية أن ظهر في ذلك الحين نوع من التحيز الحزبي أخذ يتبلور ويتشكل وظهر في عام ١٧٨٤ «وليم بيت» **William Pitt** الصغير زعيماً لحزب المحافظين الجديد الذي يمثل أعيان الأقاليم وطبقات التجار والجماعات الورادية الرسمية . وفي معارضة هذا الحزب عاد إلى الوجود حزب الأحرار بقيادة «تشارلر حيس فوكس» **Charles James Fox** فاصح يمثل مصالح المشقين ورجال الصناعة ومن يرغبون في إقامة انتخابات برلمانية وأحداث إصلاحات اجتماعية . وقد كانت الثورة الفرنسية والحرب التي نشبت بين إنجلترا وفرنسا سبباً في زيادة هذا التقسيم تعميقاً ، فقد انشق على «فوكس» قسم كبير من أتباع حزب الأحرار الأكثر اعتدالاً وأصبحوا يؤيدون «بيت» . وابتداء من عام ١٨١٥ ساد عهد من الخلط الحزبي وكان من نتيجته تمييز اتجاهات «روبرت بيل» **Robert Peel** و«بليامين دزرائيل» **Beniamm Disraeli** بروح المحافظة على التقاليد واتجاهات «جون راسل» **John Russel** و«و.و.ا.» - «جلادستون» **W.E Gladstone** بالتححر والتحديث . وعلى الرغم من أن صفة المحافظين استمرت تطلق على حزب المحافظين لأن لفظ «المويج» أو الأحرار ؛ قد فقد مدلوله السياسي .

من التجار والطبقة الوسطى ، وكان أعضاؤه يخشون المبادئ الملكية التي يدين بها حاكم هولندا ، ولذلك عندما حاول «داني» أن يجعل إنجلترا تقوم بحرب ضد فرنسا اشتد خوف حزب «الهويج» من إتاحة الفرصة لحزب التورى لتكوين جيش قد يستخدمونه في القضاء عليهم . ولذلك نجحوا في منع وقوع هذه الحرب .

وكانت المنافسة خطيرة بين الحزبين ، وقد تبين لداني وأعوامه من المحافظين اتخاذ الوسائل لإقصاء «الهويج» الأحرار عن الحكم ، ومن أهمها عدم السماح بوقوع انتخابات عامة من شأنها تغيير طابع البرلمان . وكان في هذا خطأ كبير لأن وجود حزبين في الحكم ظاهرة صحية يترتب عليها أن يكون هناك حزب معارض خارج الحكم ، فيجعل الحزب الحاكم حريصاً كل الحرص على ألا يخطئ حتى لا ينجح الحزب الآخر في جعله يفقد ثقة البرلمان فيستبعد من الحكم . عمل داني على التخلص من أعدائه من أعضاء الحزب المعارض مستخدماً العنف والشدة ، مما أثار زعيم المعارضة «لورد شافنسبرى» ، وزاد الحالة سوءاً ادعاءات «تيتاس واتس» Titus Oates في خريف ١٦٧٨ عن وجود مؤامرة كاثوليكية مدبرة لخرق مدينة لندن للتهديد لخلع شارل وتنصيب دوق يورك ملكاً على إنجلترا ، وراحت تلك الشائعات بصفة خاصة عندما نشرت بعض الرسائل التي كتبها «كولمن» Coleman السكرتير الخاص للدوق يورك ولى العهد إلى أحد مستشارى لويس الرابع عشر يشير فيها إلى مسألة تحويل إنجلترا إلى الكاثوليكية . وظهر الخلاف واضحاً بين حزبى «التورى» و «الهويج» تجاه هذه المؤامرة ، فبينما أصر «الهويج» على حرمان جيمس من العرش كلية ، اكتفى حزب «التورى» بالإبقاء عليه مع تحديد سلطانه .

وظل حزب «التورى» يسيطر على البرلمان بعض الوقت إلى أن استطاع حزب «الهويج» أن يتغلب عليه ويسيطر على البرلمان في المدة من ١٦٧٩ - ١٦٨١ ، وفي خلالها اتبع أعضاء حزب «الهويج» سياسة غاية في القسوة والعنف لإزاء أعدائهم من أعضاء حزب التورى والبلاط والكاثوليك . وكان الأجدى بالحزبين في ذلك الظروف أن يصلوا إلى حل موحد بالنسبة لما يتخذ من إجراءات لإزاء ولى العهد بعد اكتشاف المؤامرة ، وظل أعضاء حزب «الهويج» خلال سيطرتهم على البرلمان مصرين على استصدار «قانون الحرمان» ، وكان يقضى باستبعاد دوق يورك وحرمانه من عرش إنجلترا لأنه كاثوليكي ، وقد ذهب أعضاء حزب «الهويج» إلى أبعد من ذلك عندما

اعتبروا بلوق « مونموث » وهو ابن غير شرعى لشارل الثاني وريثاً للعرش بعد شارل الثاني ، وخطوا بذلك حق ماري زوجة وليم أورانج في الأراضي المنخفضة وأنها الأميرة « آن » . ولكن هذه المحاولات التي قام بها حزب « الهويج » أثناء سيطرته على البرلمان قد فشلت ، فأدى ذلك إلى ضعف مركزه كما ترتب على أعمال العنف التي اتبعها حزب « الهويج » ، وما اقترن بها من انتشار الاعتقاد بأن أزمة ١٦٤١ لن تلبث أن تتكرر ، ترتب على ذلك انضمام عدد كبير من الأحرار من ذوي الآراء المعتدلة تحت زعامة « هاليفاكس » Halifax إلى حزب « التوري » والملكيين ، كما تم الاتفاق بين حزبي التوري والملكيين وكانا يتنافسان منذ عام ١٦٦١ .

وعندما تمت الغلبة لحزب « التوري » عام ١٦٨١ عقب حل برلمان « الهويج » الثالث ، اتبع أعضاء حزب « التوري » نفس سياسة العنف والاضطهاد التي اتبعها « الهويج » من قبل . فتشتت شمل حزب « الهويج » ولاسيما عقب وفاة رعيهم لورد « شافتسبري » بمنغاه في هولندا .

لم يلبث الملك أن حكم بمفرده دون الاستعانة بالبرلمان خلال الأعوام الأربعة الأخيرة من حكمه ١٦٨١ - ١٦٨٥ ، وصادفت هذه السنوات ازدياد نفوذ لويس الرابع عشر وانتصاراته في الأراضي المنخفضة الأسبانية مما كلف إنجلترا بعد ذلك عشرين عاماً من الحرب لكي تزعزع من سيطرة فرنسا في القارة الأوروبية .

وعلى الرغم من أن الحزبين « التوري » و « الهويج » قد اتخذوا وسائل عنيفة وتعسفية في سبيل استئثار أحدهما دون الآخر بالحكم ، مما أتاح الفرصة لفرنسا في عهد لويس الرابع عشر لتحقيق انتصارات عديدة جعلت نفوذها يصل إلى الليرة في عام ١٦٨٤ ، فإن ظهور الحزبين ومنافستهما الواحد الآخر قد أفاد البرلمان فجعله أداة حكومية ناجحة في حكم بريطانيا ومستعمراتها خلال القرون التالية واستمر هذان الحزبان يسيطران على سياسة الدولة خلال القرنين التاليين ، وتما خلال نضاله ماباشان « قانون الحرمان » الشعور بالولاء للحزب ، فاستفاد من ذلك ملوك إنجلترا في العهود التالية أى في عهد كل من جيمس الثاني ووليم وآن . وتمت في النهاية هزيمة لويس الرابع عشر كما تم الاتحاد مع اسكتلندا عام ١٧٠٧ بفضل سياسة حزب « الهويج » وأتباعه ، كما تمكن حزب « التوري » من عقد صلح « يوترخت » ١٧١٣ .

وظل حزب «المويج» الذى أسسه «شافتسبرى» طويلاً بعد قانون الإصلاح عام ١٨٣٢ حزب الخارجين على الكنيسة الانجليكانية ، وحزب التجار والطبقة الوسطى بصفة عامة . أما حزب «التورى» فظل على ما كان عليه أيام مؤسسة «دانبي» يتكون أسلماً من ملاك الأراضى ورجال الدين من الانجليكان ومن يتبعهم ، ومع ذلك فقد كان له أنصار فى بعض الأحيان فى الطبقات الأخرى .

وفى نهاية القرن التاسع عشر طرأ على طبيعة الأحزاب السياسية تغيير فى إنجلترا نتيجة للثورة الصناعية وما ترتب عليها من تغييرات اجتماعية واضحة . فلم تعد الفوارق الدينية ذات أثر فى تمييز الأحزاب واختلافها ، وحلت محلها الاعتبارات الاقتصادية والاجتماعية .





## جيمس الثاني والثورة البيضاء

( ١٦٨٥ - ١٦٨٨ )

بدأ جيمس حكمه بدعوة البرلمان ، وكان في غالبته يتكون من حزب « التورى » ،  
ويدين بالولاء للملك ، ومع ذلك لم يكن هذا البرلمان على استعداد ليجعل انجلترا  
وكنيستها تخضع للكنيسة الكاثوليكية .

ووجه جيمس في أول عهده بثورة دوق « مونمٲ » Monmouth المدعى على  
العرش . وكانت هذه الثورة في الواقع ثورة تزعمها البيوريتان ليعروا بها عن سخطهم  
واستياءهم بسبب ملاقوه من اضطهاد وظلم ، وجادوا بأرواحهم أثناء القتال في هذه  
الثورة بشجاعة فائقة تدعو إلى الإعجاب ، تحت قيادة « مونمٲ » وكانوا مدفوعين  
في ذلك بفكرة خاطئة ، وهو اعتبار « مونمٲ » زعيماً لدينهم ومذهبهم ، وأخفقت  
الثورة ، واتخذ منها الملك ذريعة للقيام بأعمال الإرهاب والتعسف والظلم ، كما أن  
نصائح فرنسا وجاعة الجزويت جعلته يتخذ إجراءات سريعة لتحويل الدولة إلى العقيدة  
الكاثوليكية . خولت له هذه الثورة أن يبنى جيشاً قائماً مكوناً من ٣٠,٠٠٠ جندي ،  
اتخذته أداة فيما عزم عليه من حكم مطلق ، ولم يحتفظ به لضمان الأمن كما أعلن ، وإنما  
اعتمد عليه في سلوك سياسة التحدى ضد حزب « التورى » ، وحكام الأقاليم ، ورجال  
الكنيسة الأنجليكانية . وعين ضباطاً من الكاثوليك على فرق جيشه . ولما لم يجد العدد  
الكافى اللازم منهم في انجلترا ، استدعى أعداداً وفيرة من فلاحى ايرلندا ممن كانوا  
يتكلمون اللغة الكلتية ، فأغضب بذلك الشعب الذى كان يعتبرهم غرباء عنه . وكان  
ما فعله جيمس كافياً ليشير كراهية حزب « التورى » الذى شاهد الجيش مرتين  
يستخدم كأداة لإخضاعه ( أيام كرمويل وأيام جيمس الثانى ) .

وكما كانت ثورة « مونمٲ » Monmouth عاملاً مهد لجيمس سلوك طريق غير  
صائب ، فإنها قد أدت في النهاية إلى القضاء عليه كما مهدت الطريق أمام وليم أورنج  
Orange ، - إذ قربت بين الأحزاب المختلفة . كان وليم على علاقات طيبة بحزب

« تورى » منذ وزارة « دانى » Danby (أيام شارل الثانى) ، ثم نتج عن إحقاق ثورة مونموت Monmouth أن فريقاً من « الهويج » والخارجين على الكنيسة الانجليزية قد ركزوا آمالهم على كل من وليم ومارى . وفعلوا فى عام ١٦٨٧ اتحد غالبية الانجليز فى رغبتهم وأملهم فى أن تحمل مارى الدروتستنتية محل أبيها على العرش .

أما كاثوليك إنجلترا فى تلك الأثناء فكانوا فى غالبيتهم يوحسون بأقاليم إنجلترا ، مبعدين عن الوظائف الحكومية ، يعيشون فى وثام مع أفراد الشعب الانجليزى . ولم يكن هؤلاء الكاثوليك المبعدون عن الوظائف منذ مؤامرة البارود ١٦٠٥ متحمسين لسياسة جيمس التى اتبعتها بقاء على تحريض فرنسا وحزب الجزويت . إذ تبين لهم أن ديانتهم لن تسود إنجلترا إلا إذا تدخلت قوات أجنبية ، كما كانوا يعتقدون بأن محاولة فرض العقيدة الكاثوليكية على إنجلترا ستؤدى حتماً إلى حرب أهلية ، وهذا ما كانوا يخشونه ، فقيام حرب أهلية ثانية معناه للقضاء على البقية الباقية من الكاثوليك كما قضت الأولى على جزء كبير منهم .

وجدوا فى سلوك البابا « انسنت الحادى عشر » Innocent XI وقد امتار باعتدال آرائه - أكبر مشجع لهم ، وكان البابا فى تلك الأثناء فى نزاع مع لويس الرابع عشر ومع الجزويت ، كما كان يخشى ازدياد نفوذ فرنسا فى أوروبا وبالتالى فى إيطاليا ، ولذلك كان راضياً تماماً عن حركة وليم ورعبته فى مساعدة بروتستنت إنجلترا لما سترتب على حركته هذه من خروج إنجلترا من تبعية فرنسا . كل ما كان يرى إليه كاثوليك إنجلترا والبابا أن تحصل هذه الطائفة على التسامح الدينى لا السيادة السياسية كما كان يأمل جيمس الثانى ، وكما فعل عندما أحل الكاثوليك محل الأنجليكان فى كافة الوظائف المدنية والعسكرية ، فاستحق غضب الشعب الانجليزى وخطه . وقد أعلن وليم نيته واستعداده لمنح كاثوليك إنجلترا هذه الحرية .

كان فى استطاعة جيمس أن يحصل من البرلمان على هذا التسامح الدينى للرعايا الكاثوليك فى إنجلترا ، ومع هذا فلم يكن فى ذلك حل للموقف يمكن بواسطته تفادى ثورة ١٦٨٨ ، وذلك لأن كلا من حزب « التورى » وليم لم يكن مستعداً للموافقة على أن يصح ضباط الجيش من الكاثوليك الايرلنديين أى من الأحناب وأن يملأوا وظائف الحكومة والمجلس الخاص ووظائف إدارة أوقاف كنيسة إنجلترا نفسها . على الرغم من هذا الاتجاه الواضح فى الشعب الانجليزى كانت هذه هى السياسة التى اتبعتها

جيمس طيلة السنوات الثلاث الأخيرة من حكمه ، مستنداً في ذلك إلى أعمال العنف ،  
والوسائل غير الشرعية . كل هذا التحقيق غرض واحد ألا وهو قلب نظام إنجلترا  
الديني .

إلغاء مرسوم نانت Nantes وأثره الاقتصادي والسياسي في إنجلترا :

في تلك الأثناء التي كان فيها لويس ١٤ يحرض جيمس الثاني على اتخاذ كل  
الإجراءات الممكنة لتدعيم الكاثوليكية في إنجلترا ، كان يضطهد هيجونوت فرنسا ،  
فألغى مرسوم « نانت » ١٦٨٥ واتبع أقسى وسائل الاضطهاد إزاءهم .

بلغت قسوة الإجراءات الفرنسية في اضطهاد الميحبوت أنهم حرموا من حق  
مبارحة فرنسا ، وأن انتزع من الأسرة أبناؤها ورجلها وكأنهم جميعاً من رقيق الدولة .  
فأرغم الرجال على العمل في السفن والنساء والأطفال على تلقى مبادئ عقيدة دينية  
لا يرغبون في اعتناقها . ولكن استطاع بعض مئات الآلاف من البروتستنت خلال  
سنوات عديدة أن يهربوا من فرنسا ، وأن يهجروها إلى إنجلترا وبروسيا وهولندا .  
وكانت نسبة كبيرة بينهم من التجار والصناع المهرة ، حملوا معهم إلى البلاد التي  
استوطنوها كثيراً من الطرق الصناعية المتقدمة المسيرة وكثيراً من وسائل النجاح في  
التجارة . وقد خففت من وطأة اعتبارهم منافسين للسكان الأصليين في الدول التي  
هاجروا إليها أنهم كانوا قوماً مسالمين دفعهم بجرّد الاضطهاد في بلادهم الأصلية إلى  
الرحيل عنها . ولا يجب أن نستهن بالتأثير التي ترتبت على هجرة هؤلاء البروتستنت  
فقد كان نزوح الآلاف من هؤلاء العمال والتجار المهرة من فرنسا إلى إنجلترا عاملاً له  
أهميته في انتزاع إنجلترا للمشروعات التجارية والصناعية من فرنسا ، بينما قضى نتيجة  
لذلك على كثير من الصناعات التي قامت على أكتافهم في فرنسا ، ونتج عن ذلك  
استحداث صناعات عديدة في إنجلترا .

أما من الناحية السياسية :

فقد كان لإلغاء مرسوم « نانت » آثاره العظيمة ، إذ مهد أذهان الانجليز ومشاعرهم  
لثورة ١٦٨٨ وللحروب الطويلة التي تلتها ضد فرنسا ، فقد زاد ذلك في بغض الانجليز  
للبابوية ، رغمًا عن الحقيقة التالية وهي أنه عندما انقسمت دول أوروبا بين مناصر  
ومعاد لسياسة لويس ١٤ ، كان البابا في صف الدولة التي كانت تصبر له كل بغض.

وعدااء ، ولذلك كان الانجليز يخشون أن يتبع مثل هذا الاضطهاد إزاء بروتستنت انجلترا إذا تم لجيمس الثاني تحقيق مشاريعه الخاصة بقلب كنيسة انجلترا إلى العقيدة الكاثوليكية . اتحد جميع بروتستنت انجلترا على اختلاف مذاهبهم نامين كل أسباب خلافاتهم ليقفوا أمام الملك المتعصب ، صديق فرنسا التي اضطهدت البروتستنت فيها ، وشرذتهم شر تشريد ، وأمام سلطته المطلقة التي لا حدود لها ، بما اتخذته لنفسه من حق في تعديل القوانين . وكان في ذلك انتصار لمبادئ حزب « الهويج » الذي كان يدين سياسة التسامح على حين وجد أعضاء حزب « التوري » الذي كان يقوم على أساس عدم مقاومة سلطة الملك ، وحلوا أنفسهم مخبرين بين أمرين : إما النزول عن آرائهم السياسية والاشراك مع « الهويج » في هذه الحركة ، أو عدم بذل أى مجهود لوقف طغيان هذا الملك المستبد ، وهم يرونه يحاول القضاء على عقيدتهم الانجليكانية ، وقد أصبح حاكماً مستبداً بفضل مبادئهم وولائهم له .

و الواقع أن سياسة جيمس الثاني الكاثوليكية وإجراءاته التعسفية في سبيل فرضها على انجلترا قد جعلت مركز حزب « التوري » غاية في الضعف ، بل وطعته في الصميم ليس من الناحيتين العقلية والروحية فحسب بل من الناحيتين المادية والسياسية كذلك ؛ ذلك لأنه بينما كان حزب « التوري » في عام ١٦٨٥ — أى عند اعتلاء جيمس الثاني عرش انجلترا — هو القابض على رمام الأمور في مجلس الدولة الخاص ، وفي مجالس الإدارة البلدية والقروية ، وبينما كان أعضاؤه يشغلون مناصب الحكم في الأقاليم ، إذا بأعضائه بعد مضي ثلاث سنوات على هذا التاريخ أى قبيل وقوع الثورة مستبعدون هم وكبار رجال الكنيسة من سائر هذه الوظائف الكبرى المركزية منها والمحلية ، وعلى الرغم من كل ذلك لم يجرأ أعضاء هذا الحزب ساكماً ، فلم ينضموا إلى حزب « الهويج » إلا بعد أن رزق جيمس الثاني من زوجته الثانية الكاثوليكية ولداً يرث من بعده الحكم ، ويحول دون وصول ماري ومن بعدها آن (١) البروتستنتين إلى العرش .

لم يلبث جيمس الثاني أن سلك سياسة عدائية ضد رجال الكنيسة الانجليكانية في عام ١٦٨٧ . عندما اعتدى على حقوقها : فحول لإحدى كليات اكسفورد إلى كلية للعقيدة الكاثوليكية ؛ وكان لهذا العمل التعسفي آثاره في إثارة الرأي العام في اكسفورد ،

---

(١) كان الرجل الذي قادهم إلى هذا التمييز هو الذي أسس هذا الحزب وهو « دانبي » Danby . وكان أحد الثلاثة الذين وقوا الدعوة إلى « وليم أورنج » بالإضافة إلى أربعة من حزب « الهويج » .

وإثارة رأى كل من يستمد وحيه وآراءه منها . كان لهذه السياسة الخرقاء أثرها في تحويل أكسفورد من مكان يدافع عن حق الملك المقدس ، ويأمر بعدم الوقوف في سبيله إلى مكان يشع بالثورة ، ويحبد قدوم ولیم إلى إنجلترا لإنقاذها .

ثم لم يلبث جيمس الثانى أن طلب من أساقفة الكنيسة الانجليكانية في إنجلترا أن يعلنوا من أعلى منابرهم في سائر أنحاء الدولة مرسوم التسامح الدينى ، وكان يقضى بإلغاء كافة التشريعات التى سنت ضد الكاثوليك وغيرهم من الطوائف المخالفة للكنيسة الانجليكانية ، وبالسماح لهم بالتمتع بالطوائف المدنية والحرية في الدولة . ولما كان هذا المرسوم غير قانونى إذ لم يقره البرلمان بعد أصبح من الواضح أن الملك قصد من وراء هذا الأمر تحقير شأن رجال الدين والخط من مكانتهم . لذلك لا نعجب إذا كان سبعة من هؤلاء الأساقفة وكان على رأسهم « سنكروفت » *Sancroft* رئيس أساقفة « كنتربرى » قد امتنعوا عن تلبية هذا الأمر ، وكتبوا إلى الملك يلتمسون منه إعفاءهم من تنفيذ هذا الأمر ، فأمر الملك بمحاكمتهم ، ثم تمت براءتهم على يد هيئة الجورى المحلية وأطلق سراحهم وسط حماسة الشعب الانجليزى ( ن ٣٠ يونية ١٦٨٨ ) .

وفى نفس الليلة من صيف ١٦٨٨ وقع - سعة من زعماء حزب « الحويج » « والتورى » دعوة إلى ولیم أوريچ ليجىء إلى إنجلترا .

### ثورة ١٦٨٨ .

وقامت في سبيل هذه الدعوة عدة عقبات . وكان ولیم شديد الرغبة في الوصول إلى إنجلترا ليتمكن من قيادة حركة مقاومة التوسع الفرنسى على يد لويس الرابع عشر ، وكانت إنجلترا نفسها في ميسس الحاجة إلى جهوده لإيقاف حركات الاضطهاد الدينى ، والحد من سلطات الاستبداد التى كان يمارسها جيمس الثانى . واتضح لولیم أنه إذا لم يصل إلى عرش إنجلترا فإنه لن يستطيع أن يسيطر على الموقف الأوروبي ضد لويس الرابع عشر .

ووقفت في سبيل ولیم عقبات دون ما كان يريد ويريد له الشعب الانجليزى ، فهناك خطر حرب محتملة قد تقوم بها فرنسا ، وكانت هذه نية من بيات لويس الرابع عشر التى طوى صدره عليها أيام الحروب السابقة . ومن عجيب الأمر أن يقوم جيمس الثانى بإزالة هذه العقبات عن طريق ولیم ، فيحجم عن معاونه لويس الرابع عشر .

وكان هو نفسه في أشد الحاجة إلى مساعدة ذلك فرنسا . وهذا استطاع ولیم أن يستعين في الوصول إلى هدفه باستخدام قوى هولندا البرية والبحرية للنزول في ميناء «تورباي» في ٥ نوفمبر ١٦٨٨ ، ثم بلغ لندن دون أن يلقي مقاومة . وقد أعلن رغبته في تكوين برلمان حر يعهد إليه بتسوية كل المنازعات . أما جيمس الثاني ففر نظراً للانقسامات العديدة التي نشأت فيه بسبب طبيعة تكوينه من كاثوليك وبروتستانت وإنجليز وإيرلنديين ، وكان ولیم بطبعه عزوفاً عن إراقة الدماء . ولم يكذب يعان رغبته في إقامة برلمان حر حتى أقبل الشعب عليه والتف من حوله . فهذا «داني» المقبل من الشمال على رأس الشماليين يؤيد ولیم ، وهذا الزعيم التوري الآخر «سيمور» يقبل على رأس أهالي «ويسكس» ، فيضهم بنوره إلى معسكر ولیم ، وهذا «ديفينشير» من زعماء الهويج ، يتقدم لتنظيم الأمور في وسط إنجلترا ، وقامت جماهير لندن تؤيد ولیم دون زعيم يقودها . وفي خلال ذلك انتهز جيمس الثاني الفرصة ففر بحياته وأسرته إلى فرنسا في ديسمبر ١٦٨٨ ، ملتسماً أن يعد العدة للمقاومة .

ويطلق الإنجليز على ثورة ١٦٨٨ «الثورة العظمى» و «الثورة المجيدة» و «الثورة البيضاء» والواقع أنها تستحق كل ذلك : فهي بيضاء ، لأنها وقعت دون إراقة دماء ، ومجيدة وعظيمة لأنها تمخضت عن «قانون الحقوق» ١٦٨٩ ، الذي دعم نظام الحكم الملكي الدستوري ونظام العقيدة الانجليكانية ، وما إلى ذلك من مزايا عديدة . وأثبت اتفاق عام ١٦٨٩ بين الملك والبرلمان أنه يتضمن نظاماً وطيد الأركان سليم القواعد ، ولم يكن هذا الاتفاق الجديد عاملاً عظيماً في منح الإنجليز حرية تفوق تلك التي حصلوا عليها من قبل ، ولكن كان فيه تجديد لحيوية الهيئة السياسية والحكومية للدولة وسلامة تصرفاتها ، كما أحل هذا الاتفاق الجديد التعاون بين الملك والبرلمان محل التشاحن والتنافس على أساس غلبة البرلمان ، كذلك استطاعت إنجلترا بفضل هذا الاتفاق أن تحتل المركز الرابع المتزايدة بسلام ، بل استطاعت كذلك بفضل هذا الاستقرار أن تحتل مركز الزعامة في السياسة الأوروبية بفضل جهود «ملبرا» Malborough و «البول» Waipole و «شاتام» Chatham ، فتزعم أوروبا بجيوشها ومستعمراتها وتجارتها . كما تميزت إنجلترا بحريتها في مجال السياسة والدين واشتهرت بنهضتها الثقافية .

ويرجع الفضل في ذلك كله إلى «إعلان الحقوق» الذي أعده البرلمان ، ووقع

عليه كل من ماري ووليم في ١٦٨٩ . وبذلك تلافى البرلمان الخطأ الذي وقع فيه من قبل في عام ١٦٦٠ عندما استدعى شارل الثاني ليحكم إنجلترا . وكانت هذه الوثيقة بمثابة عهد بين الملك والبرلمان . وقد تضمنت القواعد التي ينتظم على الملك أن يسير بمقتضاها ولا يخل بشروطها كما فعل جيمس الثاني من قبل .

وأوضحت هذه الوثيقة سلطة الملك التشريعية : فبينت أنه لا يملك حق إيقاف تنفيذ القوانين أو تعديلها أو العمل على تنفيذها دون موافقة البرلمان . كما نصت سداً من أهم بدود العهد الأعظم ، ذلك الذي ينص على عدم قانونية أى ضريبة أو قرص يفرسه الملك دون موافقة البرلمان ، كما نصت كذلك على الالتجاء إلى الإكثار من دعوة البرلمان لمعالجة أمثال هذه المشاكل ، وللمحافظة على القوانين وعلى تنفيذها وتصحيحها . كلما دعا الأمر . واشترطت حرية إبداء الرأي والمناقشة في المجلس كما وضحت أن تكوين جيش أو الاحتفاظ بجيش قائم لا يتم إلا بعد موافقة البرلمان .

ووضحت هذه الوثيقة ترتيب الوراثة لعرش إنجلترا ، فنصت على أن تكون لماري ووليم معاً ، وعند موت أحدهما يكون الملك للثاني ، ثم يخلفهما أولادهما ، وإذا مات دون حلف فإن «آن» تصح صاحبة الحق في العرش . ويشترط أن يكون الملك بروتستانتياً أنجليكانياً ؛ أما إذا أعلن الكاثوليكية أو تزوج بكاثوليكية فيسقط حقه في العرش .

وقد أطلق على هذه الوثيقة فيما بعد «قانون الحقوق» وفي الواقع لم تأت هذه الوثيقة بجديد ، ولكنها دعمت حقوق الشعب الإنجليزي ممثلاً في أعضاء برلمانه بما أكدته من قدم هذه الحقوق . وما أشارت إليه بما قام به جيمس الثاني في سبيل انتهاك حرمتها مما دعا الشعب إلى الثورة ، ومسحت الفرد حق التقدم بملتمس للملك في غير خوف ولا حرج . وهنا احتاط الشعب لما قد يحدث مماثلاً لما وقع للأساقفة السبعة الذين التمسوا من الملك إعفائهم من إعلان قانون التسامح فحاً كههم على ذلك .







## الفصل السابع

### حرب الثلاثين عاما

( ١٦١٨ - ١٦٤٨ )

نشبت حرب الثلاثين عاما بسبب الفتنة الدينية في بوهيميا ، وكان من الممكن تحديد ميادينها ، ولكن أتيج لها أن تنتشر مما أدى إلى تدخل معظم الدول الأوروبية في الصراع بدرجات متفاوتة . وعلى الرغم من أن الدنمرك والسويد وفرنسا وإنجلترا وسافوى والأراضي المنخفضة قد لعبت دورا في هذه المأساة فقد اتخذت الحرب الامبراطورية الألمانية مسرحها الرئيسى على الدوام ، كما كان البوهيميون الألمان أوfer هذه الشعوب حظا من الخسائر . ومن قبل كانت الطبيعة قد فرضت على الألمان جروعا صارما ، فقد كانوا بسبب موقعهم الجغرافى بعيدين عن الاستفادة من المشروعات الاستعمارية التى أضنت حياة الأمم المطلة على المحيط خلال القرن السابع عشر . ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل إن نتائج تلك الحرب التى شنت بقسوة لم ير التاريخ لها مثيلا إلا فى حالات نادرة ، تسببت فى مصائب بالغة نزلت بفلاحى الامبراطورية الألمانية . فكان النهب ، وكانت الجماعة التى اضطرت الناس فيها أكل لحوم البشر ، فمحيث مدن وقرى ، وفنيت أسر كاملة . وبينما كانت ألمانيا فى بداية القرن السادس عشر تتمتع بمركز ممتاز فى الحضارة الأوروبية ، فلأنها قد غدت بعد نهاية حرب الثلاثين عاما مقفرة من كل أدب وفن ، وأصبحت تعاني من أزمة اجتماعية وأخلاقية وحالة من الحمجية والبربرية .

اسباب حرب الثلاثين عاما ، من أهمها :

- ١ - شخصية الامبراطور فرديناند الثانى ( ١٦١٩ - ١٦٣٧ ) : كان يسوعيا ، يهيمس لحركة انعاش الكنيسة الكاثوليكية . وكانت تعاليم اليسوعيين تنحكم فى ذهنة

المخلود المقعم بالمرارة ، وتسيطر عليه عاطفة واحدة وغرض واحد ، المقت الشديد للبروتستنت والتصميم على اقتلاعهم من أملاكه . فأنزل بهم سلسلة من الاضطهادات في استيريا عام ١٥٩٨ ، وواصلها في بوهيميا ثم استأنفها في سائر أنحاء أملاكه النمساوية ، ونجح في تحقيق هدفه ، ووضع الحياة الدينية والفكرية في بلاده تحت الحكم القاسي للجماعة اليسوعيين ولكن كان الثمن باهظا ، وهو التحطيم العنيف الذى أصاب بناء المجتمع البوهيمى بأكمله ، وما تلا ذلك من اندلاع حرب الثلاثين عاما .

٢ - ومع ما اتصفت به تلك الحرب من تخريب وتدمير فإن نشوبها في الواقع لم يكن لأغراض نالفة ، وإنما قامت لتقرير أمر هام في مصير ألمانيا يهدف إلى انتزاعها من حركة الإصلاح الكاثوليكي ، فيتوقف بذلك التقييم الذى أحرزته تعاليم اليسوعيين ، وتخلص للكنيستين اللوثرية والكالفينية مساحات واسعة من الأرض في وسط أوروبا . ولكن الدين على الرغم من أنه كان أشد العوامل أثرا في النزاع وأكثرها بعثا للمرارة في نفوس الناس لم يكن عندئذ - وربما لم يكن على الإطلاق - الدافع الوحيد في أذهان رجال السياسة .

٣ - لم يمنح صلح أجسبرج عام ١٥٥٥ الحرية الدينية للأفراد وإن كان قد منحها الإمارات ، فأصبح لكل منها حق اختيار عقيدتها ، ولم يعترف بعقيدة كلثن مع أن إمارة الهلاتين كانت عندئذ حصنها من حصون الكالفنية . ذلك القصور في صلح « أجسبرج » قد تسبب في استئناف الصراع بين الكاثوليك والبروتستنت في ألمانيا .

٤ - كانت هناك أطماع سياسية للدول التى اشتركت في حرب الثلاثين عاما مثل السويد والدنمرك . وقد انضمت أغراض فرنسا الحقيقية ، وميستها العدائية إزاء الهبسبورج في عام ١٦٣٥ عندما أعلنت فرنسا الحرب على فرعى الهبسبورج في النمسا وأسانيا . حارب السويديون في صف البروتستنت لنصرة عقيدتهم . فكان لتدخلهم النتائج الحاسمة في النصر التام لقضية البروتستنت كما اهتموا بالحصول على السيطرة السياسية والتجارية على الساحل الجنوبي للبلطيق ، وعلى حرية استخدام « السويد » . في تجارتهم . استغلتم السويد بالتالى الصراع الدينى في ألمانيا لتحقيق أهدافها ، وقد أصبحت في نهاية الحرب سيدة على البلطيق ، كما نالت بفضل انتصاراتها مقعدا في مجلس الدايت ، وأصبحت ذات أهمية عظمى في السيطرة على شئونه ، ولم يكن لروميا

-٢٥٣-

دور ذا خطر حتى ذلك الوقت . فهله السويد قد انتزعت منها ولايات البلطيق ، كما أن أسرة الموهترلرن Hohenzollern وضمت يدها على پوميرانيا وانتزعت بروسيا الشرقية من بولندا ، ونجحت السويد بفضل مساعدات فرنسا المالية وشجاعة ملكها في أن تجعل من حوض بحر البلطيق بحيرة سويدية .

### تطورات حرب الثلاثين عاما :

- لم يخل القرن اللئى مضى منذ إعلان لوثر لحركته الدينية وثورته على الكنيسة من التحام وحروب بين قوى البروتستنت والكاثوليك . ولكنها كانت لحسن الحظ محلية ، وسرعان ما كانت تنتهى كما حدث في « كولونيا » عام ١٥٨٠ ، وإن كان الشعور بخطورة الموقف قد أصبح بعد ذلك قويا . كان نجاح الجزويت كبيرا بدرجة جعلت البروتستنت ينتهبون إلى ضرورة التآلف فيما بينهم ، فأسسوا في سنة ١٦٠٨ « الاتحاد البروتستنتى » للدفاع عن مصالحهم المشتركة ، وهب لمواجهة « حلف كاثوليكى » في عام ١٦٠٩ . انضمت إليه أسبانيا وكاد الخلاف على وراثة دوقى « جولىش - كليش » يؤدى إلى الحرب بين هنرى الرابع ملك فرنسا والاتحاد البروتستنتى من ناحية والحلف الكاثوليكى وأمرة الهبسبورج من ناحية أخرى لولا مقتل هنرى الرابع ملك فرنسا في عام ١٦١٠ .

نصح بروتستنت بوهيميا في استخلاص عهد التسامح من الامبراطور « رولف » في عام ١٦٠٩ . ولكن الامبراطور « مئياس » لم يحترم ذلك العهد فقد حرم على كل من « بروناو » Braunau و « كلسترجراب » Klostergrab بناء دور العبادة اللوثرية ، وهلمت الكنيسة البروتستنتية في « كلسترجراب » ، كما شرد بروتستنت « بروناو » وسجن منهم كثيرون ممن قاوم حركة الاضطهاد الكاثوليكى .

### الدور البوهيمى ١٦١٨ - ١٦٢٣ :

أساء ذلك كله إلى البروتستنت في بوهيميا إساعة عظيمة ، فاحتجوا على هذه المعاملة ، لكن الامبراطور أصر على موقفه . فانتقم البروتستنت في بوهيميا من الحكومة والامبراطور في شخص الوزيرين الكاثوليكين « سلواتا » Salwata . و « مارتنتر » Martitz عند ما ألقيا بهما من أعلا قصر « هاردشين » Hardshin - المنيع ، وكان

مقر الحكومة عندئذ في العاصمة « براغ » . لو اتحد البروتستنت في ألمانيا يومئذ لاستطاعوا أن يجبروا الامبراطور فرديناند الثاني على احترام عهد التسامح ( ١٦٠٩ ) . فلما اشترط الاتحاد البروتستنتي عليه قبل أن يصبح امبراطورا أن يحترم هذا العهد لهدئت الحال في بوهيميا ولنجت من شرور الحرب . ولكن أصحاب هذا الاتحاد لم يكونوا بعيدى النظر . وهكذا اعتلى فرديناند الثاني عرش الامبراطورية عام ١٦١٩ دون أن يقيد بأى شرط .

ولم يكن البروتستنت في بوهيميا قوة منظمة ، لذلك كان يتحتم عليهم أن يبحثوا عن حلفاء يساعدهم في محنتهم الماثلة . فوجهوا أنظارهم شرقا نحو الأتراك ، والبروتستنت في المجر ، ونحو « بثلين جابور » Bethlen Gabor وهو أمير كلشفي من ترانسلفانيا مشهور بدهائه ، وجنوبا نحو البروتستنت في النمسا ، وغربا نحو اقليم الهلاتين . وقد جعل البوهيميون عليه فردريك الخامس ملكا بعد أن تخلعوا فرديناند وكان الملك الجديد ( فردريك الخامس ) (١) زوج ابنة جيمس الأول ملك إنجلترا ، الذى كان يتحتم عليه أن يمنع فردريك ، وكان ينتظر أن يمنع زوج ابنته هذا من قبول تاج "هلاتين" تجنباً للتدخل في أمور لاهبالح له فيها ، ولكن جيمس لم يكن بعيد النظر إلى هذا الحد ، فكان سكوته من الأسباب التى أدت إلى اتساع نطاق هذه الحرب .

ولم يلبث شعب بوهيميا أن تبين أن فردريك وبطلق عليه « البلسجراف » لايصلح لهذا المنصب الذى لم يعين فيه لخدارته وإنما لعلاقاته مع دول أوروبا المختلفة مما يعهد السبيل بلحلب بعضها للعمل في مصالح القضية البروتستنتية . ولكن أصدقاءه

(١) فردريك الخامس ١٥٩٦ - ١٦٣٣ : منتخب الهلاتين (عل نهر الراين) وملك بوهيميا ابن المنتخب فردريك الرابع من زوجة ابنة وليام الصامت أمير أورنج . أصبح منتخبا عند موت أبيه عام ١٦١٠ ، وظل تحت الوصاية حتى وصل إلى السن القانونية في يولية ١٦١٤ . تزوج من اليزابيث ابنة ملك إنجلترا جيمس الأول في فبراير ١٦١٣ واعترف به رئيسا لاتحاد البروتستنت الذى اسمه ابوه من قبل لحماية مصالح البروتستنت .

ولما كانت بوهيميا سبب اتحاضها البروتستنتية في نزاع مستمر مع الهسبورج لقد كانت على علاقات وثيقة بمنتخب الهلاتين . وفي أغسطس ١٦١٩ أى بعد بضع شهور من وفاة الامبراطور «ماتياس» اعلنت بوهيميا خلق فرديناند الذى أصبح بعد ذلك بقليل الامبراطور فرديناند الثاني ، واختارت فردريك ملكا عليها : فوافق بعد تردد ؛ وبالثاني فرج فردريك ملكا على بوهيميا في براغ في ٤ نوفمبر ١٦٢٢ .

—٢٥٥—

لم يتحركوا لمعنته ، وكان جيشه ضعيفاً يتنافس فيه القواد على الرئاسة . فلم يقض أمر إبعاده عن العرش وعن الدفاع عن قضية البروتستنت غير معركة واحدة تعرف بمعركة « التل الأبيض » White Hill على بعد بضعة أميال من پراج في نوفمبر ١٦٢٠ ، فصر مع زوجه عن طريق شمال ألمانيا حتى استقر به المقام في « لاهاي » دون أن يخطر له جمع فلول جيشه لمقاومة القائد الامبراطوري « تيلي » Tilly ، وترك بذلك شعب بوهيميا والبلاتين تحت رحمة الامبراطور فرديناند الثاني . وقد أضعف من جانب البروتستنت ما وقع بين صفوفهم من انشقاق أدى إلى هزيمتهم ، إذ انضم اللوثريون في سكونيا إلى فرديناند والحلف الكاثوليكي مما جعله يتمتع بمركز قوى .

نتائج هزيمة التل الأبيض :

١ - اضطهاد بروتستنت بوهيميا :

لم يتوان فرديناند في إنزال سائر ألوان الاضطهاد والمثلة بروتستنت بوهيميا لكي يطهرها منهم . ونجح يومئذ نجاحاً عظيماً ، إذ قتل نبلاء البروتستنت فيها ، وصادر أملاكهم بينما أحل محلهم طبقة ارسقراطية من الكاثوليك ، فصارت مدينة بممتلكاتها الجديدة للامبراطور . وكان لذلك أثره في تدهور حالة للعالمين في بوهيميا ، إذ قتلوا كل حقوقهم ، وأصبحوا برزخون تحت وطأة الرق والاضطهاد .

٢ - خلع فرديريك الخامس ( البلسجراف ) من إقليم البلاتين :

أصدر الامبراطور أمراً باعتبار البلسجراف خارجاً على القانون ، وطرده من حظيرة الامبراطورية ، وبمقتضى السلطة التي يملكها نقل البلاتين إلى « مكسميليان » صاحب بافاريا ورئيس الحلف الكاثوليكي ، وقائد الجيش الذي انتصر في معركة « التل الأبيض » . ومن ثم انتقل ميدان القتال من بوهيميا إلى الراين ، وكان طبيعياً أن يستأنف ذلك الصراع لأن إقليم البلاتين كان معقل الكلفنية الرئيسية في غرب ألمانيا . فمن إقليم البلاتين نهجت الجيوش مؤيدة ثورة الهيجونوت في فرنسا وجهود الهوتنديين لخلع النير الأسباني عنهم .

وكان حق البروتستنت على فرديريك الخامس كبيراً ، فقد نخل عن قضيتهم في أخرج الأوقات ، وتسبب في نقل السلطان في إقليم البلاتين إلى يد أحد الأمراء

- ٢٥٦ -

الكاثوليك وهو منتخب بأقاربا للمنى أصبح قوة لا يستهان بها في ألمانيا ، للملك كان الداييت في « راتشبون » Ratisbon متخوفاً من ذلك الأمر ، فاستطاع عن طريق السلام والتوفيق أن يستخلص من الامبراطور أمراً بالألا يتمتع ورثة « مكسمليان » باللقب الانتخابي بعد وفاته . ولكن الممتلكات كان لها شأن آخر فلما قد غزيت وأعيدت قسراً إلى حظيرة الكاثوليكية ، غزا مكسمليان إقليم الهلاتين الأعلى وغزا « تلى » إقليم الهلاتين الأدنى ، ورضى الداييت بخضوع هذه الأقاليم للحكم الكاثوليكي . وهكذا باغت انتصارات الكاثوليك مداها الأقصى ، فاستطاعت أن تنتزع بنجاح بوهيميا أولاً ثم إمارة الهلاتين الانتخابية من يد البروتستنت .

### ٣ - انضمام سكسونيا والدورثيين الى معسكر الامبراطور :

كان من أبرز نتائج الهزيمة في موقعة « البل الأبيض » أن انضم اللورثيون وسكسونيا إلى جانب الامبراطور ، فانفصمت بذلك عرى الاتحاد البروتستنتي ، ولاشك أن انضمام اللورثيين السكسونيين إلى كاثوليك بوهيميا لما يوضح بجللاء مدى الهداء المستحكم بين معتنى اللورثية والكلفنية ، ذلك الهداء الذى ظهر منذ البداية ، وكان في كثير من الأحيان شؤماً على قضية البروتستنت وتوجيهها التوجيه الصحيح .

### الدور الدهركى ١٦٢٥ - ١٦٣٠ :

وعندما اشتدت المحنة بالبروتستنت المقاتلين في ألمانيا طلبوا المعونة من « كريستيان الرابع » Christian IV ملك الدهرك ، فاستجاب لطلبهم في عام ١٦٢٥ ، ولم تكن شدة اهتمام الملك بالمسألة الدينية هى التى دفعته إلى تلبية الدعوة بقدر ما كان مدفوعاً في ذلك برغبته في الحصول على بعض المكاسب المادية لأدائه في شمال ألمانيا على حساب الجانب الكاثوليكي .

وعلى حين كانت تجرى هذه التدابير في الشمال ، طرأ تغيير هام على التوجيه الحرنى للقوات الكاثوليكية ، فان الانتصارات المبكرة لحركة الإصلاح الكاثوليكي في بوهيميا والهلاتين لم تبرزها القوات الامبراطورية تحت قيادة هرديناند ، وإنما أحرزتها الفرق الألمانية تحت قيادة « مكسمليان » صاحب بافاريا . ولم يكن اعتماد الامبراطور بهذه الصورة على جهاز يحميه - وقد يعلو من منافسيه - الأمر الذى يريجه ويرضيه ،

فاتجهت سياسته إلى جيش قوى يخضع لقيادته ؛ للملك رجب الامبراطور : الفكرة التي عرضها عليه النيل البوهيمي « ولنشتين » Wallenstein ، وكانت تهدف إلى تزويد الامبراطور بجيش يقوم على خلمته ، وريتولى « ولنشتين » الاتفاق عليه على أن يحظى الجيش بالغانم المادية ، ويحتفظ الامبراطور بلخائر الحرب .

كان « ولنشتين » أحد نبلاء بوهيميا بروتستنيا أصلاً ، ولكنه تحول إلى الكاثوليكية وقدم خلماته للامبراطور . فكان قائداً حريياً ماهراً ، وانفرد بين القواد الألمان في هذه الحرب بعقريته ونبوغه ، جمع جيشاً من المرتزقة ، وتميز بقدرته الفائقة على التنظيم وبشخصيته القوية التي كانت تلقى الاحترام والتقدير من جنده وقواده . واستطاع « ولنشتين » أن يكسب ولاء هذا الجيش بما كان يجزل له من عطاه ، وما كان يوتمه . من عقوبات صارمة على الخارجين من رجاله . وكان شديد الطموح ، عظيم الأمل في أن يبلغ عرش ألمانيا .

هزم جيش الملك الدنمركي هزيمة منكرة على يد القائد « تلى » في واقعة « لوتر » Lutter في « ثورنجيا » Thuringia عام ١٦٢٦ ، وانتصر الجيش الامبراطوري تحت قيادة ولنشتين في عدة مواقع أخرى كما - في احتلال « مكلنبرج » Mecklenberg ثم بدأ في مهاجمة الأراضي الدنمركية فاستولى على « هلشتين » Holstein و « شلزويع » Schleswig و « جتلند » Jutland

وهنا هوت قضية البروتستنت من جديد إلى درك أسفل عندما نجح « ولنشتين » في الحصول على تلك الانتصارات البديلة ، واكتسب سلطاناً عظيماً مما أثار عليه حققد الأفراد والنبلاء ، إذ أنه كان بتلك الانتصارات يعيد إلى الامبراطورية سلطانها على حساب الإمارات الألمانية . فحققد عليه الأمراء على اختلافهم من البروتستنت والكاثوليك على حد سواء ، وبدأ يحقد عليهم عليه عندما منحه الامبراطور فرديناند الثاني دوق « مكلنبرج » وحين بدأ يظهر أهدافه الخاصة نحو تقوية ألمانيا بحرياً ، والسيطرة على الساحل الجنوى للبلطيق مما جعل الدنمرك والسويد تتناسيان خلافاتهما وتتحدان لمقاومة « ولنشتين » ، وقواته .

وعقد الصلح بين الكاثوليك والدنمرك في « لوبيك » Lubeck في عام ١٦٢٩ ، واشترط فيه على أن ترد إلى الدنمرك أملاكها بعد أن أخذ عليها عهداً بالآ تدخل مرة أخرى في مشاكل ألمانيا .

وفي تلك الأثناء التي بلغ فيها موقف الكاثوليك والامبراطور مبلغاً عظيماً من سوء والتفوق ، وذاع فيه صيت « ولنشتين » وشهرته اتخذ الامبراطور قراراً بعزله من منصبه وطرده من خدمته . ولاشك أن الأمراء الألمان قد قاموا بدور هام في ذلك الأمر ، ولا سيما مكسميليان منتخب بافاريا ، الذي له من تصريحات « ولنشتين » الخاصة بضرورة تقوية نفوذ الامبراطورية ما يقضى على نفوذ الحكام الألمان بصفة عامة . وهنا أصر على أمر عزل « ولنشتين » أثناء اجتماع الداييت ، في « راتشبون » Ratisbon . ولشد ما كانت دهشة ألمانية عند ما أجابه الامبراطور إلى طلبه ومهما يكن من أطاع ولنشتين وأهداه فقد فقدته الامبراطورية في وقت كانت في أشد الحاجة إليه .

الدور السويدي ١٦٣٠ - ١٦٣٥ :

أخذ « ريشيليو » يلاحظ في قلق متزايد نفوذ الامبراطور وانتصارات الكاثوليك ، مما جعله يقرر ضرورة التدخل حتى لا تتفوق قوى الهابسبورج على البوربون ، رأى حينئذ أن يعمل على إيقاف ذلك النصر والتقدم المطرد الذي لازم أخيراً الجيوش الامبراطورية . ورأى بأىء الأمر اتباع السرية في اجراءاته ، فشجع « جستاف » أدولف ، Gustavas Adolphus ملك السويد ، على مساعدة بروتستنت ألمانيا ضد الكاثوليك ، وأمدّه بالمال اللازم لإعداد جيشه في سبيل تحقيق هذا الغرض . وكان ملك السويد هذا بارعاً في معرفة كثير من الالاف اتقن منها ثمان على الأقل ، كان جندياً عظيماً يحسن تدريب الجند ، كما كان سياسياً قديراً متميزاً بمطامحه الواسعة ، كان مخلصاً عاطفياً ، مؤمناً بالعميلة التي ورثها عن آباءه . وإن « جستاف أدولف » ليفوق معاصريه من الساسة في نشاطه وبساطته واستقامة خلقه . وكان همه طوال حياته تحقيق المصالح العظمى لبلاده وحقيده . كان يهدف إلى كسب مركز ممتاز للسويد في بحر البلطيق ليثبت دعائم ملكه ، كما أراد أن يسيطر على شريط ضيق من الأرض على الساحل الجنوبي للبلطيق ليقى أملاكه ضد أطاع بولندا والروميا . وكان يعتبر الامبراطور علواً له ، إذ كان قد اعترض على توليه عرش السويد ، وكان صديقاً « لسجسمند فازا » ملك بولندا صاحب الادعاء في حق توليته عرش السويد ، وكان جستاف يجهد في الامبراطور فرديناند منافساً خطيراً له في سبيل تحقيق آماله في السيادة على بحر البلطيق ، للملك كله نجد « جستاف » يسارع إلى نصرة البروتستنت ضد الامبراطور والكاثوليك .



كان جيشنا يقاتل حياً مداماً سقى أن نخاض به نهم حروب سابقة عديدة أثبتت خلالها حكمة و بهارة و تميز بأنه كان مدبراً أحسن تدريب ، كما كان جيشنا قائداً مقداماً . استطاع بفضل هذه الصفات أن يحرز للبروتستنت خلال عامين انتصارات باهرة وأن يرجع بالتالي كفتهم على الكاثوليك . أحرز نصر أعظم في سكسونيا في واقعة « بريتنفيلد » Breitenfeld على القوات الامبراطورية تحت قيادته . زال في ١٧ سبتمبر ١٦٣١ كانت هذه الواقعة من المواقع الحاسمة في تاريخ هذه الحروب وهي قد فتحت الطريق أمام البروتستنت ليتقدموا شرفاً نحو دراج ماسية به هيميا ، وغرباً نحو « ميتر » Müritz و « ورمز » Worms . وهنا انتهت الامبراطورية إلى خطورة الموقف . فاستدنت « ولشتين » - ليقود قواتها من جديد .

#### ولشتين يتولى قيادة القوات الامبراطورية من جديد

أصبح الجيش الامبراطوري قوياً بحيث استطاع أن يطرد السكسونيين من بوهيميا وبحيث أصبح بعد أن انضمت إليه قوات مكسميليان ستين ألفاً . وفي « نورمبرج » Nuremberg عندما تخرش جيشنا بالقائد البوهيمي الكبير ذق مرارة أول هزيمة ، إلا أن جوشه قد حاولت أن تمحو عار تلك الهزيمة وتسترد كرامة جيشها في ميدان « لوترن » الذي تحصنت أرضه بالدماء ( في ١٦ نوفمبر ١٦٣٢ ) . ولكن القدر كان يخفى لهم حمة قاسية تمتلئ آتيا في مصرع مليكهم خلال المعركة . ولم يكن هناك من يستطيع أن يخله في قيادة الجيوش البروتستنتية .

وعند موت جيشنا لم يجمع هناك داع للابقاء على « ولشتين » وليس من الممكن أن نعين أهداف هذا القائد العظيم عقب « لوترن » . وتخليص المعسكر الكاثوليكي من عدوهم الأكبر جيشنا . ولكن كان واضحاً أنه لم يعد من السهل توجيحه ذلك القائد البوهيمي . وعبثاً حاول الامبراطور أن يوجهه ويرسل إليه أوامره . فقد عارض الفرنسيين وحده كما فاض السويديين . ومن المحتمل أن يكون قد فكر في حلع أسرة الهابسبورج وأن يحكم ألمانيا من بعدهم . ولما كان الامبراطور لا يملك حياً لمواسمته ، فقد فكر في تدبير أمر حبيبته . بذلك أصبح حبيبته « ولشتين » ملكاً لبلاد بروسيا وقد دحرت القوات البروتستنتية في « بروسيا » Prussia . وإذ كانت موقعة

-٢٦٠-

«برتنفيلد» Bretenfield قد أنقلت الحزب البروتستنتى ورفعت قدره ، فإن هذه الموقعة «نورد لنجن» قد أنقلت الكاثوليكية من الدمار .

وفى عام ١٦٣٥ عقد صلح «براغ» بين الفريقين وبمقتضاه احتفظ البروتستنت بحق إقامة شعائرهم الدينية ، وامتلاك الأراضى ، والاحتفاظ بالنخل الذى حصلوا عليه من أراضى الكنيسة الكاثوليكية منذ خمسين عاماً .

كل ذلك كان بمثابة مرحلة أولى فى حرب الأعوام الثلاثين وأحداثها ، وكانت الحصومات الدينية أوضح معالمها . وتتلو ذلك مرحلة ثانية سيطرت فيها الحصومات السياسية بين المتحاربين ؛ وفيما يلى بيان عنها :

#### المرحلة الثانية من الحرب ١٦٣٥ - ١٦٤٨ :

عندما فقدت السويد ملكها وقائده العظيم جوستاف أدولف فى عام ١٦٣٥ « رأى ريشيليو أنه يجب أن يتدخل حدياً فى هذه الحرب ، ولا سيما بعد هزيمة البروتستنت فى موقعة «نوردلنجن» وكان يخشى أن يؤدى ذلك إلى انتهاء الحرب فى ألمانيا ، وضياح الفرصة على فرنسا فى خضمة أغراضها السياسية فى ألمانيا ، ومنع أسرة الهبسبورج من السيطرة على شئونها ، ولله الأسباب ، دخلت الحرب فى طور جديد يمتاز بفقدان تلك الصفة الدينية التى كانت تميز الطور الأول إلى حد ما ، وأصبحت حرباً ذات أغراض سياسية بحتة ، وغدت دوراً من أدوار الصراع بين كل من أسرتى البوربون والهبسبورج للسيطرة على أوروبا ؛ فأعلنت فرنسا الحرب على أسرة الهبسبورج بفرعيها فى النمسا وأسبانيا عام ١٦٣٥ . ولا أدل على عدم الاكتراث بالناحية الدينية من المخابرات التى عقدت فى ذلك العام ، المحالفة بين فرنسا الكاثوليكية والسويد البروتستنتية « معاهدة كامبيين » Campiègne فى عام ١٦٣٥ وجمهورية هولندا البروتستنتية ضد ألمانيا اللوثرية والنمسا الكاثوليكية وأسبانيا الكاثوليكية . أما سافوى فقد كان ساوكةها ملذباً فى الحرب فهى تارة مع فريق وتارة أخرى مع الفريق الآخر .

ويعتبر ريشيليو الزعيم الأول لتلك الحرب القاسية المهلكة ، بل ينسب إلى هذا الكاردينال الكاثوليكي المفضل فى نجاح الحركة البروتستنتية فى ألمانيا بسبب ما قام به فى سبيل ضميرها . وكان فى سياسته تلك يهدف إلى العمل على إعلاء شأن الملكية فى فرنسا ، وتمكينها من الوصول إلى مكانة مهابة بين دول أوروبا العظمى ؛ وذلك عن طريق الحد

من سلطان أسرة الهابسبورج ، ونجحت سياسته في تحقيق الأغراض المرجوة منها إذ نجح عنها الحد من سلطان الهابسبورج في ألمانيا والامبراطورية عندما اعترف في صلح وستفاليا في عام ١٦٤٨ بالحرية الدينية للبروتستانت ، ومنح الأفراد والحكام الألمان مزيداً من الاستقلال والتفوذ على حساب الأمباطوز ، وعندما تورب على هذه السياسة هزيمة أسبانيا وسقوطها كقوة لها كيانها في السياسة الأوروبية . وقد ظلت فرنسا في حربها ضد أسبانيا بعد انتهاء حرب الثلاثين عاماً لمدة أحد عشر عاماً أى إلى صلح البرانس عام ١٦٥٩ .

انتصر السويديون في هذا الدور في عام ١٦٣٦ مما جعلهم يستولون على برايندنبرج وهولميرانيا وسكسونيا وثورنجا . كما نجح الفرنسيون في الاستيلاء على الألزاس واللورين . وإذا كان ريشيليو قد مات عام ١٦٤٢ قبل أن ينجح ثمار سياسته فإن خليفته مزران ( ١٦٤٣ - ١٦٦٠ ) قد جنى ثمار هذه السياسة ، عندما انتصرت قوات فرنسا بقيادة كونديه في موقعة « روكروا » Rocroy في الأراضي المنخفضة في عام ١٦٤٣ .

#### صلح « وستفاليا » Westphalia ١٦٤٨ :

كان صلح « وستفاليا » - المسمى وضع حداً لحرب الثلاثين عاماً في ألمانيا في عام ١٦٤٨ ، وأنهى الحرب بين فرنسا والامبراطورية - عاملاً قوياً الأثر في تحقيق التوازن الديني والسياسي في ذلك العصر ، فأقر ذلك الحال المسمى ساد أوروبا لأجيال عديدة .

#### اثره في الناحية الدينية :

أنهى الصلح الصراع الديني ، وأقر المذهب البروتستانتى كعقيدة معترف بها إلى جانب الكاثوليكية . وهكذا كتب للعقيدة الجديدة أن تحي وتبقى ، ومع ذلك فقد ظل حبوب ألمانيا وغربها كاثوليكياً ، بينما بقي شمال ألمانيا بروتستانتياً على مذهبي لوتر وكلفن . انتشر أولهما في « برايندنبرج » Brandenburg و « هس كاسل » Hesse-Cassel ، و « بروسيا » و « فرتمبرج » Wurtemberg و « سكسونيا » و « بادن » Baden ، وفي الخوض الأدنى لنهر الراين ، وبوهيميا ، وانتشر خارج ألمانيا في المقاطعات الغربية والجنوبية في سويسرا واسكنديناوة . وأما الثاني وهو مذهب كلفن فانتشر في إقليم الهلاتين ، واعتنقه غالبية سكان المجر من خرحوا على الكنيسة الكاثوليكية ، ثم انتشر خارج ألمانيا وفي فرنسا وهولندا ، واسكتلندا ، وسويسرا الشرقية ، واعتنقته

- ٢٦٢ -

الكنيسة الأنجليكانية بانجلترا ، وفي المستعمرات الأمريكية الشمالية ولا سيما في إنجلترا الجديدة .

ونص الصلح على أن يسترد رجال الدين البروتستنت ما انتزع منهم من أملاك قبل عام ١٦٢٤ . أقر الصلح كذلك ملجأ كلفن ، ومع أنه لم يعترف رسمياً بحرية العقيدة للفرد ولكنها استقرت بمرور الأيام .

ولضمان المحافظة على مركز البروتستنت ومصلحتهم ، أعيد تنظيم المجلس الامبراطوري ، فأصبح يتكون من البروتستنت والكاثوليك بنسبة واحدة .

#### آثره في الناحية السياسية :

١ - نجحت السويد في تثبيت أقدامها عند مصبات الأنهار الشمالية فاستولت على أسقفيتي «برمن» Bremen و «فردن» Verden ، واستطاعت بذلك أن تسيطر على نهري «إلب» Elbe و «الويزر» Weser ، وانفتح بذلك أمامها الطريق لتوسع من نفوذها في شمال ألمانيا ، مما جعلها تتمتع بمركز عظيم في حوض بحر البلطيق وفي الشؤون الألمانية : وقد احتفظت «بوميرانيا الغربية» Pomerania .

٢ - حصلت براندنبرج على «بوميرانيا» الشرقية بتنازل من السويد ، واستعاضت براندنبرج عن ادعائها في الجزء الغربي من «بوميرانيا» بوضع يدها على «كامن» Camin و «ميندن» Minden ومعظم إقليم «مجلبرج» Magdeburg . وهكذا أصبح لبراندنبرج شأن عظيم سيما وأنها قالت استقلالها مما أضعف كسبان الامبراطورية التي كانت الحروب قد أنهكت قواها وأساءت إلى سلطانها بدرجة تفوق إسامتها إلى الكاثوليك جميعاً .

٣ - لم يكن تشيخ الامبراطور بالسيطرة على ألمانيا جميعاً يتمثل في غير سلطة اسمية . فقد استقلت سكسونيا وبافاريا . واقتصر نفوذ أباطرة أسرة الهسبورج على أملاكهم الوراثية . ولما كان غالبية سكان هذه المقاطع من غير الألمان فلم تعد لهم سيطرة على الألمان .

٤ - وإلى جانب ما قدمنا حللته تغييرات أساسية أخرى في ألمانيا ذلك أن مكسميليان دوق بافاريا ضم لنوقيته إقليم الهلاتين الأعلى ، كما ثبت مركزه كمتخب لبافاريا وحق أسرته فيها .

-٢٦٢-

بينما تحول إقليم الهولنديين الآن إلى إمارة انتخابية ثانية ، منحها ابن ملك بوهيميا  
(فريدريك الخامس) وكان يدعى «شارل لويس» Charles Lewis (١٦١٧ -  
١٦٨٠) .

٥ - احتفظت فرنسا بمكاسبها من انتصاراتها الحربية ، فوضعت يدها على  
الألزاس النمساوية و«ستراسبورج» Strasbourg ؛ كما اعترفت بانزفال الأسقفات الثلاث  
«تول» Toul و«متر» Metz و«فردان» Verdun نهائياً عن أملاك الامبراطورية .  
وكانت في يد فرنسا منذ عهد هنري الثاني .

٦ - أعلن هذا الصلح رسمياً استقلال هولندا وسويسرا ، وكانتا تتمتدان بذلك  
الاستقلال منذ أعوام .

ومع ما انطوت عليه مواد الصلح المذكورة من مظاهر الجحد ، فلم تكن هذه المواد  
وحدوها هي فصل الختام . وإنما كانت نتائج الحرب شديدة الأثر على ألمانيا ؛ فقدت ألمانيا  
كثيراً ، وبحسبها أنها كانت ميداناً للحرب ثلاثين عاماً متصلة ، فقدت من سكانها  
ما يقرب من الثلثين . فلم يبق من سكان بوهيميا إلا الربع ، ولم يبق من سكان برلين  
سوى ما يماثل ذلك ؛ ( فأصبحوا ستة آلاف بعد أن كانوا أربعة وعشرين ألف )  
وتتمثل أكبر الخسائر بعد ذلك ، في أحد أحياء «ثورنجا» Thuringia ، حيث قضى  
على ما يزيد على أربعة آلاف رأس من النعم ومعظم الأنفس والنور .

وكان طبعاً بعد ذلك كله أن يتدهور المجتمع الألماني تدهوراً يتضح سلوكه  
وثروته وثقافته ، وكان لذلك كله أثره في تأخير استكمال الاتحاد الألماني وتكوين الدولة  
القومية ما يزيد على قرنين من الزمن .

وإذا كانت معاهدة «مستاليا» قد أنهت الحرب بين فرنسا وألمانيا فلأنها لم تنه  
الحرب بين فرنسا وأسبانيا ، تلك الحرب التي استمرت أحد عشر عاماً بعد ذلك ،  
وانتهت بصلح «البرانس» في عام ١٦٥٩ .



# الباب الثالث

## القرن الثامن عشر في أوروبا







## القرن الثامن عشر في أوروبا

على الرغم من أحداث هذا القرن ليست من الأحداث البارزة المشهورة في تاريخ أوروبا كشهرة القرن السادس عشر مثلاً أو التاسع عشر ، فإن لهذه الأحداث أهميتها العظمى من نواح متعددة من أهمها :

أولاً - أنها كانت مرحلة حاسمة فيما يتعلق بالمنافسة الاستعمارية التي بدأت منذ اكتشاف العالم الجديد أي الأمريكتين في خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر . وقد اشتدت المنافسة الاستعمارية خلال القرن الثامن عشر ، وكان دورها الختامى يومئذ بين الدول الثلاث : إنجلترا ، وفرنسا ، وأسبانيا . واستطاعت إنجلترا في بداية النصف الثاني من القرن الثامن عشر (عام ١٧٦٣) بمقتضى معاهدة باريس أن تتغلب على منافستها فرنسا وأسبانيا ، فأصبحت لها الغلبة في العالم الجديد عندما طردت فرنسا من كندا ، وألقت كندا إلى إنجلترا علاوة على المستعمرات الإنجليزية الأصلية التي كانت تمتد على طول الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية بجنوبي حوض نهر سانت لورنس ، لذلك اعتبرت معاهدة باريس في عام ١٧٦٣ معاهدة خاسرة بالنسبة لفرنسا .

ثانياً - لهذا القرن أهمية أخرى ، وتتمثل بظهور نوع جديد من الملكيات يعرف بالملكية المستبدة التي أصبحت توصف بالمستنيرة كذلك ، لأن حكامها كانوا متشبهين بعهد الاستنارة من حيث أنهم أصبحوا على الرغم من استبدادهم بالحكم يعملون على رعاية مصالح شعوبهم ونهضة بلادهم . ومن أمثلة ذلك فردريك الثاني أو العظيم ملك بروسيا وهو من أسرة (الهونزلرن) Hohenzollern ثم بطرس الأكبر قيصر روسيا .

والتاريخ يحفظ الدور العظيم الذى قام به ذلك العاهل الروسى في سبيل نهضة بلاده والعمل على صبغها بالصبغة الأوروبية ، ومن هؤلاء كذلك شارل الثالث ملك

ألمانيا ويمكننا أن نضم إلى هؤلاء الإمبراطور جوزيف الثاني صاحب الامبراطورية الرومانية المقدسة .

ثالثا - إلى جانب هذه المميزات نلاحظ كذلك أن ذلك القرن كان معروفاً بظهور الآراء الحرة ، تلك التي نادى بها طائفة من المفكرين في إنجلترا وألمانيا وفرنسا فكان ذلك القرن عهداً زاهراً بالآراء الإنسانية المستنيرة التي نادى بها كتاب وشعراء وفلاسفة أوروبا يومئذ ، مثل «جوته» و«شيلر» و«هيردر» و«فيلاند» في ألمانيا ، وأولئك المفكرون الذين قادوا حركة الثورة الفرنسية بما نادوا به من مبادئ ثورية مثل «فولتير» و«ميتسكو» و«جان جاك روسو» .

رابعا - من مميزات هذا القرن كذلك أن إنجلترا قد مرت خلاله بتجربة دستورية جديدة كان لها أثرها في انتظام أحوالها الداخلية وفي ازدهار شئونها في العالم الخارجي ، فقد أدى اعتلاء أسرة هانوفر عرش إنجلترا عند مطلع القرن الثامن عشر سنة ١٧١٤ إلى تكوين ما يعرف بمجلس الوزراء كما ظهرت وظيفة رئيس الوزراء ولم تكن معروفة من قبل ، ذلك لأن مؤسس أسرة هانوفر في إنجلترا كان ألمانياً لا يعرف اللغة الإنجليزية ، فلم يكن في استطاعته أن يدير دفة الأمور في إنجلترا ، مما نقل السلطة للشمعية من يد الملك ومستشاريه إلى يد مجلس الوزراء ورئيسه ، كما نشأت المسؤولية للوزارية الفردية ثم الجماعية ، فكان في ذلك ضمان لحسن سير الأمور وانتظامها في إنجلترا .

خامسا - أصبحت إنجلترا كذلك في نهاية ذلك القرن مصنع العالم ، وذلك على أثر قيام الثورة للصناعية في إنجلترا ، وهكذا سقت إنجلترا بما يربو على نصف قرن سائر بلاد أوروبا باتخاذها طابع الدولة الحديثة ذات المستوى العالي في الصناعة . ولم تلبث أن انتقلت الثورة الصناعية إلى جهات أخرى من أوروبا بل والعالم الجديد ، فكان لها آثارها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على إنجلترا وسائر الدول التي تأثرت بها .

سادسا - ومن مميزات ذلك ظهور الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٧٨٣ في صورتها الأولى البسيطة عندما كانت تتكون من ثلاث عشرة ولاية ، وكانت في الأصل المستعمرات البريطانية على الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية . فقد شهد ذلك القرن ثورة في المستعمرات على البلد الأم إنجلترا . وكان لهذه الثورة أثرها العميق في استقلال هذا الجزء بصفة نهائية سنة ١٧٨٣ فكانت نواة للولايات المتحدة الأمريكية الحالية .

سابعاً- من مميزات هذا القرن كذلك أنه على الرغم من المحاولات العديدة التي بذلت في سبيل إقرار السلام وسيادته في أوروبا خلاله فإن مصالح الدول المختلفة وأطماعها في التوسع قد جعلت من الصعب تحقيق ذلك السلام في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، وإن كانت قد نجحت إلى حد ما في بسط هذا السلام لعهد غير طويل عند مطلع ذلك القرن ، لذلك لم يبالغ المؤرخون حين سموا هذا القرن بالحرب فأسموه حرب المائة عام .

### أهم أحداث القرن الثامن عشر :

تبدأ هذه الأحداث « بمعاهدة يوترخت » Utrecht ١٧١٣ . وتيسيراً لدراسته يستحسن أن نقسمه إلى المراحل التالية :

#### أولاً - المرحلة الأولى من ١٧١٣ - ١٧٢٠ :

وفيها بذلت محاولات للمحافظة على السلام في أوروبا ونجحت إلى حد بعيد على الرغم من أطماع أسبانيا واستياء الامبراطور من شروط معاهدة « يوترخت » .

#### ثانياً - المرحلة الثانية وتبدأ من ١٧٢١ - ١٧٣٢ :

أي مدة أحد عشر عاماً ، المدى الذي يقابل السنوات الأخيرة من حكم جورج الأول مؤسس أسرة هانوفر في إنجلترا ، والسنوات الأولى من عهد جورج الثاني ، وأهم من ذلك أنها تقابل العهد الذي قاد فيه « روبرت والبول » سياسة انحلترا فكان يدير دفة الأمور فيها ويوجه السياسة الأوروبية في آن معاً ، واستمر في منصبه الذي كان يقابل منصب رئيس الوزراء ، وإن لم يكن قد اعترف بتلك التسمية بعد من ١٧٢١ إلى ١٧٤٢ ، وكان هذا الوزير معروفاً بميله السلمية ، ولذلك اتفق في اتجاهاته ومشاربه ومشاريعه للسلام مع رئيس وزراء فرنسا يومئذ وهو الكاردينال « فليري » Fleury الذي سيطر على السياسة الفرنسية بين عامي ١٧٢٦ - ١٧٤٣ .

#### ثالثاً - المرحلة الثالثة وتبدأ من ١٧٣٣ - ١٧٣٩ :

وهو العهد المعروف بعهد حرب الوراثة البولندية . وكان عرش بولندا يومئذ متنازعا عليه . فاشتكت فرنسا في الحرب على الرغم من المحاولات الكبيرة التي

بلدها « فليرى » ليجنب فرنسا خوض هذه الحرب . وسوف تبين الاسباب التي جعلت لويس الخامس عشر يصر على الاشتراك فيها . ومن ذلك حرصه على حميه « ستانلاس » على بلوغ العرش . وكان الأخير ملكاً على بولندا هذا العرش . وعندما مات أغسطس ملك بولندا وصاحب سكسونيا في ١٧٣٢ انتخب ستانلاس مرة أخرى ملكاً على بولندا . ولما كان هذا يتعارض مع رغبة كل من روسيا والامبراطورية فقد وقعت الحرب بين سكسونيا وفرنسا تؤيد « ستانلاس » وروسيا تؤيد اعتلاء ان أغسطس صاحب بولندا .

#### رابعا - المرحلة الرابعة :

وهي عهد حرب الوراثة النمساوية ( ١٧٤٠ - ١٧٤٨ ) مسوقة بما « حكيكز إير » ١٧٣٩ .

#### خامسا - المرحلة الخامسة :

وهي عهد حرب السنوات السبع ( ١٧٥٦ - ١٧٦٣ ) .

#### سادسا - المرحلة السادسة :

وهي عهد حرب الاستقلال الأمريكية ( ١٧٧٤ - ١٧٨٣ ) .



## الفصل الأول

### استعراض أحداث المرحلة الأولى

١٧١٣ - ١٧٢٠

تبدأ أحداث العهد الأول بمعاهدة بوترخت التي أنهت حرب الوراثة الأسبانية. لقد كان عرش أسبانيا متنازعا عليه بين قوى مختلفة من أوروبا ، وعلى رأسها فرنسا والامبراطورية ، وانتهى هذا النزاع بنجاح لويس الرابع عشر في تنصيب حفيده دوق أنجو ملكاً على أسبانيا باسم فيليب الخامس . واشترط عندئذ أن يتمهد فيليب الخامس بعدم الجمع بين التاجين ، التاج الفرنسي والتاج الأسباني ، ولعله المعاهدة من أجل ذلك أهمية خاصة من حيث أنها جعلت مقراً ثانياً لحكم أسرة الوريثون في أسبانيا . ومن شأن هذا الكسب الذي تحقق لأسرة الوريثون أنه عوضها عن خسارتها للسيطرة حين اضطرت إلى التنازل عن بعض المواقع المتاخمة لبلاد « الفلاندر » جنوبي الأراضي المنخفضة ، وعزاها عن الشعور بالمذلة حين تمهدت بتحطيم استحكامات « مارديك » *Mardik* على مقربة من « دنكرك » ؛ على أن كلامنا الأمير المنتخب لباهاريا وكولونيا ، وهما حليفا فرنسا في الحرب قد استردا كافة الأملاك التي فقدوها أثناء حرب الوراثة الأسبانية ، ولكن فرنسا فقدت بعض المواقع الهامة في العالم الجديد ، فاضطرت إلى التنازل لانيجلترا عن « نوفا سكوشيا » ( شبه جزيرة أكاديا ) على الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية ، كما تنازلت عن جزيرة « نيوفونلاند » وعن المنطقة حول خليج « هلمن » .

١/ أما أسبانيا التي أصبحت من نصيب فيليب الخامس فقد فقدت بعض الأملاك التي كانت تابعة لها ، ففي إيطاليا فقدت ميلان ونابولي و، ردينيا التي آلت جميعاً إلى الامبراطور ، كما تنازلت له عن الأراضي المنخفضة الجنوبية ، وذلك كله على سبيل التعويض عن فقدانه للعرش الأسباني . ولم تقتصر خسائر أسبانيا على هذا القدر ،

وإنما اضطرت إلى التنازل عن محفزة جبل طارق وجزيرة مينورقة لـانجلترا ، فكانت هذه خسارة فادحة بالنسبة لأسبانيا ، لأن محفزة جبل طارق هي جزء لا يتجزأ من أسبانيا نفسها ، وظلت هذه المسألة حجرة عثرة في إقامة أى تفاهم بين انجلترا وأسبانيا ، كما كانت عاملاً هاماً في ازدياد توثيق الصلة والتقارب بين كل من انجلترا والبرتغال . فالبرتغال دولة صغيرة تتأخم في حدودها أسبانيا العظيمة ، فهي لذلك في حاجة ماسة إلى حليف قوى يرد عنها عدوان جارتها القوية ، وقد ظلت البرتغال محتفظة باستقلالها على الرغم من خطورة ذلك الجوار فيما عدا المدة الواقعة بين عامى ١٥٨٠ و ١٦٤٠ . ومن هنا تظهر أهمية معاهدات الصداقة التى وقعت بين انجلترا والبرتغال في عهد « أوليفر كرمويل » أولاً عام ١٦٥٤ : ثم معاهدة « مثنين » سنة ١٧٠٣ (١) . وكان لهذه المعاهدة الأخيرة أثرها العظيم في نجاح انجلترا في حربها ضد فرنسا أثناء أحداث حرب الوراثة الأسبانية . فلولا ماتم من اتفاق بين انجلترا والبرتغال من السماح للسفن البريطانية بالتوقف عند لشونة العاصمة المطلة على المحيط الأطلسى لما كان في استطاعة الأسطول الانجليزى أن يصل إلى شواطئ فرنسا الجنوبية ، وبحاربها بتجاس نظرأ لبعد المسافة بين سواحل انجلترا وبين هذا الموقع . ولم يكن ذلك هو المكسب الوحيد الذى فازت به انجلترا . بل إنها استطاعت أن تعتمد مع أسبانيا معاهدة هامة في سنة ١٧١٥ وهى معاهدة « الأسينتو » Assiento . ولهذا المعاهدة أهميتها العظمى من حيث إتاحة الفرص لانجلترا للتجار مع أسبانيا ومستعمراتها ومسحها امتيازات عديدة في هذا المجال ، مما كان يضر كل الضرر بمصالح أسبانيا . أما صقلية وهى كذلك من الأملاك التابعة لأسبانيا فقد آلت بمقتضى معاهدة « يوترخت » إلى دوق سافوى الذى أصبح يلقب باسم ملك سافوى . ومن هذه الشروط يتبين لنا أن انجلترا قد فازت بنصيب الأسد ، فحصلت على مواقع هامة في المستعمرات الفرنسية في كندا ، مما يسهل عليها أمر الانتصار بصفة نهائية على فرنسا في هذه المستعمرة ، كما أنها استطاعت أن تحقق آمال أوليفر كرمويل عندما جاب بأسطوله البحر المتوسط ، ورفع العلم البريطانى على مواقع شتى من سواحل هذا البحر . وبدأ من ثم استيلاء انجلترا على أول مركز لها في حوض البحر المتوسط ، وهو موقع هام لأنه عند مدخل حوض البحر المتوسط الغربى

كانت أسبانيا الدولة المحاصرة ، إذ فقدت كثيراً من أملاكها التى ورعت بين

انجلترا والامبراطور وسافوى . فلا عجب إذن ألا ترضى أسبانيا عن هذا الصلح وصممت على نقضه طمعاً في تعديل شروطه ، وساعدها في موقفها هذا أن « الزابث فرنيز » Elizaeth Farnese زوج فيليب الخامس ومستشارها الأعظم « ألبيروني » Alberoni كانا لإيطاليين ، فحاولا أن يستردا كل ما آل إلى الامبراطور من أملاك أسبانيا في إيطاليا . والعجيب أن الامبراطور الذى كسب كثيراً من وراء هذا الصلح ، لم يكن راضياً عنه أول الأمر ، إذ كان يعتقد أن ابنه أحق بعرش أسبانيا من حفيد لويس الرابع عشر ، كما لم يرضه أن يحظى بجزيرة سردينيا بدلا من جزيرة صقلية . ذلك لأن هذه الأخيرة تجاور « نابولى » وقد آلت إلى دوق سافوى بمقتضى صلح « يوترخت » .

أما إنجلترا وفرنسا - وكانتا على بينة من عوامل السخط وعدم الرضا عن هذا الصلح بالنسبة لاسبانيا والامبراطور - فكانتا تهدفان إلى إقرار الأمور في أوروبا ، وهنا تلاقت الدولتان ، ولم يكن مبعث ذلك الصداقة أو الود بينهما ، وإنما كانت المصالح الخاصة لكل منها ، وتريان في ذاك المحافظة على السلام ، فقد كان ملك فرنسا بعد لويس الرابع عشر طفلاً صغيراً ، فعين « قى أورليان وصياً عليه ، وكان هذا على علم بنوايا فيليب الخامس وأطاعه في العرش الفرد . . . فعلى الرغم مما نصت عليه معاهدة يوترخت بعدم الجمع بين التاجين ، كان فيليب الخامس لم يوافق على إقرار ذلك . ولا عجب في أن دوق أورليان كان يخشى اعتداء أسبانيا على فرنسا بغرض الجمع بين التاجين . ثم إن معاهدة « وستمنستر » Westminster التى عقدت عام ١٧١٦ بين إنجلترا والامبراطور قد جعلت دوق أورليان يتوجس خيفة من عواقب هذا الاتجاه الذى ذكره بتلك الأحلاف الدولية التى عقدت من قبل للحد من سيطرة لويس الرابع عشر في أوروبا . وساعد أورليان في سياسة التحالف مع إنجلترا موقفه غير المؤيد لحزب العاقبة في فرنسا ، إذ كان غير راض عن خلق المدعى على عرش إنجلترا .

أرادت فرنسا أن تخرج من عزلتها لكى تؤمن عرشها للويس الخامس عشر . وكان دوق أورليان يستعين بشخصية قوية ذكية هى شخصية رجل من رجال الدين يدعى « الأبىة دي بوا » Abbé Dubois ، وكان هذا الأخير يرى أن أمر الجمع بين إنجلترا وفرنسا ليس ، فلم تكن إنجلترا بأقل رغبة من فرنسا في الاجتماع .

اتفاق : كانت إنجلترا هي الأخرى في حاجة إلى التقرب من فرنسا وعقد معاهدة صداقة معها لأن المقر الأصلي للأسرة الحاكمة فيها يومئذ وهو إمارة « هانوفر » أصبح « مهدداً » من جانب روسيا التي استطاعت أن تنفوق على السويد . وكانت الأخيرة تظاهراً شارل الثاني عشر قبل ذلك هي الدولة المنفوقة على دول شرق أوروبا ووسطها ،

تترتب على هذا التفوق الروسي الجديد أن روسيا استطاعت الحصول على مناطق نفوذ على ساحل بحر البلطيق فوصلت حتى حدود « مكلنبرج » Mecklenberg وهي على مقربة من هانوفر . كانت إنجلترا كذلك في حاجة إلى تثبيت دعائم حكم الأسرة الحاكمة بها ، وكان يومئذ مهدداً لأن من يدعى حق اعتلاء عرش إنجلترا من أسرة استيوارت Pretender كان يبدل غاية الجهد في الوصول إليه . وكان هذا المدعى موجوداً في فرنسا ؛ فخشيت إنجلترا أثره بما حملها على التحالف مع فرنسا ، وظل عرش هانوفر واقفاً تحت التهديد بسبب الجهود التي كان يبذلها أفراد أسرة استيوارت وأعاونهم للوصول إلى العرش حتى منتصف القرن الثامن عشر . وفي ١٧٤٨ فشلت آخر محاولة للمدعى أحقية اعتلاء عرش إنجلترا « جيمس الثالث » ،

التحالف الثلاثي عام ١٧١٧ : رأى « ديوا » في مخاوف جورج الأول من تهديد الروس لهانوفر وتهديد المدعى حق اعتلاء عرشه فرصة ذهبية ليستغلها عندما طلب ملك إنجلترا من وزيره « ستانوب » Stanhope عقد معاهدة مع فرنسا . ونجحت المفاوضات في عقد معاهدة ثلاثية في ٤ يناير ١٧١٧ بين إنجلترا وفرنسا وهولندا . وكانت ظروف هولندا السياسية تستدعي انضمامها إلى هذا الحلف إذ كانت دولة جديدة ناشئة ، لم يتحدد وضعها السياسي ويتم استقلالها رسمياً إلا في صلح وستاليا عام ١٦٤٨ . فكان وضعها يقتضيها أن تنفرغ إلى تقوية اتحاد الولايات السبع الذي نشأت عنه ، كما أنها كانت تعاني من قلة عدد السكان ؛ فلم يكن يزيد على مليونين ونصف مليون مما كان يعجزها عن مد امبراطوريتها بالرجال اللازمين للقيام بأعبائها ، ثم لأنها كانت لا تزال تعاني من نتائج ما نزل بها من أضرار بليغة بسبب محاولات دويسن الرابع عشر السيطرة عليها . فكانت بذلك كله في حاجة ماسة إلى سيادة السلام في أوروبا . تكون إذن التحالف الثلاثي ١٧١٧ للمحافظة على السلام والعلاقات القائمة بين دول أوروبا على أساس معاهدة « يوترخت » . ولكن الموقف كما ذكرنا كان



غاية في التوتر فقد كان على هذه الدول أن ترقب عن كثب العلاقة بين الامبراطور وأسبانيا .

### أسبانيا تهدد السلام الأوروبي :

وفي أغسطس ١٧١٧ ، نجح الأسطول الأسباني في الاستيلاء على جزيرة سردينيا . وبذلك حرم الامبراطور من تحقيق رغبته في استبدالها بصقلية ، كما كان في ذلك تهديد للحلف الثلاثي في حوض البحر المتوسط . وهنا طالب الامبراطور انجلترا أن تبادر بمساعدته في استرداد سردينيا . واعتللت انجلترا بسبب عدم استعدادها . وحاول « أليروني » عندئذ أن يضم إلى جنبه الوصي على عرش فرنسا « دوق أورليان » محاولاً فصم عرى الاتحاد بينه وبين انجلترا ، ولكنه لم ينجح . ولم يلبث الامبراطور وسط هذه الظروف أن تغاضى عن عدائه لإزاء التحالف الثلاثي ، وانضم إليه فأصبح التحالف بذلك رابعياً في عام ١٧١٨ . وكان لذلك نتاجه السريعة : على أن « أليروني » أرسل حملة ثانية من برشلونه لغزو صقلية / ولستواء حفظه أن الأوامر كانت قد صدرت إلى الأسطول الانجليزي ليحول دون غزو أسبانيا إياها : ولملك على الرغم من نزول القوات الأسبانية في « بالرمو » [Palermo] ، فإن انتصار الأسبانيين لم يلبث أن تحول إلى هزيمة ساحقة في موقعة « كيب بسارو » Capo Passaro في ١٨ أغسطس ١٧١٨ ، جنوبي جزيرة صقلية ، وهكذا نجح التحالف الرباعي في أن يقضى على محاولة أسبانيا تعديل شروط يوترخت .

وفي تلك الأثناء لم يكن « أليروني » قد اكتفى بمحاولاته للحصول على كل من سardinia وصقلية بل تحمس للاشتراك مع السويد ، وكان ملكها شارل الثاني عشر ، ومع روسيا لمعاونة من يدعى حقه في عرش انجلترا لقلب نظام الحكم فيها وتولية جيمس الثالث ملكاً عليها ، وتعرضت انجلترا لخطر فادح عند ما نزلت قوات مشتركة فيها لمساعدة « المدعى » Pretender ، وكاد عرش جورج الأول يتزعزع لولا أن شارل الثاني عشر قتل أثناء إحدى معاركه سنة ١٧١٨ . وقد اشتد رعب حكومة جورج الأول أثناء هذه الأزمة ، فدفعها إلى تقديم جبل طارق إلى « أليروني » في سبيل الانضمام إلى التحالف الرباعي . ولكن أليروني وقد أغرته الانتصارات الأولى رفض هذا العرض السخي . وكان لهذا العرض مغزى هام من الناحية السياسية فهو يدل

على أن انجلترا لم تكن في ذلك الوقت قد تبينت بعد مدى أهمية ذلك الموقع الفريد بالنسبة لمصالحها الحيوية في الشرق . وانتهى خطر المؤامرة للأسباب التي ذكرناها .

وكان اكتشاف المؤامرة في باريس مناسبة لإعلان دوق أورليان - بوصفه حليفاً لانجلترا - الحرب على أسبانيا . فتقدم بجيشه لغزوها ، وساعدته انجلترا بأسطولها ، وتعرض استقلال أسبانيا للخطر ولكن فيليب الخامس تنبه له في اللحظة الحاسمة ، فعزل « أليرونى » ، وأعلن انضمامه إلى التحالف الرباعى فأصبح تحالفاً خماسياً . وانتهت بذلك محاولات أسبانيا في استعادة بعض نفوذها في إيطاليا ، ولم يطرأ على شروط صلح يوترخت أى تغييرات جوهرية فيما عدا أن الامبراطور قد استطاع أن يحقق مطالبه في الحصول على صقلية بدلاً من سردينيا في عام ١٧٢٠ ، بينما آلت سردينيا إلى ملك سافوى فأصبح منذ ذلك التاريخ يعرف بملك سردينيا .

ولم يلبث دوق أورليان بعد استبعاد أليرونى من منصبه أن استعاد علاقات الصداقة مع أسبانيا فعقد معها محادثة في عام ١٧٢١ . وفي عام ١٧٢٣ ، مات « ديبوا » بعد أن حقق أقصى أمانيه في أن يصبح كاردينالاً .



## الفصل الثاني

المرحلة الثانية من العلاقات للدولية

بين عامي ١٧٢١ - ١٧٣٢

ساد خلال تلك المدة « روبرت والنول » السياسة الانجليزية (١٧٢١ - ١٧٤٢) وقام بلور رئيسي في توجيه السياسة الأوروبية . واستطاع بميوله السلمية واعتقاده الصادق بأن إنجلترا في حاجة إلى السلام أن يحافظ عليه خلال ذلك العهد . أعانه على ذلك الكاردينال « فليري » Fleury الذي شغل منصب الوزارة في فرنسا من سنة ١٧٢٦ حتى ١٧٤٣ . وكان « فليري » كذلك يدين بنفس المبادئ السلمية ، ويعلم تماماً نوايا إنجلترا ، واتجاهاتها الاستعمارية التي كانت تتعارض إلى حد بعيد مع اتجاهات فرنسا . ومع ذلك فقد حافظ جاهدًا على السلام .

اضطرت أسبانيا كما بينا سنة ١٧٢٠ بعد أن دلت الغزو الفرنسي الانجليزي سلامة أراضيها أن تنضم إلى التحالف الرابع . ورؤى عندئذ أن تسوى المشاكل بين أسبانيا والامبراطورية بطريقة ودية على أن يكون ذلك في مؤتمر يعقد في « كمبري » Cambrai وعقد المؤتمر بالفعل ولكن طموح الزباث وعنادها وإصرارها على ما أرادت أدى إلى فشل هذا المؤتمر ، فرأت أسبانيا أن تتخذ خطوة جريئة وسريعة وذلك بالاتجاه مباشرة إلى عدوها الامبراطور محاولة عن طريق الاتفاق معه أن تحصل على تحقيق أغراضها وأطماعها في إيطاليا ، حيث كان يسود النفوذ النمساوي منذ معاهدة يوترخت ، وشجعها على ذلك ما أصاب العلاقات الفرنسية الأسبانية من فتور وخرج سبهما تطور مسألة زواج لويس الخامس عشر .

مسألة زواج لويس الخامس عشر :

لم يمض عام ١٧٢٣ في فرنسا إلا وكان كل من « دوق أورليان » و « كاردينال دييوا » قد توفيا . ونزولا على نصيحة الكاردينال « فلوري » مربي الملك عهد ( م ١٧ - تاريخ أوروبا الحديث )

لويس الخامس عشر برئاسة الوزارة الفرنسية إلى عمه دوق « بربون » Bourbon وكان طموحاً إلى الاستئثار بالسلطة والنفوذ . وقد عول على استخدام مسألة زواج الملك لويس الخامس عشر لتحل محل أغراضه . فأحدث بتصريفاته الحرقاء في هذا الصدد أزمات سياسية بسبب ما أثار من مشاكل . ذلك أنه على الرغم من خطبته لابنة فيليب الخامس ملك أسبانيا وإظهار الميل إلى ابنة بطرس الأكبر ، وطمع أرملة الأخير كاترين الأولى في عقد التحالف الروسي الفرنسي ، الذي عجز بطرس عن إنجازه ، فإنه تزوج عام ١٧٢٥ من ابنة ملك بولندا المخلوع ، وكان شارل الثاني عشر قد جعله ملكاً على بولندا في بداية القرن الثامن عشر ، ولكن بطرس الأكبر قيصر روسيا قد خلعه عنه وهو « ستانيسلاس » Stanislas . وقد كلف هذا الزواج فرنسا غالياً . وكان طبعاً أن تظهر ملكة فرنسا العداء لكاترين الأولى مما جعل الأخيرة تتحالف مع النمسا . وعلى الرغم من أن هذا التحالف قد انحل بموت كاترين الأولى عام ١٧٢٦ إلا أن روسيا انتهجت منذ ذلك التاريخ حتى عام ١٨٠٧ سياسة التحالف مع الهابسبورج لا مع فرنسا . على أن إرجاع الأميرة الأسبانية خطيبة لويس الخامس عشر إلى أسبانيا كان له أسوأ الأثر في العلاقات بين فرنسا وأسبانيا ، إذ بادرت أسبانيا بطرد ممثلي فرنسا العسكريين والتجارين بها ، وأخلت تفاوض الامبراطور مدعنة لرغبته .

#### معاهدة فيينا الأولى في عام ١٧٢٥ :

لم تترد أسبانيا لحظة واحدة في الاتجاه إلى الامبراطور لتعقد معه معاهدة فيينا الأولى ، وفيها اعترفت أسبانيا بضمان وراثة عرش الامبراطور للملوكا تريزا ابنته ، ويعرف ذلك « بالضمان الوراثي » Pragmatic Sanction ، وذلك أمر كان بطبيعة الحال يشغل بال الامبراطور ، وقد بذل في تحقيقه جهداً كبيراً منذ توليه الحكم أو بعد ذلك بقليل أي بين عامي ( ١٧١١ - ١٧٤٠ ) . فوافقت أسبانيا على الضمان الوراثي ، كما اعترفت في الوقت نفسه بشركة « أوستند » Ostend التجارية التي أنشأها الامبراطور في الأراضي المنخفضة الجنوبية .

الضمان الوراثي : والشئ الذي لاشك فيه هو أن الجهود التي بذلها الامبراطور شارل السادس أكثر أيام حياته في سبيل تحقيق ما أسميناه « الضمان الوراثي » قد كان منبته أن الامبراطور لم يكن له ولد يرث عرشه ، وإنما كانت له ابنة ، ولم يكن مألوفاً

ولاً معروفاً يومئذ أن تَعْلَى عرش الامبراطورية امرأة ، وذلك أمر لانتقى له نظير إلا في نظام العرش البابوي . وتأكيذاً لتحقيق ما كان يهدف إليه الامبراطور أنه سعى إلى الحصول على موافقة الولايات الألمانية تمهيداً للحصول على موافقة دول أوروبا العظمى تجنباً لما عساه أن يقع من نكسة بعد موته . وتمت موافقة الولايات الألمانية عام ١٧١٣ ، وتبعتها أسبانيا عام ١٧٢٦ . وهنا بادر الامبراطور بالسعى في سبيل الحصول على موافقة بقية دول أوروبا ، واقتضاه ذلك توضيحات مادية ضخمة ، ولكن مساعيه جتئراً جاءت بعد ذلك بالחסران . وبيان ذلك بعد موته ، فلم تلبث أوروبا طويلاً حتى استقلت حرب الوراثة النمساوية عام ١٧٤٠ .

شركة أوستند : وكانت إحدى التوضيحات التي أسرع الامبراطور في تقديمها لتحقيق الضمان الوراثة . وقد أسسها الامبراطور عام ١٧٢٢ لغرضين : الأول الحصول على نصيب من تجارة الهند الشرقية ، وكانت يومئذ من محتكرات كل من شركتي الهند الشرقية الانجليزية والفرنسية ، والثاني لتنمية الحركة التجارية في الأراضي المنخفضة النمساوية ( بلجيكا ) وكان ذلك المشروع ناجحاً منذ الوهلة الأولى ، كما كان يبشر بخير كثير مما جعل إنجلترا تهدف إلى القضاء على هذه الشركة أو الحد من سلطانها حتى لا تنهار مصالح إنجلترا الاقتصادية . وظلت شركة أوستند منذ إنشائها حتى ألغيت في عام ١٧٣١ شركة في حلق السياسة الانجليزية..

ولم تكن موافقة أسبانيا على ما أراد الامبراطور من الحصول على تأييدها لكل من « الضمان الوراثة » وشركة أوستند لتحقيق لها ما تهدف إليه من مكاسب ، فإن الشروط السرية التي انطوت عليها معاهدة « فيينا الأولى » كانت تنص على تزويج ابني « إليزابيث فرديناند » ملكة أسبانيا وهما دوق كارلوس ودون فيليب من أميرتين من البيت المالكي النمساوي أملاً في أن يحقق لهما ذلك الزواج بعض المكاسب من أملاك الامبراطورية .

مخالفة هانوفر ١٧٢٥ : واقتضت مصالح إنجلترا أن تدفع « والبول » Robert Walpole إلى العمل على تكوين حلف من شأنه إضعاف معاهدة فيينا الأولى . ونجح « والبول » في تكوين « حلف هانوفر ١٧٢٥ » من بريطانيا وفرنسا وبروسيا ، وانضمت إليه فيما بعد هولندا والممالك الاسكندنافية فكان ذلك الانتصار الأول « لوالبول » . وأثار هذا الحلف مخاوف الامبراطور ، فأعلن رفضه التصديق على موضوع الزواج .

في عام ١٧٢٦ يحدد الحليفان خيراً في التفاوض على الاتفاق . ولعل من دواعي ذلك أن الكاردينال « فليري » أصبح سيد الموقف في فرنسا بعد وفاة « دوق بوربون » وكان في سياسته السلمية نظيراً لوالبول في إنجلترا ، وإن كانت مهمته بطبيعة الحال أصعب من مهمة والبول لوجود فرنسا وسط دول أوروبا الطموحة المتنافسة . فاقتضاه ذلك أن يعقد معاهدات تحالف عام ١٧٢٧ مع كل من السويد وبافاريا وإنجلترا لضمان السلام .

ويلجأ الفريقان : فريق حلف معاهدة « فيينا الأولى » وفريق « حلف هانوفر » إلى عقد مؤتمر « سواسون » Solssons في عام ١٧٢٨ بغرض ترضية كل من الامبراطور وأسبانيا . وتبوء جهود المؤتمر بالفشل في تحقيق ما أراد المؤتمر .

#### معاهدة أشبيلية ١٧٢٩ :

وفي عام ١٧٢٩ بعد أن فقدت أسبانيا الأمل في جهود المؤتمر تضطر إلى الاتجاه نحو حلفاء هانوفر رغم ما كان بينها وبين إنجلترا زعيمة هذا الحزب من عداوة . وانتهى التجاؤرها إلى حلف هانوفر بمعاهدة أشبيلية في نوفمبر ١٧٢٩ .

وتعد هذه المعاهدة بمثابة الانتصار الثاني الذي أحرزه « والبول » في سياسته الخارجية وفيها اعترفت إنجلترا بمطالب « دون كارلوس » ابن (الزابث فرينز) ، وبتأييد هذه المطالب في بارما بعد موت دوقها . وتعهدت أسبانيا بالآلا توريد « شركة أوستند » ولم تذكر مسألة جبل طارق ، واستطاعت بذلك إنجلترا أن تقضي عنها خطر تلك الشركة وأن تسكت أسبانيا بعض الوقت عن المطالبة بجبل طارق .

وكانت خطوة والبول التالية أن يحظى بموافقة الامبراطور على تحقيق أغراض أسبانيا في إيطاليا ، وأن يقضي على منافسة شركة أوستند للمصالح الانجليزية . وقد استعان « بليري » في ذلك ، فحققاً معاً نجاحاً جديداً . وقد تبين « لوالبول » عندئذ أنه يستطيع أن يحقق ذلك إذا وافقت إنجلترا على الضمان الوراثي الذي اعترفت به أسبانيا سنة ١٧٢٦ وبروسيا والروسيا في العام نفسه .

مات دوق بارما في عام ١٧٣١ وأصبح لدون كارلوس الحق في أن يخلعه على عرش دوقية بارما ، ولكن الامبراطور تقدم بحيشه فاحتلها ، وعبثاً حاولت إنجلترا

وفرنسا بتحريض من أسبانيا أن تنياه عن عزمه . ولكن لم يلبث أن تم الاتفاق بين الجميع في معاهدة فيينا الثانية عام ١٧٣١ .

#### معاهدة فيينا الثانية ١٧٣١ :

اعترفت فيها إنجلترا بالضمان الوراثي . وفي مقابل ذلك حصل دون كارلوس على اعتراف الامبراطور بتوليته دوقية « بارما وبياسنزا » Parma and piacenza كما حققت إنجلترا غرضاً من أهم أغراضها وهو إلغاء شركة أوستند . واستطاعت « الزابث فرنيز » أن تعدل من شروط معاهدة « يوترخت » وأن تفتح من جديد إيطاليا للألمانيين .

وليس عجباً أن تحصل أسبانيا على تحقيق مطامعها بمعاونة عدوتها إنجلترا ، وقد أوشكت أن تشبك في حرب معها ، ذلك أن العرف السائد كان يومئذ أن العلاقات العدائية بين الدول الأوروبية كانت قاصرة على البقاع المتنافس عليها بينها ، على أن النظرة الفاحصة إلى هذا التحالف تكشف لنا عن نتائج هذا الأمر ؛ ففرنسا قد اعترفت بموضوع الضمان الوراثي ، ثم هي لن تلبث طويلاً حتى ينقلب الأمر بينها وبين حليفها إنجلترا . وتركت أمور التجارة بين أسبانيا وإنجلترا في العالم الجديد دون تسوية ، مما سيؤدي إلى وقوع الحرب بين الدولتين وإلى انضمام فرنسا إلى أسبانيا ضد إنجلترا .







## الفصل الثالث

### المرحلة الثالثة من العلاقات الدولية

حرب الوراثة الهولندية ١٧٣٣ - ١٧٣٩

مات ملك بولندا أغسطس صاحب سكسونيا في فبراير ١٧٣٣ ، فانتخب بعده « ستانيسلاس » حمو لويس الخامس عشر ملكاً على بولندا ، وقد كان ملكاً عليها في عام ١٧٠٤ ثم خلع ، وكان ملك فرنسا على استعداد للدفاع عن مصالح « ستانيسلاس » ولو أدى ذلك إلى الدخول في حرب أوروبية ، على الرغم من جهود الكاردينال « فليري » لمنع الملك من إقحام فرنسا في مثل هذه الحرب التي لا تفيدهم في شيء . وقد حدث قبل انتخاب « ستانيسلاس » أن قيصر روسيا والامبراطور وقع اختيارهما على ابن أغسطس ليحكم بولندا ، وحصل الامبراطور في مقابل ذلك على موافقة أغسطس على « الضمان الوراثي » ، فأعلنت فرنسا الحرب على الامبراطور في أكتوبر ١٧٣٣ . ولم تستطع السويد الوقوف إلى جانب فرنسا لأن الداييت صاحب النفوذ فيها كان يفضل اتباع سياسة سلمية مع روسيا . وتقدمت الجيوش الروسية نحو « دانزج » Dantzg المكان الذي نودى فيه « بستانيسلاس » ملكاً على بولندا .

حاول « فلوري » يومئذ أن يحصل لفرنسا على أكبر قدر من المكاسب الممكنة ، وقد عرض الامبراطور مناطق الراين لخطر هجوم فرنسا عندما أسرع بمهاجمة بولندا . ولكن قبل أن يعلن « فلوري » الحرب عليه ، كان قد اكتسب ولاء ملك سردينيا ، شارل إيمانويل ، بعد أن وعده بلوقية ميلان .

معاهدة الاتفاق الأسرى ١٧٣٣ : Pacte de Famille

في نوفمبر ١٧٣٣ عقدت معاهدة تحالف طبيعية بين فرعي البوربون في فرنسا وأسبانيا وهي معاهدة « اسكوريال » Escorial ، وتلتها سلسلة من المحالفات

الأمريية لمراعاة مصالح هذه الأسرة ؛ معهد فيها الطرفان بأن تصبح جميع الفتوحات في إيطاليا فيما عدا ميلان من حق « دون كارلوس » وكانت أطماعه في كل من نابولي وصقلية واضحة . ولا شك أن الحليفتين في هذه المعاهدة كانتا صادقتن فيما تضمنرانه من عداء لانجلترا التي كانت ما تزال تحتل جبل طارق ، كما كانت في نزاع وخلاف مستمرين معهما في البحار الجنوبية ، كما أن انجلترا قد حرمت على مستعمراتها في أمريكا الشمالية أن تتاجر مع المستعمرات الفرنسية في جزر الهند الغربية .

### الحرب :

تتلخص أحداث حرب الوراثة البولندية في محاصرة القوات الروسية « لدانزج » Danzig ولم يستطع الأسطول الفرنسي الضئيل أن يقف أمام الروس فتقهقر في حلر نحو كوبنهاجن . وبعد حصار دام حوالي ١٣٥ يوماً سلبت دانزج ، ففر منها الملك « ستانيسلاس » .

أما في شمال إيطاليا فإن نجاح القوات الفرنسية السردينية الأسبانية كان محدوداً بسبب عوامل الخلاف والغيرة التي شنت صفوفهم . وهكذا ظلت قلعة «منتوا» Mantua الحصينة في يد الامبراطور . أما في الجنوب فسقطت نابولي وصقلية في يد « دون كارلوس » وقد ساعده أهلوهما على ذلك فتوج في « بالرمو » في يوليو ١٧٣٥ ملكاً على مملكة الصقليتين « صقلية ، نابولي » .

### معاهدة فيينا الثالثة ١٧٣٥ — ١٧٣٩ :

ظهر ضعف القوات النمساوية في جميع الميادين ، كما أدى خوف الامبراطور نتيجة لنشاط الجيوش التركية إلى الرغبة في عقد الصلح ، كما رأى « فليرى » أن السعى في الصلح يبعد خطورة انضمام انجلترا إلى الامبراطور نتيجة لما حققته أسبانيا من انتصارات في إيطاليا ؛ فعقدت معاهدة فيينا الثالثة ٣٥ — ١٧٣٩ ، وأهم شروطها : —

- ١ — فقد « ستانيسلاس » العرش البولندي الذي آل إلى أغسطس الثالث دوق سكسونيا وعوض عن ذلك بإقليم اللورين ، على أن يؤول بعد وفاته إلى غرنا ،
- ٢ — أما دوق اللورين « فرانسوا الأول » الذي تقرر أن يتزوج من ماريا تريزا ، فقد منح دوقية تسكانيا

٣ - اعترف الامبراطور بدون كارلوس ملكاً على الصقليتين ، بينما ترطد نفوذ الامبراطور في ممتلكاته في شمال إيطاليا ( ميلان ) ، واتفقت فرنسا على ضمان الوراثة النمساوية ، ولكن ملك سردينيا لم ينل ميلان التي وعدها إنما عوض عنها ببعض الأملاك الأخرى المتاخمة لأملكه في شمال إيطاليا ،

ولهذه المعاهدة أهميتها ، إذ جعلت فرعاً ثالثاً من أسرة البوربون يحكم في ملكة الصقليتين جنوبي إيطاليا ، كما كانت السبب في أن تؤول اللورين نهائياً إلى فرنسا عقب موت « ستانيسلاس Stanislas » ١٧٦٦ ، وظلت في يدها حتى عام ١٨٧١ عندما انتزعها منها بسمارك .





# الفصل الرابع

## المرحلة الرابعة من العلاقات الدولية

( أ ) حرب « جنكينز إير » ، ١٧٣٩ : wenkin'S Ear

سميت بذلك لأن قيامها كان بسبب اعتداء أسبانيا على ربان السفينة الانجليزية ، وكان يدعى « جنكين » وقد فقد خلال هذا العدوان إحدى أذنيه ، وكان قيامها بسبب تصادم المصالح التجارية بين الدولتين ، فانجلترا لم تخضع لقوانين الاحتكار التي فرضتها أسبانيا بقصد الانفراد بالأرباح الخاصة بالتجار مع مستعمراتها والخليج بين تهديد الدول البحرية العظمى لسلطانها في تلك المناطق .

فلجأت انجلترا إلى أسلوب التهريب لإزاء أسبانيا ومستعمراتها ، أي أنها خالفت القوانين الأسبانية ، ومارس تجارها تجارة التهريب Contraband trade أو Inferlope trade وقد أخذت أسبانيا تشعر بالخطر الذي يحقق بتجارتها بسبب ذلك فقد ربحت انجلترا من وراء ذلك كثيراً ، لذلك شددت أسبانيا الحراسة على سواحلها حتى تحدد من هذه التجارة غير المشروعة المصرة بمصالحها . وقد وقعت حادثة « الكابتن جينكين » Jenkin وسط هذه الظروف في عام ١٧٣٨ ، وكان على ظهر سفينة تتاجر في مياه جزر الهند الغربية . واستدعى في البرلمان لكي يعرض على النواب مظلمته ويقص عليهم ما نزل به على يد القوات الأسبانية . واشتدت ثائرة النواب عندما أطلعهم على جلية الأمر ، مطالبوا « والبول » Walpole بإعلان الحرب على أسبانيا . ولكن « والبول » كدأبه أراد أن يحل المشكلة بالطرق السلمية ، فاتفق مع أسبانيا في اتفاقية « باردو » Pardo عام ١٧٣٨ على أن تدفع أسبانيا تعويضاً عما لحق بـ « جنكين » ، Jenkin من إهانات وأضرار وخسائر . على أن أسبانيا تأخرت في دفع التعويضات مما أثار الرأي العام في بريطانيا ، واضطر « والبول »

إلى إعلان الحرب على أسانيا برعم خوفاً من ذلك ، لاحتلال اتحاد أسانيا وفرنسا ضد إنجلترا (وكان منذ تبوئه مركز الصدارة في الوزارة في عام ١٧٢١ يعمل على تلافى ذلك الأمر . (وقد نهت هذه الحرب إنجلترا فجعلتها تستعد للضال المحتمل) بينها وبين فرنسا ؛ ذلك لأن فرنسا في تلك الآونة أخذت تخطو خطوات واسعة في الميدان الدولي والتجاري . ففي عام ١٧٣٨ أصبحت ذات مرد عظيم ومكانة كبيرة في كل من السويد وبولندا وتركيا ، ولم تلبث أن جددت مع السلطان وثائق الامتيازات التي كانت تحول لها مكانة ممتازة في الاتجار مع الأملاك العثمانية ، ورعاية مصالح الكاثوليك ، كما أصبحت متفوقة على إنجلترا في كل من ميداني الاستعمار الشرقى في الهند ، والغربي في جزر الهند الغربية ؛ مما جعل بريطانيا تنبئ إلى خطورة الموقف وإلى احتمال وقوع القتال بينها وبين فرنسا في القريب العاجل .

#### (ب) حرب الوراثة النمساوية ١٧٤٠ - ١٧٤٨ :

كان لتغيير ثلاثة حكام في أوروبا عام ١٧٤٠ أثره العميق في تغيير مجرى سياسة دولها ؛ مات أولا ملك بروسيا في مايو فخلفه على العرش فردريك الثاني أو العظيم كما ماتت قيصرية روسيا «آن» Anne في أكتوبر وخلفها القيصر إيفان السادس ، وكان طفلاً ضعيفاً ؛ وكان لتوليته معنى هام وهو ازدياد نفوذ قوى قرياه من الألمان في بروسيا . على أن القيصرية اليزابيث لم تلبث أن خلفته على عرش روسيا . وكان أهم تلك التغييرات ما وقع بسبب موت الامبراطور شارل السادس إذ ترك من ورائه التاج الامبراطوري ، وأملاك الهبسبورج الواسعة ، خلفاً بذلك للسياسة الأوروبية مشكلة شغلت بها بعض الوقت .

وكانت الامبراطورية شأنها شأن البابوية لا تتول إلى امرأة مهما كانت الظروف . لذلك حاول الامبراطور شارل السادس خلال عشرين عاماً تحقيق غرضه الخاص بتولية ابنته ووريثته الوحيدة عرش الامبراطورية ، وقد بينا توضيحاته الكثيرة في سبيل تحقيق هذا الأمر (١) ووافقت على ذلك جميع الاقاليم التابعة له بل وسائر الدول العظمى في أوروبا عدا « بافاريا » Bavaria .

بعد موت الامبراطور تسلمت ماريا تريزا زمام الحكم في أملاكها الوارثية

ومعها زوجها « فرانسيس » Francis حاكم تسكانيا ، وكانت من أقدر الحكام في سياستها ، وقد عارض تلك التولية من أول أمرها كثيرون من ذوى الأطلاع منهم : -

١ - « شارل ألبرت » Charles Albert ملك بافاريا ، وصديق فرنسا الذى بدأ يعمل ليضمن لنفسه التاج الامبراطورى مستنداً في ذلك إلى صلة النسب التى كانت تربطه بأمة الهبسبورج ، فقد كان متزوجاً من ابنة جوزيف الأول الامبراطور السابق لشارل السادس وأخوه الأكبر ، وقد ادعى أن هناك اتفاقاً أبرم في عام ١٥٤٦ ينص على أنه في حالة خلو الذرية من الذكور تؤول إليه أملاك النمسا .

٢ - كان أغسطس صاحب سكسونيا Saxony يطمع في الحصول على « مورافيا » Moravia اعتماداً على حق زوجه فيها ، وكانت كبرى بنات الامبراطور جوزيف الأول .

٣ - أغرت « اليزابث فرنيز » Elizabeth Farneso ملكة أسبانيا - هادفة إلى الحصول على الأملاك النمساوية في شمال إيطاليا لأبنائها - زوجها فيليب الخامس بعرش الهبسبورج في النمسا .

٤ - وادعى ملك سردينيا « شارل عما نويل » حقه في بعض أملاك الامبراطورية مخفياً وراء ذلك مطامعه في ميلان .

٥ - أما ملك بروسيا فكان يطمع في الإقليم الغنى « سيليزيا »

وإذا كانت هذه المطامع الشخصية عوامل مباشرة أدت إلى وقوع هذه الحرب ، فإن هناك عوامل أخرى أساسية وعميقة أدت إلى تحطيم النظام الذى كان يسود أوروبا كما كانت إلى جانب العوامل السابقة من أسباب وقوع حرب الوراثة النمساوية عوامل أخرى :

أولاً : لم يكن التحالف بين فرنسا وانجلترا عام ١٧١٧ تحالفاً طبيعياً قائماً على الصداقة والود بين الدولتين ، وإنما دفعت إليه كما تبين المصالح الداخلية والخارجية الخاصة بكل منهما . كما أنه لم يكن تحالفاً قومياً أو مرغوباً فيه من الشعبين ، ولذلك كان من الطبيعى أن ينهار عندما فقد كل من « والبول » في عام ١٧٤٢ و « فليرى » في عام ١٧٤٣ نفوذهما في كل من انجلترا وفرنسا على التوالي . عندما فقد الأول

تأييد البرلمان بسبب عدم استطاعته تنظيم الحرب التي أكره على خضوعها ضد أسبانيا (حرب جنكينز لجيرkins Bar) ، وسقط الثاني عندما تقدمت به السن بحيث عجز عن الاحتفاظ بسلطانه . واشتدت المنافسة الاستعمارية بين فرنسا وإنجلترا في أمريكا ، وفي استغلال الشركات التجارية في الهند ، وقامت بسبب ذلك مناوشات ومعارك خطيرة بين الدولتين . وكانت أسباب العداء بينهما قوية منذ عام ١٧٣١ . ولكن «البول» Walpole كان مشغولاً في تدبير شئون بلاده الداخلية ، كما كان «فليرى» يوجه الأحداث السياسية في أوروبا ، وهى الأحداث التي سببت في قيام حرب الوراثة البولندية ، وقيام دولة البوربون في جنوب إيطاليا . وإنجاز معاهدة فيينا الثالثة عام ١٧٣٨ . في تلك السنوات كانت فرنسا تعمل بانتظام على توطيد علاقاتها مع أسبانيا . وعندما اشتبكت إنجلترا مع أسبانيا في نزاع ١٧٣٩ ، أصبح واضحاً أن فرنسا لن تلبث أن تشترك في هذا النزاع . وإذا كانت نار الحرب لم تشمل رسمياً بين فرنسا وإنجلترا قبل عام ١٧٤٤ ، فإنها كانت قائمة بين المستعمرين قبل هذا التاريخ.

ثانياً : نمو قوة بروسيا كدولة حربية مستعدة وقادرة على أن تنازع الامبراطور سلطته في ألمانيا ، فقد أثبتت بروسيا خلال حرب الثلاثين عاماً أنها القائد الطبيعي للولايات الألمانية الشمالية ، وأنه لا يمكن إهمال شأنها في السياسة الأوروبية ، فضربت الامبراطورية ضربة قاسية في هذا الصراع أعجزتها عن الاحتفاظ بمكانتها بعد ذلك في ألمانيا الجنوبية .

ثالثاً . ضعف مركز الامبراطورية عقب موت شارل السادس في أكتوبر ١٧٤٠ مما جعلها هدفاً ومركزاً للأطماع المختلفة ، فمنذ بداية القرن ١٨ وعرش الامبراطورية بهنر بسبب الهزائم التي نزلت بالامبراطور ، وكانت أسبانيا له بالمرصاد ، فهاجمت أملاكه وحاربت نفوذه في إيطاليا كما نجحت في بسط نفوذها على بعض هذه الأملاك . ثم إن سياسته القائمة على ضمان الامبراطورية لابتته من بعده واحترام «الضمان الوراثي» Pragmatic Sanction جعلته يقوم بأعمال يكاد يكون مصلها عدم التروى ، فتنازل عن شركة «أوستند» ostend الناجحة حتى تعترف إنجلترا «بالضمان الوراثي» وما إلى ذلك من تضمينات أخرى . ولم تحقق هذه التضمينات للامبراطور شيئاً مما كان يريد ، فأخذ نفوذ الامبراطور في الانهيار داخل ألمانيا . وأخذت روسيا تحتل ما كان للنمسا . من نفوذ .



## تنقسم الحرب إلى دورين :

الدور الأول ١٧٤٠ - ١٧٤٣ : عندما أتيح لفردريك العظيم فرصة إشعالها غير ملتفت إلى ما أحلّه على نفسه من عهد لضمّان العرش الامبراطورى لماريا تريزا ، فكان لهجومه المفاجيء على سيليزيا أثره في تغيير الموقف الدولى ، ذلك لأن هذا الهجوم شجع منتخب بافاريا « شارل ألبرت » Charles Albert على المطالبة بأحقّيته فى عرش الامبراطورية . كما أدى إلى تدخل فرنسا فى وصف منتخب بافاريا .

بدأت الحرب فى ديسمبر ١٧٤٠ بهجوم الجيش البروسى على سيليزيا ، وقد انتصر فردريك انتصاراً حاسماً فى موقعة « مولويتز » Mollwitz وقررت فرنسا نتيجة لذلك أن تساعد منتخب بافاريا لاسيما وأنه لم يعد لفليرى نفوذ يذكر ، بينما أخذ الحزب المناصر لسياسة الحرب يقوى تحت قيادة « بلاتيل » Belleisle . وحاولت انجلترا أن تقنع ماريا تريزا بأن تتنازل لفردريك عن بعض أراضيها ، ذلك لأن السياسة الانجليزية كانت متجهة نحو اعتبار فرنسا العدو الحقيقى ، ولكن ماريا تريزا رفضت ، ولم يكن فردريك فى الواقع راضياً عن تدخل فرنسا خشية ازدياد نفوذها فى ألمانيا الجنوبية . ولكن عندما رفضت ماريا تريزا أن تجيبه إلى ما يريد ، لم ير بداً من أن يعقد اتفاقاً مع فرنسا و « شارل ألبرت » Charles Albert فى « برسلاو » Breslaw عام ١٧٤١ وقد أظهرت الأخيرة استعدادها لتأييد مطالب فردريك فى سيليزيا ولكن فردريك رفض أن يؤيد مطالب منتخب بافاريا حليف فرنسا بشأن مطالبته بالتاج الامبراطورى .

وفى سبتمبر يتقدم البافاريون نحو فيينا واضطرت ماريا تريزا إلى الفرار إلى هنغاريا ( المجر ) . ووافقت ماريا تريزا وسط هذه الظروف مكرهة على اقتراح انجلترا ، ونتج عن ذلك انسحاب البروسيين من مواقعهم ودخول الجيش النمساوى بافاريا ، فاستولى هذا الجيش على « لينز » Linz ، وفى نفس اليوم لودى فيه بشارل ألبرت امبراطوراً باسم شارل السابع فى فرانكفورت ، استولى النمساويون على عاصمته « ميونخ » Munich وكان ذلك فى فبراير ١٧٤٢ .

وأزعجت تلك الانتصارات التى أحرزها الجيش النمساوى فردريك العظيم ، فنقض اتفاقته مع ماريا تريزا ، وهاجم « رافيا » Moravia ، وفيه ووجه بمقاومة

عظيمة قهرج منها على بوهيميا ، وحاصر الجيش النمساوى وهرمه في «شوتوتيز» Chotulitz في مايو ١٧٤٢ ، واضطرت الجيوش الفرنسية إلى مبارحة بافاريا ، وهلما ماكانت ترمى إليه ماريا تريزا .

كان والبول في إنجلترا : قد اعتزل السياسة وأصبحت أمورها في يد «كارترت» Carteret وكان من مؤيدي السياسة العاملة على تشجيع معاونة أعداء فرنسا ، وتم الاتفاق بين فردريك وماريا تريزا في برلين في يولية ١٧٤٢ ، فتنازلت له ماريا تريزا عن سيليزيا Sillesia مما فيها قلعة «جلاتز» Glatz ، وانسحب فردريك مرة ثانية من الحرب .

لم تكن ماريا تريزا في موقف يمكنها من مقاومة رغبات فردريك ، نظراً لما حل بها من الهزائم في إيطاليا ، وعلى يد الأتراك ، وكان فقدانها مملكة الصقليتين ضربة كبيرة للامبراطورية ، ومع ذلك فإن الحالة الداخلية للامبراطورية كانت أسوأ من ذلك بكثير .

#### الطور الثاني ١٧٤٣ - ١٧٤٨ :

في ربيع ١٧٤٣ بدأ النمساويون بالهجوم ، فاستولوا على ميونخ ، واضطروا الفرنسيين ١٧٤٣ - ١٧٤٥ إلى إخلاء بافاريا . أما في الميدان الغربي فقد تغير الموقف كذلك .

في إنجلترا أدى ازدياد نفوذ «كارترت» Carteret إلى سلوك سياسة أكثر حزماً ، وآية ذلك أنها تدخلت في الحرب تدخلاً فعلياً ، فأرسلت حملة من عشرة آلاف جندي من البريطانيين والهنوفريين إلى بلجيكا ، بقيادة لورد «ستير» Stair ، وكان هدفها مهاجمة فرنسا في الأراضي المنخفضة أكثر من مساعدة النمسا في بافاريا . ولم تكن إنجلترا في حرب ضد فرنسا بعد ، ولذلك أصر جورج الثاني ملك إنجلترا على استخدام جيشه لخدمة مصالح ماريا تريزا . وكان لانتصار هذا الجيش آثاره في إخراج الفرنسيين من بافاريا ، وفتح الطريق أمام النمساويين لمهاجمة الألزاس ، واستطاع كارترت أن يكسب «شارل عمانويل» ملك سردينيا حليفاً جديداً في صف ماريا تريزا واعداء لياها في معاهدة «ورمز» Worms أن يمنحه بعض الأراضي الواقعة إلى الغرب من «منشيو» Mincio في سهل لمبارديا في نظير أن يقدم مساعدته في

إخراج البوربون الأسانيين من إيطاليا . وفي هذه الحالة تصح نابولي من نصيب  
الامبراطور ، وصقلية من نصيب شارل عمانويل على أن هذه المعاهدة لم تتعرض  
لمسألة سيليزيا . وقد كان Carteret مشغولاً عن ذلك ؛ لأنه لم يكن من مصلحة  
انجلترا أو هانوفر أن تعادى فردريك ملك بروسيا . ومع ذلك فقد كانت ماريا تريزا  
مصممة على استرداد سيليزيا .

يقابل معاهدة Worms تجديد التعاقد الأخرى Family Compact بين فروع  
أسرة البوربون في أوروبا في معاهدة « فونتنبلو » Fontainebleau في أكتوبر ١٧٤٣ ،  
ومها اتفقت فرنسا على تأييد الأسبان في إيطاليا . فتعهدت بمساعدتهم فيها حتى يصبح  
Don Philip حوفاً لبارما Parma ، وأن تعاون أسانبا على استرداد جبل طارق ،  
وأخيراً أن تعلن الحرب على انجلترا .

غيرت معاهدتا ورمزو « فونتنبلو » الموقف ، فبعد ذلك التاريخ صممت  
فرنسا على تركيز قواها في النزاع ضد انجلترا فأعلنت عليها الحرب في مايو ١٧٤٤  
ولهذا الغرض كان اجتياح جيش فرنسي للأراضي المنخفضة أنجح خطة تبشر بالنجاح ،  
فأغار جيش فرنسي من ٤٠,٠٠٠ مقاتل على الأراضي المنخفضة . واستولى على  
الاستحكامات الواقعة على الحدود Barrier Towns في سهولة . ومع ذلك فإن وصول  
الجيش النمساوية إلى الأكراس - وقد أرادت بهذا ماريا تريزا أن تعوض عن خسارتها  
في سيليزيا - قد أجبر جيوش لويس ١٥ على التقهقر مشقة من الفلنلرز إلى Metz ،  
وهكذا نجحت فرنسا من هجوم النمسا عليها إذ اضطرت الجيوش النمساوية تحت تهديد  
البروسيين أن تنسحب من الأكراس .  
حرب سيليزيا الثانية :

كان فردريك يرقب تحركات الجيوش النمساوية عن كثب منذ عقد معاهدة  
« ورمز » Worms ؛ إذ كان يحشى أن تتاح لها فرصة انتزاع سيليزيا منه نتيجة لتفوقها  
وانتصاراتها . لذلك انتهز فرصة انشغالها في الأكراس ، ودخل الحرب من جديد  
عام ١٧٤٤ . عقد تحالف في مايو من العام نفسه مع أمراء اتحاد Frankfurt لضمان  
حقوق الامبراطور شارل السابع . وقد وافقت فرنسا على الاتفاق ، وعبرت الجيوش  
الروسية حدود سكسونيا ، واستولت على «براج» Prague ؛ ولكن قدوم جيش  
نمساوي قوى اضطرها إلى التقهقر إلى سيليزيا .

( م ١٨ - تاريخ أوروبا الحديث )

وفي يناير ١٧٤٥ ، مات الامبراطور شارل السابع . فبادرت ماريا تريزا بإعلان زوحها امبراطورا ، وقد كان منتخب بافاريا الجديد مستعداً للاتفاق مع النمسا ، وبذلك ترك فردريك وليس له من الحلفاء الا فرنسا ، التي لم تكن تهدف إلى كسب انتصارات في ألمانيا وإنما كان هدفها الحصول على انتصارات في الأراضي المنخفضة وإيطاليا . ومع ذلك فقد عمل فردريك الثاني على الاحتفاظ بسيليزيا مهما كلفه أمر ذلك من تضحيات ، فهزم الجيش النمساوي في « سور » Sohr في يولييه ١٧٤٤ ، ورفضت ماريا تريزا شروط الصلح المعروضة عليها من إنجلترا التي كانت قد انضمت إلى فردريك ، واستمرت ماريا تريزا تحارب حتى قضى على جيوشها في « هنرسلدورف » Hengersdorf و« كسلز دورف » Kesselsdorf مما جعلها ترضخ لشروط صلح « درسدن » Dresden في ديسمبر ١٧٤٥ . وبمقتضاها تنازلت نهائياً لفردريك عن سيليزيا وقلاعها ، وفي مقابل ذلك اعترفت بروسيا بفرنسيس زوج ماريا تريزا امبراطوراً وانسحبت من الحرب .

أما ما وقع في السنوات الأخيرة من الحرب فيمكن تلخيصه في انتصارات جيوش لويس الخامس عشر تحت قيادة مارشال « ساكس » Saxe في الأراضي المنخفضة ، وأهمها الانتصار في واقعة « فونتنوي » Fontenoy في مايو ١٧٤٥ ، وفتح بذلك الطريق أمام الجيوش الفرنسية إلى بروكسل . فاستولى القائد ساكس على « بروج » Bruges وعلى « حنت » Ghent وعلى « لياج » Liege ، واضطر القائد البريطاني دوق « كبرلند » Cumberland أن يرضخ للأمر الواقع . وقد شجعت انتصارات الفرنسيين في « فونتنوي » Fontenoy المدعى على عرش إنجلترا جيمس الثاني أن يقوم بمحاولة حديلة في سبيل استرداد عرش أجداده في عام ١٧٤٥ مما أدى إلى استدعاء « كبرلند » ومعظم جيشه إلى إنجلترا .

### الحرب في إيطاليا :

وقد كانت انتصارات الفرنسيين هذه كقيلة بأن تفقد النمساوين أملهم في النجاح في إيطاليا ، وهنا عزم وزير خارجية فرنسا « دارجنسون » Dargenson على اتخاذ إجراءات فعالة في إيطاليا هادفاً من وراثها إلى طرد النمساويين منها . ليكون بعد ذلك اتحاداً من الولايات الإيطالية يكون اعتماده على تأييد فرنسا . وعجز « شارل عمانويل »

Emmanuel صاحب سردينيا ، وحليف ماريا تريزا منذ ١٧٤٣ عن الثبات أمام هجمات القوات الفرنسية الأسبانية ، وهزم هزيمة منكرة في واقعة «بسينيانو» Bassignano وكان ذلك في سبتمبر ١٧٤٥ ؛ انضمت القوات النمسية إلى قوات سردينيا المنهزمة واستطاعت هذه القوات أن تطارد الأسبانين إلى الساحل وأن تسترد لمبارديا . ومات فيليب الخامس ملك أسبانيا ١٧٤٦ ، فخلفه فرديناند السادس ١٧٤٦ - ١٧٥٩ . وكان ميالا لإبرام الصلح ؛ وكانت القوات الفرنسية يومئذ تحتل الأراضي المنخفضة . وكان المتحاربون جميعاً فيها عدا ماريا تريزا يرغبون في الصلح .

وقد تم الاتفاق عليه نهائياً في معاهدة «أكس لاشابل» Aix-Lan hapelle عام ١٧٤٨ .

١ - ضم فردريك لإقليم سيليزيا الغني ، وأصبح نتيجة لانتصاراته يتمتع بمركز ممتاز في ألمانيا .

٢ - لم تتأثر النمسا كثيراً بهذا الصلح كما كان ينتظر ؛ فاحتفظت بسهل لمبارديا ولكنها وافقت على مسح «دون فيليب» دوقية بارما . كما أيدت مركز «دون كارلوس» Don Carlos ملكاً على الصقليتين ، وحققت ماريا تريزا أطباعها وهدمها الرئيسي عندما نجحت في تنصيب زوجها امبراطوراً . وأفادت كثيراً من كسب محالفة كل من بافاريا وسكسونيا .

٣ - أما في عالم الاستعمار فقد استعادت شركة الهند الشرقية الإنجليزية مدراس في الهند التي غزاها الفرنسيون عام ١٧٤٦ ، وفي مقابل ذلك استردت فرنسا لويزبرج (عاصمة كيب برتون) التي غزاها الإنجليز عام ١٧٤٥ . وكان من نتائج ذلك أن أعيدت الأراضي المنخفضة إلى النمسا .

لم تبين نتائج الصلح ، لمن تكون الغلبة في عالم الاستعمار . وقد اشتدت المنافسة بين فرنسا وإنجلترا شرقاً في الهند وغرباً في العالم الجديد .

ولم يحقق صلح أكس لاشابل في عام ١٧٤٨ جميع الأغراض التي قامت بسببها حرب الوراثة النمسية حقيقة أنه أقر مشكلة العرش الامبراطوري ، ولكن مارالت مسألة سيليزيا وتنازل ماريا تريزا عنها لعدريك أمراً لا يرضيها بأي حال من الأحوال ،

كما أن المنافسة على إيطاليا لم تؤد إلى نتيجة حاسمة ، وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى الأراضي المنخفضة التي أعيدت إلى النمسا .

كما أن هذا الصلح لم يوضح تماماً الموقف الغامض بين إنجلترا والبروبون على التنافس التجاري والاستعماري .

أهم نتائج حرب الوراثة النمساوية :

١ - أصبحت بروسيا في عداد الدول العظمى في أوروبا . فتعهدت جميع الدول الموقعة على صلح أكس لاشابل بصمان حق بروسيا في سيليزيا . وقد كان لاستيلائها عليها أثر كبير في ازدياد ثروتها ، وعدتها من الرجال ، ومنحها موقعاً استراتيجياً عظيم الأهمية . على أن رغبة كل من النمسا والروسيا كانت قوية في استرداد سيليزيا ، كما أن موقف بروسيا من حليفتها فرنسا أثناء الحرب قد جعل الأخيرة تفكر في الانضمام إليها .

أصبحت سكسونيا ، وهانوفر ، والسويد من أعداء بروسيا بسبب ما أهدب كلا منها بسببها من خسارة أو ما كانت تتوقعه من جانبها من خطر

٢ - أثرت هذه الحرب في الهولنديين فجعلتهم ينسون أيام عظمتهم عندما نجح النمسيون في استعادة سلطانهم على الأراضي المنخفضة الجنوبية .

٣ - أما فرنسا التي كانت قد بدأت الحرب بإعلان سقوط أسرة الهابسبورج ، فها هي الآن تنهياً للاعتراف بامبراطور من الهابسبورج والصمان الوراثي . ومن ثم بدأت العلاقة بين فرنسا والنمسا تتغير ، فبدأ مستشارها الأعظم « كوتنز » Kaunitz يحطب ود فرنسا ويرى فيها الحليف الطبيعي لبلادها . وكان قد اشترك في مفاوضات الصلح . وأظهرت فرنسا أثناء الحرب قوتها عندما نصبت شارل السابع امبراطوراً ، وعندما ظهرت بروسيا كدولة عظمى ، فاستطاعت قوات فرنسا أن تتعل على قوات إنجلترا والنمسا وهولندا في الأراضي المنخفضة ، وأن تستولى على قلاع Barrier Fortresses الحدود ، وانتصرت في ثلاث مواقع عظمى واستولت على الأراضي المنخفضة فيما عدا لكسمبورج

ومن العث أن يقول أن فرنسا قد حطت من مركزها وقللت من قدرها عندما تنازلت عن انتصاراتها في الأراضي المنخفضة كي تستعيد « كيب بريتون » Cape Breton

فقد تضاعفت عدة عوامل على إضعاف مركز فرنسا ، منها ازدياد نفوذ جماعة الجزويت ، وزيادة نفوذ مدام « مبادور » في البلاط ، وانجاهات الفلاسفة الثورية ، كل ذلك كان من شأنه الحط من مركز لويس الخامس عشر ، وإن كان أثر ذلك كله لم يكن عميقاً يومئذ ( في عام ١٧٤٨ ) إذ كانت كلها عوامل حديثة . فكتاب روح القوانين « لالتيسكيو » كان معاصراً للصالح ، وقد كان من أعظم كتب ذلك العهد ، فكان في تحليله الهادئ أكبر خطر أصبحت تتعرض له فرنسا ونظامها الاستبدادي .

٤ - أما بريطانيا فقد خرجت من صلح عام ١٧٤٨ دولة عظيمة ، فتعهدت أسبانيا بأن تستمر بريطانيا في تمتعها بتلك المكانة التي كانت تتمتع بها من قبل في تبادل التجارة معها ومع مستعمراتها ، كما أنها أهملت ما يقرب من ربع قرن فيما يتعلق باستمرار سيطرتها على كل من جبل طارق ومنورقة ، ونجحت في أن تحل محل « اليزابث فرنيز » في أسبانيا ملكة موالية لسياسة بريطانيا . وأهم من هذا كله إن فرنسا لم تستطع حتى بعد معونة أسبانيا لها أن تنافس بريطانيا في تجارتها عبر المحيطات .

كما أن الحزب قد أتاح الفرصة لبريطانيا لتكون أسطولا قوياً وتدريب قواها البرية كذلك ، فأحرزت بذلك عدة انتصارات حربية منها انتصار لويزبرج ، على أنها هزمت في « فونتنوي » Fontenoy .

وليس يفوتنا ما كان لاعتراف فرنسا وأوروبا عامة بحكم أسرة هانوفر في إنجلترا من نتائج ، ذلك أن تعهدت فرنسا ببنى المدعى على العرش البريطاني منها . واطمأنت بريطانيا إلى أمنها وسلامتها حين تنازلت فرنسا عن بعض انتصاراتها في الأراضي المنخفضة ، ورضيت بعدم إقامة استحكامات في دنكرك تجاه البحر .

وفي القارة الأوروبية وقعت بعض التغييرات التي كان من شأنها أن تؤثر على علاقاتها إنجلترا الدولية في المستقبل ، فاتضح ضعف الهولنديين ، كما ضعفت الصلة بين النمسا وإنجلترا ، وأثبتت مردينا أهميتها بالنسبة لمصالح إنجلترا . وتوسعت العلاقات التجارية بين إنجلترا وبروسيا .

أما التغيير الأكبر فكان فيما يتعلق بهانوفر التي بدأ يظهر اهتمام ملوك إنجلترا بها نظراً لأنها كانت وطنهم الأصيل ، ويتضح ذلك فيما استقر في القوس : شائعات آتتها :

« أنه بينما جرت بريطانيا على مواجهة فرنسا ، كان الملك يرتعد خوفاً هانوفر » . « لقد أصبحنا مكتب أمن لهانوفر » .

واشتد بغض الشعب الانجليزى لهانوفر مما جعل الأنظار تنجس نحو عدو ملك بروسيا ، فهو ملك بروتستنتى اتصف بالبطولة والشجاعة ، وله جيش استعداد تام للحرب ، ولم تكن خدماته لفرنسا كثيرة ، كما أظهر استعداداً للمشاكل القائمة بين إنجلترا وفرنسا . وهكذا كان رأى العام البريطانى سياسة إنجلترا يتجهان إلى إحداث تغيير فى علاقة إنجلترا بدول أوروبا . وقد تد هذه الفكرة فى يناير ١٧٥٥ .

فحرب الوراثة النمسية لم ترق بصفة عامة للشعب الانجليزى . وكان ولیم ذلك الخطيب البرلمانى المقوه ، والسياسى الأريب ، من المعارضين لسياسة فى هذه الحرب بأسلوبها فى القارة الأوروبية بسبب تلك المعونات المالية التى تفقها إنجلترا على الجيوش الألمانية من « هس » و « هانوفر » ، عن إمارة هانوفر مما ترتب عليه فى نظر المعارضة مجاح فرنسا فى احتياح الأر المنخفضة النمسية ، والتمهيد لمحاولة اليعاقبة الفاشلة فى عام ١٧٤٥ ، ثم اص المستعمرين الانجليز إلى التنازل عن لويربورج (عاصمة كيب بریتون) ل لتخلي عن الأراضى المنخفضة النمسية لئلا ترد إلى النمسا حليفة إنجلترا .

كل هذه أمور كان يجب أن تسوى ، وقد كان واضحاً أن الحرب المقبلة و كفيلاً بالإجابة عن هذه الأسئلة المعلقة التى أشرنا إليها وعجز عن توضيحها « أكس لاشابل » .





## اصول الخامس

المرحلة الخامسة وهى حرب السنوات السبع

( ١٧٥٦ - ١٧٦٣ )

الانقلاب السياسى ١٧٥٦ :

سبق هذه الحرب حدث هام فى العلاقات الأوروبية يسميه المؤرخون الانقلاب السياسى لعام ١٧٥٦ .

وهو عندهم تعريف لذلك التغير الجوهري الذى حدث فى العلاقات الأوروبية .  
عندما تحالفت كل من النمسا وفرنسا أى الهابسبورج والوربون فى عام ١٧٥٦ .  
بعد عداء استمر بين الدولتين ما يزيد على قرنين ونصف قرن ، وتمثل هذا العداء بوضوح فيما يأتى : الحروب الإيطالية وقعت بين عامى ١٤٩٤ ، ١٥٥٩ ، فكانت هذه هى الحلقة الأولى من سلسلة الصراع الأمري بين أسرتى الفالوا والهابسبورج .  
وإذا كان هذا الصراع قد توقف بعض الوقت أثناء الحروب الدينية فى فرنسا بين عامى ١٥٦٠ - ١٥٩٨ ، فإن الامر لم يخل من محاولات لاستئناف ذلك الصراع بطريقة غير مباشرة ، فالواضع من دراسة الحروب الدينية فى فرنسا أنه كان لفيليب الثانى ملك أسانيا أطماع فى عرش الفالوا . وكادت الحرب تقع بسبب الخلاف على عرش « كليف جوليش » فى نهاية عهد هنرى الرابع بين البوربون والهابسبورج (١) ، ولكن مصرعه فى عام ١٦١٠ حال دون ذلك ، واستؤنف الصراع بين الاسرتين فى عهد كل من ريشيليو ومزران أثناء حرب الثلاثين عاماً ( من ١٦١٨ - ١٦٤٨ ) ، وتلك كانت مرحلة هامة من مراحل الصراع بين اليتين . وقد بدأ بطريقة غير مباشرة قبل سنة ١٦٣٥ . وبظل هذا الصراع قائماً حتى يدرك عهد لويس الرابع عشر ، ثم ينتهى بمعاهدة بو : خت ١٧١٣ .

٢ (١) انظر ص ١٧٠ :

وكان من نتائج هذا الصراع أن يفوز فرع من بيت البوربون بأبانيا كذلك . ويستمر هذا الصراع أثناء حرب الوراثة البولندية بين عامي ١٧٢٢ و ١٧٣٩ وأثناء حرب الوراثة النمساوية ( ١٧٤٠ - ١٧٤٨ ) . وبعد ذلك الصراع الطويل والعناء المستحكم تنضم النمسا إلى فرنسا بينما تنضم روسيا إلى إنجلترا . فما هي العوامل التي أدت إلى ذلك الانقلاب في العلاقات الدولية ؟

أهم العوامل التي أدت إلى الانقلاب السياسي :

١ - تهديد أسرة الهوهنزولرن لأسرة الهابسبورج .

تبين مستشار النمسا الأعظم وهو « كاونتز » Kaunitz بعد أحداث حرب الوراثة النمساوية أن علو الامبراطورية لم يعد بيت البوربون كما كان من قبل وإنما هناك علو أكبر وهو بيت الهوهنزولرن في بروميا فأقنع الامبراطورة « ماريا تريزا » بأن الأمر يقتضيها أن تعد نفسها لمواجهة ذلك الحصم القوي العنيد الذي كان يستमित أثناء أحداث حرب الوراثة النمساوية في سبيل الحصول على إقليم سيليزيا . وكانت إنجلترا - وهي دولة تعتمد على قواها البحرية - حليمة النمسا التقليدية فيها مضى ، وكانت تستأجر القوات الألمانية من إقليم « هس كاسل » و « هانوفر » لتحقيق عملياتها العسكرية في القارة الأوروبية .

رأى « كاونتز » أن فرنسا هي الدولة البرية الوحيدة القوية التي يمكن للنمسا الاعتماد على قواها لتتف حائلا دون استفحال الخطر البروسي على الامبراطورية ، كما لاحظ أن إنجلترا لم تقلم حليفها النمسا المساعدة اللازمة أثناء حرب الوراثة النمساوية ولذلك عندما طلبت إنجلترا من حليفها النمسا إعداد قوات خاصة للمحافظة على إمارة هانوفر طالبت النمسا إنجلترا بمبالغ ضخمة للقيام بذلك ، وكانت النمسا تعلم أن البرلمان الانجليزي الذي يجهر بعدائه لسياسة المحافظة على هانوفر لن يقبل الموافقة على تلك الأموال وفعلا رفض البرلمان الإنجليزي الموافقة عليها .

وحاول « كاونتز » سنة ١٧٥٠ عندما كان سفيرا بلاده في باريس - أن يعقد محادثة بين الهابسبورج والوزيون في فرنسا ولكنه فشل في ذلك ، فلم تكن فرنسا على استعداد لكي تلبي نداءه على الرغم من أنها قد استاءت كثيرا من تصرفات حليفها

فردريك الثانى أثناء أحداث حرب الوراثة النمساوية بسبب دخوله الحرب تارة وانقطاعه عنها تارة أخرى ثم استثنائه القتال دون أخذ رأيها ، كل ذلك لتحقيق أغراضه الشخصية دون مراعاة لحلفته

## ٢ - استرداد سيليزيا

كان هذا الأمر هاماً بالنسبة للنمسا الى كانت ترى عندئذ عدم جدوى التحالف مع إنجلترا لأنها لن تمددها بالقوات اللازمة لاسترداد سيليزيا من بروسيا . وقد تبين للنمسا كذلك أثناء حرب الوراثة النمساوية أن لها المساعدة اللازمة.

## ٣ - خوف فردريك من عنوان روسيا :

لم تكن فرنسا هي البادئة في قيام تلك الثورة الدبلوماسية وإنما كان فردريك الثانى أول من بدأها ، لأنه كان يرى في الانضمام إلى إنجلترا خدمة لمصالح بلاده التي كانت تخشى لتوسع النفوذ الروسى ، ذلك لأن أملاك روسيا كانت متاخمة لروسيا الشرقية . ومن السهل على القوات الروسية أن تهاجم بروسيا التي لم تكن لها حدود طبيعية تحميها . وقد شأ إلى علم ملكها أن هناك معاهدة وقعت في عام ١٧٥٥ بين إنجلترا وروسيا ، فرأى أنها ينضم إلى إنجلترا حتى يفيد من هذا التحالف الروسى الإنجليزي . وكانت إنجلترا على استعداد لتلبية نداء فردريك الثانى في التحالف معه بدلاً من التحالف مع النمسا ، وفي العامل التالى تفسير لذلك .

## ٤ - الدفاع عن هانوفر :

تبين لملك إنجلترا رفض برلمانه الموافقة على إمداد النمسا بالنفقات اللازمة للمحافظة على هانوفر وقلاع الأراضى المنخفضة ، فأخذ يبحث عن وسيلة أخرى لتحقيق هذا الهدف ، لقيها في قبول الاتفاق مع فردريك الثانى ، إذ كان في إمكان هذا الدفاع عن هانوفر دون نفقات كبيرة نظراً لوقوعها على مقربة من أملاكه .

## معاهدة وستمنستر في يناير ١٧٥٦ :

أدت العوامل السابقة جميعاً إلى عقد معاهدة « وستمنستر » بين إنجلترا وبروسيا . وكانت هذه المعاهدة هي الخطوة الأولى في أحداث الانقلاب السياسى . ولم تكن هذه المعاهدة تم حتى رأت روسيا في ذلك مخرجاً من معاهدتها مع إنجلترا . لأن

الروسيا كانت تعتبر بروسيا عدوها الأكبر فانضمت إلى الفريق الآخر. وهنا تشجع «كاونتز» ، فعرض على فرنسا مطلبه القديم ، وهو عقد تحالف بين الهابسبورج والبوربون ، ولم تجد فرنسا مفرأ من قبول هذا العرض ، إذ بين لها أن فردريك الثاني قد تعاقد مع عدوتها إنجلترا ، فقدمت معاهدة فرساي الأولى في مايو ١٧٥٦ بين فرنسا والنمسا . وفيها تعهدت فرنسا بالآلتهاجم الأراضي المنخفضة الجنوبية على الرغم مما في تعهداتها هذا من خسارة . كما تعهدت أن تكون إلى جانب النمسا في المعارك الأوروبية ، وتلك خسارة أخرى لفرنسا ، إذا كانت على وشك أن تدخل الصراع الحاسم ضد إنجلترا ، وكانت أحوج ما تكون إلى تركيز جهودها وأعمالها الحربية في المستعمرات . ولكن القدر أراد لفرنسا أن توزع جهودها في ميدانين أحدهما في أوروبا ويتمثل في مساعدة النمسا والثاني في الميادين الاستعمارية حيث كانت المنافسة على أشدها بين فرنسا وإنجلترا كما خسرت خسارة أخرى تتمثل في فقد ميدانها السهل في الأراضي المنخفضة . وقد كان لها فيه كسب لا يعوض ، آيته حفظها من الاستيلاء على بعض البقاع الهامة في المستعمرات .



## حرب السنوات السبع ١٧٥٦ - ١٧٦٣

### العوامل التي أدت إلى وقوع هذه الحرب :

كان العامل الأساسي الذي تسبب في قيام هذه الحرب هو احتدام المنافسة الاستعمارية بين إنجلترا وفرنسا في ميادينها المختلفة في المناطق الآتية : جزر الهند الشرقية وجزر الهند الغربية وأمريكا الشمالية في الغرب - حيث تأزم الموقف بين المستعمرين الإنجليز والفرنسيين - فبات ينذر بوقوع حرب صريحة بين الدولتين حتى يتقرر مصير هذه المستعمرات وحتى يتبين لمن تكون الزعامة ، أتكون فرنسا أم لانجلترا .

كان العامل الاستعماري لحرب السنوات السبع هو العامل الأساسي ، ولكن هذه الحرب لم تلبث أن تعددت أغراضها ثم تطورت بسبب عوامل مختلفة ، فلم تقتصر هذه الحرب على فرنسا وإنجلترا أو على تقرير مصير المستعمرات المتناقص عليها ، وإنما أضيفت إلى ذلك عوامل أخرى ظهرت بطبيعة الحال بسبب علاقات الصداقة والعداء بين دول أوروبا المختلفة ، فالنمسا قد بادرت بالانضمام إلى فرنسا وسعت إلى ذلك صعباً حديثاً . منذ سنة ١٧٥٠ لأنها لم تكن راضية عما قرره صلح أكس لاشايل بشأن الموافقة على استيلاء بروسيا على سيليزيا ، كما أن مصير إيطاليا لم يتحدد بعد ، فعلى الرغم من أن أسبانيا قد استطاعت أن تعدل في بعض شروط اكس لاشايل فإن لمبارديا لازال تحت سيطرة النمسا .

### من مظاهر التنافس الاستعماري بين إنجلترا وفرنسا في أمريكا الشمالية :

كان موقف الاستعمار في العالم الجديد لا يحتمل الانتظار ، ويجب أن نرجع مع بداية القرن الثامن عشر عند عقد صلح يوترخت ، وكانت فرنسا لا تزال تسيطر على كندا وعلى جزيرة كيبيك بریتون عند مدخل سانت لورانس وعاصمتها لويزبرج وتسيطر كذلك على إقليم لويز يانا والمنطقة المحيطة بنهر المسيسيبي والممتدة جنوباً حتى خليج المكسيك وكانت فرنسا أوفر حظاً من منافستها إنجلترا إذ أن إنجلترا

لم تكن تسيطر إلا على الشريط الضيق الممتد على الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية جنوبى حوض نهر سانت لورانس حتى شبه جزيرة فلوريدا فى الجنوب ( عند مدخل خليج المكسيك ) ويضم ثلاث عشرة ولاية ، وقد أضافت إليها بعض الأملاك التى كانت تابعة لفرنسا وهى المنطقة الممتدة حول خليج هلسون، وجزيرة نيوفوندلاند وشبه جزيرة أكاديا ، على أن معاهدة يوترخت قد فاتها أن تمنح على وجه الدقة الحدود بين أملاك إنجلترا فى شبه جزيرة أكاديا وأملاك فرنسا فى كندا . وسبب ذلك وقوع المناوشات بين الفريقين . على أن الالتحام عندما وقع بين الطرفين ، وأدى إلى وقوع حرب السنوات السبع لم يكن فى هذه المنطقة وإنما كان فى منطقة أخرى فى الجنوب منها عند نهر « ألأهيو » Ohio ، ذلك لأن المستعمرين الفرنسيين قد اعتمدوا فى تدعيم تقوؤهم فى المستعمرات الفرنسية على إقامة بعض المواقع الاستراتيجية فى أملاكهم سواء فى كندا أم فى لويزيانا ، ومن ضمن هذه المواقع التى استطاعوا إقامتها كانت « كويبك » Quebec و « مونتريال » Montreal و « نياجرا » Niagara و « دوكن » Duquesne و « نيواورليانز » فى لويزيانا عند مصب نهر المسيسيبي فى الجنوب .

ونجحت فى أن تولى هذه المستعمرات نخبة ممتازة من القادة والحكام مثل « دوكن » الذى أقام حصنا يحمل اسمه ، ولما كلف هذا الموقع عند لقاء نهر الأهيو بالمسيبي فى نقطة حساسة ، وتقع غرب المستعمرات الانجليزية مباشرة فقد أصبحت الأخيرة مهددة من جانب المستعمرين الفرنسيين .

كما ترتب على ذلك تعويق أى تقدم لستعماري للانجليز غربا داخل القارة الجديدة ، ولم يصبح هذا الأمر هو الذى يهدد المستعمرات الانجليزية بل أصبح من الممكن استغلال هذه النقطة الدفاعية فى استبعاد المستعمرين الانجليز من مستعمراتهم على طول الساحل الشرقى الأمريكى وطردهم منها ومعنى ذلك القضاء على الاستعمار الانجليزى فى أمريكا الشمالية . لذلك تقدم القائد الانجليزى « برادوك » Braddock على رأس فرقتين ليحطم قاعدة « دوكن » للقضاء على هذا الخطر ، ولم تكن الحرب قد أعلنت بعد بين إنجلترا وفرنسا ، ولكن هذه الحملة فشلت وقتل القائد فى الموقعة وثبت الفرنسيون فى مستعمراتهم

أرسلت فرنسا بعد ذلك أسطولها ليستولى على جزيرة مينورقة في البحر المتوسط،  
وفعلا سقطت هذه الجزيرة في يد فرنسا وبعد ذلك وفي عام ١٧٥٦ أعلنت الحرب  
بين فرنسا وإنجلترا. ومن هنا يتضح لنا أن الحرب عندما بدأت كانت حربا استعمارية  
اقتضتها الظروف التي أحاطت بكل من المستعمرات الفرنسية والإنجليزية في العالم  
الجديد .

وإذا تطلعنا إلى المنطقة الثانية للمنافسة الاستعمارية بين إنجلترا وفرنسا نجدها تقع  
في جزر الهند الغربية ونلاحظ هنا أيضا أن فرنسا كانت متفوقة تفوقا عظيما على  
إنجلترا بسبب ما كانت تسيطر عليه من جزر ، منها جزيرة « مارتيك » Martinique  
و « جرماده » ، و جزيرة « توباجو » Tobago و سانت فانسنت و Sant Vincent  
على حين لم يكن لإنجلترا في تلك المنطقة إلا نفوذ محدود لا يعدو أثره جزيرة  
« بربادوس » Barbados .

أما السبب الرئيسى الذى منع إنجلترا من الوقوف في سبيل فرنسا في هذه المنطقة  
فقد كان مرجه إلى عامل اقتصادى يخص تجار السكر في إنجلترا ، ذلك لأنها كانت  
تخشى أن يؤدي اتساع نفوذها في هذه المنطقة إلى انخفاض سعر السكر فيها نتيجة  
لتدفق كميات وفيرة منه إلى إنجلترا .

### المنطقة الثالثة :

كانت الهند ميدان التنافس الثالث بين الدولتين حيث استطاعت إنجلترا وفرنسا  
أن تمكننا لأنفسهما تجاريا بسبب المنازعات العديدة التي كانت تقع بين حكام الهند ،  
فاستطاعت فرنسا أن تسيطر على منطقة الساحل الجنوبي الشرقى للهند المعروفة بساحل  
« كرومندل » ومن أهم مراكز التجارة فيها « بندشبرى » Pondicherry وكانت  
« بنجال » من مراكزها الهامة حيث أسست شركة الهند الشرقية الفرنسية على أن هذه  
الشركة لم تصل إلى ماوصلت إليه شركة الهند الشرقية الإنجليزية الموجودة في كلكتا .  
أما على الساحل الغربى للهند فكانت إنجلترا تتمتع بنفوذ عظيم بسبب سيطرتها على  
« بومبى » ومن ذلك يتبين أن إنجلترا كانت متفوقة على فرنسا في الميدان الثالث وهو  
ميدان تجارة ، بحيث في الهند .

### ميادين حرب السنوات السبع :

وقعت الحرب في ميادين ثلاثة: في ألمانيا وهو أشهر ميادينها وفي عرض البحار ثم في الهند وأمريكا الشمالية . فميادين هذه الحرب كما نرى تختلف بعضها عن بعض وتأثرت مواقعها باختلاف تلك الميادين ، وارتبطت نقيجتها النهائية بما حدث في كل من المناطق الثلاث . ففردريك الأكبر قد انتصر على فرنسا على نهر الإلب، وفازت حليفته إنجلترا بكنندا في العالم الجديد . ومن هنا يردد المؤرخون بأن إنجلترا فازت بكنندا على ضفاف الإلب ، ويقصد بذلك أن فردريك الثاني قد شغل فرنسا بالحرب في ألمانيا وأضعفها على ضفاف الإلب فأتاح لإنجلترا فرصة الفوز والانتصار في أمريكا الشمالية . وفردريك في الواقع قد أنزل بفرنسا هزيمة ساحقة في معركة «روسباخ» Rosbach سنة ١٧٥٧ . ولاشك أنه كان لهذه المعركة أهميتها العظمى لا في تاريخ المنافسة الاستعمارية بين إنجلترا وفرنسا فحسب بل في تاريخ فرنسا وقوتها الحربية . كما أصيبت جيوش فرنسا كذلك بالعجز أثناء هذه الحرب في أوروبا .

### الحرب في ألمانيا :

في شتاء ١٧٥٦ - ١٧٥٧ ركز النمساويون قواهم الرئيسية في بوهيميا في الوقت الذي أخذت فيه بعض القوى الروسية تتدفق من الشرق . ووافق لويس الخامس عشر حليف روسيا والنمسا على أن يحتاج ألمانيا الغربية وأن يصوب ضرباته نحو «مجلدبرج» Magdberg على حدود بروسيا وهانوفر . ويادر فردريك الثاني بتوجيه ضرباته إلى النمساويين في بوهيميا ، وكانوا ألد أعدائه وأقربهم من أملاكه قبل وصول القوات الفرنسية والروسية . فعل ذلك متدثا بحدود سكسونيا وسيليزيا ، وقرر أن يركز هجومه على براج ، فكانت واقعة «كولن» Kollin في ٦ مايو ١٧٥٧ ، وكان شارل دوق اللورين يقود القوات النمساوية على بعد خمسين ميلا جنوب شرق براج وكانت المعركة في بدايتها نصرا لروسيا ولكنها لم تلبث أن تحولت إلى هزيمة عند وصول مدد نمساوى تحت قيادة «دون» Daun وتخرج بذلك موقف فردريك لقلة عدد قواته التي لم تكن تتجاوز ٣٣.٠٠٠ مقاتل بينما كانت القوات النمساوية تبلغ ٥٤.٠٠٠ ، مع العلم بأن الجيش الفرنسي كان في طريقه إلى مجدبرج . ولحسن حظ فردريك أن القائد «دون» لم يحاول الاستفادة من هذا النص «تابعة جيوش فردريك».



وبليت قوات حلفاء فردريك كذلك بسوء الطالع ، ذلك أنه عندما وصلت القوات الفرنسية إلى هانوفر ، وهزمت « دوق كمبرلاند » Duke of Cumberland في « هستنبك » Hastenbeck في يوليو ١٧٥٧ واضطر دوق كمبرلاند أن يعقد اتفاقية « كلوسترسس » Klosterseeven معلناً فيها الموافقة على حياد هانوفر .

أصبح فردريك في مركز شديد الخطورة . فقد أغار الروس على بروسيا الشرقية بينما رابطت قوات النمسا بين سكسونيا وسيليزيا ، كما تلاقى جيشا فرنسا ، أحدهما تحت قيادة ريشليو والآخر تحت قيادة « سوبيس » Soubise في « ثورنجا » Thuringia وانتهى إلى فردريك أن النمساويين يقتربون من برلين .

وبعد تردد لم يطل مداه قررا فردريك أن يصوب ضرباته نحو الفرنسيين ، فهزم « سوبيس » في ٥ نوفمبر ١٧٥٧ هزيمة فادحة في « روسباخ » Rossbach وترتب على هذا الانتصار العظيم أن فردريك قد أزاح من طريقه القوات الفرنسية حتى نهاية الحرب كما كان من نتائجه أن رفضت الحكومة الانجليزية التصديق على اتفاقية « كلوسترسس » سفن ، واعتبر جيش هانوفر جيشا فعالا . كانت روسباخ أكثر من مجرد هزيمة ؛ لقد كانت مصيبة فادحة ، لم يتأثر بها الجيش الفرنسي فحصب بل كذلك مكانة فرنسا في أوروبا ؛ فلم تتعرض جيوش فرنسا لفردريك بعد ذلك . ولم يكن وصف نابليون لهذه الموقعة بعيلاً عن الحق ، فقد ذكر أن هزيمة روسباخ كانت من عوامل وقوع الثورة . واستطاع فرديناند دوق « برنزيك » الذي خلف كمبرلاند في القيادة في عام ١٧٥٨ أن يطرد الفرنسيين من هانوفر وأن يهزم الأعداء في واقعة « مندن » Minden في العام التالي في أغسطس ١٧٥٩ .

استطاع فردريك بعد ذلك الانتصار الحاسم في روسباخ أن يتقدم بجيوشه شرقا للملاقاة النمساويين ؛ حيث كان من جيوشها في سيليزيا مائة ألف مقاتل . وكانت « برسلو » Breslau في أيديهم ، وعلى الرغم من تفوق أعدادهم صمم ملك بروسيا على مهاجمتها . فأحرز نصراً عظيماً في واقعة « لوثن » Leuthen يسميها ١٧٥٧ . ونجح بالتالي في السيطرة على سيليزيا ، ومن ثم أصبح الطريق إلى فيينا . ولكنه لم يكن يملك قوة تساعد على القيام بهذه المغامرة ، فقرر أن يتقدم شمالاً ليواجه القوات السويدية التي نزلت في بوميرانيا ، واستطاع أن يقم - للشتاء هناك .

وفي عام ١٧٥٩ هزمت القوات الروسية قوات بروسيا هزيمة فادحة في واقعة « كنزسدورف » Kunersdorf ؛ وقد بلغ من تأس فردريك أن فكر في الانتحار ولكنه لم يلبث أن أحرز نصراً على القوات النمساوية في الواقعة « ترجاو » Torgau سنة ١٧٦٠ ، وظل بعد ذلك عاماً كاملاً (١٧٦١) يقف . وقف المدافع . وكان لموت الزابيث قيصرية روسيا في يناير ١٧٦٢ أثر في تغيير التوازن الدولي ، وذلك لأن خلفتها بطرس الثالث كان من أشد المعجبين بفردريك الثاني والمتحمسين لبطولته ، فأصدر أوامره بسحب الجيوش الروسية من ميدان الحرب . وهنا أتيحت الفرصة لفردريك ليركز جهوده ضد أعدائه النمساويين . وفي ١٥ فبراير ١٧٦٣ عقد صلح « هوبرتسبرج » Hubertsberg بين بروسيا والنمسا والروسيا بينما أنهى صلح باريس في عام ١٧٦٣ الحرب بين فرنسا وإنجلترا وأسبانيا .

### انجلترا وحرب السنوات السبع :

كان حظ إنجلترا من حرب السنوات السبع سلسلة من الانتصارات بدأت عام ١٧٥٩ ، ويرجع ذلك إلى مجهودات وليم بت William Pitt العظيمة في مطلع أيام وزارة بت ونيوكاسل Pitt-Newcastle الشهيرة عام ١٧٥٧ ، وفيها كان اهتمام نيوكاسل منصباً على المحافظة على مركزه ، بينما كان « بت » Pitt يسعى إلى السلطة وإلى تأييد مجلس العموم الذي كان يتمتع به نيوكاسل .

أصبح بت « معظم الانتصارات » ، بعد الذي نزل بإنجلترا من مصائب وحل بها من خسائر في عامي ١٧٥٦ ، ١٧٥٧ - ولكن كان لانتصارات فردريك في روساخ Rossgach وفي لوتن Leulhen أثرها في إنجلترا ، فعقدت اتفاقاً حديداً مع فردريك ملك بروسيا ؛ ذلك أن « بت » Pitt الذي هزأ من فردريك فيما قبل تبين عظمته وقيمة انتصاراته المتتابعة في القارة ، فاتفق على أن يعاون جيش هانوفر الذي تموله إنجلترا وقد عرف الدور الذي قام به هذا الجيش تحت قيادة دوق « برتزيك » Brunswick

ومهما يكن من أمر فإن الهدف الرئيسي لسياسة بت كان السيطرة على أمريكا ، ولذلك جعل إجراءاته كافة تتصل بتحقيق هذا الغرض . وقد أحرزت جيوشه انتصارات عظيمة في أمريكا ، فسقطت « لويزبرج » ، وتم الاستيلاء على قلعة

« دوكنين » Duquene الى أصبح يطلق عليها قلعة بتسبرج أى قلعة بت . وبلغت الانتصارات القمة فى عام ١٧٥٩ عندما سقطت « كوبيك » . وتلتها « منتريال » بعد عام ، ووضعت إنجلترا يدها على ممتلكات فرنسا فى جزر الهند الغربية . ولكن لم يلبث أن تغير الموقف بموت جورج الثانى فى أكتوبر ١٧٦٠ ، إذ كانت آراء جورج الثالث تختلف عن آراء « بت » من حيث أن الأول كان يرغب فى عقد صلح سريع مع فرنسا ليتفرغ لإنجاز مشاريعه فى الحكم ، وعلى ذلك عهد الملك جورج الثالث ووزيره « بيوت » Bute الذى بلغ منصب الوزارة فى ١٧٦١ بسعيان للحصول على الصلح مهما اقتضى أمر ذلك إنجلترا من جهود ومقات

كان « بت » يرى أن عقداً الصلح مع فرنسا فى هذه الآونة أمر مستحيل والحرب لا بد أن تستمر بين الطرفين وأن تمتد بعض الوقت بسبب ذلك الاتفاق الذى عقد بين فرنسا وأسبانيا ، وهو ما يعرف « بالاتفاق الأسرى الثالث » فى ١٧٦١ (١) .

كان « شوازول » باستمراره فى المفاوضات إنما يعمل على إخفاء نواياه الخاصة بالاستمرار فى الحرب حتى ينال صلحاً مشرفاً ، ولكن ولیم « بت » كان على علم بهما الاتفاق ، ولذلك كان يصبر على إعلان الحرب على أسبانيا حتى يقضى على مشاريع « شوازول » ، ونصع يده على الأسطول الأسباني المشحون بالذهب والفضة فى طريق عودته إلى أسبانيا من أمريكا ، ولكنه اضطر إلى الاستقالة لأن سائر الوزراء فيما عدا « تمبل » Temple لم يوافقوا على سياسته . وقد أبى أن يستمر فى منصبه فيؤاخذ به النهاية على نتائج السياسة التى لم يكن موافقاً عليها ، وكان فى ذلك بداية لظهور مبدأ المسئولية الوزارية التى لم تلبث أن نمت وتدعت جنباً إلى جنب مع المسئولية الجماعية

استمرت الحرب بعد استقالة « بت » ، وكان يتنبأ بذلك بعد أن فشلت مفاوضات الصلح فى هذه المرحلة ، واشتركت أسبانيا فى الحرب إلى جانب فرنسا كما تنبأ « بت » ، واستمرت الانتصارات التى كان قد خطط لها « بت » من قبل ، وكانت الحملة الموجهة ضد جزيرة « بل ليل » Belleisle ضربة قضت على العزة الفرنسية ، وكذلك استولت إنجلترا على هفانا فى جزر الهند الغربية وعلى « مانيلا » Manila فى جزر الهند

(١) انظر الاتفاق الأسرى الأول من ص ٢٦٣ - ٢٦٤ ، والخلاف من ص ٢٧٣ .  
( م ١٩ - تاريخ أوروبا الحديث )

الشرقية من أملاك أسبانيا . كما سقطت «مارتينيك» Martinique وغيرها من الجزر الأسبانية والفرنسية في يد إنجلترا .

وانتهت المفاوضات التي بدأتها إنجلترا بوساطة المبعوثين السرديليين في كل من لندن وباريس بما يعرف بصلح باريس في ١٠ فبراير ١٧٦٣ . وبعد ذلك مباشرة عقد صلح «هيوبرتسبرج» .

صلح باريس ١٧٦٣ (١):

إنجلترا : حصلت إنجلترا بمقتضاه على كندا Canada و «كيب بریتون» Cape Breton ، ولم تعد فرنسا تملك في تلك البقاع إلا بعض الحقوق لصيد الأسماك في مناطق معينة من سواحل نيوفونندلند، كما منحت جزيرتي «ميكولون» Miquelon و «سانت بيير» St. Pierre لايواء صيادى السمك في موسم الصيد . وكان لهذه المصايد أهمية استراتيجية واقتصادية . فن الناحية الإستراتيجية كانت مدرسة صالحة لتدريب رجال البحرية الإنجليزية نظرا لإشهار تلك البقاع بانتشار الضباب وسوء الأحوال الجوية والملاحية فيها .

وأما من الناحية الاقتصادية فقد كانت تجارة الأسماك مربحة للغاية ولاسيما أن المسيحيين في غربي أوروبا كانوا يقتصرون في غذائهم أيام الصيام على أكل الأسماك. احتفظت إنجلترا في منطقة جزر الهند الغربية بجزر «سانت فنسان» St. Vincent و «توباغو» Tobago و «دومينيكا» و «جرونادين» Grenadians

كما احتفظت إنجلترا بالسنغال واستردت جزيرة مينورقا . وتنازلت لها أسبانيا عن فلوريدا في نظير استعادة الأخيرة لها فانا و «مانيلا» من أسبانيا .

أما فرنسا : فاستردت «مارتينيك» Martinique و «جواديلوب» Guadeloupe واستردت جزيرة «جوريه» Gorée ، كما استردت بعض مراكزها التجارية في الهند .

(١) أنظر تفاصيل الصلح في المؤلف التالي .

Z.E. Rashed, The Peace of Paris 1763, Liverpool 1951.

لم يلق هذا الصلح ترحيباً من الرأى العام البريطانى ، ذلك لأنه كان فى نظره لا يتفق مع ما أحرزته إنجلترا من انتصارات عديدة فى ميادين الحرب المختلفة ، ولأنه أعاد إلى فرنسا كثيراً من مستعمراتها فى جزر الهند الغربية وكثيراً من أرباحها التجارية فى الهند ، مما جعلها تهدد إنجلترا من جديد ، وتصبح عدواً خطيراً لها . وكان الرأى العام الإنجليزى - كما رأى « بت » - متجهاً نحو حرمان فرنسا من مستعمراتها والقضاء عايتها كقوة بحرية أملاً فى أن يقضى عليها قضاء تاماً ، فلا تقوم لها قائمة أمام إنجلترا .

### أسبانيا وصلح باريس :

فقدت أسبانيا الكثير بدخولها هذه الحرب فى مرحلتها الأخيرة ضد إنجلترا ابرغم أنها كانت تنتهج سياسة حكيمة ، فهى قد فقدت فلوريدا وإن كانت قد عوضت عنها بجزء من لويزيانا بتنازل من فرنسا . ومع ذلك فإن جميع الأغراض التى عمل على تحقيقها ملكها شارل الثالث بدخوله تلك الحرب لم تتحقق ، فقاط النزاع الثلاث القائمة بين أسبانيا وإنجلترا سويت لصلح إنجلترا دون مراعاة لمصالح أسبانيا .

ويرى بعض النقاد رغم ذلك أن إنجلترا أخطأت حين ردت هافانا الغنية إلى أسبانيا ورضيت بفلوريدا القاحلة بدلاً عنها ، وإن كان الواقع أن إنجلترا لم تفقد بعملها هذا كثيراً فبحسبنا أن نذكر احتفاظها بالامتيازات التى حصلت عليها فى الاتجار مع أسبانيا ومستعمراتها منذ نهاية القرن ١٧ على الرغم من أن شارل الثالث ملك أسبانيا وقتئذ كان يعارض فى تجديد تلك الامتيازات بين الدولتين .





## الفصل السادس

### الملكية المستبدة المستترة في روسيا في القرن الثامن عشر

عرفت في عهد كل من بطرس الأكبر (١٦٨٢-١٧٢٥) وكاترين الثانية أو العظمى (١٧٦٢-١٧٩٦) بأنها كانت ملكية استبدادية ولكنها كانت في الوقت نفسه مستترة.

روسيا في عهد بطرس الأكبر ( ١٦٨٢ - ١٧٢٥ ) :

اختلفت حياة الشعب الروسى عن حياة شعوب أوروبا الغربية في سائر النواحي ، إذ كان لروسيا أسلوبها الخاص في الحياة وطريقتها في التفكير وظروفها التاريخية الخاصة . فبينما كان المعاصرون للويس الرابع عشر في كل من باريس ولندن يعمون بمناهج المجتمع الراقى ، كان الروس في عاصمتهم تغمرهم همجية الحياة المظلمة من جميع أقطارها . فلم تعرف عندهم حرية الفكر ، فتاريخ الروس منذ بداية القرن الرابع عشر حتى عهد بطرس الأكبر في السنوات الأخيرة من القرن السابع عشر كان عبارة عن سلسلة متصلة من الحروب ضد التتر ، الذين شنوا هجوماتهم على الروس من الشرق ، وضد هجمات السويديين والبولنديين فيما بعد . كان الصراع بين البولنديين والروس يقوم على أساس ديني قوى ، ذلك لأنه بينما كان البولنديون حماة للكاثوليكية في شرق أوروبا ، كان قباصة روسيا حماة للكنيسة الأرثوذكسية . وطلت روسيا كذلك بعيدة عن الحياة الأوروبية إلى أن ولى شئونها بطرس الأكبر فأدرك أن عرلة روسيا عن سائر دول أوروبا لا يمكن أن تستمر طويلا

لم يقبض بطرس الأكبر على زمام السلطة فعلا إلا في عام ١٦٨٩ عند ما خلع من سلطة أخته . وتحور من وصايتها عليه . كان يرى أن بلاده لكي تتقدم وتنهض يجب أن تقتبس عن العرب أشياء كثيرة . كما تبين له أن روسيا في حاجة إلى نوافذ ومخارج على عرب أوروبا والبحر الأسود لكي تحصل منها روسيا على شعاع المدنية والحضارة . على أن المنافذ المظلة على بحر البلطيق كانت تسيطر عليها السويد في الشمال بينما كانت المنافذ الجنوبية على البحر الأسود تسيطر عليها الدولة العثمانية .

لم يسبق بطرس الأكبر في سلوكه التقدمي وشجاعته وإقدامه واحد من أسلافه ،  
أخرم بركوب البحر والجراحة ومارس صناعة السفن وفنون النقش . وعرف بالشراسة  
في سلوكه وتنفيذ أغراضه حتى وصفه المؤرخون بأنه كان هوائيا متقلبا ، ومن أمثلة  
ذلك أنه سجن شقيقته وطرد زوجه الأولى ونبش قبر عمه ومثل برفاته . ولما خشى  
النكسة على سياسته النزاعة إلى الاقتباس من الغرب قتل ابنه الرجعي بعد أن أنزل به  
ضربا من التعذيب البشع . وكان بطرس في واقع الأمر يمثل في تناقضه خلاصة قومه  
وما عرفوا به من تناقض في العمل ومزاج حاد ، وشهوات حامية وألفة كريمة .

وقد وحه جهوده إلى بناء جيش قوى لا يقل في كفايته عن الجيش النمساوي ،  
وأسطول مثالي كالأسطول الهولندي ، وإنشاء إدارة حكومية على طراز ما عرف  
في السويد ، والواقع كان بطرس صاحب نزعة تقدمية لا يريد لشعبه أن يتخلف عن  
شعوب الغرب ، فدفعه إلى التقدم العلمي ، ونزع بحياته إلى الرخاء المادي الذي كان  
سائدا في الغرب وإن كان قد فاتته أن يخفف عن بؤس الفقراء ، وأن يحقق العدالة  
الاجتماعية كما ينبغي ، على أنه بعد جهود متصلة استغرقت أيام حياته قد وفق إلى رفع  
مستوى الحياة في روسيا .

ومن الوسائل التي اتخذها في تلك السبيل أنه سافر إلى غرب أوروبا في عام ١٦٩٧ .  
ليرى بنفسه ويعمل بيديه ويشارك في سائر أعمال الغربيين ، فكان ذلك حدثا فاصلا  
في تاريخ روسيا . تأثر بهذه الرحلة التي تبين فيها أن أهل الغرب على علم تام بغن  
الحياة الذي لم تكن تعرفه روسيا ، ولا تدرك شيئا من أسرارهم ومزاياهم . رأى أن  
الغربيين قادرين على بناء السفن وصناعة أدوات القتال وعناد الحرب . كما تبين خبرتهم  
في الشؤون الاقتصادية ، ووجوه الحياة التي ينبغي أن ينفق فيها المال ليجعل الحياة سهلة  
ميسرة يتلوق الناس مافيها من حياة ولذة . ومن الوسائل الأساسية التي أعانت الغربيين  
على إدراك ما أدركوا من متاع الحياة معرفتهم القراءة والكتابة . وليجعل السبيل بين  
روسيا وبلاد الغرب سهلة ميسرة شيد عاصمته المعروفة على بحر البلطيق وأسمائها  
« سان بطرسبورج » « لنینجراد الحالية » .

وجه بطرس ضرباته القوية نحو عناصر الحياة الاجتماعية في روسيا المتأصلة في  
تقاليدها ، فأمر بحلق الذقون وارتداء الزي الغربي ، ونهى عن عزلة النساء ، ونهى



الرهبان عن جمع الأموال بل انه ذهب إلى أبعد من هذا فألغى بطريركية موسكو ، ووضع شئون الكنيسة في يد مجلس ديني مقدس .

وبعد النجاح في هذه الثورة ( ١٧٢١ ) سهل عليه نسبياً إنشاء المدارس وإصلاح العملة والتقويم ، وإنشاء مجلس للشيوخ ، ووضع نظام الوظائف العامة وبناء الأسطول على أنه لم يكن يملك المال اللازم لينظم الخدمات الاجتماعية وإنشاء المشروعات التربوية وتكوين هيئات التدريس التي كان يرنو إليها . وبالرغم من ذلك استطاع بطرس أن يقدم لشعبه كثيراً من الخدمات القيمة عندما قدم له المقومات الرئيسية الثلاثة للدولة الحديثة : الجيش والأسطول والإدارة المدنية ، وإليه يرجع الفضل في إصدار أول حريدة روسية وإنشاء أول دار للاستشفاء في بلاده وأول متحف روسي .

وهكذا استطاعت روسيا بفضل جهود بطرس الأكبر مؤسس روسيا الحديثة أن تدخل ضمن نظام أوروبا السياسي ، حيث أخذت تحتل مركزاً لا يختلف كثيراً عن أي دولة أوروبية أخرى وإن كانت روسيا قد احتفظت في الوقت ذاته بمصالحها الخاصة البعيدة .

#### بطرس والعثمانيون :

كان بطرس يطمع في ثغر « آزوف » Azov التركي الحصين عند مصب نهر الدون الذي كان يمكن الاتصال به والوصول إليه بالطريق المائي ابتداء من موسكو . وقد ظفرت قواته أمام أسوار هذا الحصن في عام ١٦٩٥ بأول انتصار لها على القوات التركية ، فمكنها ذلك من الاستيلاء على « آزوف » في ١٦٩٦ .

#### بطرس والسويديون :

أما مشاكل البحر الأسود فكانت صعبة تتطلب من بطرس البحث عن حليف وقد حاب الغرب باحثاً عنه ، ولكنه فشل في العثور عليه . فآثر أن يبدأ ببحر البلطيق أولاً ثم البحر الأسود ، فأسس مدينة سانت بطرسبرج . ومنذ الضربة التي وجهها إلى السويد في بلطاوه ١٧٠٩ حتى مماته في ١٧٢٥ ظل بطرس في حرب تكاد تكون متصلة ضد السويد والأتراك والفرس . وقد نجح في هزيمة السويديين هزيمة فادحة بعد مقتل مليكهم شارل الثاني عشر في عام ١٧١٨ ، مما اضطر السويديين إلى عقد معاهدة « نيسناد » مع بطرس الأكبر في ١٧٢١ ، تنازلت بمقتضاها السويد عن

« إنجلترا ، Ingria و « كاريليا ، Carelia و « ليتوانيا ، Lithuania و « استونيا ، Estonia .

### بطرس وبولنده :

لم يستطع أن ينال أى أملاك من بولندا ولكنه ساهم في مساعدة انتخاب أغسطس الثاني السكسوني لعرش بولندا فأحبط بذلك مشاريع لويس الخامس عشر الذى كان يرغب في تنصيب أحد ذوى قرياه على عرش بولندا ( الأمير كوندليه ) .

وفي عام ١٧٢٥ مات بطرس الأكبر بعد أن ضم إلى روسيا أعاليه جديدة كما أنشأ عاصمة جديدة في « سان بطرسبرج » St Petersburg وبعد أن أنجز تلك الأعمال العظيمة في سبيل تحضير شعبه وإدخال للتنمية الأوروبية في روسيا . وقد أنشأ جيشا نموذجيا على النمط الأوروبي ، وبدأ في إنشاء أسطول ، وأدخل إلى بلاده آراء جديدة وملابس جديدة ، كما استعان ببعض الأجانب اللين استلحاقهم لإنجاز كل تلك الأمور .

### خلفاء بطرس

لايمنا من خلفاء بطرس الأكبر سوى كاترين الثانية التي تعتبر بحق متممة للسياسة التي بدأها بطرس . ومع ذلك فإننا نذكر لقبه في عهد كاترين الأولى والتي حكمت من ١٧٢٥ إلى ١٧٢٧ لم يحدث ما يستحق الذكر لقصر عهدها ، ولكنها اتخذت الخطوات الأولى لتكوين التحالف بين روسيا والنمسا وذلك عندما تعهدت لشارل السادس بضم عرش الامبراطورية لابنته ماريا تريزا من بعده .

وكانت القيصرية آن Anno ١٧٣٠ - ١٧٤٠ أول من حاولت فتح النافذة البولندية ، وقد سنحت لها الفرصة عند موت أغسطس الثاني ملك بولندا . ولم تكن سياستها تهدف إلى تقسيم بولندا كما اقترح أغسطس ملكها ، ولكنها كانت تهدف إلى فرض سيادتها تدريجيا على بولندا كلها حتى لا يشارك روسيا في نفوذها على بولندا أى دولة أخرى .

وقد كانت بولندا في تلك الفترة في حالة ضعف شديد لا تمكنها من الدفاع عن نفسها . كانت تفتقر إلى جانب الحلود الطبيعية الشعور الوطني المتحمس للوحدة ، وكان يسكنها خليط من الأجناس غير البولندية ، فهناك الروس والتشيك والألمان .

وكانوا يعاملون من أسيادهم البولنديين معاملة العبيد المضطهدين . ثم إن أحوال بولندا السياسية والاجتماعية كانت تدعو إلى تفكيكها ، كان البولنديون منقسمين إلى طفتين ، النبلاء والفلاحين ، وكان النبلاء يتمتعون بسلطة واسعة على الفلاحين فيتحكمون في أرزاقهم بل وأرواحهم . وكانت بولندا ملكية انتخابية ، فالنبلاء هم الذين ينتخبون الملك مما أتاح لهم العرص العديدة عند اعتلاء كل ملك العرش للحصول على امتيازات جديدة . كان مجلس الدايت - ويتكون من النبلاء - المجلس الوحيد الخاص بשרيع القوانين . ولكنه كان ضعيفاً إذ كان يشترط لإصدار أى قانون وإقراره أن يوافق عليه الأعضاء بالإجماع وقد أدى ذلك إلى عرقلة وفشل سائر مشاريع الإصلاح .

وعند موت أغسطس الثانى فى ١٧٣٣ عملت القيصرية « آن » على بسط سيطرتها على بولندا ؛ وكان زعيمها « بوتوكى » Potocki من المؤيدين لستانيسلاس . ولكن الجيوش الروسية اضطرت « ستانيسلاس » Stanislas إلى الفرار إلى دانزج ، كما اضطرت بعد ذلك إلى التنازل عن عرش بولندا فى عام ١٧٣٦ وقد حكم أغسطس الثالث مدة ثلاثين عاما وظلت خلالها بولندا شبه تابعة للروسيا .

### كاترين العظمى أو الثانية ١٧٦٢ - ١٧٩٦ :

على الرغم من جنسيتها الألمانية أثبتت كاترين أنها أكثر حكام روسيا وطنية وغيره عليها . لم تكن فى بادىء الأمر تشارك زوجها فى ولعه بالألمان ، ولكنها بعد مقتله لم تلب أن تبينت حكمة التحالف مع فردريك لما كان بينهما من أهداف مشتركة فيما يتعلق بمستقبل بولندا على الأقل .

لم يهتم أغسطس الثالث كثيراً بمستقبل بولندا خلال الثلاثين عاماً فتركها يجرورها التيار . على أن حكم بولندا الفعلى كان فى يد أسرة وطنية يهملها صالح بولندا وهى أسرة « تزارتورسكيس » Czartoryskis . أرادت هذه الأسرة أن تقوم بإصلاحات فى بولندا منها إلغاء حق الفيتو المطلق ؛ على أن هذه المحاولات قد عملت على إحباطها أسرة أخرى أسرة « بوتوكى » Potockis التى أرادت أن تسيطر على الملكية عن طريق مجلس النبلاء ، وقد التمت الأسرة الأولى مساعدة روسيا قبل موت أغسطس الثالث فى ١٧٦٣ ، على أن روسيا لم يكن يهملها إصلاح شأن

بولندا ، وهنا اتفقت كل من روسيا وبروسيا في رغبتهما في الإبقاء على بولندا ضعيفة ، فاتفقتا في عام ١٧٦٤ على أن توليا « ستانيسلاس » ملكا على بولندا على ألا يقوم بأى محاولات لإصلاح شأن بولندا . على أهب الحرب الأهلية لم تلت أن وقعت بسبب الخلافات الدينية ، مما جعل فرنسا تستفيد من الموقف . وفي عام ١٧٦٨ اضطرت تركيا أن تعلن الحرب على كاترين ، وهكذا ارتبط مصير تركيا بمصير بولندا . نجحت القوات الروسية في السيطرة على ولايتي الدانوب . « ملدافيا » و « ولاشيا » ، وقد بدا وكأن الحرب ستنتهي بهزيمة تركيا ، عندما قررت تركيا أن تلجأ إلى مساعدة جوزيف الثاني امبراطور النمسا الذى كان يشترك عندئذ في الحكم مع أمه على امبراطورية الهبسبورج .

كان فردريك الثاني بعد صلح « هوبرنسبرج » Hubertsburg يرى ضرورة المحافظة على السلام ، لأن الحرب بين روسيا والنمسا كانت في رأيه تؤدي إلى القضاء على مشروعاته لأنه كان يؤمن في حاجة إلى السلام لإصلاح شئون بلاده الداخلية . وكانت روسيا ترى كذلك ضرورة الإبقاء على السلام للملك لانعجب إذا اتفقت سياستهما في هذا الشأن وفيما يتعلق ببولندا مما جعلهما تعقدان اتعاقا عام ١٧٦٤ ، وتؤيدان « ستانيسلاس » .

وعندما ظهرت تركيا في النضال رأى « كوتنز » لكى يحمى النمسا من الهجوم الروسى على الدانوب أن يقترح عقد محالفة مع الترك وفردريك الثانى ، ولكنه ووجه بمعارضة ماريا تريزا التى كانت تكن لفردريك أشد البغض ، لذلك رأى « كوتنز » أن يبدأ قبل كاترين وفردريك ، فأرسل القوات النمساوية في ١٧٧٠ لاحتلال « زيبس » Zips على حدود بولندا الجنوبية . وكانت للنمسا أطماعها فيها ، وترتب على ذلك أن فردريك احتل « إلبنج » Elbing في بروسيا البولندية . وهكذا وجهت كاترين بالأمر الواقع وهو أن كلا حليهما قد استوليا على أجزاء من بولندا ، فوافقت على فكرة تقسيم بولندا ، وضمت كل من روسيا والنمسا جزءا من بولندا . لم يأت حادث تقسيم بولندا أى معارضة أدبية ، فأنجلترا كانت مشغولة بمستعمراتها الأمريكية وبالمشاحنات الداخلية ، وفرنسا كانت تفتقر إلى المال والرجال ، بينما فقدت بولندا ٤,٠٠٠,٠٠٠ من سكانها و ٢٥,٠٠٠ ميل مربع من الأرض ولقد لعبت بروسيا الدور الرئيسى في هذا التقسيم . أما كاترين — وقد زالت غناؤها من حزب أوروبية — فركزت جهودها نحو حرب الأتراك التى بدأت قبل ذلك ببضع سنوات

نتيجة للاضطرابات في بولندا . وكان هدف كاترين أن تجعل من البحر الأسود بحيرة روسية . وذلك عن طريق إثارة اليونانيين ضد الحكام العثمانيين ، وأن تستولى على سواحل بحر « قزوين » . وكانت الحرب في صالح الروس . فحطم الأسطول الروسي الأسطول التركي في « تشيسمي » Tchesmé ، كما استولى الروس على شبه جزيرة القرم .

لجأ السلطان إلى النمسا، فعقدت تركيا مع النمسا معاهدة ، لم تلت النمسا أن نقضتها فاضطرت تركيا إلى الموافقة على عقد معاهدة « كوتشوك كيناردجي » Kutchuk Kamardji ١٧٧٤ مع روسيا ، واضطر بمقتضاها السلطان إلى التنازل عن الأراضي الواقعة على الساحل الشمالي للبحر الأسود إلى الشرق من نهر « آزوف » مما جعل حدود روسيا تصل إلى بلاد القوقاز . كما أصبح للتجار الروس حق الاتجار في حوض البحر الأسود ، ومحت روسيا حق حماية الرعايا المسيحيين في الامبراطورية العثمانية ، كما تم الاتفاق على أن يمنع تزار القرم حريتهم تمهيدا لضمها بعد ذلك إلى روسيا . وقدم ذلك بعد عشر سنوات أى في عام ١٧٨٤ . ولله المعاهدات أهميتها العظمى بالنسبة للروسيا التي أخذت عندئذ تتطلع إلى القسطنطينية وتكوين امبراطورية يونانية تقع تحت سيطرة روسيا .

أما أهم أعمال كاترين الثانية في الداخل فتعتبر كاترين العظمى خليفة بطرس الأكبر بحق من حيث أنها نهجت منهجه السياسى في الخارج والداخل . لم تلق محاولة بطرس الأكبر في نقل مظاهر حضارة الغرب إلى روسيا ترحيباً ولا رضى من الشعب الروسى ، فلم يكده عهده ينتهى بالموت حتى ارتد الروس إلى سابق حياتهم المعروفة . ولم يبق من آثاره في الإصلاح إلا ما يتعلق منها بالجيش والكنيسة . وقد نهجت كاترين العظمى نهج بطرس الأكبر فيما يتعلق بتبعية الكنيسة للدولة واقتضاء تماماً على البطيركية وهكذا أصبحت الكنيسة مصلحة حكومية . وقد قطعت كاترين شوطاً كبيراً في هذا المجال عندما سلبت الكنيسة الأراضي التي كانت تابعة لها في عام ١٧٦٤ . وقد اتعت سائر العقوبات لاقضاء على كل من يخالف ذلك ومنها النفى إلى سيبيريا .

وكان تشجيع بطرس الأكبر للصناعة والتجارة واستقدام العمال المهرة من الغرب قد قوبل بمعارضة شديدة من جانب النبلاء . ولذلك أهملت كثير من هذه المحاولات والجهود بعد مماته . لقد اعتمد بطرس على النبلاء في تنفيذ هذه السياسة ، ولكن خلفاء بطرس أساءوا فهم أغراضه الحميدة ، فاعتمدوا اعتماداً أساسياً على الأجانب .

- ٣٢٠ -

أرادت كاترين أن تسيطر على داخل روسيا كما سيطرت على السياسة الخارجية .  
فقسمت روسيا إلى أربعة وأربعين قسماً إدارياً بدلاً من الأقسام الثمانية التي أوجدها  
بطرس الأكبر ، وعينت عليها نبلاء إختارهم ومنحهم نفوذاً عظيماً ، ولكنها قفست  
على كل محاولة للحكم الذاتي المحلي .

لم تقتصر إصلاحات كاترين على ذلك بل تعدتها إلى إصلاحات شديدة أخرى  
منها أنها كونت لجنة خاصة في عام ١٧٦٦ لوضع قوانين البلاد ، إذ لم تكن هناك  
قوانين موحدة . على أن أعمال اللجنة توقفت بسبب الحرب التركية .

كما بذلت كاترين الثانية جهوداً كبيرة لرواج التجارة وتحسين وسائل الاتصال  
في روسيا ، فقضت على الاحتكار بأنواعه ، ومنحت أنواع التجارة المختلفة الحرية .  
قوبلت محاولات كاترين الثانية لإلغاء الرق بمقاومة شديدة من النبلاء ، فقد  
كان الفلاحون يعتبرون ملكاً للنبلاء كالأرض وما عليها من حيوان . ولم يقتصر  
الأمر على فشلها في هذا السبيل بل إن حالتهم قد ازدادت سوءاً في عهدها . فعندما  
منحت القيصرة النبلاء المزارع والأراضي فقد الفلاحون الموجودون بها حريتهم  
فأصبحوا من الزراع الأرقاء وهنا لم تستطع القيصرة شيئاً أمام جبروت النبلاء  
ونفوذهم .

وحكمت كاترين الثانية مدة ٣٤ عاماً ( ١٧٦٢ - ١٧٩٦ ) روسيا ، أثبتت  
خلالها عظمتها ومآثرها على روسيا . وإن سر عظمها ونجاحها يرجع إلى وطنيتها  
القوية وغيبتها الشديدة على صالح بلادها روسيا . لقد احتقرت زوجها بطرس  
الثالث لضعفه . وإذا كانت لم تشترك في مقتله فقد اشتركت في أمر تنصيبها قيصرة  
على روسيا من بعده . كما أنها لم تثق في ابنها بول الذي حكم روسيا بعدها من  
١٧٩٦ - ١٨٠٠ ، ثم إنها لم تسمح لسكل من « جريجوري أورلوف »  
Gregori Orloff و « بوتنكين » Potemkin أن يؤثرأ على سياستها . قامت بدور  
هام في تحضير بلادها وإخراجها من عزلتها وكانت ذواقة للأدب . أيدت الحركة  
الفلسفية ، وإذا كانت قد سلبت الكنيسة لاثروذكسية أملاكها فإنها لم تتعرض  
لمعتقداتها احتراماً لشعور رعاياها الديني .

## الفصل السابع

### الملكية المستبدة المستنيرة في بروسيا

عند بداية القرن الثامن عشر في عام ١٧١٥ لم يكن هنالك دولة قومية موحدة تدعى ألمانيا ، بل كانت ألمانيا تتكون عندئذ من حوالي ٣٦٥ ولاية ، تختلف بعضها عن بعض في العقيدة الدينية ، والأهداف السياسية وأسلوب الحكم ، وأما التبعية الرسمية فكانت للإمبراطورية الرومانية المقدسة . على أن ألمانيا وإن تعددت إماراتها كما ذكرنا فإنها لم تكن تشترك جميعاً في انتحاح الإمبراطور حاشا قلة منها مثل براندنبرج Brandenburg وبافاريا Bavaria ، و « سكسونيا » Saxony و « هانوفر » Hanover وإقليم البلاتين . ولم تكن الرغبة عندئذ في الوحدة واضحة على الرغم من أن متحجي بافاريا وسكسونيا والبلاتين كانوا ميالين للوقوف إلى جانب الإمبراطور بينما كانت هانوفر وبراندنبرج تميل إلى الاستقلال بأمورها ، بل وفي بعض الأحيان إلى معارضة الإمبراطور في سياسته ، وقد أصبح للامارتين الانتخابيتين منذ عهد قريب شأن أعظم فقد غدا منصب كل منها ملكاً ، فـ جورج منتخب هانوفر أصبح في عام ١٧١٤ جورج الأول ملك إنجلترا ، وفردريك ولیم منتخب براندنبرج أصبح ملكاً على بروسيا ، وقد كان كلاهما ينشد تحقيق مكانة ممتازة لإمارته الانتخابية في ألمانيا .

#### نشأة بروسيا :

كانت ولاية براندنبرج موقفة تمام التوفيق في حكامها والظروف التي أحاطت بها . فإن هذه المقاطعة الرملية الجرداء الواقعة بين نهري الإلب والأوهر قد آلت إلى أسرة « مرهنزلرن » Hohenzollern في عام ١٤١٧ على وجه التحديد أي عند مطلع القرن الخامس عشر . وعندما وقع الصراع الديني في ألمانيا ممثلاً في حرب الثلاثين عاما . وغدت النتائج التي ستترتب على هذه الحرب على جانب عظيم من الأهمية ، إذ كان عتقها يتقرر القضاء على البروتستنتية أو الاعتراف بها إلى

جانب الكاثوليكية . هناك احتضنت أسرة « هرهنزلرن » القضية البروتستنتية ،  
وتحت زعامة المنتخب « فردريك وليم » المعروف بالمنتخب الأعظم ( ١٦٤٠ -  
١٦٨٨ ) بدأت تعمل على تزعم الحركة البروتستنتية في شمال ألمانيا . وفي مقابل  
خدماته حصل على بوميرانيا الشرقية ومقاطعتي « مجدبرج » Magdeburg و « هلبشتاد »  
Halberstadt ولكن المنتخب الأعظم أسهم بأكثر من انقاذ البروتستنتية في ألمانيا علما  
جعل في النهاية من مملكته دولة جديدة قوية . وكان في حاجة ماسة إلى المال وتعمير  
خزائن الدولة به ، وتمكن من تحقيق ذلك عن طريق إعادة تنظيم ولاياته المختلفة ،  
ففرض ضريبة عامة على الأرض وأخرى على صناعة الجعة ، ضمنت له الوسيلة  
لإنشاء قوة عسكرية لا يستهان بها ، وقد وضع له منذ البداية أنه لا يمكن بناء دولته  
دون الاستعانة بمثل هذا الجيش ، ونجح في تحقيق هذا الهدف . فبلغ جيش بروسيا  
عند مماته ٣٠,٠٠٠ مقاتل بعد أن كان تعداده لا يبعدو بضع مئات عند بداية عهده  
سنة ١٦٤٠ . وقد كان الجيش أهم وسيلة لتوحيد أملاكه ، وأصبح المنتخب  
الأعظم القائد المنظم لهذه القوة . وقد اختار الضباط من طبقة النبلاء ، وتبين له  
أن بروسيا يجب أن تهتم بالعسكرية والروح الحربية وأن تتأثر سائر مرافق الدولة  
بهذه الروح من شعور بالواجب والنظام والعمل والولاء .

ولم تقتصر إصلاحات المنتخب الأعظم على الجيش أو تنظيم الإدارة المدنية بل  
اهتم بكل ما يمت للمصالح العام بصلة . فمنى عناية خاصة بالتجارة الداخلية والخارجية  
وتأجيل الممتلكات بالسكان عن طريق تشجيع الأجانب للإقامة في البلاد ، كل هذه  
الأمور اضطلع بها بنفسه ، وشجع الجنسيات المختلفة على إقامة مساكن لهم على الأرض  
البروسية ، من سويسريين وفرنسيين وهولنديين وألمان ، كما وجه عنايته للأعمال  
العامة من وسائل الصرف وحفر القنوات واستصلاح الأراضي البور ، وقد بذل  
جهداً جبارة للنهوض بكل هذه الأعباء ، وأقام أساس عظمته وشهرته على أساس  
سياسة التسامح الديني التي اتبعها ولم يكن قد اعترف بها الحكام المعاصرون له بعد .  
فرحبت بروسيا بل وفتحت أبوابها للمضطهدين من الهيجونوت ممن فروا من فرنسا  
أو طردوا منها عقب إلغاء مرسوم نانت عام ١٦٨٥ ، واللوثريين الذين اضطهتوا  
في جهات مختلفة من ألمانيا ، واليهود وغيرهم . لذلك لم يكن عبثاً ما قاله  
فردريك العظيم عندما زار قبره « إن هذا الرجل قد عمل - أشياء عظيمة » .



أما خليفته فردريك الأول ١٦٨٨ - ١٧١٣ فأهمية عهده قاصرة على أنه نال لقب ملك مكافأة له على مساعدته للإمبراطور في الوراثة الأسبانية في عام ١٧٠٠ . وعرف بتشجيعه للفنون والآداب وساعد على تقدم بروسيا الفكرى عن طريق تأسيس الكليات الملكية وجامعة « هاله » Halle . وفي عهد فردريك الأول أصبحت برلين أئينا الشمال ، بينما عدت في عهد وليم الأول اسبرطة الشمال ، إذ عمت الروح العسكرية حكومتها كلها . فازدهرت كل الصناعات التى تستخدم أغراض الجيش .

أما ملك بروسيا الثانى « فردريك وليم الأول » ١٧١٣ - ١٧٤٠ فقد استطاع خلال السبعة وعشرين عاما التى حكم فيها بروسيا أن يتم ما قام به « المنتخب الأعظم » واشتدت وطأة الحرب الشمالية عند اعتلائه للعرش في عام ١٧١٣ . وقد أحاط الأعداء بملك السويد شارل الثانى عشر من كل جانب . فانضم فردريك وليم الأول إلى بطرس الأكبر قيصر روسيا . وقد كانت بروسيا واضحة . وإذا كانت روسيا تطمع في ممالك البaltic التابعة « لليتوانيا » Lithuania ومنتخب هانوفر بطمع في ضم ذوقية « بريمن » Bremen إلى إمارته الانتحائية ، فإن الأراضي بين « مكلنبرج » Mecklenburg و « ليتوانيا » Lithuania كانت بروسيا تهدف إلى السيطرة عليها ، وقد حصل فردريك وليم بالفعل نتيجة لتدخله في حرب الشمال على الجزء الأكبر من بوميرانيا الغربية بما في ذلك مدينة « ستين » Stettin الهامة . وهكذا حقق أطماعه الخاصة بالحصول على منفذ على شاطئ بحر البلطيق .

وحاول فردريك وليم الأول الحصول على دوقينى Julich و Berg ، وكان عليه لكي يحقق ذلك أن يستعين بالإمبراطور لأن الدوقين كانا داخل حدود الاتحاد الألماني ، وفي سبيل ذلك اعترف بالضياع الوراثى النمساوى ولكنه لم يصل إلى تحقيق ذلك لأن شارل السادس الذى وعد بملك لم ينجز وعده ، وكذلك على الرغم من اشتراكه في حرب الوراثة البولندية لتأييد أغسطس دوق سكسونيا ملكا على بولندا كما كان يرغب الإمبراطور فإنه لم يحصل في النهاية على الدوقين . وقد توقع شارل السادس أن ابن فردريك وليم الأول سينتقم لأبيه بسبب مالهقه من نخبة أمل لموته قبل أن يحقق هلم الحلم . وقد كانت السنوات العشرين التالية سلسلة من الانتقامات التى رعى بها فردريك الثانى الإمبراطورية .

وإذا كان الملك فردريك وليم لم ينل النجاح الذي كان يأمله في سياسته الخارجية ، فإن عهده شهد فترة على جانب عظيم من الأهمية في ترقية دعائم المملكة البروسية . ويقال إنه كان أعظم ملك عرفته بروسيا فيما يتعلق بسياسته الداخلية . وقد كان الجيش أهم المرافق التي عني بها ، شأنه في ذلك شأن حرسه المنتخب الأعظم ، فازدهرت جميع الصناعات التي تخدم أغراض الجيوش ، وأقيمت في برلين مصانع البارود ومسالك المدافع ومصانع الساق . كما كرس للجيش جزءاً ضخماً من الميراثية يبلغ خمسة أسباعها ، فاستطاع بذلك أن يزود جيشه بكبير من الرجال ، وأن ينظمه نظاماً دقيقاً ويدربه أحسن تدريب ، مما جعله يعوق يومئذ ما عداه من الحيوش الأوروبية . وقد بلغ عدد جنوده عند مماته ٨٠,٠٠٠ مقاتل .

وفي بطير الإبقاء على مثل هذا الجيش الضخم ، المعد أحسن اعداد في دولة قاحلة جرداء غير خصيبة قليلة الموارد ، كان على الملك أن يتبع سياسة اقتصاد صارمة .

ولم يأل فردريك وليم جهداً في اتناع مثل هذه السياسة . وإذا كان وليم قد أبى على ما كان للبلاء من امتيازات اقطاعية فيما عدا الإعفاء من الضرائب كما كان الحال في فرنسا فإنه قد حتم عليهم العمل ، فاستخدم منهم طبقة الصباط في جيشه ، كما حتم على أبناء النبلاء أن يتلقوا دراسة حربية خاصة ، وأن يكرسوا جهودهم وحياتهم لخدمة الجيش .

وقد أصبحت الحاجيات العسكرية تتسلط على سياسة الدولة في مرافقها المختلفة ، دون استثناء الإدارة المدنية . وقد تبين للملك بروسيا — كما تبين لغيره من الملوك المستعيرين — أهمية تركيز السلطة في يد الملك . فاجعل الإدارات الإقليمية جميعاً تابعة له تعية مباشرة وقام المديرون الخمسة بتنظيم شئون المالية والأراضي « والعدل ، والحرب والسياسة الخارجية ، كما أنشأ في كل مقاطعة إدارتين مسئولتين عن مراقبة كل شيء في مقاطعتيها ، وعن تعيين جباة الضرائب فيها . وكانت كل هذه الإدارات تنفع الملك تعية مباشرة .

وعلى الرغم من استئداد ذلك الملك فإنه كان مستنيراً ، إذ تبين له أن بروسيا لا يمكنها أن تصل إلى مصاف الدول العظمى إلا إذا اهتم كذلك بالمصالح القومية للبلاد

للك شمع التجارة والصناعة ، فرحب بالعمالين في صناعة الأقمشة وشجعهم على الإقامة ببروسيا . وأنشأ تجارة الأصواف ، وحسن الزراعة وأثبت أنه رجل عظيم . وفي النهاية سار كذلك على هدى المنتخب الأعظم في تسامحه الديني عند ما آوى البروتستانت الذين اضطهروا في « سالزبرج » Salsburg ، وطردها من بلادهم عام ١٧٣١ : ومات في عام ١٧٤٠ قبل وفاة الامبراطور شارل السادس بأربعة أشهر .



## فردريك الثانى

( ١٧٤٠ - ١٧٨٦ )

أما ابنه فردريك الثانى فإنه لم يكن شيئا يذكر عندما تولى الحكم فى بروسيا عام ١٧٤٠ ، ولكنه سيصبح فيما بعد شخصية عظيمة فى تاريخ أوروبا ، ويثبت مقدرته سيامية وحربية فائقة . كان أبوه شديداً تقسوة عليه ، أذاقه كل ألوانها من سجن وشدة .

وقد حاول مرة أن يهرب من قصر أبيه فأعاده إليه صاعراً ، وكلفه ذلك مشاهدة إعدام صديقه الذى تأمر معه على الحرب ، ولولا تدخل السفير الإنجيزى للقى فردريك عندئذ نفس المصير وقد شابه فردريك أباه من ناحية أن العاطفة لم تؤثر كثيراً فى أعمالهما وتصرفاتهما . ومع ذلك فقد كان فردريك يحب كل ما يكرهه أبوه (الكتب ، الموسيقى ، الفلسفة ) . ولكن معاملة أبيه القاسية أثرت تأثيراً ملموساً فى نفسه ، فجعلته يفقد فى النهاية كثيراً من إحساسه المرهف ، ومع ذلك أخذ عن والده بعض المزايا التى ستجعل منه رجلاً عظيماً ، كالنظام ، والإخلاص فى تأدية الواجب ، والوطنية التى لا ترعزها المزيمة ولا المصائب . وقد قدر أن بروسيا كانت فى حاجة ماسة إلى الوحدة التى لا يمكن أن تتم إلا بتركيز كل السلطة فى يده عن طريق الاحتفاظ بجيش قوى مقدم . كان فردريك الثانى يعصر على أن يكون مطاعاً طاعة عمياء ، وأن يكون مستبداً كل الاستبداد ولكن على خلاف ما كان لويس الرابع عشر ، لم يكن يعمل لخدمة أغراضه الشخصية وإنما لخدمة الدولة . فكان أول خادماً للدولة كما كان البروسيون جميعاً على اختلاف طبقاتهم من النبلاء إلى عبيد الأرض خداماً للدولة يطيعون الملك طاعة عمياء .

وكان له فضل عظيم فى تقدم الجيش البروسى فى نظامه وخطته . فنظم فرق المشاة تنظيمياً لم تر له أوروبا عندئذ نظيراً ، كما أشأ أحسن نظام للمرسان فى العالم .

كان محباً للأدب والعلم . ومع ذلك كان ضيق الألق فى هذا المجال بمعنى أنه أثناء وجود « فولتير » كان لا يعبر غيره اهتماماً ، ويعتبره الأديب الوحيد ، فلم يقدر أدب « جوته » Goethe الشاب الذى كان من أشد المعجبين به ، ونظر إليه نظرة احتقار . كما أنه لم يهتم كثيراً بتقديم العلوم والرياضيات .

أعمال فردريك الداخلية بعد الحرب :

الجيش :

لم يصرف فردريك على الإطلاق عن الاهتمام بمرافقة الدولة الداخلية ، فنجده في أحلك ساعات الحرب يدرس الخطط لإصلاح أحوال بروشيا الداخلية ، فلم يستطع أن يصبر على القيام بتلك الإصلاحات بعد عقد الصلح ، وإنما أخذ بهم بوضع الخطط لإصلاح حالة الجيش بينما كان المفاوضون البروسيون يقومون بمفاوضات صلح « هوبرتسبرج » Hubertusburg ، فخلص أولا من العناصر التي أدخلها الجيش اضطراراً أثناء الحرب ، وفي عام ١٧٦٣ عين مفتشين ومراقبين من الهرسان والمشاة في كل الأقاليم ، وحوّلهم سلطات واسعة لمراقبة الضباط ، وتصرفاتهم وأعمالهم في الأقاليم ، وقد أثار ذلك فوق الجيش إثارة عظيمة ، لأنهم كانوا يتمتعون بالاستقلال التام في نظير أن ترضى الملك نتائج أعمالهم ، وقد أحفظ هذه الفرق ورؤسائها أن تعين هؤلاء المراقبين لم يكن قائماً على تفوقهم عليهم في المنصب أو المكانة ، وإنما كان ذلك وفق أهواء الملك ، فكان قائد الفرقة في بعض الأحيان مرءوساً لأحد أتباعه أو من هم دونه مرتبة . وعلى الرغم من ذلك التدمير وإن سلطة الملك الاستبدادية جعلته يسيطر على الموقف بسرعة ، وقد صمم على أن يبقى على جيسر مكون من ١٥٠.٠٠٠ مقاتل ، مدربين أحسن لتدريب ، وأن يثقف ضباطه أعلى ثقافة ، كان يستعرض فرق هذا الجيش سنوياً ، كما كان يقسم الاستحقاقات وتخازن الذخيرة بينها في خزائن الدولة بدرجة تسمح لبروسيا بالدخول في أية لحظة في معارك ثمان في وقت واحد . وفي نهاية حكمه عندما كان الدخل السنوي للدولة لا يصل إلى ٢٢.٠٠٠.٠٠٠ ر. و. تاليرات و Thalers ترك في خزائن الدولة ٥١.٠٠٠.٠٠٠ أي خمسة أمثال ما ورث عن أبيه عندما آل إليه حكم بروسيا .

إصلاح أحوال البلاد وما اتبها من مصائب من جراء الحرب :

. كانت الخسارة التي نزلت بالأرواح والبلاد في بروشيا خسارة فادحة ، وإن كان من الصعب تخديدها ، لذلك عمل فردريك على تعويض رعاياه عما نزل بهم من خسائر ، فوزع الصدقات والتبرعات على الأفراد . وقد اضطرت كثير من المدن أن تدفع ضريبة للعدو لتجنب هجمات النهب ، فبرلين مثلاً دفعت مليونين

من التالرات Thalers ، فأعيدت إليها . ولكن « هالة » Halle لم تسترد إلا حوالى سدس ما طالبت به .

وكان فردريك يرى أن على الدولة أن تبذل جهدها فى العمل على أن يستأنف النبلاء والفلاحون القيام بواجباتهم العادية ، فوزعت الخيل الزائدة عن حاجة الجيش وقد بلغ عددها ٣٥,٠٠٠ ، كما وزعت كثير من الأقوات على أشد الناس حاجة إليها ، ووزعت الحكومة على الفلاحين الأخشاب اللازمة لإعادة بناء مساكنهم ، وأمدتهم ببعض المال لإقامتها ، وأعفوا من دفع ضريبة الإيراد مدة من الزمن ، وأمدتهم الحكومة كذلك بالثيران والأبقار والأغنام والغذاء والملبور بالجان . وقد استطاعت الدولة أن تعوض نفسها عن ذلك فيما بعد بما حصلت عليه من إيرادات وضرائب لم تلبث أن أو دعيتها الخزائن الملكية . كما أنها جوزيت على هذه السياسة بالازدياد السريع المضطرد فى عدد السكان :

#### قصر بوتسدام : Potsdam

وبينما كان الملك منهكاً فى التحقيف من الغالية العظمى من رعاياه مما أصابهم من مكبات الحرب سمح بالقيام بعمل يدل على الإسراف والتبذير آثار الانقصاد والشائعات المتنوعة ، وذلك لأنه لم يتصرف بحجة للمحفظة كالمالوك الآخرين ، ولكنه عقب توقيع الصباح بثلاثة أشهر بدأ فى بناء قصر « بوتسدام » الشهير . والذين يصرون على أن فردريك كان لا يقوم بأى عمل إلا وهو مدفوع بمصالح الدولة يرون أن الرجل كان يقصد بذلك إلهام دول أوروبا أن الدولة التى تقدر على الكماليات فى الوقت الذى كانت فيه دول أوروبا من حولها تعاني من قلة المال اللازم للضروريات ينبغي أن تكون قادرة مهانة لانتخبي أى عدوان .

#### الزراعة .

كان هم فردريك فى مجال الزراعة منصبا على العمل على ريادة الأيدي العاملة تنمية للمحاصيل وتجنب الدلائل خطر المجاعات . لذلك استمر فى سياسة العمل على استخدام الأجانب للقيام بشئ الأعمال من استصلاح للأراضى ، وبناء المساكن . وزاد عددهم حتى قيل فى نهاية عهده ان حوالى خمس أو سدس السكان من رعاياه كانوا من المهاجرين أو من سلالة المهاجرين ، وقد سدد إليهم ترقية الصناعة لما تميزوا به من معرفة وتفوق على البروسيين ، وفى سبيل الخصموى على ما يلزم قواته من الطعام

سلك الملك كما الطرق في سبيل توسيع رقعة الأراضي سررعة ، والاستزادة من إخصابها ، كما أمر الإكثار من زراعة الغابات ، هاصدو مرسومياً يقضى بالابتراك مكان دون زرع إذا كان من الممكن زراعة شجرة واحدة فيه . ولم يعوق من جهود الملك الجبارة في سبيل الاستزادة من رقعة الأراضي الزراعية إلا حذب الأرض وطبيعتها غير الخصبة . ولكنه مع ذلك نجح في تحويل كثير من أراضيها الرملية إلى مراعى ناجحة . وكان يفخر بكونه الزارع الأول في بروسيا حتى يشجع هذه الحركة . كما شجع رعاياه على الإنتاج المحلى وبمجرد ظهور النجاح في صناعة بعض الآلات أمر بمنع استيرادها منعاً باتاً ، وجوزى فردريك على ذلك عندما استطاعت بروسيا أن تورد تلك الصناعات للخارج وتحصل في مقابلها على الذهب والفضة .

وقد حاول فردريك أن يؤمن مركز الفلاح ، فنجح في الحلولة بين النبلاء وشراء الأرض ممن هم دونهم مركزاً . كما أقام حوالى ثلاثمائة قرية جديدة عن طريق تقسيم بعض الضياع الواسعة النائية . كان فردريك مستثيراً بكره مبدأ الاسترقاق ومع ذلك فإنه أبقى عليه ، وحاول التخفيف من حدته بتحسين حالة رقيق الأرض من الفلاحين ، فجعل هؤلاء الفلاحين المرابطين بالأرض أجراً معيها .

### الصناعة :

أما في ميدان الصناعة فقد جاهد كثيراً في سبيل تشجيع الصناعات القائمة وتحسينها وإدخال أخرى جديدة ، فأمدّها بالمعونات المألوبة من خزائن الدولة وعمل على حمايتها من المنافسة الخارجية بما فرضه من تعريفات مرتفعة على الصادرات المنافسة لها ، وقد اتضحت جهود فردريك في الميدان الصناعى وخاصة فيما يتعلق بتقديم صناعة الصبى في برلين . وقد أفادت القوات البروسية المحتلة لسكسونيا من تقدم هذه الصناعة في « درسدن » Dresden ، فأقام فردريك صناعة مماثلة في برلين : ولم يأل جهداً في إمدادها بكل ما تحتاج إليه من الآلات الأوروبية ، وأخذ يشجع الإقبال على اقتناء الأواني الصينية واستخدامها بدل الأواني الذهبية والفضية . وشجع الصناعات الأخرى حتى يعنى بلاده عن الإستيراد من الخارج ، فتقدمت صناعات الحرير والتيل ، وصناعة السفن والتعدين والتفغ ، وقد أراد أن يجعل منه سلعة منافسة لتفغ فرجينيا المشهور .

### علاقة فردريك بالدول الأوروبية بعد صلح Hubertsburg ١٧٦٣ :

خاض فردريك غمار تحريين شاقين حصل في نهايتهما على سيليزيا، ولكن أهم من ذلك المكاة التي وصل إليها فردريك في عالم السياسة والحرب . ومع ذلك فقد ظل فردريك حتى نهاية حياته يعتقد أن النمسا لازالت عدوه الأكبر . فهذا جوزيف الثانى أكبر أبناء ماريا تريزا يصحح إمبراطوراً لها في ١٧٦٥ . وكان يريد الانتقام من فردريك الثانى وكشف عن ذلك عيون رجال فردريك المبشرين في كل مكان ، فأخذ منذ عام ١٧٦٣ يسعى إلى محالفة روسيا . ولكن أطماع الروسيا في بولندا كانت تتعارض مع أطماعه . كما كان للنمسا أطماع في بولندا مما يجعلها تعادى الروسيا وكانت أطماع الروسيا في الأملاك العثمانية تزيد العداء بين الروسيا والنمسا .

أما كاترين فلانه عندما مات جاراها بطرس ملك سكسونيا في ١٧٦٣ أخذت تبحث عن حلفاء فلم تجد من فرنسا ولا النمسا أى استعداد ، وكانت تحشى اتحاد بروسيا مع الأتراك ضدها . وفي عام ١٧٦٤ تعهد فردريك الثانى بمساعدة كاترين في الإبقاء على الفوضى الدستورية القائمة في كل من بولندا والسويد لو حصل في مقابل ذلك على تأييد الروسيا في الحصول على سيليزيا . وفي النهاية عن طريق القوة والرشوة أصبح « ستانيسلاس بونيا توفسكى » Stanislas Poniatowski ملكا على بولندا في سبتمبر ١٨٦٤ .

في ١٧٦٩ عرض فردريك على روسيا أمرا اقتسام جزء من بولندا بين الدول الثلاث بروسيا وروسيا والنمسا . ولكن الروسيا لم تكن ترحب بذلك لأنها ترفض كل اتساع بروسى نحو الشرق . كما أن النمسا كانت تحشى ازدياد قوة بروسيا إذا آلت إليها بعض الأملاك البولندية . ومع ذلك فقد تعلب فردريك في النهاية وأقنع الروسيا في يناير ١٧٧٢ بذلك التقسيم ، كما رضخت النمسا لذلك بعد مضي ثمانية أشهر . وفي أغسطس ١٧٧٢ وقعت معاهدة التقسيم ، وقد ساعد على تحقيق ذلك أن قوى بولندا كانت قد خارت تماماً ، بسبب تلك الفوضى التي حافظت على بقائها كل من روسيا وبروسيا في بولندا . فصمت بروسيا الأراضي البولندية الواقعة بين نهري « الدنيبر » Dnieper و « دينا » Dwina . أما بروسيا فصمت بروسيا البولندية وحصلت النمسا على غالبية « غاليسيا » Galicia وهي أخصى الأقاليم وأكثرها سكاناً .



ومرحات تقسيم ذلك الجزء من بولندا دون أى اعتراض من سائر الدول الأوروبية ذلك لأن الضمير العالمى لم يكن قد نما بعد ، كما كانت إنجلترا مشغولة بمشا كلها فى أمريكا وفى الداخل ، أما فرنسا فكانت قد فقدت شوازيل وقد أصابها الإفلاس ، وفقدت بذلك بولندا أربعة ملايين من سكانها و ٢٥,٠٠٠ ميل مربع من مساحتها . وقد قامت بروسيا بالدور الأكبر فى حركة التقسيم . وهكذا نجح فردريك الثانى فى الحصول على سيليزيا وذلك الجزء من بولندا لبروسيا . ونهض بها تلك النهضة العظيمة .





## الفصل الثامن

### أهم معبذات القرن الثامن عشر فى تاريخ انجلترا الداخلى

أول هذه المبرات هى اعتلاء أسرة هانوفر عرش انجلترا فى عام ١٧١٤ التى سارت فى مياستها على هدى نتائج ثورة عام ١٦٨٨ أى وفق قانون الحقوق (١) واحترام حقوق البرلمان وقد ساعدت ظروف هذه الأسرة على تطور نظام الحكم الداخلى فى انجلترا ، فتكون نظام مجلس الوزراء ، وظهرت وظيفة رئيس الوزراء ، وتكون ما يعرف بالمسئولية الوراوية .

بلعت أسرة هانوفر عرش انجلترا عقب موت الملكة «آن» Anne أخت ماري وزوجة ولیم الثالث ، وكان ذلك وفقاً للاتفاق الذى أرم قبل توليتها إدا اعتبر الوارث الشرعى لها ابن الأميرة صوفية زوجة نائب هانوفر وحبيدة جيمس الأول . وهو الذى عرف باسم جورج الأول الذى حكم من ١٧١٤ - ١٧٢٧ ، وخلقه ابنه جورج الثانى فحكم من ١٧٢٧ - ١٧٦٠ . وقد ارداد نعوذ مجلس العموم فى عهد الملكين الأول من هذه الأسرة ، وتم ذلك نتيجة لظروفهما .

نهضة الحياة البرلمانية :

بدأ أعضاء مجلس العموم حياتهم النيابية بداية متواضعة ، فكان عملهم قاصراً على تقديم الالتماسات الخاصة بإحداث بعض التغييرات فى صالح الأمة ولكن فى القرن الرابع عشر بدأوا يكتسبون حق تشريع القوانين . فاستطاعوا أثناء حرب المائة عام أن يكتسبوا حق التشريع والسيطرة على الضرائب ، ذلك لأن الحاجة إلى المال جعلت الملوك يعتمدون على تأييد البرلمان إياهم فى الحصول عليه ثم توقف البرلمان عن القيام بدوره فى السياسة القومية أثناء حرب الوردتين (١٤٥٥ - ١٤٨٥) . ولكن عندما وضعت الحرب أوزارها استأنف البرلمان فى عهد هري السابع دوره ، وظلت المسائل المالية هى الغالبة فى اختصاصاته ، فكانت اجتماعات البرلمان القليلة خلال عهد هري السابع لأغراض مالية .

وإذا كان هنرى السابع قد اعتاد أن يستشير البرلمان فى مسائل الحرب ، فقد كان ذلك التماساً لموافقته على ماتقنضيه هذه الحروب من نفقات . وقع مثل ذلك فى عهد هنرى الثامن ، فاستعان بالبرلمان فى إحداث تلك التغييرات الجوهرية فى الحياة المدنية فى إنجلترا . على أن البرلمان لم يقم بدوره فى السياسة الخارجية عندما كانت هناك وسائل للحصول على المال دون الالتجاء إلى البرلمان .

واستطاع البرلمان أن يعارض سياسة الملوك عندما كانت تتعارض مع مصالح الشعب ، ومن ذلك ما حدث فى عهد الزابث عندما أعلنت سياسة الاحتكار فى بعض مرافق الدولة . وانتصر البرلمان عندما أعلنت الزابث امتثالها لرأى أعضائه فوافقت على إلغاء سياسة الاحتكار .

وزاد نفوذ مجلس العموم بصفة خاصة والبرلمان بصفة عامة عندما انعقدت جلسات البرلمان الطويل من ١٦٤٠ — ١٦٥٣ فأكد اختصاصاته وحقوقه ، وزاد منها بفضل ظهور بعض الزعماء البرلمانيين المدافعين عن حقوقه أمثال « همبدن » Hampden و « ويم » Pym (١) . وهكذا كان الصراع بين البرلمان والملكية فى عهد شارل الأول ١٦٢٥ : ١٦٤٩ أثره فى تدعيم حقوق الشعب ومركز البرلمان فى الحكم . وإذا كان نشاط البرلمان قد توقف عندما إلغاء كرمويل فى عام ١٦٥٣ ، فإنه لم يلبث حتى عاد مدعماً بعودة ملكية استيوارت فى عام ١٦٦١ .

لقد صدق القول بأن عودة الملكية Restoration كان فيها استعادة للبرلمان أكثر من استعادة للملكية نفسها ، ومعنى ذلك أن الملكية فى الظاهر قد عادت إلى ما كانت عليه . إلا أن مركز القوة ومصدرها تغير عما كان عليه . فالحرب الأهلية قد قلبت أوضاع العلاقة بين « هوايتهل » Whitehall أو الوزارة و « وستمنستر » Westminster أى البرلمان ، ذلك لأن البرلمان هو الذى دعا الملك شارل الثانى فى ١٦٦٠ ليتبوأ عرش إنجلترا بينما جرت العادة أن الملك هو الذى كان يدعو البرلمان إلى الاعتقاد . أصبح أعضاء البرلمان فى مركز القوة ، يعبرون عن آرائهم بكل صراحة ، فكثيراً ما كانوا يهاجمون أتباع الملك فى البرلمان . وقد تبين عندئذ أنه من الممكن إخضاع الملك لرغبة النواب إذا حرم من تلك القوة المسلحة التى كان يستخدمها من قبل لمقاومة رغبة البرلمان ونفوده

وقد ظهر انتصار البرلمان بخاصة عند عودة الملكية إلى التمسك بعدم فرض ضريبة وتقريرها دون موافقة أعضائه . فلم تعد هناك قروض إجبارية أو محاولات للحصول على المال دون استشارة البرلمان . وكان في تصرف البرلمان كما ذكرنا هدم للاستبداد ولكن كانت تنقصه المراقبة الفعالة على سياسة الدولة ، فتلك الخطوة لم تتم إلا في خلال المائة وخمسين عاماً التالية

لقد كان في الثورة الإنجليزية ١٦٨٨ - ١٦٨٩ تدعيم للملكية وكذلك تقوية للبرلمان عندما أصبحت الملكية مدينة للبرلمان بمركزها ، ولما كانت مصطرة إلى الالتحاء إليه للحصول على المساعدات المالية وعلى قواتها الحربية رادت تبعيتها للبرلمان .

أظهر كل من « ماري » و « وليم » William و « آن » Anne اعتماداً زائداً على تأييد البرلمان ، ومع ذلك فلا يمكننا أن نقول أن البرلمان كان يحاسبهم أو يراقبهم في اختيارهم للوزراء . وكل ما هنالك أنهم كانوا يراعون شعور البرلمان في ذلك مجلس العموم . وهكذا أصبح الطريق معداً لنمو المسؤولية الوزارية ، التي بدأت تظهر بعد اعتلاء جورج الأول عرش إنجلترا . وقد تم نموها في عهد الملكة فيكتوريا .

ونجح البرلمان في القرن الثامن عشر في الوصول إلى طريقة تجعله يفرض رقابة دائمة على السياسة ، كما نجح في الوصول إلى طريقة تمكنه من التخلص من العناصر التي لا تروقه في الحكومة دون الإلتجاء إلى القوة ، تلك هي طريقة المسؤولية الوزارية ، وتتلخص في أن يقوم بأعناء الحكومة وزراء يعتمدون على تأييد غالبية مجلس العموم ، ويمكن تغييرهم دون الإلتجاء إلى قلب النظام الدستوري القائم ، وكان هذا النظام يتوقف نجاحه على عدة عوامل أهمها تأسيس مجلس العموم الذي ازداد نفوذه في عهد الملكين الأولين من أسرة هانوفر نتيجة لظروف هذه الأسرة .

أراد مجلس العموم عندئذ أن يوجه تهمة الخيانة العظمى Impeachment «لوالبول» Walpole ، ولكن لم يلبث أن تبين للأعضاء أن الخطأ لم يكن خطأ شخصياً . وعلى أي حال . فقد نال العقاب الذي يستحقه عندما اضطرت إلى الاستقالة بسبب ما ارتكبه من خطأ . وهنا يجب أن نشير إلى الحقيقة التالية وهي أنه عندما استقال « والبول » لم يستقل سائر الوزراء كما هو متبع الآن ، وذلك لأن المسؤولية الجماعية للوزارة لم

تتكون دفعة واحدة خلال هذا القرن ، ولم يحدث أن تغركل أعضاء الوزارة لإلا في حالتين عند اعتلاء جورج الأول العرش في عام ١٧١٤ ، وفي عام ١٦٨٢ أصبح مبدأ الاعتماد على تأييد مجلس العموم ضرورياً في بناء الوزارة وضماناً لبقائها ، اعترف به « والبول » Walpole في بادىء الأمر ، واحتفظ به فيما بعد عندما رفض جورج الثانى أن يعين « وليم بت » Pitt وزيراً للحربية عام ١٧٤٦ ، بعد أن استقال « بلام » Pelham وزملاؤه ، فحاول الملك أن يكون وزارة جديدة ، ولما لم ينجح في الحصول على تأييد مجلس العموم اضطر إلى استدعاء الوزارة القديمة وقد وقع حادث مماثل في عام ١٧٥٧ عندما حاول الملك أن يتخلص من « بت » Pitt فطرده من وظيفته ، ثم اضطر إلى أن يعيده لما كان يتمتع به من تأييد مجلس العموم ولأن الشعب كله كان شديد التعلق به ، وقد ظهرت آثار ذلك في الصحف التى أطلقت عليه لقب « المواطن الحقيقى » The True Patriot فأخذت تنادى بعودته في إلحاح .

خدم « والدول » بلاده بما قدم لها من أعمال حليلة بناها على ما أحدث من تعبيرات دستورية فعن طريق تطهير مجلس الوزراء من جميع الرملاء الذين كانوا لا يتفقون مع سياسته . ولا يخضعون لرئاسته ، وضع نظاماً جديداً سارت عليه بريطانيا منذ ذلك التاريخ أيام السلم والحرب ، فكان نظام مجلس الوزراء الوسيلة التى أهلتهم إلى هيئة تنفيذية مسئولة على الرغم من الحقيقة التالية وهى أن الهيئة التنفيذية كانت خاضعة لإرادة مجلس العموم المكون من حوالى خمائة أو ستائة شخص .

ويتبين لنا مما تقدم أن مجلس الوزراء أصبح الصلة التى تربط بين الهيئتين التنفيذية والتشريعية ، وإنها لصلة وثيقة للغاية . لقد كان الانجلترا في ذلك العهد سياسيين عمليين أكثر منهم أصحاب نظريات سياسية . وقد أخطأ الفيلسوف الفرنسى العظيم « منتسكيو » Montesquieu عندما أعلن للعالم — في كتابه « روح القوانين » الذى نشره عام ١٧٤٨ — أن السر في الحرية البريطانية إنما يوجد في الفصل بين السلطتين التنفيذية والتشريعية ، وقد نتج عن ذلك الخطأ الذى وقع فيه منتسكيو أن وضع دستور الولايات المتحدة على أساس الفصل التام بين الهيئتين التشريعية والتنفيذية وكذلك أن مشرعى دساتير الثورة الفرنسية الأوائل قد نهجوا

هذا المنهج ، ففصلوا بين السلطتين فصلاً تاماً مما ترتب عليه استمرار الصدام بين الهيئتين وحلوث الانقلاب تلو الآخر بسبب ذلك مما جعل السنوات العشر الأولى من عهد الثورة الفرنسية تتميز بذلك التغيير المستمر في نظم الحكم .

وتعرف المدة بين عامى ١٧١٤ - ١٧٦٠ بعهد سيطرة أقلية من حزب « الهويج » Whig على سياسة إنجلترا في عهد جورج الأول والثاني إذ استأثرت بالسلطات حوالى سبعين أسرة عظيمة من « الهويج » ، على أساس الاحتفاظ بتأييد مجلس العموم لها . فكان رؤساء هذه الأسر التى تنتمى لحزب « الهويج » يوجدون في مجلس اللوردات بينما كان أبناؤهم وأفراد أسراهم الحديثو السن يوجدون بين صفوف مجلس العموم - وقد استطاع اللوردات ( Peers ) أن يحافظوا على الثقة بمجلس العموم لأنهم لم يعارضوه على الاطلاق معارضة جديّة كما كان اللوردات ممثلين بطريقة غير رسمية ولكن فعالة في مجلس العموم ، وكذلك لم يكن لديهم أى اعتراض على زيادة سلطات ذاك المجلس ونفوذه . ولم يتنبه اللوردات إلى خطورة ذلك الأمر ، وإلى ضرورة تأكيد سلطات مجلسهم المباشر إلا خلال القرن التاسع عشر أثناء مناقشة قانون الإصلاح ١٨٣٢ وبعد صدوره . وحاء هذا الأمر متأخراً ، إذا اعتاد الانجليز في العهد الأخير على أن يحكمهم مجلس العزم عندما كان هيئة أرستقراطية وللذلك لم يكن من الممكن أن يتنازل هذا المجلس عن حقوقه لاسيما وأنه قد أصبح عندئذ أكثر تمثيلاً للأمة على وجه العموم ، وهنا يجب أن نذكر أن الأقلية من « الهويج » التى سيطرت على رمام الأمور في إنجلترا خلال ذلك العهد أى حوالى نصف قرن لم تسلب بشؤون إنجلترا ، وإنما سارت وفق ما جاء في قانون الحقوق عام ١٦٨٩ الذى أثبت انتصار القانون وتفوقه على الهيئة التمييزية في إنجلترا ، فقد كان المواطن الإنجليزى يمتلك ضمانات عديدة تحميه من استبداد الحكومة ، كما كان يتمتع بقسط من الحرية كانت تعطيه عليه سائر شعوب أوروبا .

وقد تم لمجلس العموم الحصول على النصر النهائى في المدة بين عامى ١٧٦٠ و ١٨٣٢ ، ففي عهد جورج الثالث ، حاول ذلك الملك أن يعيد نفوذ الملكية وأن يحكم حكماً فردياً ( ١٧٧٠ - ١٧٨٢ ) Personal Rule . ولكنها كانت محاولة فاشلة كما سنرى ، فبدأ أولاً بتعيين من يوافقونه من الوزراء على هذه المبادئ ولا ننسى أنهم بدورهم كانوا يعتمدون في بقائهم على تأييد مجلس العموم ،

ومهم مربى الملك وأقرب الناس إليه تعيين زميلاً « أوليم بىث » ، فى إدارة الشؤون الخارجية لبريطانيا ، لأن إنجلترا فى ذلك العهد لم يكن لها وزير واحد للخارجية كما أصبح الأمر كذلك فيما بعد ، وإنما يقوم بمهام هذا المنصب الخطير وزيران يطلق على أحدهما Secretary of State of the Northern Department وزير الخارجية للشمال « وكان يشغله عندئذ « إيرل بيوت » ويطلق على الآخر وزير الخارجية للجنوب Secretary of State of the Southern Department وكان يشغله « ولیم بىث »

William Pitt

وبينما كان الأول يختص بالعلاقات بين إنجلترا ودول شرق أوروبا وهما لها ، كان الثانى - وهو أعلى مركزاً - يضطلع بمراعاة العلاقات بين إنجلترا والدول الغربية والجنوبية بها والمستعمرات ، وكان لذلك أعظم مركزاً وأهمية من الأول . ثم كانت استقالة « ولیم بىث » Pitt من الوزارة فى عام ١٧٦١ بسبب عدم تأييد بقية الوزراء له فى سياسته مما جعله يصر على الاستقالة : لأنه كما ذكر لا يستطيع أن يتحمل عواقب سياسة لم يخطها أو يوافق عليها على الأقل ، وأصبح « بيوت » Butte بذلك رئيساً للوزارة . وهذه كلها أمثلة تبين كيف استغل ملك إنجلترا مطلق حرية فى تعيين من يختار من الوزراء .

وفى عام ١٧٧٠ رأى « جورج الثالث » فى « لورد نورث » Lord North رئيساً للوزارة فى مقلوده القيام بواجباته كرئيس مشول عن أعمال الملك فى البرلمان وعلى الرغم من اعتراض « نورث » North فى عام ١٧٧٨ على استمرار إنجلترا فى حربها ضد المستعمرات لما فى ذلك من خراب لإنجلترا والمملكة ، فإنه لم يستقل ، وبقي فى منصبه حتى قوى حزب المعارضة بعد عام ١٧٨٢ ، واضطرت الوزارة كلها إلى الاستقالة . وهذه أول مرة استطاع فيها مجلس العموم أن يضطر الوزارة بأجمعها إلى الاستقالة لأنه لم يكن راضياً عن سياستها .

وبعد عقد الصلح عام ١٧٨٣ الذى منح المستعمرات الإنجليزية فى أمريكا الشمالية استقلالها ، أعلن مجلس العموم سحقه على الصباح ، فاضطر الملك إلى جعل وزرائه يستقبلون من مناصبهم ، وإلى إختيار وزارة جديدة لم يحتفظ فيها بأى وزير من الوزارة المستقيلة .

وفقد الملك كل سيطرة على الوزراء عام ١٨٢٩ عندما وافق بعد صراع طويل



على قانون تحرير الكاثوليك من جميع قوانين الاضطهاد التي فرضت عليهم عند مطلع القرن السابع عشر (١٦٠٥) . ويطلق على هذا القانون قانون تحرير الكاثوليك الرومان Emancipation of Roman Catholics ، لذلك كان من شأن قانون الإصلاح ، عام ١٨٣٢ Reform Bill القضاء على جميع الاحتمالات للتأثير على الانتخابات في صالح الملك . وهكذا تجتمعت السلطة في يد أعضاء مجلس العموم :

وكان القانون المشار إليه يرمي إلى تحقيق أغراض أربعة :

- ١ - توزيع المقاعد في البرلمان وفقاً للتغيرات التي طرأت على توزيع السكان نتيجة للانقلاب الصناعي وانتقال السكان إلى المناطق الصناعية .
- ٢ - التريادة في عدد الفرسان الممثلين لكل مقاطعة .
- ٢ - توسيع دائرة الانتخاب بالزيادة في عدد من لهم حق الانتخاب .
- ٤ - التقليل من نفقات الانتخابات .

لم يقض هذا القانون قضاء تاماً على مساوئ الانتخابات، ولكن كان له أثره في التقليل منها . وساهمت بعد ذلك قوانين عامي ١٨٨٤ و ١٨٨٥ في إصلاح مبدأ توزيع المقاعد ، وعملية الانتخاب بوجه عام . واستمر نظام الانتخاب على تلك الحال مدة ثلث لأمم القرن التالي تقريباً حتى صدر ما يعرف بقانون تمثيل الشعب The Representation People Act عام ١٩١٨ ، فألغى شرط الملكية في حق التقدم للانتخاب . وفتح للسيدات في سن الثلاثين حق الانتخاب ، ولم يلبث قانون ١٩٢٨ أن خفض سن من لمن حق الانتخاب من السيدات إلى ٢١ عاماً ، وصدر حديثاً في عام ١٩٤٨ قانون الشعب People Act وبمقتضاه أعيد توزيع المقاعد البرلمانية وفقاً للتغيرات التي طرأت على توزيع السكان .





## الفصل التاسع

### أسبانيا

من الممكن تقسيم حكومة أسبانيا بين منتصف القرن السابع عشر وغزو نابليون لها أى خلال حوالى قرن ونصف القرن إلى ثلاثة عهود :

**العهد الأول :** ويقع فى عهد الملك شارل الثانى ( ١٦٦٥ - ١٧٠٠ ) . وقد أثار مرضه الطويل وتوقع موته بين لحظة وأخرى دول أوروبا المهمة بالامبراطورية الأسبانية فى أوروبا وخارجها فيها وراء البحار ، فقامت بينها سلسلة من المفاوضات التى أظهرت حرص الدول على ألا يؤول هذا الإرث العريض إلى ملكية البوربون أو إلى أملاك الهابسبورج فى النمسا ، فبعد إلى الأخيرة امبراطورية شارل الخامس التى بسطت نفوذها على أوروبا خلال القرن السادس عشر ، وبالفعل فشلت محاولات الهابسبورج فى تحقيق هذا الغرض بسبب اصطدامها بأطماع اويس الرابع عشر ، وحرص الأسبان على عدم التفريط فى أملاكهم . وأكدت حرب الوراثة الأسبانية والمعاهدات التى تلتها الأخذ بمبدأ التقسيم وجعلت من فيليب الخامس حفيد لويس الرابع عشر ملكاً على أسبانيا وامبراطوريتها فيها وراء البحار ، ومن ثم بدأ فرع جديد لأسرة البوربون يحكم فى أسبانيا .

**أما العهد الثانى :** فيشتمل على عهد ملكى البوربون الأولين : فيليب الخامس ( ١٧٠٠ - ١٧٤٦ ) ، وفرديناند السادس ( ١٧٤٦ - ١٧٥٨ ) ، خلال هذين العهدين قامت محاولات لتطبيق نظام الملكية المستبدة المطلقة السلطان الموجودة فى فرنسا على أسبانيا وقد استعادت أسبانيا خلال هذا العهد مركزها الدولى كما توقف تدهور أحوالها الاقتصادية .

**ويبدأ العهد الثالث** باعتلاء شارل الثالث ( ١٧٥٨ - ١٧٨٨ ) عرش أسبانيا . حكم شارل قبل ذلك دوقاً على بارما Parma وفى عام ١٧٣٤ ملكاً على مملكة الصقليتين . وقد تأثر بأفكار الملكيات المستبدة المستنيرة : وفى بداية الحكم استعان ببعض الإيطاليين فى مناصب الدولة العليا ، كما استعان بعد ذلك بنخبة ممتازة من ( م ٢١ - تاريخ أوروبا الحديث ) .

الأسبان المخلصين وبمساعدهتهم أصلحت أحوال حكومة أسبانيا . على أن تلك الإصلاحات التي أدخلت على الإدارة والاقتصاد لم تكن كافية لعلاج حالة أسبانيا المضطربة ، فأثبتت الحرب بعد ذلك مدى سوء الحالة المالية مما أدى إلى انتهاء عهد الملك شارل الرابع بتنازله عن العرش عام ١٨٠٨ .

### نظام الحكم :

كان اهتمام أسرة البوربون أثناء حكمها لأسبانيا خلال القرن الثامن عشر يصب على تطبيق نظام الحكم الملكي المستبد السائد وقتئذ في فرنسا . وإذا بدا أن هذه المحاولة قد نجحت إلا أنها فشلت في الواقع ، فلم يكن ملوك أسبانيا البوربون بما فيهم شارل الثالث شخصيات مميّزة ، فلمع اسم وزيرين أليرونى و Alberoni و ريبيردا Ripperda في عهد فيليب الخامس الذى لم يكن يملك شخصية قوية تمكنه من الوقوف في وجه أطماع زوجة الزايبث فرنيز Elizabeth Farnese . على أن ضعف أسبانيا لم يتضح إلا عندما اضطرت أن تواجه تحديات نابليون وهي تحت سيطرة حظى الملكة Godoy حدودا أمير السلام وتنازل كل من شارل الرابع ووريثه فرديناند السابع عن العرش عام ١٨٠٨ ، ذلك مع العلم بأن سقوط هذه الأسرة كان واضحا عندما تولى شارل الرابع العرش عام ١٧٨٨

وكانت عوامل فشل هذا الحكم عديدة : فقد طرأ على أسبانيا انحلال اقتصادى خلال القرن السابق لاعتلاء هذه الأسرة الحكم فكان الشعب يئن من البطالة المستحكمة كما أخذت سلطة الملك في الضعف ، وأخذ النلاء في توسيع سلطانهم والكنيسة في العمل على ازدياد ثروتها ، وكان لسيل الحروب الخارجية منها والداخلية أثرها في فقدان الأراضي المخضعة وبقية الأملاك البرحنديّة . وتأثرت الأحوال الثقافية والاجتماعية بتدهور الأحوال الاقتصادية فزاد عدد النلاء بانضمام طائفة من نلاء للريف الجدد الذين بلغ عددهم في عام ١٧٨٧ حوالى ٥٠٠,٠٠٠ ، وقد أصبح الجميع يتمتعون بامتيازات تفوق تلك التي كانت لنلاء فرنسا . وكان ازديادهم للطبقات العاملة الكادحة واضحا ، بيبا كان غالبية الأسبان من الطبقات الفقيرة المعذمة .

أما المنطقة الوسطى الأسبانية فكانت تسيطر على الاحتكارات التجارية . وحاصة تجارة جزر الهند ومع ذلك فقد كانت أضعف من الطبقة الوسطى في فرنسا . وقد نقل مركز تجارة الهند من أشبيلية إلى قادش Cadix في عام ١٧١٧ وكانت تجارة أمريكا تستخدم الثغر كذلك . وفي عام ١٧٦٤ وبعدها اتخذت بعض الإجراءات للحد من

-٢٤٣-

احتكار قادش لتجارة أمريكا ؛ وعند موت الملك شارل الثالث أصبحت التجارة متاحة لكل الرعايا الأسبان وفي كل الشعوب الأسبانية . وفي النهاية ألغى المركز التجارى فى عام ١٧٩٠ بعد أن ظل ينظم التجارة مدة ٢٨٧ عاماً ، على أن ذلك التحرير جاء متأخراً ولذلك لم يكن له تأثير كبير على أسبانيا فلم يكن ممكناً انقاذ امبراطورية أسبانيا فى أمريكا .

أما فكرياً وثقافياً فإن أسبانيا كانت أكثر الدول مقاومة لانتشار آراء عصر الاستنارة بين ربوعها أو لربما كانت صالونات مدريد أقل جاذبية من صالونات باريس فى استقبال هذه الآراء الجديدة التحررية كما أنها ارتبطت بعمرنا فهى إذن آراء أجنبية على البلاد . وقد كانت سيطرة الكنيسة على أحوال الدولة من أهم العوامل التى عوقت انتشار هذه الآراء .

#### الكنيسة :

لم تقف موقف المدافع عن الكاثوليكية أمام الديانات الأخرى من إسلام ، وهودية ، وبروتستنتية : إذ حاربها جميعاً وأخضعها ، وعملت على تظهير شبه الجزيرة الأسبانية منها وقد كانت الملكية فى أسبانيا هى العائق الوحيد أمام انتشار الكنيسة بالسلطة المطلقة وكانت فرصة استقرار الأسرة الحديدة ( أسرة السوربون ) فى الحكم فى اسبانيا مرتبطة بمحاولة إبعاد الارتباط الوثيق بين التاجين الأسبانى والفرنسى . وقد عقد فيليب الخامس اتماقاً بابوياً مع البابا فى عام ١٧٥٣ فى صالح التاج . وطرد الجزويت فى عام ١٧٥٧ . وأصبحت محاكم التفتيش خاضعة لعص القيود ، فقلت أحكامها الخاصة بإحراق المارقين وانتهى الأمر بتحريرها تماماً كانت هذه الإجراءات ثورية . وعلى ذلك لم تلق ترحيباً فكان الأسبان فى أغليبتهم يتمسكون العودة إلى الأحكام القاسية القديمة . احتفظت الكنيسة بنفودها وثروتها . وفى عام ١٧٨٧ كان عدد رجال الدين فى أسبانيا ٢٠٠,٠٠٠ نسمة منهم ٦٢,٠٠٠ من الرهبان وحوالى ٣٣,٠٠٠ من الراهبات . وقد شاهد عصر شارل الرابع هجوماً على موقف الكنيسة ورجال الدين سبب موقعهم المعوق للتقدم وانتشار المعرفة . وقد أثبتت الأحداث التاريخية أن الكنيسة الأسبانية كانت أكثر اندماجاً فى المجتمع من الكنيسة الفرنسية كما أنها فى أسبانيا ساهمت فى مقاومة كل تغيير فى كافة الميادين .

#### الجيش والأسطول :

كان الهدف الاسمى الذى تسعى إليه الملكية المستندة فى أسبانيا القوة والسلطان لا الصالح العام . وإن أسبانيا التى قامت على الحرب ومجد السلاح كانت دولة متفوقة

في ميدان الحرب على أن الفترة الأخيرة من حرب الثلاثين عاماً قد شهدت نهاية هذا التفوق - ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى عدم اهتمام كافة ملوك أسبانيا خلال القرن الثامن عشر بعد فيليب الخامس بالأمور العسكرية . وقد تضاعف اهتمام فيليب الخامس بتلك الأمور بمجرد النهاية الباجحة لحرب الوراثة الأسبانية التي جعلت منه مؤسساً لحكم فرع أسرة البوربون في أسبانيا على الرغم من أن عصره قد عاصر سلسلة من الحروب المضنية التي انتهت بحرب الوراثة النمساوية ١٧٤٠-١٧٤٨ فأصرف الشعب عن المناصب العسكرية ، وفصلت الطبقات المتعلمة الانخراط في السلك الكنسي . أو القضاء في أو المدني . كما أن طبقة النبلاء في أسبانيا لم تكن حريصة على الاستئثار بالمناصب العسكرية كما كان الحال بالنسبة لنبلاء فرنسا ؛ ولذلك أصبح أكثر من نصف الصباط الأساد في الجزء المتأخر من القرن الثامن عشر من طبقة العامة . وفي عهد فرديناند السادس استمر السلام خلال الإحدى عشرة سنة الأخيرة من حكمه . وفي عهد شارل الثالث قامت عدة إصلاحات في الإدارة تناولت الجيش كذلك . وفي عام ١٨٠٣ قام حردوا Godoy بمحاولة أجنبية لصنع الجيش الأسباني بالصيغة الفرنسية ولكنه لم يكن يملك القوة ولا الإصرار اللذين يمكنهما من فرض مثل هذه الإصلاحات على أمة تقف حائلاً دون أحداث أي تغيير

كانت فرقة المشاة أهم فرق الجيش وأميرها ، وقد رودت مستودعات الأسلحة بأحدث الأسلحة وأحسنها وكانت هذه التحسينات التي استحدثت في الجزء الأخير من القرون الثامن عشر مستفعاة من النماذج الفرنسية ومهما يكن من إصلاحات في هذا الصدد فإنه لا يمكن أن نعتبر أسبانيا من الدول العظمى ذات الجيوش المتفوقة . وقد كان ضعف هذه القوى النتيجة الحتمية لمسيرة حردوا للناليون وعدم مقاومته .

أما بحراً فكان الأمر مختلفاً تماماً ذلك لأن أسبانيا لم تكن لتستطيع البقاء دون وجود قوة بحرية على أن هذه القوة قد تلاشت تقريباً في نهاية القرن السابع عشر . وعندما تولى فيليب الخامس حكمه في أسبانيا بدأ في العمل على إحياء قوة أسبانيا البحرية . فبدأت في عهد وريره ألبروني Alberoni حركة إحياء قوة أسبانيا البحرية ، ولكن فشل الحملة البحرية التي أرسلها إلى صقلية وهزيمة الأسطول الأسباني في موقعة كيب سارو Cape Passaro في عام ١٧١٨ حطمت تقريباً كل الجهود التي بذلت لإحياء البحرية الأسبانية .

ولكن في الأربعينيات من القرن الثامن عشر اتضح تفوق الأسطول الأسباني وبراعته في الحرب ضد إنجلترا ، ذلك لأن المشكلة بالنسبة لأسبانيا لم تكن في بناء السفن إذ كانت مزودة بعدد كبير منها وإنما كانت في تدريب الرجال على ارتياد البحار وقد بدأ بالفعل ذلك التدريب في عام ١٧٢٦ . ونجحت المحاولة في عام ١٧٣٧ رغم المعارضة الشديدة التي واجهت هذه التجربة .

وفي الخمسينيات من القرن ١٨ صعب الأسطول ؛ فشاهدت حرب السنوات السبع حقائق حمة في عرض البحار . وبذلت جهود جديدة لتقوية الأسطول ظهرت آثارها عند تدخل أسبانيا في حرب الاستقلال الأمريكية على الرغم من الحقائق التي نزلت بها . وفي نهاية عهد شارل الثالث نجحت أسبانيا في تقوية أسطولها مما مكّنه من مواجهة الحرب ضد فرنسا في عهد الثورة . وأخذت الدولة في بناء السفن بسرعة تفوق تكوين الرجال الصالحين لقيادتها وتدريبهم على خوض غمار المواقع البحرية مما أدى إلى الحقائق الفادحة التي برلت بالأسطول الأسباني . أثناء مساندتها لفرنسا ضد إنجلترا بين عامي ١٧٩٦ . ١٨٠٢ ثم بعد ذلك في موقعة الطرف الأغر Trafalgar في عام ١٨٠٥ .

#### الضرائب .

كان عبء الضرائب ثقيلًا على جميع الطبقات ، فلم يكن مبعث ذلك أنه قام على أسس غير عادلة إذ لم يعف النبلاء ولا رجال الدين من الضرائب كما كانت الضرائب ثقيلة بوجه خاص على أدوات الترف ووسائله . وبسبب صعوبة فرص صرية مباشرة على المجتمعات الزراعية فقد تم فرض بضع ضرائب غير مباشرة لسد احتياجات الدولة ، وزيد من عددها عندما ساءت أحوال أسبانيا الاقتصادية . وقد كان ملوك أسبانيا وبعض وزراءهم المخلصين يدركون عدم صلاحية ذلك النظام الضريبي ، فاقترح في عهد الملك فرديناند السادس إلغاء جميع هذه الضرائب الداخلية ، وفرض ضريبة واحدة على الغلال عند طحنها . وقد تخمس كل من «إسنادا» Ensenada و «باتينو» Batino للمشروع لأن كليهما ينتمى إلى الطبقة البرجوازية ، واستطاعا الحصول على موافقة البابا «بندكت الرابع عشر» Benedict IV على مساواة رجال الدين بالعلمانيين في تأدية الضريبة المقترحة حديثاً . وبدأ الاستعداد على قدم وساق لتنفيذ المشروع ؛ فاجتهد القائمون على تنظيم هذه الضريبة في جميع الإحصائيات المساعدة ، فبلغ عدد ما جمع منها مائة وخمسين مئلاً كما صدر أمر ملكي بتاريخ ١٧٤٩ بإلغاء كافة

الضرائب والاستعاضة عنها بضريبة واحدة . ولكن الأمر لم يند ، كما صدر مرسوم مماثل بصرية واحدة في قشتاله في عام ١٧٧٠ في عهد شارل الثالث ولكن عناصر المقاومة كانت قوية ففشل المرسوم مرة ثانية . وهكذا كانت مشروعات اصلاح تنظيم الضرائب تلقى مقاومة شديدة من الطبقات التي ستضار بهذا التغيير وكذلك من أفراد الطبقة الوسطى التي كانت تجد في تعدد المهام المالية القائمة وقتئذ مصدرأ ربحاً لإيجاد وظائف لأبنائهم .

كانت الضرائب متعددة . تفرض على المعنوم والنبيل والحل والزيت والصابون والشمع وغيرها من سلع الكماليات . وفي عام ١٧٨٥ اتجه التفكير نحو فرض ضريبة جديدة على الدخول وعلى الإيجارات ، وعلى الإنتاج الصناعي ، ولكن صعوبة التنفيذ أدت إلى صرف النظر عنها في عام ١٧٩٤ في نظير استحداث ضريبة مباشرة بغرض تسديد ديون الدولة .

وعملت المكوس والضرائب على الأصواف على سائر أنحاء المملكة فيما عدا نفار Navarre « وباسك » Basque وكانت الأخيرة تعتبر ولاياتها خارج نطاق الضرائب الأساسية

وكانت احتكارات الدولة الرئيسية هي الدخان والملح وقد كان الملح مرتفع الثمن . ولكنه كان أخف وطأة من ضريبة الملح في فرنسا « لاجابل » La Gabelle إذ لم يكن هناك تحديد لكمية الملح التي يستهلكها الفرد ، كما أنه لم تكن هناك أى إعفاءات من الضريبة وقد بدت للحكومة الأسبانية فكرة احتكار كافة أوراق الكتابة المستعملة في الإجراءات القانونية مما فيها أعمال المجالس الكنسية ، ومحاكم التفتيش ، فبدأ تطبيقها منذ عام ١٦٣٦ ، كما احتكرت الملكية بطاقات الميسر (كروت الميسر) على أن ذلك النظام الضرائبي لم يطبق بدرجة واحدة في كافة الولايات الأسبانية فلم تكن أرغونة Aragon تخضع له كما كانت قشتالة Caetille ، وفي كتالونيا Catalonia حيث اشتهرت صناعة الأقمشة فرضت ضريبة على كل قطعة قماش فختمت كل منها بخاتم جابي الضريبة .

وقد ألغاه شارل الثالث مقابل فرض ضريبة عامة مباشرة على الأقمشة . أما مقاطعتا « نفار » Navarre « وباسك » Basque فقد كانتا تنفردان بنظام ضريبي خاص يختلف تماماً عن سائر أنحاء أسبانيا .



ونحنم هذا المختصر بالإشارة إلى أن مصدر ضعف الحكومة الأسبانية المركزية والمحلية على حد سواء كان يكمن في توزيع قواها في مسائل شتى وتشتيت جهودها في مختلف الميادين ؛ إذ كانت أطاعها تفوق بكثير الوسائل التي كانت لديها .

أما فيما يتعلق باقتصاد الدولة والصورة واضحة ، لم تكن أسبانيا دولة فقيرة . ولكن ثروتها لم تكن كافية لتحقيق أغراضها العديدة ، ولذلك يلاحظ افلاسها حتى في عهدها الذهبي والتفسير واضح إذا طالعنا الدخل والمنصرف في الأعوام ١٧٦٣ ، ١٧٨٧ ، ١٧٩٧ حيث يظهر التفاوت الكبير فيها وعجز الدخل عن سد احتياجات الدولة المتزايدة





## الفصل العاشر

### البرتغال

سار تاريخ البرتغال منذ حصولها على استقلالها في عام ١٦٤٠ إلى وقوع أحداث الثورة الفرنسية في عام ١٧٨٩ على نسق تاريخ أسبانيا جارتها وإن كانت فرنسا هي الدولة الملهمة في تقديم نوع الحكم الاستبدادي للبرتغال . وإذا كانت البرتغال قد ثارت على أسبانيا في عام ١٦٤٠ بعد حكم الأخيرة لها مدة ستين عاماً فإن البرتغال لم تنل استقلالها التام تحت حكم أسرة «بركانزا» Braganza إلا عام ١٦٦٨ بسبب الموقف الأوروبي ؛ آيته نجاح أسبانيا في إنهاء الارتباط بين فرنسا والبرتغال ، والصعب الذي اعتري أسبانيا في نهاية حكم فيليب الرابع (١٦٢١ - ١٦٦٥) . وعقد الصلح النهائي بين الطرفين في ١٣ فبراير عام ١٦٦٨ . فتم الاتفاق على إعادة العلاقات التجارية بين الدولتين إلى ما كانت عليه في عهد الملك ساستيان Sebastian ، وعلى استرداد كافة المواقع التي استولت عليها أسبانيا فيما عدا سبته Ceuta التي ظلت في يد أسبانيا .

### أحوال البرتغال الاقتصادية :

ولم يكن في استطاعة البرتغال أن تتمتع بممردها باستقلال تام . ففي عام ١٦٤١ كانت حدودها مفتوحة في وجه التجارة الخارجية . وفي عام ١٦٥٤ تنه أول مركز مويل إلى أهمية التحالف مع البرتغال اقتصادياً وعسكرياً ، فعمد معها معاهدة أصبحت أساس سيطرة إنجلترا على شئون البرتغال الاقتصادية . عندما نالت البرتغال استقلالها كانت أحوالها الزراعية متدهورة بسبب عدم وفرة الأيدي العاملة فحاول «ايريسيرا» Ericeira الوزير المسيطر على شئون البرتغال منذ عام ١٦٧٥ في عهد الوصاية على «بلدرو» Pedro الذي أصبح فيما بعد بلدرو الثاني - أن يعالج الحالة متعاً في ذلك المثل الذي اتبعه كولبير Colbert في فرنسا . ولكن لم يلبث أن توقف تطبيق هذا النظام بعد موت ايريسيرا في عام ١٦٩٠ . وبمقتضى معاهدة مثنوين Methuen التجارية

مع إنجلترا في عام ١٧٠٣ ضحت البرتغال بصناعة المسوحات البحرية في سبيل رواح تجارة النيزد ، وظلت أسواق البرتغال والبرازيل أسواقاً رائدة للسمع الانجليزية إلى نهاية القرن الثامن عشر كما ازدهرت تجارة البرتغال خلال ذلك القرن نتيجة لتدفق ذهب البرازيل .

ولا يفوتنا أن نذكر أن امبراطورية البرتغال الاستعمارية قد عانت كثيراً أثناء حضورها لأسبانيا وحاولت هولندا غزو البرازيل ولكن أحبطت المحاولة في عام ١٦٥٤ ومن ثم أصبحت البرازيل والمستعمرات الإفريقية مركز اهتمام البرتغال .

ولم تتحقق آمال البرتغال في أن يتصبح البرازيل مورداً أساسياً للثروة المعدنية مدة طويلة على الرغم من اكتشاف بعض المناجم بها خلال النصف الأول من القرن السابع عشر ، ولكنها في النصف الثاني من القرن السابع عشر بدلت تبشر بخير كثير عندما أحدث تمدد البرتغال بمحصول وافر من الذهب .

استعانت البرتغال بمجلس الكورتيز Cortes في عهد الأسرة الجديدة . فوفق في عهد الملك جون الرابع John IV على الضرائب الجديدة . ولم يلبث أن عقد مجلس الكورتيز أهميته في عهد الملك بدرو الثاني ، فلم يدع للاجتماع إلا ثلاث مرات فقط لتنظيم بعض الأمور التي تتعلق بمشاكل الوراثة . ولم يلبث المجلس أن اختفى تماماً بعد عام ١٦٩٧<sup>٩</sup> . ومنذ ذلك التاريخ حتى عام ١٨٢٠ غدت البرتغال مثالا من أمثلة الملكيات المستبدة الوراثة .

وأخذ ملك البرتغال جون الخامس (١٧٠٦ - ١٧٥٠) يستخدم أموال الدولة بسخاء في أغراض البناء متشبهاً بلويس الرابع عشر أيام عظمته وسقوطه .

وحذا حذوه خلفاؤه . لا يمكننا إذن أن نعزو الصعوبات المالية التي واجهته وواجهت خلفاءه إلى أسباب زيادة الإنفاق العسكري ، فقد حافظت البرتغال على السلام إثر انتهاء حرب الوراثة الأسبانية كما لم تذلل أى جهود وقتئذ لكي تجعل من جيشها جيشاً فعالاً ، لا عجب إذن أن أوضحت ظروف الحرب ضد أسبانيا في عام ١٧٦٢ ، ١٧٦٣ أثناء حرب السنوات السبع ، وضد فرنسا النائرة في عام ١٧٩٣ قصور استعداد البرتغال العسكرية .

وترجع الأسباب الرئيسية للصعوبات المالية التي واجهت الملكية في البرتغال إلى

جانب ما انتصفه ملوكها من اسراف إلى اختلال إدارتها المالية وما سادها من فساد .  
لم تلبث أن انتعشت الأحوال الاقتصادية بعض الشيء بعد عقد الصلح مع أسبانيا عام ١٧١٥ ، ويرجع ذلك إلى ارياد إيرادات الملك من البرازيل فأصبح يتقاضى حوالى خمس ايراداتها ، كما يرجع إلى تدفق الثروات الخاصة من البرازيل مما أدى إلى ارياد المقدره على دفع الضرائب المتزايدة دون حاجة إلى استحداث ضرائب جديدة ، مما كان له أثره فى الاستغناء عن مجلس الكورتيز . وفى عام ١٧٣٠ استقرت الأوضاع الاقتصادية بعض الشيء . ومع ذلك فإن حالة البرتغال الاقتصادية لم تكن خلال السنوات الأخيرة من حكم جون الخامس مزدهرة .

واستعادت البرتغال بعض نشاطها فى المجال الاقتصادى فى العهد التالى عهد الملك جوزيف الأول ( ١٧٥٠ - ١٧٧٧ ) بفضل جهود وزيره المخلص بومبال Pombal وهو ينتمى لأسرة من صغار النبلاء فى الريف ، المصدر الطبيعى لمد الملكة المستبدة بمعاونيتها . استطاع أن يحتل مكانه فى بلاط الملك مع سائر النبلاء وكانوا يسيطرون وقتئذ على مهام الدولة . وكثيراً ما يقترن اسم هذا الوزير بحركة الاستنارة ، على الرغم من أن محاكم التفتيش التى حدد من نشاطها قد ظلت قائمة وأن بومبال لم يتأثر بحركة الاقتصاديين ( الطبيعيين ) فى أوروبا ممن نادوا بتحرير التجارة ورفع الحواجز الجمركية ، وتأثرت بمبادئهم بعض دول أوروبا . ورغمما عن محاولاته البحث عن عوامل ضعف البرتغال أثناء دراسته لأحوال إنجلترا عندما كان سفيراً لبلاده فى لندن بين عامى ١٧٤٠ ، ١٧٤٤ فإن سياسته الاقتصادية لم تكن إلا محاولة جديدة لتطبيق وسائل كولبير .

على أن بومبال قام بإصلاحات عديدة منها أنه أعاد تنظيم مناجم البرازيل ، وتجارة الدخان والسكر ، وفى عام ١٧٧١ أخذ على عاتقه الاهتمام بتجارة الماس فى بلاده . وفى عام ١٧٥٦ منح المجلس الجديد للتجارة سلطات واسعة لتنظيم التجارة الخارجية والعمل على الحد من امتيازات التجار التجارىة ، وفشلت محاولاته فى الحد من تصدير المعادن النفيسة نظراً لشدة حاجة البرتغال إلى استيراد الحبوب ، وكان لافتقار المجتمع البرتغالى إلى طبقة متوسطة مثقفه أثره فى تعويق الكفاح فى سبيل إيجاد اقتصاد قوى ، فلم تنجح فى هذا السبيل فى جذب اهتمامات النبلاء ، وعوقت الخطط الطموحة لزيادة فرص التعليم . وزاد الموقف الاقتصادى سوءاً أن الدولة لم تكن

لتستطيع الاهتمام بمصانع الدولة ومصالحها التجارية التي أخذت في الزيادة في ظل هذا النظام . ومهما قيل عن حكمة بومبال وبعد نظره فيما قدمه من مشروعات اصلاحية ، فإن وسائله في سبيل ذلك كانت عنيفة وتعسفية بحيث أثارت ضده بعض الأسر العريقة . وعلى الرغم من الجهود التي بذلها في سبيل اصلاح ما دمره زلزال لشبونه في عام ١٧٥٥ لم ينجح بومبال في أن يكتسب شعبية ، فكان عليه أن يصارع من أجل الاحتفاظ بمركزه الذي كان يتوقف على رضى الملك ، وكان الأخير يحتاز بحمة التشاؤم من كل شيء بعد أحداث لشونة المفجعة ، كما كان واقعاً تحت سيطرة الجرويت ، وكانوا من ألد أعداء بومبال وخاصة بسبب كعناحه المرير ضد المكانة التي اكتسبها الجرويت داخل بعض أحرار الراريل حيث كانوا ، كما حدث بالقرب من براحوى Paraguay ، يمارسون حكماً سياسياً على مجموعات كبيرة من الهنود الخارجين على سلطان البرتغال

وأدى اكتشاف المؤامرة التي دبرت لاغتيال الملك وتورطت فيها عدة أسر من الأرستقراطية إلى اشتداد بومبال في معاقبة أعدائه من العلمانيين والدينيين ، فطرده الجزويت من البلاد في عام ١٧٥٩ ، وبعد اجراءات مماثلة آثم فيها الجزويت في فرنسا بعد آثمهم للسلطة الملكية ألغى نظامهم في عام ١٧٦٤ ، ولاقوا نفس المصير في أسبانيا عام ١٧٦٧ . وكان بومبال وإلى جانبه أسبانيا وفرنسا أول من اقترح على البابا إلغاء نظام الجرويت . وإذا كان البابا كلمنت الثالث عشر Clement XIII قد قاوم الفكرة فإن خليفته كلمنت الرابع عشر قد حل هذا النظام بصعته نهائية في عام ١٧٧٣ . قام بومبال بعد ذلك بسلسلة من الإحراءات لتحسين الأحوال الاقتصادية واستعادة البلاد لمركزها المالى . وفي عام ١٧٧٨ اقترح سن قانون حديد في هذا الصدد ، كما انشئت في عام ١٧٧٩ أكاديمية العلوم وبدا وقتئذ أى في القرن الثامن عشر تأثر البرتغال بالحركة الإنسانية .

وعلى الرغم من الجهود التي بذلها الوزير بومبال لتحسين أحوال البرتغال فإنه لم ينجح في تحقيق أغراضه جميعاً . بل ظلت مالية الدولة مضطربة فلم تسدد المرتبات ولا المعاشات لفترة طويلة كما لم تعد المستعمرات تمد البلاد بأى دخل بل كانت أحياناً على العكس من ذلك تستهلك بعض مصادر دخل الدولة . وهكذا لم تكن البرتغال مستعدة لمواجهة المشاكل السياسية التي واجهتها أثناء الثورة الفرنسية التي لم تلق ترحيباً من شعب البرتغال .

## طرد الجزويت :

ومما يجدر الإشارة إليه أنه من العوامل التي أدت إلى تحسين العلاقات بين لشبونة ، ومليد ، وباريس الجبهة الموحدة التي كونها الدول الثلاث في مواجحة نظام الجزويت في أسبانيا اتهم الجزويت بتحريض شعب مدريد على معارضة الإصلاحات التي أدخلها وزراء شارل الثالث . كما أقنعت الشائعات الملك بأن جماعة الجزويت كانوا وراء المخطط الذي انتشر بين أفراد المجتمع وكان يهدف إلى إثبات عدم أحقيته في عرش أسبانيا بحجة أنه ابن طبيعي تمهيداً لتولية أخيه لويس على العرش ، هم طرد عدد كبير من الجزويت فنقلتهم السفن إلى إيطاليا كما حدث في البرتغال . فهنا بومبال الملك شارل الثالث على ذلك المحاح الذي مكه من السحاة من خطر محقق .

كانت كل من البرتغال وأسبانيا وفرنسا في موقف مماثل بالنسبة لجماعة الجزويت فقد كان لويس الخامس عشر في عام ١٧٦٤ مقتنعاً بأن الجزويت كانوا يتآمرون على حياته وأنهم مدبرو حادثة داميان Damians لاغتياله مما أدى إلى طردهم من فرنسا في نوفمبر من نفس العام . وفي أسبانيا أثبتت التحقيقات مع الجزويت بأنهم كانوا يمولون بعض الثوار مما أدى إلى طردهم بمقتضى مرسوم في أبريل عام ١٧٦٧ وترتب على ذلك أن بومبال الوزير البرتغالي اقترح على الدول الثلاث أن تطلب من البابا تطهير المجتمع منهم . وقد رفض البابا كلمت الثالث عشر ولكن استجاب لخليفته لهذه الرغبة فتم وقف هذا النظام في عام ١٧٧٣ وكان لإداعة هذا الخبر في البرتغال في العام التالي أثره في إقامة الاحتفالات ومظاهر الانتهاج .

## أملاك البرتغال فيما وراء البحار في القرن السابع عشر :

تلاشت كل مصالح البرتغال التجارية في الشرق خلال سيطرة أسبانيا عليها مدة الستين عاماً ( ١٥٨٠ - ١٦٤٠ ) بسبب هجمات الهولنديين عليها عندما أغلقت البرتغال لشبونة في وجه تجارتهم مما دفعهم إلى المداورة بالاتصال بمصادر هذه التجارة في آسيا وإفريقيا والبرازيل وقد كانت سيادة البرتغال التجارية تتوقف على احتكارها لتجارة التوابل وخاصة جورة الطيب والقرنفل ولم يكن ذلك ممكناً دون حماية مصادر هذا الإنتاج من الدخلاء ، ودون أن تقضى على منافسة العرب التجارية في الخليج العربي . ونجحت هولندا خلال الربع الأول من القرن السابع عشر في إضعاف قوة

البرتغال البحرية فنجحوا في الوصول إلى جاوه ثلاث سنوات بعد طردهم من لشبونه ، واستولوا على بعض الجزر الهامة في المنطقة وأهمها حزر ملقا Malacca في عام ١٦٠٧ كما فقدت البرتغال ثغر هورمز Ormuz . وكان مركزاً هاماً اتخذت منه البرتغال ركيزة للقضاء على قوى المسلمين في المنطقة ، سقط هذا الثغر الهام في يد الشاه عباس بمساعدة سفن إنجلترا كما أخذت قوات عمان في طرد البرتغاليين من معاقلهم في هذه المنطقة حتى سقط آخرها مسقط Muscat في عام ١٦٥٠ .

وحاول الهولنديون دون حدود الاستيلاء على جزيرة موزمبيق في شرق أفريقيا في أعوام ١٦٠٤ ، ١٦٠٧ ، ١٦٠٨ . وكان لشل هذه المحاولات أن نعمت هذه المستعمرة بالسلام النسبي حتى نهاية ذلك القرن .

أما البرازيل فقد هاجمها قراصنة فرنساً وإنجلترا ومغامرو البحار في البلدين بعد استيلاء البرتغال عليها . وبدأ الهجوم عليها من جانب الهولنديين في عام ١٥٩٨ . ولكن هذه المحاولات المبكرة لم يكن لها نتائج ذات بال . ولكن بعد تكوينهم لشركة الهند الغربية في عام ١٦١٢ بثلاث سنوات أرسل الهولنديون أسطولاً لمهاجمة البرازيل ، ونجحوا في طرد البرتغاليين منها ، وطلبوا بها عاماً أرسلت على أثره لشبونه قوة جديدة فاستسلموا . ولكنهم هاجموا مرة أخرى عام ١٦٢٧ واستولوا على بعض المواقع . ونصبوا عليها الأمير موريس ناسو Maurico of Nassau ومن ثم أصبحت مستعمرة هولندية ، ولكن الجزء الجنوبي من البرازيل ظل في أيدي البرتغاليين ، ومنه أعيدت سيطرة البرتغال على الجزء الشمالي وهكذا أعيدت البرازيل كلها في عام ١٦٥٤ إلى أيدي البرتغاليين .





- ٢٥٥ -

## فهرس الموضوعات

٥	مقدمة الكتاب
١٦٢-٩	* الباب الأول : أوروبا فى القرن السادس عشر
١١	الفصل الأول : أوروبا الجديدة وأهم مميزاتها
٢٩	أهم مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية خلال القرن السادس عشر
٣٤	الفصل الثانى : الكشف الجغرافية وحركة الاستعمار
٤١	- الكشف الجغرافية البرتغالية
٤٥	- الكشف الأسبانية
٥١	- تكوين الامبراطورية الأسبانية
٥٤	- أهم النتائج التى ترتبت على حركة الكشف الجغرافية العظيمة
٦١	الفصل الثالث : عصر النهضة
٧٠	- النهضة فى إيطاليا
٨٧	- النهضة فى فرنسا
٩٥	- النهضة فى ألمانيا
٩٧	- النهضة فى إنجلترا
٩٩	الفصل الرابع : الحروب الإيطالية (١٤٩٤-١٥٥٩)
١٠٧	الفصل الخامس : حركة الإصلاح الدينى
١١٠	- حركة الإصلاح الدينى فى ألمانيا
١٢١	الفصل السادس : إنجلترا فى القرن السادس عشر
١٢٣	- حركة الإصلاح الدينى فى إنجلترا
١٣٣	الفصل السابع : عهد الملكة اليزابيث
١٤١	الفصل الثامن : انتعاش الكاثوليكية
١٤٩	الفصل التاسع : ثورة الأراضى المنخفضة
٢٦٣-١٦٣	* الباب الثانى : أوروبا فى القرن السابع عشر
١٦٧	الفصل الأول : هنرى الرابع مؤسس أسرة البوريون
	(١٥٩٤ - ١٦١٠)

١٧٩	الفصل الثانى : عصر الوزراء العظام
١٩٥	الفصل الثالث : عصر لويس الرابع عشر
٢١٥	الفصل الرابع : إنجلترا فى القرن السابع عشر فى عهد أسرة إستيوارت (١٦٠٣ - ١٧١٤)
٢٢٩	الفصل الخامس : عهد الجمهورية (١٦٤٩ - ١٦٥٣) والديكتاتورية (١٦٥٣ - ١٦٥٨)
٢٣٥	الفصل السادس : عودة الملكية إلى إنجلترا (١٦٦٠ - ١٦٨٨) والثورة العظمى (١٦٨٨ - ١٦٨٩)
٢٥١	الفصل السابع : حرب الثلاثين عاما
٢٥٤ - ٢٦٤	* الباب الثالث : القرن الثامن عشر فى أوروبا
٢٧١	الفصل الأول : استعراض أحداث المرحلة الأولى (١٧١٣ - ١٧٢٠)
٢٧٧	الفصل الثانى : المرحلة الثانية من العلاقات الدولية (١٧٢١ - ١٧٣٢)
٢٨٣	الفصل الثالث : المرحلة الثالثة من العلاقات الدولية حرب الوراثة البولندية (١٧٣٣ - ١٧٣٩)
٢٨٧	الفصل الرابع : المرحلة الرابعة من العلاقات الدولية
٢٩٩	الفصل الخامس : المرحلة الخامسة وهى حرب السنوات السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣)
٣١٣	الفصل السادس : الملكية المستبدة المستتيرة فى روسيا فى القرن الثامن عشر
٣٢١	الفصل السابع : الملكية المستبدة المستتيرة فى بروسيا
٣٣٣	الفصل الثامن : أهم مميزات القرن الثامن عشر فى تاريخ إنجلترا الداخلى
٣٤١	الفصل التاسع : اسبانيا
٣٤٩	الفصل العاشر : البرتغال
٣٥٦ - ٣٥٥	الفهرس



